التراث الجغرافي الإسلامي

تصنيف : د. محمّد محمُود محمّدين



١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

الطبعة الثالثة

إعادة طبع

١٤١٨ - ١٩٩٨

١٤١٩ - ١٩٩٩

ص. ب. : ١٠٥٠
هاتف: ٤٧٧٧١٢١ ـ ٤٧٧١٩٥٢
الرياض ـ المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

«تقديم الكتاب»

إن التراث الجغرافي الذي خلفه السلف من المسلمين القدامى له سحره وجاذبيته فهو إلى جانب ثرائه العريض فريد في تنوّعه نبيل في غايته.

لسنا نعرف أن هناك تراثاً آخر مما خلفته الشعوب غير المسلمة يبزُّ هذا التراث في غزارة مادته أو تنوُّع المجالات التي طرق أبوابها.

وليست هناك غاية أنبل من الغاية التي هدف إليها وهي الرغبة في تحقيق التعارف بين الشعوب الإسلامية وتمكين الوحدة في أُمّة الإسلام.

ومؤلّف هذا الكتاب جغرافيّ عربيّ واسع الاطّلاع ممن تأثّروا بسحر هذا التراث وشغفوا به في غير حدود، ويشهد بذلك مؤلفه الجديد الذي نقدّمه للزملاء من محبّي الدراسات الجغرافية بعامة وعشاق التراث الجغرافي الإسلامي بخاصة وهو مؤلف أضاف به إلى ثراء التراث الجغرافي الإسلامي ثراءً جديداً.

وقد أُتيح للمؤلف أن يشارك في العديد من المؤتمرات والندوات التي عُقدت في السنوات الأخيرة حول التراث الجغرافي الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية وكانت له فيها جولات موفّقة تؤكد ارتباطه الوثيق ومعاصرته الفكرية لأسلافنا القدامى الذين خلّفوا لنا هذا التراث الحيّ من الدراسات والبحوث الجغرافية.

والكتاب الذي نقدّمه للقرّاء هو خلاصة للخبرة الطويلة التي اكتسبها المؤلف في هذا الميدان. وهو في صورته التي رسمها وأخرجها ليس مجرّد إحياء أو ترديد لما خلّفه السلف في هذا الميدان الواسع بقدر ما هو عرضٌ وتقديم لإسهاماتهم الفكرية والثقافية وسبقهم في إرساء القواعد الأساسية الأولى للعلوم الجغرافية.

فتراه بعد أن يمهّد لدراسته بعرض عام لأثر الإسلام والفتوحات الإسلامية في إثراء الأدب الجغرافي الإسلامي يعرض في إسهاب ووضوح الآفاق الجغرافية الرحبة التي جال فيها الجغرافيون المسلمون على مدى العصور، ويشير بصفة خاصة إلى ميدان الجغرافيا الفلكية وإلى ما خلّفه الجغرافيون المسلمون فيها من مؤلفات وآراء على أساس أن الظاهرات الكونية قد تكرّرت الإشارة إليها كثيراً في القرآن الكريم.

ثم يعرّج بعد ذلك على ميدان الرحلات من أمثال رحلات الحجّ في كل عام، ورحلات ابن جبير وابن بطوطة على أساس أن هذه الرحلات كانت السبيل إلى تعارف الشعوب الإسلامية بعضها ببعض وتأكيد الوحدة في أمة الإسلام.

وقد عني المؤلف في كتابه عناية كبيرة بالمعاجم الجغرافية مشيراً بصفة خاصة إلى معجم ياقوت، وتقويم البلدان لأبي الفداء، ومعجم الروض المعطار في خبر الأقطار؛ وذلك على أساس أن الجغرافيين المسلمين قد سبقوا العالم أجمع في وضع هذه المعاجم وكان لهم فضل السبق.

وكان تصنيف المادة الجغرافية في كتب التراث من الموضوعات الرئيسية التي عالجها المؤلف وظفرت بالنصيب الأوفى من كتابه وقد أراد بذلك أن يؤكّد أن أسلافنا القدامى كانوا على دراية تامة بالآفاق المختلفة في ميدان المعرفة الجغرافية.

ففي ميدان الجغرافيا الطبيعية يوجّه الأنظار إلى ما دوّنوه في وصف ظاهرات سطح الأرض في بلاد العالم الإسلامي وتعليل وجودها مما يدخل في مجال جغرافية التضاريس والجيومورفولوجيا. كما يشير إلى ما كتبوه في وصف الظواهر المناخية وفي تقسيمهم العالم إلى أقاليم مناخية متباينة ثم إلى ما خلّفوه في مجال الجغرافيا الحيوية وفي جغرافية البحار والمحيطات.

وفي مجال الجغرافيا البشرية يشير المؤلف إلى ما تحفل به كتب التراث من دراسات ضافية ومتعمّقة عن الشعوب التي تعيش في بلاد العالم الإسلامية وعن حياتها مما يدخل في مجال الجغرافيا الإجتماعية.

كما يشير إلى ما تحويه هذه الكتب من موضوعات في جغرافية المدن والجغرافيا اللغوية والجغرافيا الدينية.

وفي ميدان الجغرافيا الاقتصادية يعرض علينا المؤلف الكثير مما خلّفه السلف في مجالات الجغرافيا الزراعية والصناعية والتجارية ويشير بصفة خاصة إلى جغرافية الطرُق التي تربط بلاد العالم الإِسلامي بعضها ببعض.

ولقد اهتمّ المؤلف بعرض أعظم ما خلّفه السلف في ميدان العلوم الجغرافية ذلك هو تراث الخرائط والمصوّرات الجغرافية، وهو تراث ضخم له سماته الخاصة التي تميّزه سواء في ذلك خرائط الأقاليم أم خرائط العالم المعمور آنئذٍ.

وبعد، فهذا كتاب جامع شامل أرجو أن يجد فيه هذا الجيل من أبناء العروبة مظهراً من أمجاد السلف كما أرجو أن ينتفع به الجغرافيون المعاصرون فيجدوا مما ورد فيه من مصطلحات جغرافية كان يرددها الجغرافيون القدامى ما يساعد على توحيد المصطلحات التي يستعملونها الآن والتي تتباين بتباين المصادر الأجنبية التي أخذوها عنها.

وكما كانت كتب التراث الجغرافي عاملاً ساعد فيما مضى على تعارف الشعوب الإِسلامية ومكّن الوحدة في أمّة الإِسلام فإنّا ندعو الله عزّ وجلّ أن يكون هذا الكتاب عاملاً يقرّب بين المصطلحات الجغرافية لدى الجغرافيين المعاصرين ويوحّد كلمتهم في هذا الميدان بما فيه من العلم والمعرفة والله وليّ التوفيق.

أ .د .محمد متولي موسى

الرياض ـ ١٠ رجب ١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة الطبعة الثالثة

حمداً لله الذي يسّرَ إعادة طبع كتاب «التراث الجغرافي الإسلامي»، بعد أن نفدت طبعتاه الأولى والثانية، مما يشير إلى أن الإقبال على هذا الكتاب كان جيّداً، ولم يكن ذلك لمكانة مصنف هذا الكتاب، بقدَر ما كان لموضوعه، ذلك أن الكتاب محاولة جادّة للتبصير بجانب مهمّ من جوانب تراثنا العلمي ألا وهو الفكر الجغرافي. وإسهامات أجدادنا في هذا المجال مشهود بها ولها، وما أظن أن جغرافيًّا مسلماً يخالجه مسٌّ من الشكّ في أهمية هذا الموضوع. إن الاهتمام بالتراث الإسلامي، آخذ في الازدياد، ويزداد عدد الباحثين فيه باستمرار، لا سيما وأن الجامعات الإسلامية أولتهُ اهتماماً كبيراً، فتسابقت في عقد الندوات والمؤتمرات العالمية لتلقي الضوء على المكانة التي بلغها المسلمون والدور الذي أسهموا به في إثراء كافة العلوم، ومن هذه المؤتمرات، الجديرة بالتنويه والإشادة، المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي نظّمته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بمدينة الرياض في شهر صفر، عام تسعة وتسعين وثلاثمائة وألف، والمؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسُنّة الذي عُقد في إسلام آباد بباكستان في الفترة من ٢٥- ٢٨ صفر سنة ١٤٠٨هـ، ولعلّ هذه المؤتمرات وتلك الندوات والبحوث تثير فينا حماساً يحفزنا لمزيد من العمل والبحث حتى نستردُّ مكانتنا التي يؤهّلنا لها ديننا وقِيَمُنا الإسلامية.

إن علم الجغرافيا هو أحد العلوم التي برعَ فيها المسلمون وأسهموا في مجالاتها إسهامات جليلة أشاد بها المستشرقون غير المسلمين، ومع ذلك، فإن هذا التراث ما زال مستهدفاً من أعداء الإسلام، ومن أتباع الثقافات المستوردة الذين تمّ إعدادهم ليكونوا أدوات بشرية في خدمة التغريب.

إن مهاجمة تراثنا ليست أمراً جديداً، فلقد اعتادت حضارتنا على مثل هذه القضايا، إذ إنه كلما وهن عصر من عصورها رماها الله بالجاحدين وأتباعهم الذين يسارعون بعزو هذا الوهن إلى التمسُّك بالتراث وباللغة العربية! ومهما كثُر هؤلاء وارتفع ضجيجهم فإنهم ذاهبون، كما ذهب الذين من قبلهم وسيبقى تراثنا الخالد وستبقى العربية وسيزيد انتشارها إن شاء الله.

إنه لمن سخرية القدَر، كما يقول أحد الباحثين، بشأن القضية المثارة هذه الأيام حول تعريب التعليم الجامعي والبحوث العلمية، إن مثل هذه القضية كانت مثارة في أوربا قبل عدّة قرون بصورة عكسية، فقد كانت كتب الطبّ العربية هي التي تدرس في الجامعات الأوربية، وارتفعت بعض الأصوات مطالبة بتدريسها بغير العربية، فكان هناك من العلماء الأوربيين من يعارض ذلك، ويرى أنه لا يمكن دراسة العلوم والرياضيات والفلك والطبّ إلا باللغة العربية لغة العلم!

ومما يندى له جبين الباحثين المسلمين المخلصين أن بعضاً قليلاً من علماء الجغرافيا العرب لا يلتفتون إلى هذا التراث الخالد، ويرون أن البحث فيه مضيعة للوقت، ويعتقدون أن كل ما يخالف الآراء الحديثة لا يستحق الالتفات إليه ولا السعي إلى الحفاظ عليه.

إن هذا الرأي باطل ويجانبه الصواب إذ إن الماضي أساس الحاضر، وما نسمّيه الآن خطأ، هو لبنة أو خطوة أساسية قادت إلى ما نحن عليه الآن.

إن مهاجمة التراث الجغرافي الإسلامي، هي إحدى الهجمات التي يتعرّض لها تراثنا الإسلامي بصفة عامة، تلك الهجمات التي لم تنقطع منذ قرون، إذ لا تزال هناك أصوات خافتة أحياناً وعالية أحياناً أخرى تهاجم تراثنا في عقر داره دون حياء، وما زلنا نقرأ بكل أسف بعض سطور مدسوسة في بعض المطبوعات التي تصدر في الأقطار الإسلامية، تتطاول على تراثنا وتدّعي أن الاهتمام بالتراث أثقلَ خطى تقدُّمنا وجعلَنا نتقدّم للخلف! وأننا إذا أردنا التقدُّم فعلينا أن نتّجه للأمام إلى المستقبل دون أن نلتفت إلى الوراء إلى التراث، ولا ينبغي لنا أن نتّجه للغد ووجوهنا مستديرة متجهة إلى الخلف لا تتحوّل عن الأمس والتغنّي به!

ويردّد هؤلاء، الذين يدَّعون التجديد، أن البحث عن ذاتنا لا يكون في بطون كتب التراث وأحشائها، تلك الكتب التي تاه الباحثون بها وفيها سنوات طوالاً، دون أن يهتدوا إلى هذه الذات المفقودة التي تلاشت ملامح تفوُّقها مع امتداد الزمان! ويتوهّم هؤلاء أن الرقيّ والتقدُّم لا يتحقّق إلا اقتداءً بالحضارة الأوربية وترسُّماً لخطاها.

ليس من شك في أن القفزة الحضارية العالمية التي أتاحت للإنسان أن يطىء بقدميه سطح القمر، قد بهرت ملايين البشر، وزادت استعدادهم للانجراف في تيّار التبعيّة الحضاريّة الغربيّة، وليس غريباً أن نسمع من يصف الاعتزاز بالتراث بأنه رجعية وتخلُّف، وأنه لا تطوُّر ولا تجديد إلا بمقدار الانفلات من قبضة التراث وأغلال سطور كتبه الصفراء.

ونحن نقول لأمثال هؤلاء المجدّدين إن الأمّة في غنى عنكم إذا كنتم ترون أن شرط التقدُّم والتجديد أن نتنكّر لتراثنا ونهجر شخصياتنا لنصبح أيتاماً بلا تراث ولا ذاكرة ولا هوية حضارية. ولحسن الحظ أن الذين يعرضون عن دراسة تراثهم الجغرافي قلّة، ومعظم هذه القلّة من الذين تعلّموا في جامعات أوربية لسنوات طويلة قلَّ اهتمامهم فيها باللغة العربية وبالتراث العربي، وبهرتهم الحضارة الأوربية المعاصرة فأصبحوا أسرى لثقافتها وصار ولاؤهم لمعهدهم الأوربي ولاء لا نظير له.

إننا، أيها المهاجمون لتراثنا، لا ننادي بأن ننعزل عن العالم، فالعلم لا وطن له، وتراثنا الإسلامي يحثُّنا على السعي إلى العلم أينما كان، وما زال حديث الرسول عليه الصلاة والسلام منهجاً لنا: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» ولكن الذي يؤلمنا هو أن نهمل تراثنا ولا نفيه حقُّه من العناية. إن تاريخ العلوم بأسره أخذٌ وعطاء. فما ابتدعته وابتكرته أمة أخذته أمم أخرى وأضافت عليه فتزداد المعارف إتقاناً وانتشاراً ويعمُّ نفعها سائر البلدان. ولقد ورث العرب شجرة المعرفة الجغرافية ذابلة الأغصان فأحيوها حتى نمت وأورقت، تلك الشجرة التي غُرِست بذورها في مصر وبلاد ما بين النهرين ثم انتقلت شجيرتها إلى اليونانيين والرومان ثم عادت للعرب ليتعهّدوها بعد أن حلّت عصور الظلام في أوربا.

لقد بدأنا، منذ بضعة عقود، نصحو من غفوة طويلة تخلّفنا أثناءها عن رَكب الحضارة بعد أن كنا نقود مسيرتها، واهتمامنا بتراثنا الجغرافي الإسلامي يتيح لنا التعرُّف على طاقاتنا وإمكاناتنا الفكرية، ويجعلنا نعتزُّ بتراث أجدادنا نستلهم منه العزم، ونستمدُّ منه الإصرار، ونفخر بما كان عليه الأجداد ونحرص على ما أضافوه من المعرفة وألوان الفكر، ونتعرّف على المسالك التي سلكوها والدروب التي ساروا عليها حتى حقّقوا ماحقّقوه. وقد تهدينا دراسة التراث إلى ما نُضيفه إلى الفكر الجغرافي المعاصر، ولنتذكر أن الأوربيين عندما أفاقوا من نومهم إبّان العصور الوسطى عمدوا إلى إحياء تراثهم وبعثوا الثقافة الإغريقية، واتّخذوا منها قاعدة الانطلاق لنهضتهم.

إن معظم الدراسات الجغرافية في العالم الإسلامي المعاصر تعيش على الترجمة وتسير في ركابها، والباحثون الجغرافيون المسلمون معظمهم يدينون بالولاء، وإن شئت، فقُل أسرى لمدارس جغرافية، إنجليزية أو أمريكيه أو فرنسية أو غيرها بحسب الأهواء والابتعاث، ولقد تردّد صدى ذلك الولاء في كتاباتهم الجغرافية، بحيث نجد تعبيرات وأسماء جغرافية متنوّعة لظاهرات جغرافية واحدة، ونتج عن ذلك كله انقسامات واختلافات في المصطلحات الجغرافية، الأمر الذي لا يتيح فكراً جغرافياً واحداً للأمة العربية على الأقل، ولا شكّ أن دراسة التراث الجغرافي يمكن أن تسهم إلى حدٍّ ما في حل هذه المشكلة.

ومن المؤسف حقاً ألاّ نجد مدرسة جغرافية إسلامية أو عربية بحيث تكون ذات اتجاه معيّن أو ملامح خاصة تميّزها عن سائر المدارس الجغرافية الغربية.

إن دراسة تراثنا الجغرافي الإسلامي قد تكون سبيلاً إلى مدرسة جغرافيّة إسلاميّة أو عربيّة تكون لها مكانتها بين مدارس الفكر الجغرافي المعاصر. ولئنّ تطاوَل بعض المستشرقين على تراثنا الجغرافي فقالوا إن العرب كان مجرّد نقلة، وليس بين تراثهم شيء من الإبداع والابتكار، فليس سوانا من يدافع عن تراثه ويُبصِر الناس بما أسهم به أجدادنا، ويبرز دورهم وفضلهم على المدنيّة الغربيّة،

لقد صان المسلمون بعض ما وقع في أيديهم من تراث أوربا وحفظوه، بينما تعرّض تراث المسلمين خلال العصور المختلفة للتدمير حرقاً وإلقاءً في مياه دجلة، وليتذكّر المستشرقون ما قام به مطران طليطلة الكردينال أكريمنيس سنة ١٤٩٩م. حين أمر بجمع الكتب والمخطوطات العربية في غرناطه (نحو ٨٠ ألف مجلّد) واحتفل بإحراقها في ساحات المدينة!

وفي ختام هذه المقدّمة أودُّ أن أُشير إلى أن هذه الطبعة الجديدة من هذا الكتاب تضمُّ بحوثاً اشتركتُ بها في ندوات ومؤتمرات دولية، ومقالات نُشرت في مجلات علميّة متخصّصة، آثرتُ أن يعمّ نفعها فأضفتها إلى ما يناسبها من موضوعات بين دفَّتَي هذا الكتاب.

وجديرٌ بالتنويه أن بعض موضوعات هذا الكتاب جديدة وتُعدُّ اجتهاداً شخصياً للمؤلّف، وبعضها الآخر محاولات لتصنيف الفكر الجغرافي لأجدادنا إلى ما يناسبه من فروع الجغرافيا المعاصرة. ولم يغفل هذا الكتاب عن ردّ فضل السبق إلى الجغرافيين المسلمين في كثير من النظريات الجغرافيّة، التي ينسبها بعض جغرافيينا إلى علماء الغرب جهلاً منهم بتراثنا.

وإني لآمل أن ينتفع طلابنا الذين يبتعثون في الخارج بما في هذا الكتاب حتى يتصدُّوا للردِّ على ما قد يصادفونه من بعض المستشرقين وعلماء الجغرافيا الغربيين الذين أخذ التعصُّب بزمام أفئدتهم فتطاولوا على تراثنا وحاولوا التقليل من قيمته.

وإني لأرجو أن أكون بما بذلت في إعداد هذه الطبعة الجديدة، قد بلغت ما يوافق ظن الذين ألحُّوا عليَّ في إعادة طبع الكتاب، ويضاهي ثقتهم بي لما هو مأمول مني... وآمل أن يحظى هذا الجهد المتواضع بقبول لدى المهتمّين بتراثنا الجغرافي.

وحسب المرء فخراً أن يشغل بعضاً من وقته في دراسة تراث أجداده أملاً في ظهور مدرسة جغرافيّة عربيّة أصيلة.

ولا يفوتني في ختام هذه المقدّمة أن أتقدّم بالشكر لكل من أسدى إليَّ نصيحة أو أهداني نقداً أو قدّم اقتراحاً أو عاضدَ فكرة الكتاب وآزرها، كما

أسأل المعذرة لما قد يقع من خطأ في هذا الكتاب سهواً أو غفلة والله أسأل التوفيق والسداد...

د .محمد محمود محمدين

الرياض، ١٤١٣هـ

الفصل الأول

مباحث عامة في التراث الجغرافي الإِسلامي

١ ـ الجغرافيا عند المسلمين مفهومها وإطارها.

٢ ـ مصادر دراسة التراث الجغرافي ومراجعه.

٣ ـ دور العرب وإسهامهم في الفكر الجغرافي.

٤ ـ أثر الإِسلام في إثراء الفكر الجغرافي.

٥ ـ الإِشارات الجغرافيّة في القرآن الكريم.

٦ ـ كراتشكوفسكي والأدب الجغرافي العربي في القرآن الكريم.

١ ـ الجغرافيا عند المسلمين
مفهومها وإطارها

أطلق العرب أسماء عديدة على جوانب الفكر الجغرافي منها: علم تقويم البلدان، علم المسالك والممالك، صورة الأرض، جغرافيا، صوَر الأقاليم، علم البرود (جمع بريد)، علم عجائب البلاد، علم البلدان، علم الأطوال والأعراض، علم الأنواء (المناخ)، وعلم الهيئة (جغرافيا فلكية). واستخدم الجغرافيون العرب لفظ (جغرافيا) للدلالة على كتاب بطليموس، وقد فُسِّرَت كلمة جغرافيا بأنها (قِطَع الأرض) واستُعملت لأول مرة بمعنى علم جغرافيا في رسائل إخوان الصفاء ولكنها فُسِّرت أيضاً بأنها «صورة الأرض».

وكان الجغرافيون المسلمون يقصدون أحياناً بلفظ «جغرافيا» خريطة الدنيا، كما جاء في الرسالة الرابعة من القسم الرياضي عند إخوان الصفاء حيث قالوا: الرسالة الرابعة في جغرافيا يعني صورة الأرض والأقاليم[١]. وقد ذكر ابن خلدون في مقدّمته «وصوّروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية»[٢].

وقد ذكر عصام الدين أبو الخير بن أحمد الشهير بطاش كبرى زاده في كتابه «مفتاح السعادة» أن علم الجغرافيا هو علم يتعرف منه أحوال الأقاليم السبعة في الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان وأطوالها وكذا عدد مدنها وجبالها وبحارها وأنهارها، وذكر علماً آخر هو علم خواص الأقاليم وهو علم يتعرف منه ما في كل إقليم أو بلد من المنافع والمضار والعجائب والغرائب.

وجاء في المعجم العربي اللاتيني المعروف بالفوكابوليستا Voccabulista الذي وضعه أحد الرهبان في القرن ١٣م ليستعين به

---

(١) رسائل إخوان الصفاء، دار بيروت، سنة ١٣٧٦هـ، جـ ١، ص ١٥٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ طبع، ص ٤٨.

المبشّرون لفظ «جعرافية» «بالعين المهملة» مرّتين، في ص ٨٠ وأمامه mapa أي خريطة، وفي ص ٤٦٩ «جعرفيه» وأمامه mapamundi أي خريطة الدنيا[١].

ويذكر ياقوت الحموي أنّ من قصد العمران من القدماء والفلاسفة والحكماء، ومنهم بطليموس، سمُّوا كتبهم في ذلك «جغرافيا» سمعت من يقوله بالعين المعجمة والمهملة، ومعناه: صورة الأرض[٢].

وأشار نلينو أن علماء العرب في العراق والشام ومصر في القرون الوسطى زعموا أن جغرافيا اسم من الأعلام الأعجمية فما عرّفوه أبداً بأداة تعريف ولا قيّدوه في كتب اللغة، وورد ذلك في كتاب «الدرّ المنتخب في تاريخ حلب» لمحمد بن الشحنه المطبوع في بيروت سنة ١٩٠٩م. (ص ١٦٢)[٣] وجاء في دائرة المعارف الإسلامية، أن كلمة جُغرافيا (ويُنطق بها أحياناً بفتح الجيم) لم تستعمل للدلالة على علم الجغرافيا إلا متأخراً. واستعمل الجغرافيون المسلمون هذه التسمية علماً على كتاب بطليموس المعروف في الجغرافيا، واستُعملت لأول مرة بمعنى علم الجغرافيا في رسائل إخوان الصفاء، ولكنها فُسِّرَت أيضاً في هذا الموضوع بأنها «صورة الأرض» وظلّ هذا المعنى شائعاً في العصور الوسطى، ولم يصبح لهذه الكلمة المعنى الذي نعرفه اليوم من علم الجغرافيا إلا في أزمنة حديثة[٤]. ولو تتبّعنا العناوين المختلفة التي اتّخذتها الكتب التي احتوت معارف جغرافية لاحتجنا إلى صفحات كثيرة.

---

(١) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ١٩٦٧، ص ٣٦٩.

(٢) معجم البلدان، ١/١١، طبعة دار صادر، بيروت سنة ١٩٥٥م.

(٣) كرلو نلينو، علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، طبعة روما سنة ١٩١١م، ص ٢٧٨.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة أحمد الشنشناوي / وآخرون، مراجعة محمد أحمد جاد المولى بك، بدأ نشرها في القاهرة منذ سنة ١٩٣٠م، مادة جغرافيا.

ولقد اخترنا لهذا الكتاب عنوان «التراث الجغرافي الإِسلامي» ونقصد بذلك تراث المسلمين الذين يقطنون العالم الإِسلامي، والذي كتب بلغة الإِسلام وهي اللغة العربية.

ورُبَّ قائلٍ يقول: ولـمَ لم نختر «التراث الجغرافي العربي»؟ فالجواب أننا لو اقتصرنا على المعرفة الجغرافية عند العرب لما وجدنا إلا القليل لقلّة من استهواه علم الجغرافيا من أولاد قحطان وعدنان. وقد أكّد هذه الحقيقة العلاّمة ابن خلدون وله فصلٌ في مقدمته «الخامس والثلاثون» تحت عنوان في أنّ حمَلَة العلم في الإِسلام أكثرهم العجم. يقول ابن خلدون:

«من الغريب الواقع أن حمَلَة العلم في الملّة الإِسلامية أكثرهم من العجم[1]». ويقصد بالعلم هنا العلوم الشرعية والعلوم العقلية.

إن كثيراً من الجغرافيين الأفذاذ ليسوا بعرب مثل: الخوارزمي، الاصطخري، ابن حوقل، ياقوت الحموي، البيروني وغيرهم. واقتصارنا على الجغرافيا عند العرب يُخرج كل هؤلاء من دائرة الدراسة ويجعلنا نقتصر على هشام الكلبي والمقدسي والمسعودي وأبي الفداء وغيرهم. وعلى الرغم من أننا سنتناول التراث الجغرافي الإِسلامي إلا أننا لن نتطرّق إلى ما صنّفه العلماء المسلمون بلغة غير عربيّة كالفارسيّة والتركيّة والهنديّة. وأحياناً يلجأُ بعض الباحثين إلى اختيار صفة العروبة لمثل هذه الدراسة نسبة إلى لغة الكتب لا الأمّة، كما فعل كل من كرلو نلينو في دراسته «علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى» وكراتشكوفسكي في مصنّفه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» حيث تناول كل منهما علمَي الفلك والجغرافيا عند المسلمين عامة معتمدين على ما كتب باللغة العربية.

٢ ـ مصادر دراسة التراث الجغرافي ومراجعه

على الرغم من أن كثيراً من الباحثين يستخدم لفظَي (المصادر والمراجع)

(١) مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ طبع، ص ٥٤٣

للدلالة على المنابع التي تستقي منها المعلومات، إلا أنّ هناك فارقاً علمياً بينهما، إذ إنّ المصدر هو المنبع الأصيل لموضوع الدراسة[1].

ونقصد بمصادر دراسة التراث الجغرافي هنا المؤلفات الأصلية للجغرافيين المسلمين وهي أهم المصادر على الإطلاق لأنها تعطينا الصورة الحقيقية لأفكارهم وآرائهم الجغرافية. ويمكن أن نضيف كذلك ما كتبه علماء المسلمين في تراجم الجغرافيين ومؤلفاتهم إلى مصادر دراسة التراث الجغرافي الإسلامي.

أما المراجع فتتمثّل بصفة خاصة في أعمال المستشرقين ودراساتهم، والدراسات الحديثة حول التراث الجغرافي والجغرافيين المسلمين، وسوف نتناول كلاً من هذه المصادر والمراجع بالتفصيل على النحو المقصود من الدراسة.

أولاً ـ مصادر دراسة التراث الجغرافي

أ . مؤلفات الجغرافيين المسلمين:

ترك الجغرافيون المسلمون عديداً من المؤلفات، لكن كثيراً منها لم يصمد أمام توالي السنين فأصابه التلف ولم يصلنا عنه إلا إشارات طفيفة لا تفيد إلا في الحسرة على ضياع مثل هذه الكتب الثمينة. ولقد تنوّعت كتابات الجغرافيين المسلمين واتّصفت بالشمولية حيث شملت جوانب عديدة يمكن أن نصنفها إلى بضعة مجالات بحكم ما غلب عليها من اهتمام، وتبعاً للفروع الجغرافية المتعارَف عليها حالياً، وإن كان كل كتاب قد شمل معلومات جغرافية متنوّعة. وسوف نكتفي ببعض نماذج من هذه الكتب ولا نحصيها.

١ . الجغرافيا الفلكية والرياضية:

يُعدُّ محمد بن موسى الخوارزمي (توفي سنة ٢٣٢هـ / ٨٤٧م) من أول الجغرافيين الذين كتبوا في الجغرافيا الرياضية والفلكية، وقد وضع كتاب «صورة الأرض» وتأثر في هذا الكتاب بما كتبه بطليموس في كتابه «المدخل إلى علم الجغرافيا».

---

(١) عبد الستار الحلوجي، مدخل لدراسة المراجع، دار العلوم، الرياض سنة ١٩٨٣، ص ١٣.

ومن الذين كتبوا في الجغرافيا الفلكية والرياضية، يعقوب الكندي (توفي سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٤م) وله كتاب رسم المعمور من الأرض. وجدير بالذكر أن مؤلفات الكندي تزيد على ٢٣٠ كتاباً منها ١٦ كتاباً في الفلك والجغرافيا الفلكية.

وهناك أعمال أخرى يغلب عليها طابع الفلك وإن كانت لا تخلو من الجغرافيا الفلكية مثل «الزيج الصابىء» للبتّاني (محمد بن جابر بن سنان) توفي سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م. ومن مؤلفات البتاني الأخرى المهمة المقالات الأربعة التي صحّح فيها بعض آراء بطليموس.

وقد تناول البتاني في كتابه «الزيج الصابىء» أطرافاً واسعة من علم الفلك، كطرُق تحديد عروض البلدان وفق درجات الطول والعرض، وتحديد أطوال فصول السنة، كما حدّد مواقع كثير من المدن. وكلمة «زيج» وتُجمع على «أزياج» من لفظة «زيك» من اللغة البهلوية التي استخدمها الفرس في زمن الساسانيين، وتعني «زيك» خيوط النسيج الطولية، وقد أطلق الفُرس هذا الاسم على الجداول العددية لتشابه خطوطها الرأسية بخيوط السدى[(١)].

ومن الجغرافيين الفلكيين المسلمين الآخرين، ابن يونس (أبو الحسن على الصدفي) من فلكيي المأمون، عمل على مرصد جبل المقطّم في القاهرة (توفي سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٩م) وله كتاب «الزيج الحاكمي الكبير» نسبة إلى الحاكم بأمر الله. والكتاب عبارة عن جداول فلكيّة. وقد رصد ابن يونس كسوف الشمس وخسوف القمر بمصر سنة ٩٧٨م، ويرجع إليه اختراع البندول الذي يستعمل لحساب الفترات الزمنية أثناء الرصد[(٢)].

٢ . الجغرافيا اللغوية:

اهتمّ اللغويون في القرن الثالث الهجري ببعض الظواهر الجغرافية

---

(١) نلينو، علم الفلك، مرجع سبق ذكره، ص ٤٢.

(٢) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدُّمه، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٣م، ص ١٩٥.

فوصفوها ورتّبوا الألفاظ الدالّة عليها، ومن أمثلة هؤلاء: النَّضر بن شُّميَل (توفي سنة ٢٠٣هـ / ٨١٨م). ويُعدُّ كتابه «الصفات» من كتب الجغرافيا اللغوية، ويقع هذا الكتاب في خمسة أجزاء، اشتمل الأول منها على خُلُق الجود والكرَم وصفات النساء، وتناول الثاني وصف الأخبية والبيوت وصفة الجبال والشعاب، أما الثالث فقد خصّصه للإبل فقط. وتناول الجزء الرابع الغنم والطير والشمس والقمر والليل والنهار والآبار والحياض. وعالج الجزء الخامس الزرع وأسماء البقول والأشجار والرياح والسحاب والمطر.

وتُعدُّ كتب هشام الكلبي (توفي سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٠م) ومنها: «كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب، كتاب قسمة الأرضين، كتاب الأنهار، كتاب اشتقاق أسماء البلدان، كتاب الأقاليم» من أنماط كتب الجغرافيا اللغوية[1]. وللأصمعي (أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب، توفي سنة ٢١٦/ ٨٣١م) كتب تُعدُّ بمثابة معاجم متخصّصة منها: كتاب عن الأنواء، وكتاب عن الخيل، وكتاب عن الإبل، وكتاب عن مياه العرب، وكتاب عن النبات والشجر، وكتاب عن جزيرة العرب.

ومن الكتب التي يمكن أن تندرج تحت عنوان الجغرافيا اللغوية، كتاب المخصص لابن سِيدَه (الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل) وكان ضريراً ولم يكن في عصره من ينافسه في النحو واللغة والأشعار، وتوفي ابن سيده (سنة ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) وعمره ستون سنة. ويقع «المخصص» في سبعة عشر جزءاً مرتّبة على الأبواب، ففيه أبواب تصف الأرض وخصائصها، وكل ما يتعلّق بها من خصب وجدب ورمال وخفوض وارتفاع واستواء، وفيه ما يتعلق بالأنواء والبروج والشمس والرياح والسحاب والرعد والبرق والمطر والسيول (السفر التاسع)، وتناول السفر العاشر: البحار والأنهار والعيون الآبار وأسماء الأرض وآلات الزراعة.

---

(١) ذكر أحمد زكي، محقّق كتاب الأصنام لهشام الكلبي، أن عدد التصانيف التي كتبها هشام الكلبي تبلغ ١٤١ كتاباً.

٣ . الجغرافيا المناخية (الأنواء):

كتب المسلمون أكثر من عشرين كتاباً في الأنواء، والأنواء جمع نَوْء. ولقد اختار العرب ٢٨مجموعة نجمية تستمر كل مجموعة منها ثلاثة عشر يوماً ما بين ظهورها في المشرق حتى سقوطها في المغرب وقت الفجر[١]، وأطلقوا على سقوط المجموعة اسم نوء ونسبوا إلى الأنواء سقوط الأمطار وهبوب الرياح واشتداد الحرّ أو البرد أي جميع أحوال المناخ. ومن أبرز الذين كتبوا في الأنواء: أبو فيد مُؤرج بن عمر السدوسي (توفي سنة ١٩٥هـ / ٨١١م) والنضر بن شميل، والأصمعي، وابن قتيبه الدِينَوري (توفي سنة ٢٧٦هـ / ٨٩٠)، وأبو حنيفة الدينوري (توفي سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م)، وابن خرداذبة، وأبو معشر البلخي.

٤ . الجغرافيا الحيوية:

يقصد بالجغرافيا الحيوية، جغرافية النبات والحيوان بصفة عامة. وقد كتب المسلمون عديداً من الكتب عن النباتات. ومن أبرز الذين كتبوا عن النبات أبو حنيفة الدينوري الذي يُعدُّ شيخ النباتين العرب على الإطلاق وهو من علماء القرن الثالث الهجري. وقد رتّب الدينوري أسماء النباتات على حروف المعجم ووصف النباتات المختلفة واستعمالاتها.

ويقول الدينوري عن «الأراك»: واحدته أراكة، أفضل ما استيك بفرعه وعرقه وأطيب ما رعته الماشية... ومنابت الأراك بطون الأودية وربما نبت بعض الأراك في الجبل[٢].

وللأصمعي كتاب «النبات والشجر» تناول فيه أسماء النبات وحالاته. ويُعدُّ ابن البيطار من أبرز علماء الأعشاب المسلمين (٥٧٥هـ ـ ٦٤٦هـ) وله كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية». أما عن الكتب التي تناولت

---

(١) تستمرّ (الجبهة) أربعة عشر يوماً وهي بذلك تزيد يوماً على بقية نجوم الأنواء الأخرى.

(٢) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم، ودور العرب في تقدّمه، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٣، ص ١٨٦- ١٨٧.

الحيوانات فهناك كتاب الحيوان للجاحظ (توفي سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) ويقع في سبعة أجزاء. ولكمال الدين الدميري (توفي سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) كتاب «حياة الحيوان الكبرى»، وهو من أوفى الكتب التي كُتبت عن المملكة الحيوانية في القرن التاسع الهجري.

٥ . جغرافية الرحلات:

وهي نمط من الجغرافيا الوصفية التي اعتمدت إلى حدٍ كبير على المشاهدة، ومن أشهر جغرافيِّي الرحلات: المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسن ابن علي المسعودي) توفي (سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٦م). ومن كتبه «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، والإدريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس) (توفي سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) وله كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وابن جبير (توفي سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م) وله كتاب «رحلة الكناني» نسبة إلى قبيلته. ويُعدُّ ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) الذي عاش من (سنة ٧٠٣هـ / ٧٧٩هـ الموافق ١٣٠٤م - ١٣٧٧م) أشهر رحّالة المسلمين على الإطلاق، وقد قطع في ترحاله وتجواله أكثر من ٧٥ألف ميل (أكثر من ١٢٠ألف كم) وله كتاب «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

٦ . الجغرافيا الإقليمية:

هناك عديد من الكتب التي تركها الجغرافيون المسلمون في مجال ما يمكن أن نطلق عليه الجغرافيا الإقليمية مثل كتب: الأقاليم، وكتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير وكلها لهشام الكلبي، وكتاب «جزيرة العرب» للأصمعي. وتلحق بالجغرافيا الإقليمية كتب المسالك والممالك، مثل كتاب ابن خرداذبه (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله). ومن أبرز كتب الجغرافيا الإقليمية كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي.

٧ . المعاجم الجغرافية:

أبدع المسلمون في مجال المعاجم الجغرافية، ومن أول المعاجم الجغرافية،

«معجم ما استعجم» للبكري، وضعه في القرن الحادي عشر الميلادي وهو أول معجم مرتّب ترتيباً أبجدياً في العالم. ومن المعاجم الجغرافية الشهيرة «معجم البلدان» لياقوت الحموي، وهناك معاجم أخرى مثل معجم «تقويم البلدان» لأبي الفداء، و «معجم الروض المعطار في خبر الأقطار» لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجي ويهتم هذا المعجم بالأماكن المشهورة ويميل إلى السرد التاريخي.

وإلى جانب المؤلفات الجغرافية التي ذكرناها، نجد معلومات جغرافية في كتب التراث التاريخية والأدبية، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، نذكر كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري الذي حوى مادة مهمة في محيط الجغرافيا التاريخية.

ب . تراجم الجغرافيين وإحصاء مؤلفاتهم:

ظهر في القرن الرابع الهجري نوع من المؤلفات العربية التي تجمع أسماء المؤلفين في فروع العلوم المختلفة وتذكر مؤلفاتهم. وكان أول كتاب من هذا النوع هو كتاب «إحصاء العلوم» للفارابي ألّفه في النصف الأول من القرن الرابع الهجري. ومن نماذج هذه الكتب «مفاتيح العلوم» للخوارزمي، و «الفهرست» لابن النديم، و «كشف الظنون» لحاجي خليفة، و «وفيات الأعيان» لابن خلكان، و «الوافي بالوفيات» للصفدي.

وفيما يلي عرض لبعض هذه المؤلفات الببليوغرافية:

١ . إحصاء العلوم للفارابي:

وُلد الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان) سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م في ولاية فاراب التي تقع فيما وراء النهر (تابعة لجمهورية قازاخستان الآن). تعلّم الفارابي العربية والتركية والفارسية ورحل إلى بغداد مع أبيه سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م حيث ألّف كثيراً من الكتب. زار الفارابي دمشق وعاش هناك زاهداً حيث توفي بها ٣٣٩هـ / ٩٥٠م عن ثمانين سنة.

اشتهر الفارابي بحبّه للعلم والمعرفة وتفاوت عدد كتبه ورسائله بين

المصادر المختلفة فهي عند بعضهم تزيد على مائة وعشرين، وعند بعض آخر لا تتجاوز سبعين رسالة وكتاباً[1].

وما يهمّنا من كتب الفارابي، كتابه الرائد في إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، فالفارابي سباق في هذا المجال لم يذهب أحد مذهبه فيه. ونظراً لأهمية كتاب إحصاء العلوم فقد تُرجم إلى اللاتينية عدّة مرات.

ويقع كتاب إحصاء العلوم في طبعته القاهرية التي صدرت سنة ١٩٣٤م في سبع وسبعين صفحة من القطع المتوسط مبوّبة في خمسة فصول.

والفارابي بلا منازع هو أول من وضع حجر الأساس لبناء موسوعات العلوم في اللغة العربية.

ذكر الفارابي في توطئة الكتاب «قصدنا من هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علماً علماً، ونعرف جُمَل ما يشتمل عليه كل واحد فيها وأجزاء كل ماله منها أجزاء، وجُمَل ما في كل واحد من أجزائه».

ويهمّنا نحن الجغرافيين من هذا الكتاب الفصل الثالث، ويتناول هذا الفصل علم التعاليم (أي الرياضيات) وينقسم إلى سبعة أجزاء منها: علم النجوم التعليمي (أي علم الفلك) الذي بحث في الأجسام السماوية عن أشكالها ومقادير أجرامها ونِسَب بعضها إلى بعض وعن حركاتها بالقياس إلى الأرض وما إلى ذلك[2].

٢ . مفاتيح العلوم:

وضع أبو عبد الله محمد بن يوسف الخوارزمي، هذا المصنّف فيما بين

---

(١) فريد جحا. الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، معهد التراث العلمي العربي، جامعة حلب، إبريل سنة ١٩٧٦م، ص ص ١٠٣، ١٢٧.

(٢) الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩، دار الفكر العربي، القاهرة، ص ٦.

(٣٦٥هـ - ٣٨١هـ / ٩٧٦هـ - ٩٩١م) ويقع في مقالتين: الأولى شملت ستة أبواب تتناول علوم الشريعة وما يتّصل بها من العلوم العربية من كلام ونحو وكتابة شعر.

وتقع المقالة الثانية في تسعة أبواب، وتتناول علوم الفلسفة والمنطق والطب والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والكيمياء.

وتحتلُّ الجغرافيا في «مفاتيح العلوم» مكاناً ثانوياً، ويقتصر المؤلف على معالجتها من الناحية الرياضية فحسب وتدخل في الباب السادس من المقالة الثانية وهو باب الفلك.

٣ . كتاب الفهرست:

أنهى ابن النديم (أبو الفرج محمد بن إسحاق الورّاق البغدادي المعروف بابن أبي يعقوب) تأليف كتابه سنة ٣٧٧هـ / ٩٨٧م ثم زاد عليه فيما بعد زيادات قليلة[١].

وقد قال المؤلف في بداية كتابه: «هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنّفيها وطبقات مؤلّفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومثاقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع إلى عصرنا هذا، وهو سنة سبع وسبعين وثلثماية للهجرة».[٢]، ويجمع هذا الكتاب كل ما كُتب في كل فن إلى أواخر القرن الرابع للهجرة، ويوضح ما تُرجم إلى العربية من كتب الهند والفرس واليونان وغيرهم.

وتركّز اهتمام ابن النديم عموماً على أسماء الكتب ومؤلفيها. والجغرافيا في فهرست ابن النديم تنضمّ من ناحية إلى العلوم الرياضية ومن ناحية أخرى إلى التاريخ والأدب.

---

(١) كرلو نلينو، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

(٢) اغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح الدين عثمان، القاهرة، سنة ١٩٦١، ج ١، ص ٢٣٣.

وعلى الرغم من أن ابن النديم استخدم لفظ «الفهرست» لمصنّفه إلا أن هذا المصنّف عبارة عن حصر ببليوغرافي لكافة ما كتب منذ أقدم العصور حتى سنة ٣٧٧هـ.(١).

وقد قسّم ابن النديم كتابه إلى عشر مقالات، قسّم كل مقالة إلى عدة فنون، وترد أسماء كتب جغرافية في الفن الثاني من المقالة الثالثة، والفن الثاني من المقالة السابعة.

٤ . معجم الأدباء:

وضع ياقوت الحموي (توفي سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) هذا المعجم وأطلق عليه اسم «إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب».

وقد راعى ياقوت حروف المعجم كل المراعاة في إيراد الأعلام بحسب ترتيب أسمائها وآبائها أيضاً. وقد ذكر ياقوت في مقدّمة هذا الكتاب أنه غذّى بغرام الأدب، وألهم حبّ العلم... وأنه ما زال مشغوفاً بأخبار العلماء منطلقاً إلى أنباء الأدباء يسائل عن أحوالهم، ويبحث عن نكت أقوالهم، بحث المُغرَم الصب، والمحبّ عن الحب... فما وجد في ذلك تصنيفاً شافياً ولا تأليفاً كافياً... وقال عن مصنّفة: «ولم آلُ جهداً في إثبات الوفيات وتبيين المواليد والأوقات وذكر تصانيفهم، ومستحسن أخبارهم والإخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم... وقصدت صغر الحجم وكبر النفع، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم والمرجوع في صحة النقل إليهم». وأشار ياقوت إلى أن هذا الفن من العلم هو علم الملوك والوزراء والجلية (جمع جليل من الناس) والكبراء يجعلونه ربيعاً لقلوبهم ونزهة لنفوسهم... فهو ربيع النفوس النفيسة، ورأس مال العلوم الرئيسة. ويقع معجم الأدباء في عشرين جزءاً.

٥ . وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان:

يُعدُّ كتاب «وفيات الأعيان» من أسبق كتب الوفيات وأشهرها وقد

---

(١) عبد الستار الحلوجي، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.

صنّفه قاضي القضاة ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر).

وُلد ابن خلكان في إبريل سنة ٦٠٨هـ وتوفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م.

وكتاب وفيات الأعيان في مجمله سجلّ مفهرس ترجم فيه ابن خلكان لثمانمائة وستّة وعشرين من مشاهير العلماء الذين يعرف تاريخ وفاتهم.

وذكر ابن خلكان أنه استقى معلوماته عن ثلاثة مصادر هي: ما قرأه في الكتب المصنّفة قبله، ثانيها ما أخذه عن أفواه مشايخه من أهل الثقة، ثالثها ما شاهده بنفسه، ولهذا سمّى كتابه «وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان، مما يثبت بالنقل أو السماع أو أثبته العيان»[1].

ومن الجدير بالذكر أن ابن خلكان يفرد ترجمة لمن يعرف سنة وفاته، أما سنة المولد فإنه لا يلتزم ذكرها لأنه لا تُعرَف سنوات ميلاد كثير من العلماء. ويستبعد «وفيات الأعيان» أولئك الذين لم يعلم تاريخ وفاتهم استناداً على أن الذي يعيش حياته ثم يموت دون أن يذكر معاصروه تاريخ هذه الوفاة فهو بالتأكيد شخص غفل الناس عنه ولا شهرة له بينهم، ولا يقع السؤال عنه كما يقول ابن خلكان، ومن ثم لا يضير أن تغفل ذكره كتب التراجم[2].

وقد التزم «وفيات الأعيان» بترتيب الأسماء ترتيباً أبجدياً وفق الحرف الأول، ولم يراعِ التخصصات في الترتيب وفق المعارف والعلوم، كما أنه صرف النظر عن الألقاب والكنى[3]، ولم يراعِ كذلك تفاوت العصور، واعترف بمآخذ هذا الترتيب لأنه ترتّب عليه تقديم المتأخر، إلا أن هذا المأخذ يهون في سبيل تيسير البحث ولأن ذلك يحقق أيسر الطرُق لمن يريد الانتفاع من كتابه.

---

(١) ابن خلكان، وفيّات الأعيان، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة ١٣٦٧هـ، ص ١.

(٢) عبد الستار الحلوجي، المرجع السابق، ص ٥٥.

(٣) السعيد الورقي، في مصادر التراث العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، سنة ١٩٧٩، ص ٤٤٣.

وعلى الرغم من أن وفيات الأعيان يميل إلى الإيجاز في معظم تراجمه، إلا أن ترجمة صلاح الدين الأيوبي وصلت إلى ثمانين صفحة[1].

٦ . الوافي بالوفيات:

ألّف هذا الكتاب، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (٦٩٧هـ - ٧٦٤هـ). والوافي بالوفيات من أوفى الكتب المؤلفة في تراجم الرجال، ويقع في نحو ثلاثين مجلداً، لم يُطبَع منه إلا الأجزاء الأربعة الأولى[2] ولا يوجد الوافي بالوفيات مجموعاً في خزانة من خزائن الكتب في الشرق والغرب، بل أجزاؤه متفرّقة في مواضع عديدة. ويضمُّ هذا الكتاب ما يقرب من أربعة عشر ألفاً من التراجم.

٧ . مفتاح السعادة ومصباح السيادة:

هذا الكتاب عبارة عن موسوعة في تاريخ العلوم العربية وقد رتّبه المؤلف ترتيباً مصنّفاً وفقاً لنظام ترتيب المعرفة البشرية السائدة في عصره. ومؤلف هذا الكتاب هو عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده، وهذه التسمية تُطلق على عائلة من علماء الأتراك استمدّت هذا اللقب من قرية بالأناضول تُعرف بقرية «طاش كبرى».

وُلد عصام الدين في بروسه عاصمة الدولة العثمانية سنة ٩٠١هـ / ١٤٩٥م ورحل مع أبيه إلى أنقره حيث تعلّم القرآن الكريم على والده وعمل مدرّساً في عدّة مناطق وأُصيب بالرمد سنة ٩٦١هـ فكفّ بصره وعكف على إملاء بعض كتبه وهي كثيرة تصل إلى سبعة وثلاثين مؤلفاً في الفقه والأحاديث والتفسير.

ويعكس «مفتاح السعادة» صورة صادقة لمؤلفات المسلمين، وقد تناول في الشعبة الثامنة من فروع علم الهيئة (علم جغرافيا). ذكر طاش كبرى زاده

---

(١) عبد الستار الحلوجي، المرجع السابق، ص ٥٦.
(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٥٥.

أن علم جغرافيا علم يتعرّف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض وعروض البلدان الواقعة فيها وأحوالها وكذلك عدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك.

٨ . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون:

يُعدُّ هذا المصنّف من أنفس الكتب التي تناولت عناوين كل الكتب العربية والتركية والفارسية التي تمكّن حاجي خليفة من معرفة أسمائها، وحاجي خليفة مؤلف «كشف الظنون» هو مصطفى عبد الله القسطنطيني المولد والمنشأ، ويُعرف بالكاتب الجلبي (أي الشخص العظيم القدر والرفيع الشأن) تارة، وبالحاج خليفة تارة أخرى.

وقد وُلد حاجي خليفة في القسطنطينية سنة ١٠١٧هـ / ١٦٠٩م، وبها تعلّم وأصبح محاسباً ثم عمل في ديوان الإنشاء واهتمّ بدراسة الحساب والهندسة والهيئة والجغرافيا والطب.

ونظراً لأهمية كتاب «كشف الظنون» فقد تُرجم إلى عدّة لغات منها الفرنسية والهولندية والألمانية والإنجليزية.

ويضمُّ كشف الظنون «أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وواحد» (١٤٥٠١) اسمٌ لتصنيف من كل فن وذلك بصرف النظر عن الشروح والحواشي[١]. ولقد اشتغل حاجي خليفة عشرين سنة في جمع مادة هذا الكتاب، وحوى الكتاب أكثر من ٩٥٠٠ من أسماء المؤلفين، وتكلّم فيه عن نحو ثلاثمائة علمٍ وفنّ[٢]، وسمّاه أولاً بكتاب إجمال الفصول والأبواب في ترتيب العلوم ثم سمّاه ثانياً بكشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون.

مجالات البحث عند حاجي خليفة:

رأى حاجي خليفة في القرن الحادي عشر الهجري أن هناك سبعة

---

(١) نلينو، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦.

(٢) كشف الظنون، من تصدير الطبعة الثالثة، المطبعة الإسلامية بطهران، سنة ١٣٨٧هـ، ص ٨.

مجالات لا يؤلّف العالم العاقل إلا فيها، وهذه المجالات هي:

أولاً: ابتكار شيء جديد أو الوصول إلى فكرة جديدة لم يسبق الوصول إليها.

ثانياً: اتمام شيء ناقص.

ثالثاً: شرح فكرة غامضة مبهمة.

رابعاً: اختصار دون الإخلال بالمعاني.

خامساً: جمع المتفرّق.

سادساً: ترتيب شيء مختلط.

سابعاً: اصلاح وتصحيح الأخطاء.

وقد عرض حاجي خليفة هذه المجالات على النحو التالي:

يقول حاجي خليفة: «ثم إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها وهي إما شيء لم يسبق إليه فيخترعه، أو شيء ناقص يتمّمه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيء طويل يختصره دون أن يخلّ بشيء من معانيه، أو شيء متفرّق يجمعه، أو شيء مختلط يرتّبه، أو شيء أخطأ فيه مصنّفه فيصلحه»[1].

ولحاجي خليفة كتب جغرافية منها: كتاب الخرائط في تخطيط الأرض، وكتاب جهان نما في الجغرافيا وعلم المسالك والممالك، ألّفه بالتركية، وكتاب تحفة الكبار في أسفار البحار.

ومن الكتب التي ترجمها حاجي خليفة إلى التركية كتاب: «لوامع النور في ترجمة أطلس منيور» وأطلس منيور مصوّر جغرافي من وضع مركيتور وهنديوس باللغة اللاتينية، وقد ترجمه حاجي خليفة إلى اللغة التركية.

وقد عرف حاجي خليفة الجغرافيا فقال: «علم جغرافيا وهي كلمة

---

(١) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، طبعة المطبعة الإسلامية بطهران، سنة ١٣٨٧، ص ٣٥.

يونانية بمعنى صورة الأرض ويقال جغراوياً بالواو على الأصل وهو علم يتعرّف منه أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المسكون من كرة الأرض، وعرض البلدان الواقعة فيها وأطوالها وعدد مدنها وجبالها وبراريها وبحارها وأنهارها إلى غير ذلك من أحوال الربع المسكون»[1].

وإلى جانب الكتب السابقة التي عنيت بأسماء المؤلفين وتراجمهم فهناك كتب حديثة سارت على هذا النهج مثل:

الأعلام:

مؤلّف هذا الكتاب هو خير الدين الزركلي، وهو عبارة عن قاموس يضمّ تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ولم يتعرّض الكتاب لتراجم الأحياء الذين عاصرهم. والكتاب مرتّب على حروف المعجم، يبدأ بحرف الاسم الأول ثم يضمّ ما يليه إليه فيكون «آدم» قبل «آمنه».

وكان الكتاب قد طُبع طبعته الأولى (سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م.) ولم تُعنَ الطبعة الأولى بتقييد المصادر، لكن المؤلف أصدر طبعة ثانية بعد ربع قرن استدرك فيها ما فاته في الأولى، وأسند فيها المعلومات إلى مصادرها وأماكنها كأن يقول: هو في خزانة فلان.

تاريخ التراث العربي:

يتناول هذا الكتاب المرجعي التراث العربي في جميع ميادينه ومجالاته المتنوّعة. قام بتصنيفه العالِم التركي فؤاد سزكين، وهو أستاذ تاريخ العلوم بجامعة فرانكفورت بألمانيا الاتحادية. واهتمّ هذا المصنّف بذكر العلوم والأعلام، وهو بمثابة دليل دقيق يتيح للباحث التعرُّف على كل المخطوطات المتوافرة مع بيان عدد الأوراق وتاريخ النُّسخ. وقد ظهرت المجلّدات الأولى من الأصل الألماني (سنة ١٩٦٨- ١٩٧٥م) وقد ترجم المجلدات الأولى إلى العربية محمود فهمي حجازي، وفهمي أبو الفضل.

---

(١) كشف الظنون، مصدر سبق ذكره، ج ١، ص ٩٥.

وقد مُنح فؤاد سزكين جائزة الملك فيصل العالمية تقديراً لمَا قام به في إعداد هذا المصنّف.

ثانياً ـ مراجع التراث

أ . دراسات المستشرقين:

تستخدم كلمة المستشرقين للإشارة إلى المشتغلين من غير الشرقيين بالدراسات الشرقية التي تعني بدراسة لغات الشرق وحضاراته وفلسفاته وجوانب حياته المختلفة.

وعرّف المفكر الألماني المعاصر «رودي بارت» الاستشراق فقال: «كلمة استشراق مشتقّة من كلمة (شرق) وكلمة شرق تعني مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو العالم الشرقي، ثم يستطرد قائلاً: ومنذ الفتح العربي تُعدُّ مصر وبلدان شمال أفريقيا ضمن الشرق، ويختصّ الاستشراق حتى بشمال غربي أفريقيا الذي يسمى بالمغرب أي بلد غروب الشمس وإن كان اسم الاستشراق ـ يفترض أن يختصّ بالبلدان الشرقية»[1].

ويرجّح أن بوادر حركة الاستشراق ظهرت في أوربا في نهاية القرن العاشر الميلادي على يد الراهب الفرنسي جربر دي أورالياك Jerbert de Oraliac (٩٣٨- ١٠٠٣م) الذي قصد الأندلس سنة ٩٩٩م طلباً للعلم وأصبح أوسع علماء عصره معرفة باللغة العربية والرياضيات والفلك، وانتخب بابا باسم سلفستر الثاني (سنة ٩٩٩- ١٠٠٣م) فكان أول بابا فرنسي وأمر بإنشاء مدرستين عربيتين إحداهما بروما[2]. وترجم سلفستر الثاني بعض الكتب الرياضية والفلكية العربية مثل الزيج المنصوري.

---

(١) علي حسن الخربوطلي، المستشرقون والتاريخ الإسلامي، سلسلة دراسات في الإسلام، عدد ١١١، السنة العاشرة، ص ص ٥- ١٦.

(٢) نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٤م، جـ ١، ص ١٢٠.

ويعدّ القرن السابع عشر الميلادي من قرون ازدهار حركة الاستشراق وذلك لزيادة عدد المستشرقين وتنوّع أقطارهم. وقد أنشأ أوربانيوس الهولندي أول مطبعة عربية في هولندا هي مطبعة ليدن.

وهناك من يرى أن الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م، هي بداية الاستشراق الحقيقي. ومنذ القرن التاسع عشر عُقدت مؤتمرات للمستشرقين كل سنتين أو ثلاث، ومن أول هذه المؤتمرات مؤتمر باريس سنة ١٨٧٢م، وأول المؤتمرات التي اشتركت فيها مصر، هو المؤتمر الثامن الذي عُقد سنة ١٨٨٩م في استوكهلم.

ويرى بعض الباحثين ومنهم «رودي بارت» أن بعض الأوربيين تعلّم العربية لا حُبًّا فيها، ولكن لاتخاذها وسيلة لفهم القرآن ومهاجمته، أي أن هذا النوع من الاستشراق ساقه التعصُّب الديني، وقد تُرجم القرآن إلى اللاتينية لأول مرة سنة ١١٤٣م[١]، وهناك استشراق من أجل تحقيق أهداف استعمارية، أما الاستشراق من أجل البحث العلمي فلم يظهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر.

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى أن الاهتمام بالجغرافيا العربية في أوربا اهتمام قديم يرجع إلى القرن الحادي عشر الميلادي حين ظهرت في أسبانيا ترجمات لكتب عربية في الفلك والرياضيات، لكن هذه الترجمات لم تكن على مستوى جيّد من الدقّة والأمانة العلمية، وفي سنة ١٥٩٢م طُبع أول نصّ جغرافي عربي للشريف الإدريسي تحت عنوان خاطيء هو «جغرافيا النوبي» لأن عالميين مارونيين كانا يجهلان اسم الإدريسي ووقعا في خطأ عند ترجمة نص حول النوبة يذكر أن النيل «يقطع أرضها» ترجمها العالمان «يقطع أرضنا» ومن هنا قالا إن المؤلف من النوبة[٢].

ومن أبرز علماء العرب الذين اهتمُّوا بدراسات المستشرقين والتعرُّف

---

(١) هناك بعض المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام مثل: الدكتورة الألمانية دارزوليان، التي تسمّت باسم «سامية الأزهرية» و «خديجة دلتك» الأمريكية.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٢٨٤.

إليهم والأخذ من أساليبهم، هو أحمد زكي باشا الملقّب بشيخ العروبة، الذي أجّج فيه المستشرقون جذوة الغيرة على التراث والمخطوطات العربية التي نهبت، وكان يردّد دائماً كلمة مشهورة: «هل ننتظر حتى يدلنا المستشرقون على تاريخنا؟ هل ننتظر حتى يطبعوا كل تراثنا ويحقّقوه؟»[١].

هؤلاء المستشرقون لا يزالون يدأبون على العمل في التحصيل والدرس والبراعة في التنقيب والبحث، وبذلك يتيسّر لهم أن ينشروا طائفة كبيرة من أمهات الكتب العربية النفيسة، وقد ترجموها في بعض الأحايين إلى لغاتهم، وأن يتّخذوها موضوعاً لمباحثهم، كما يشاركهم قومهم في الاستفادة منها، وهم في هذا المسعى يبثّون فينا روح الأمل باسترجاع كنوز آدابنا الشرقية رويداً رويداً.

ولم يكن أحمد زكي مثل طبقة الباحثين التي جاءت بعده والتي استسلمت لآراء المستشرقين تتشدّق بها دون تحقيقها بينما فيها الخاطىء والمتعصّب.

وفيما يلي دراسة لأشهر المستشرقين الذين لهم إسهامات في مجال تحقيق التراث الجغرافي.

كارل بروكلمان (١٨٦٨- ١٩٥٦م) C. Brockelmann وُلد في روستوك ودرس اللغات الساميّة على أعلام المستشرقين وتميّز بالنشاط وغزارة الإنتاج واتّصف بالموضوعية والعمق والشمول مما جعله مرجعاً للمنصفين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي، إذ قل منهم من لم يعتمد عليه وعلى مصنفاته[٢]. وقد كتب فيما يمكن أن يطلق عليه الجغرافيا اللغوية ودرس بعض الشخصيات الجغرافية مثل: العبدري والبيروني والبكري وابن بطوطه والكندي والكلبي واليعقوبي.

---

(١) أنور الجندي، أحمد زكي الملقّب بشيخ العروبة، سلسلة أعلام العرب رقم ٢٩، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص ص ٢٥٢- ٢٥٥.

(٢) نجيب العقيقي، مرجع سبق ذكره، ص ص ٧٧٧- ٧٧٩.

فرّان Ferrand G. (١٨٦٤ - ١٩٣٥م) مستشرق فرنسي كان وزيراً مفوّضاً في المشرق، وعضواً في الجمعية الآسيوية واهتمّ بالجغرافية البحرية بصفة خاصة عند العرب والفرس والأتراك، وحقّق وترجم كثيراً من المؤلفات مثل مؤلفات ابن ماجد، وفوائد الملاحة لسليمان المهري وترجم المصطلحات العربية في فن الملاحة، وله جزر مدغشقر والجغرافيون العرب، والملاح العربي لفاسكو دي جاما والخرائط الإسلامية (١٩٣٥م) وصلات الصين بالخليج الفارسي قبل الهجرة.

البارون كارا دي فو Carra de Vaux فرنسي الأصل وُلد سنة ١٨٦٧م درّس العربية بالمعهد الكاثوليكي في باريس وعنى بالرياضيات والفلسفة والتاريخ، نشر أبحاثاً عن المجسطي لأبي الوفاء البوزجاني، والأسطرلاب للطوسي، وترجم التنبيه والإشراف للمسعودي (سنة ١٨٩٧م).

كرلو نلينو Carlo Nalino (١٨٧٢- ١٩٣٨م) إيطالي الأصل وُلد في تورينو وتعلّم العربية في جامعتها، وسافر إلى القاهرة حيث أقام ستة أشهر سنة ١٨٩٣م، وعيّن أستاذاً للمعهد الشرقي بنابولي (١٨٩٤- ١٩٠٢) وفي سنة ١٩٠٩ استدعته الجامعة المصرية ليحاضر في علم الفلك عند العرب في العصور الوسطى، وفي الأدب العربي. ونشر زيج البتاني وترجمه باللاتينية وعلّق عليه، ودوّن بالعربية تاريخ علم الفلك عند العرب في القرون الوسطى (روما سنة ١٩١١م) ونشر خريطة العالم سنة ١٥٧٩م لعلي بن أحمد الشرفي الصفاقسي (منشورات الجمعية الجغرافيا بروما سنة ١٩٢٦م) ونشرت ابنته بعد وفاته مؤلفاته ومنها علم الفلك والتنجيم والجغرافيا في ٥٥٨ صفحة، سنة ١٩٤٤م.

فيستنفلد Wustenfeld (١٨٠٨- ١٨٩٩م) ألماني الأصل، تخرّج من معهد اللغات الشرقية من برلين، وأمضى ستّين سنة مُكِبًّا على اللغة العربية وآدابها وجغرافيتها إلى أن كفّ بصره، وله أكثر من مائتي مصنّف منها وفيات الأعيان لابن خلّكان وفيه سِيَر (٨٦٥ رجلاً بتواريخ ولادتهم ووفاتهم ومصنّفاتهم في ١٣جزءاً) وتقويم البلدان لأبي الفداء (جوتنجن سنة ١٨٣٥م)،

والبيان والأعراب عمّا في أرض مصر من الأعراب للمقريزي، والمشترك وصفاً والمفترق صقعاً لياقوت الحموي (سنة ١٨٤٦م)، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني، ومعجم البلدان لياقوت الحموي في ستة أجزاء، ومعجم ما استعجم للبكري في جزأين، وجغرافية مصر للقلقشندي ص ٧١٣- ٧١٥.

كرامرز Kramers (١٨٩١- ١٩٥١م) عمل مترجماً للسفارة الهولندية في الأستانة، وانتُدب للمعاونة في نشر مطبوعات الأمير يوسف كمال في مجموعته، آثار أفريقيا ومصر (سنة ١٩٢٥م). له دراسات عن ابن حوقل والبلخي والاصطخري وأطلس الإسلام، وعاون في تصنيف كتاب عن البيروني، وأعاد طبعة المسالك والممالك لابن حوقل.

دي خويه de Goeje, M.J. (١٨٣٦- ١٩٠٩م) تخرّج من جامعة ليدن في هولندا واهتمّ بلغة العرب وتاريخهم وجغرافيتهم، نسخ المسالك والممالك لابن حوقل، وقسماً من نزهة المشتاق في وصف افريقيا والأندلس. وأشرف على إصدار مكتبة الجغرافيين العرب في ثمانية مجلدات (١٨٧٠- ١٨٩٤م) له فيها مسالك الممالك للاصطخري (١٨٧٢م) وأحسن التقاسيم للمقدسي (١٨٧٧- ١٩٠٦م) والتنبيه والإشراف للمسعودي (١٨٩٤م)، وأعاد نشر رحلة ابن جبير (سنة ١٩٠٧م)، ووضع تقاويم للتاريخ والجغرافيا الشرقيين في ثلاثة مجلدات (ليدن سنة ١٨٦٢م)، وله مختارات من الأدب الجغرافي العربي (ليدن سنة ١٩٠٧م).

البارون دي ساسي S. de Sacy (١٧٥٨- ١٨٣٨م) وُلد في باريس سنة ١٧٥٨م، درس العربية والفارسية والتركية وكان يتقن اللاتينية والألمانية والأسبانية والإيطالية والإنجليزية.

لخّص كتاب الخطط للمقريزي (سنة ١٧٩٧م)، وحقّق وترجم كتاب الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي سنة ١٨١١م.

ب . الدراسات الحديثة:

هناك دراسات عديدة حديثة قام بها الباحثون العرب والمسلمون، وهذه

الدراسات يمكن الاستفادة منها في دراسة التراث الجغرافي الإسلامي، لأن بعضها يعتمد على تحقيق المخطوطات والتعليق عليها، وبعضها يعتمد على ترجمات من لغات غير عربية.

إن الدراسات الحديثة التي عنيت بالتراث الجغرافي الإسلامي عديدة ومتنوعة، ولقد تخصّص بعض العلماء المسلمين في دراسة بعض الشخصيات الجغرافية الإسلامية مثل: أحمد سوسة الذي عنى بدراسة الشريف الإدريسي، وأصدر كتاباً يجسّد هذا الاهتمام بعنوان (الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية). كما اهتمّ أنور عبد العليم بدراسة (ابن ماجد الملاّح العربي). ودرس على أحمد الشحّات (أبو الريحان البيروني)، ودرس عبد الرحمن بدوي (موفق الدين عبد اللطيف البغدادي).

وهناك دراسات عامة للجغرافيين المسلمين مثل تلك التي قام بها زكي محمد حسن (الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى)، وصبري محمد حسن (الجغرافيون العرب)، والأمير مصطفى الشهابي (الجغرافيون العرب)، وعبد الرحمن حميده (أعلام الجغرافيين العرب) ونفيس أحمد (جهود المسلمين في الجغرافيا)، وصلاح الدين المنجد (أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب).

وهناك دراسات حديثة اهتمّت بالفكر الجغرافي أكثر من اهتمامها بالجغرافيين المسلمين، ومن أمثلة تلك الدراسات ما قام به محمد محمود الصيّاد في كتابه (من الوجهة الجغرافية)، وشاكر خصباك في كتابه (في الجغرافيا العربية).

وهناك عشرات الكتب ومئات المقالات والفصول في الكتب والدوريات تناولت أعلام الجغرافيا عند المسلمين وأعمالهم. وقد جمع المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول الذي عُقد في الرياض، البحوث التي قُدِّمت له وتناولت التراث الجغرافي في أربعة مجلدات، وبلغ عدد هذه البحوث تسعة عشر بحثاً.

٣ ـ دور العرب وإسهامهم في الفكر الجغرافي

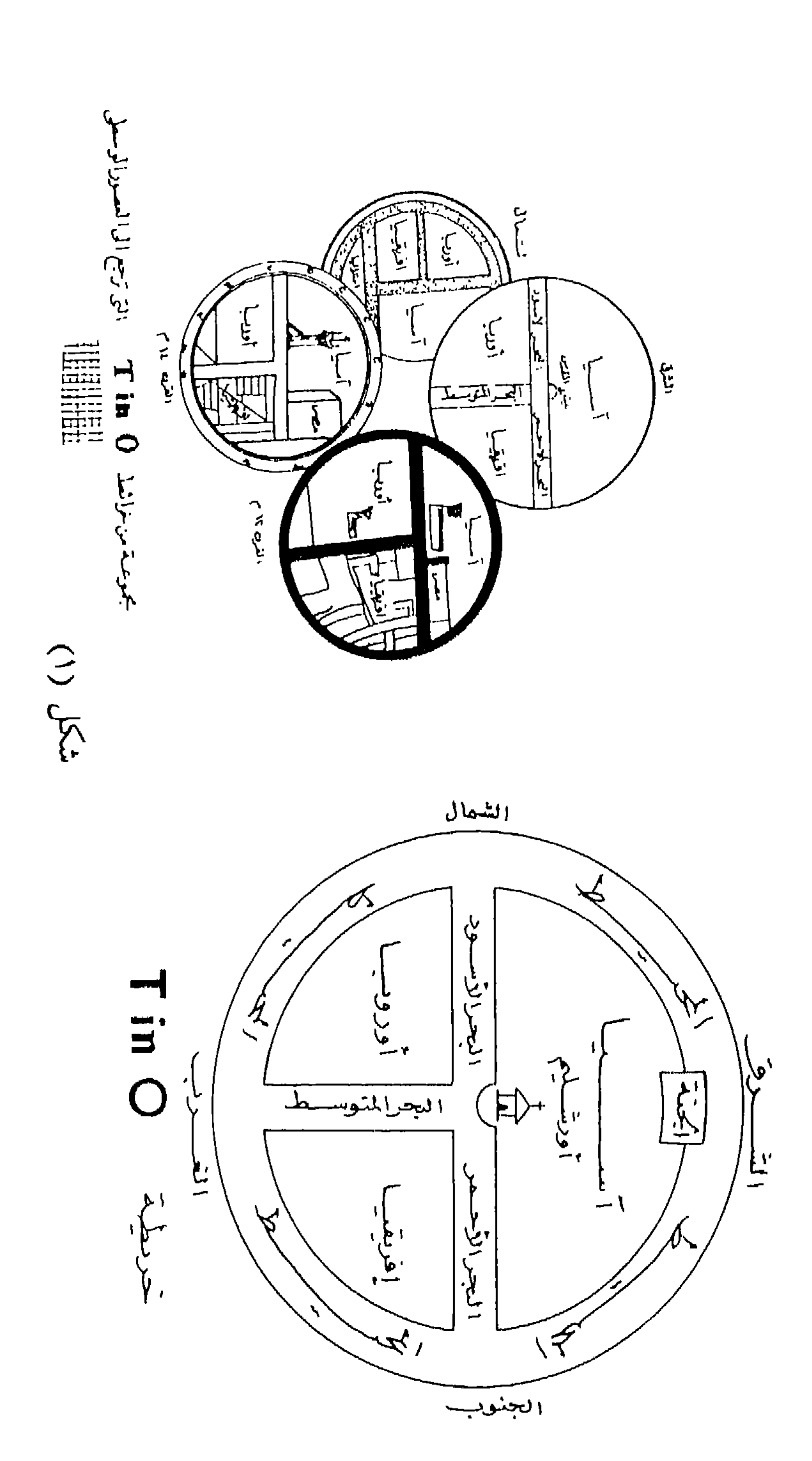
بلغت المعرفة الجغرافيّة ذروتها في العصر الروماني فيما كتبه بطليموس السكندري وما رسمه من خرائط، ثم تلت ذلك فترة خيّم فيها الركود وسادت الخرافات مرة أخرى، ونستطيع دون ما مبالغة أن نطلق على تلك الفترة التي امتدّت من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي (عصور الظلام الجغرافيّة) حين أصبحت الكنيسة والكتاب المقدّس منبع الفكر، وفي ظلّ سيطرة هذين العاملين تأخّرت الجغرافيا قروناً عديدة، وتوارت الحقائق التي توصّل إليها العلماء تحت ركامات من جهل رجال الكنيسة وتأويلاتهم الخرافيّة للكتاب المقدّس.

ومن الآراء الخاطئة التي راجت، بناء على أقوال اقتُبست من الكتاب المقدس أن الأرض قرص أو عَجَلَة، وأن الشمس في وسطها، ورُسمَت الخرائط المفسّرة لذلك وتُعرف باسم T in O (شكل ١). ولقد رفع بعض القساوسة ومنهم (سانت أمبروز St. Ambrose) أصواتهم محذّرين بأن البحث في طبيعة الأرض وموضعها لا يعود على الإنسانية بشيء يحقّق من آمالها في الحياة الأخرى. ورأى بعضهم أن نزعة التقصّي وحب الاستطلاع والبحث في مجال المعرفة تُعَدُّ عبثاً وأطلقوا على هذه الجهود الفكرية والعلوم المختلفة (فن السَّحَرَة)[١].

ومن الخرافات التي انتُشرت أن جبل بليون Pleon يبلغ ارتفاعه ٢٥٠ ميلاً وأن جبال الألب تصل في ارتفاعها إلى ٥٠ ميلاً «لا ترتفع أعلى قمّة في هذه الجبال وهي مون بلان أكثر من ثلاثة أميال».

وهكذا شاهدت هذه الفترة المظلمة نوعاً من الإنكار الأعمى المتعصّب لكل الأفكار الجغرافية السليمة التي سادت قبل المسيحية، فسخر القساوسة من

(١) نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافيا، بدون تاريخ طبع، ص ٢١.



خريطة T in O

شكل (1)

مجموعة من خرائط T in O التي ترجع إلى العصور الوسطى

فكرة كروية الأرض، وتصوّرها بعضهم على هيئة مستطيل (الراهب كوزماس Cosmas) (شكل ٢).

وفي إطار هذه الظروف تردّى الفكر الجغرافي في مهاوٍ سحيقة على يد رجال الكنيسة وتفسيراتهم لما في الكتاب المقدّس. وأصبحت الجغرافيا في حاجة إلى فكر متحرّر ويد أمينة تتعهّدها صيانة وإضافة، ولم يكن حينذاك أفضل من العرب ولا أحقُّ منهم للقيام بهذا العمل.

وقد أسدى العرب خدمة جليلة للمعرفة الإنسانية حينما كفلوا لعلم الإغريق الحفظ والصون، ونظراً لما بذلوه من جهود مخلصة في ميدان الجغرافيا وما دوّنوه من كتب وما ترجموه فإن كثيراً من المستشرقين قد جذبهم موضوع الجغرافيا عند العرب والمسلمين. وعلى الرغم مما صدر من كتب وما تعدّد من أبحاث تناولت أعمال الجغرافيين المسلمين، فإن تاريخ الفكر الجغرافي عند المسلمين ما زال في حاجة للدراسة ويرجع ذلك لعاملَين:

العامل الأول:

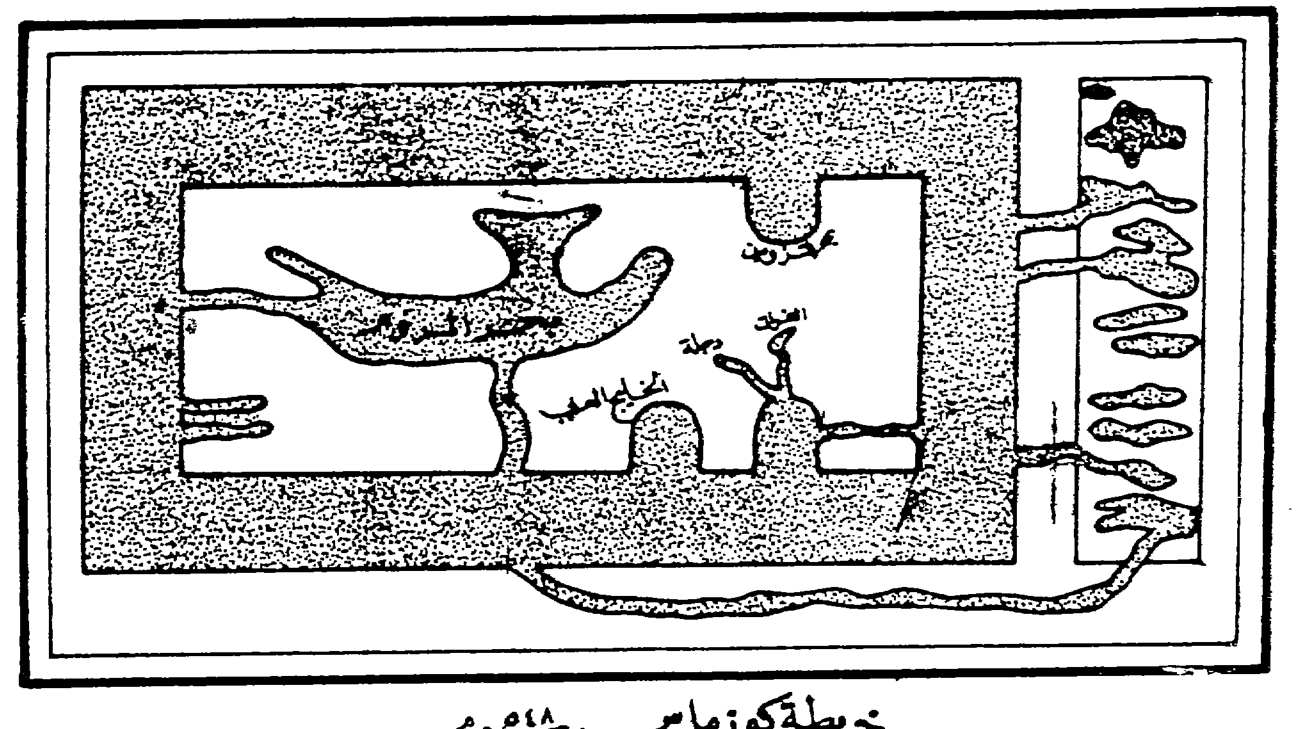
إن كثيراً من الذين تناولوه ليسوا متخصّصين في الجغرافيا، ولذلك فقد تناولوه كنوع من الأدب أو الفن القصصي. ومن أمثلة ذلك (كتاب الرحلات) الذي اشتركت في وضعه لجنة من أدباء الأقطار العربية وقدّم له شوقي ضيف.

العامل الثاني:

إن كثيراً من المستشرقين قد تناول الجغرافيين العرب والمسلمين ودرسهم دراسة يعيب بعضها روح التعصُّب وعدم الفهم للنصوص العربية.

المعرفة الجغرافيّة عند العرب قبل الإسلام:

قبل أن نتعرّض لمعالجة موضوع الجغرافيا عند المسلمين ينبغي لنا أن نتناول بشيء من الإيجاز بعض أنماط المعرفة الجغرافية عند العرب قبل الإسلام حتى نتعرّف على تلك الجذور ونرى إلى أي مدى تأثّرت هذه المعارف الجغرافية بالإسلام، وكيف أسهم الإسلام في إثرائها.



خريطة كوزماس ٥٤٨ م

المصدر : أحمد سوسة

شكل (٢)

إن اهتمام العرب قبل الإسلام بما يحيطهم من مظاهر جغرافية مختلفة أمر بدهي، ذلك أن طبيعة حياتهم التي تعتمد على الترحال في الصحاري المترامية الأطراف بقطعانهم من إبل وأغنام بحثاً عن العشب والكلأ متتبّعين آبار الماء تفرض عليهم أن يعرفوا المسالك والدروب المختلفة وأن يقرأوا السُّحب وأن يتابعوا تغيّرات الطقس وأن يكونوا على علم بأماكن عيون الماء وبطون الأودية.

كما أن اهتمام العرب بالتجارة واشتغالهم بها جعلهم يستثمرون موقع بلادهم بين أقطار الموسميات والغربيات في التجارة فكانوا يقومون برحلتَي الشتاء والصيف مما تطلّب منهم معرفة أيسر المسالك وأقصرها، ولما كانت معظم أسفارهم بالليل فإنهم اعتمدوا على الاهتداء بالقمر والنجوم وساعدهم على ذلك صفاء سمائهم. لقد عرف العرب نجوم الاهتداء: (لأن من كان بالصاصح الأماليس (الصحاري الخالية) حيث لا أمارة ولا هادي مع حاجته إلى بُعد الشقة مضطر إلى التماس ما ينجّيه ويؤدّيه، ولحاجته إلى الغيث، وفراره من الجدب، اضطرته الحاجة إلى تعرُّف شأن الغيث، لأنه في كل حال يرى السماء وما يجري فيها من كواكب ويرى التعاقب بينها والنجوم والثوابت فيها)[1].

وسُئلت أعرابيّة فقيل لها: أتعرفين النجوم؟ قالت سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً على كل ليلة.

وفي مجال المعرفة الجغرافيّة الفلكيّة عند العرب يقول صاعد بن أحمد (كان للعرب معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها على حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم إلى معرفة ذلك من أسباب المعيشة لا عن طريق الحقائق ولا على سبيل التدريب في العلوم. ولقد ضبط العرب مقدار السنة الشمسيّة برصد الأنواء وكانوا أيضاً يجعلونها مواقيت ديونهم)[2].

---

(١) محمد محمود محمدين، كيف يُستفاد من الشعر الجاهلي في دراسة جغرافية الجزيرة العربية، مجلة الدارة، الرياض، ربيع ثاني سنة ١٣٩٩هـ، ص ١١٠.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ص ١٠٩ - ١١٠

واهتمّ العرب بالرياح والأمطار لأهميتها القصوى بالنسبة لحياتهم التي تعتمد على الأعشاب في الرعي، والأعشاب لا تنبت إلا بعد سقوط الأمطار، وسقوط الأمطار يرتبط برياح معيّنة، وكان العرب يتشاءمون بالرياح الشمالية بسبب شدّة برودتها، لأنها تنذر بالقحط وتنزل الجدب، وكانوا يبتهجون إذا هبّت الصبا - وهي التي تجيء من مطلع الشمس -، أما النكباء، فهي كل ريح يكون مهبُّها بين مهبّي ريحين. وذكر العرب الهيف، وهي الريح التي تجيء من مهب الجنوب، والدبور التي تأتي من الغرب.

وبلغ من أهمية المطر عند العرب أن جعلوه غاية دعائهم بالخير لمن يرجون شكره، فيقولون: «سقى الله فلاناً الغيث» وحتى الأيام طلبوا لها السقيا فإذا ذكروا أياماً طابت لهم قالوا: سقى الله تلك الأيام.

وقد ذكر النويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» الأساليب التي كانت تلجأ إليها العرب في سنوات الجدب ومنها نار الاستمطار، وهي النار التي كانوا يستمطرون بها في الجاهلية حين يجتمعون ويجمعون عدداً من الأبقار ثم يعقدون في أذنابها وعراقيبها الأحطاب ثم يصعدون فوق جبل ويشعلون فيها النيران ويرفعون أصواتهم بالتضرُّع والدعاء[1].

إنّ من يتتبّع الشعر الجاهلي يستطيع أن يعرف كثيراً من المعارف والأفكار الجغرافيّة عند العرب، ذلك أن العرب سجّلوا أخبارهم وظروف بلادهم وأفكارهم في شعرهم، فالشعر الجاهلي من أصدق الوثائق التي يمكن الاعتماد عليها في دراسة ظروف بلاد العرب الجغرافية.

ولعلّ أبرز ما ترك فيه العرب مادة وفيرة هو مجال ذكر الأماكن المختلفة في الجزيرة العربية ولم يتعدَّ ذكر الأسماء حدود جزيرتهم إلا نادراً.

ويذكر كراتشكوفسكي، أنّ ذكر المواضع وصل إلينا في آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها في الأدب العالمي[2]، لأنه من عادة الشاعر العربي

---

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٩٢٣م، جـ ١، ص ص ١٠٩- ١١٠.

(٢) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ص ١٠٩ - ١١٠.

أن يخصّص القسم الأول من القصيدة لذكر المحبوب والأطلال وحيث كانت تنزل قبيلته وقبيلة الشاعر من وقت لآخر، ويُعرَف هذا القسم من القصيدة «بالنسيب».

ومن نماذج ذلك قول أمرىء القيس:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

هكذا يتّضح لنا أن معارف العرب الجغرافية قبل الإِسلام ارتبطت بظروف بيئتهم ومتطلبات معيشتهم، وأنهم أودعوا الشعر الجاهلي جلّ أفكارهم ومعارفهم الجغرافية حتى لقد قال أبو هلال العسكري إن الشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستنبط آدابها ومستودع علومها.

أثر الإِسلام في إثراء الفكر الجغرافي

لا نجد دِيناً من الأديان اهتمّ بالعلم وحثّ على طلبه مثل الإِسلام، وفي ظل الإِسلام ازدهرت سائر أنواع المعرفة بصفة عامة والجغرافيا بصفة خاصة، ذلك أن كثيراً من العبادات في الإِسلام ترتبط بتحديد الأوقات مثل الصلاة والصوم، وتحديد الاتجاهات مثل الصلاة التي تتطلّب معرفة الاتجاهات الأصلية لتحديد القبلة مما دفع المسلمين إلى ابتكار وتحسين الوسائل والأجهزة المتنوّعة اللازمة لذلك.

وأُنشئت مراصد عديدة مثل مرصد دمشق على جبل قاسيون وقد تمّ بناؤه في عهد الأمويين، ومرصد بغداد وبني في عهد المأمون، ومرصد جبل المقطّم الذي أقامه الفاطميون في مصر.

وقد ساعد الحجّ على تلاقي الشعوب الإِسلامية وتبادل المعرفة الجغرافية، إذ إن الحجّ مؤتمر عام للمسلمين وهو فريضة على كل من استطاع إليه سبيلاً، وهكذا اندفع صوب جزيرة العرب مسلمون من كل فجّ عميق.

وأدّت حركة الفتوح الإِسلامية وما تطلبه ذلك من إنشاء جهاز البريد

ومدّ شبكة الطرق والمواصلات إلى ظهور كتب عديدة تعالج موضوع المسالك والممالك مثل كتب ابن خرداذبه والاصطخري وابن حوقل.

ونشط بعض الرحّالة المسلمين للبحث عن الأماكن التي ورد ذكرها في القرآن مثل رحلة عُبادة بن الصامت إلى بلاد الروم وزيارته للرقيم قرب القسطنطينية حيث يرقد فيه أصحاب الكهف، وذهاب محمد بن موسى الفلكي بعد ذلك ليستقصي خبر أهل الكهف، كما أن الخليفة الواثق (٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ / ٨٤٢م - ٨٤٧م) أرسل سلام الترجمان إلى الأصقاع الشمالية (أرمينيا وجورجيا وبلاد الخزر) ليرى سدّ يأجوج ومأجوج. وكان الخليفة قد رأى في منامه كأنما السدّ الذي بناه الإسكندر ذو القرنين قد انفتح. وينكر بعض المستشرقين هذه الرحلة، ومن أمثال هؤلاء سبرنجر Sprenger. ومن الأمور الأخرى التي شجّعت ازدهار المعرفة الجغرافية عند المسلمين، إنشاء بيت الحكمة أيام الرشيد في القرن الثاني الهجري، وقد ضمّ بيت الحكمة في رحاب البحث العلمي والترجمة علماء من كل الأقوام دون تعصُّب أو تحيُّز من النصارى واليهود، وكانوا يكافأون بوزن ما يترجمون ذهباً. ومما يقال في هذا المضمار أن المأمون طلب استقدام عالِم بيزنطي يدعى «ليو» إلى بغداد مقابل خمسة أطنان من الذهب[1] (أمر خيالي). ومما هو جدير بالذكر أن القرآن الكريم قد أثار الاهتمام بالجغرافيا في كثير من آياته التي تحثّنا على التأمُّل والتفكر في خلق السماوات والأرض، ويدعونا إلى النظر في مخلوقات الله وما سخّره لنا من نجوم وكواكب ورياح وأمطار حتى نهتدي إلى الإلمام بمقدرة الله عزّ وجلّ وأنه أتقن كل شيء خلقاً.

٤ ـ الإشارات الجغرافيّة في القرآن الكريم

حوى القرآن الكريم كثيراً من الحقائق الكونية، وفي هذا المجال يعجبني قول الشيخ محمد الغزالي: إن القرآن في الدلالة على الله «كون» ناطق، كما

(١) نفيس أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

أن هذا الكون الضخم «قرآن» صامت وكلاهما انبثق من ذات واحدة.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (سورة الزمر - ٢٧).

ولقد حضّنا الله سبحانه وتعالى على التفكير في القرآن الكريم وتدبّره، وأنكر على الذين يتركون تدبره إعراضهم عن التفكير في معانيه وآياته فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد - ٢٤).

وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى الذين يكتمون الكتاب ولا يبيّنونه فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة - ١٥٩، ١٦٠).

ومن حقّ القرآن علينا - نحن معشر المسلمين - أن نظهر دلائل إعجازه كلٌّ في مجال تخصُّصه، ونبصر بها المسلمين، ونستند في ذلك على أمور عديدة نذكر بعضاً منها:

أولاً: يستحيل أن تختلف حقيقة كونيّة وحقيقة قرآنيّة، وكيف تختلفان ومصدرهما واحد، وإذا بدا لنا أن هناك اختلافاً أو تعارضاً، فلنثق أنه ليس بين علم ودِين بل بين دِين وجهل تستّر وتوارى تحت اسم العلم، أو بين علم ولغو تمسّح بالدِّين.

ويذكر موريس بوكاي، العالِم الفرنسي الشهير في كتابه (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث) بعد دراسات طويلة ومقارنات، أن القرآن هو الكتاب المُنزَل من السماء الذي لا تتعارض آياته الكونيّة مع أية نظرية علمية، وأن صِدقَهُ في هذه النظريات يؤكد أنه وحيٌ من الله أنزله على خاتم الرسل سيّدنا محمد ﷺ، ومن الأمثلة العديدة التي استشهد بها بوكاي قضيّة اتّساع الكوْن، وهو حدث عظيم اكتشفه العلم الحديث، وكان المفهوم السائد هو ثبات الكون، ولاتّساع الكون دلائل تمَّ الاهتداء إليها بعد تتبّع صُوَر المجرّات وخصائصها، مما يؤكّد أن فسحة الكون في امتداد مستمرّ، فهل يمكن أن

يكون قول الله في الآية التالية: (والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون) متعارضاً مع هذه المفاهيم العلمية الحديثة[1].

ثانياً: جاء في سنن الترمذي في كتاب فضائل القرآن[2]: هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه.

وانطلاقاً من قول النبي عليه السلام لا تنقضي عجائبه، ينبغي لنا أن نوضح الإشارات القرآنيّة ودلالتها في ظلّ الحقائق التي وصل إليها العلم وبلغت مرتبة اليقين.

على أن ذلك يستوجب علينا أن نكون حريصين في الربط بين النظريات العلمية التي يصوغها العلماء وبين الآيات القرآنية؛ لأن النظريات تخطىء وتصيب وما يثبت اليوم قد يبطل غداً، أما القرآن فهو الحق الثابت لأنه قول الحق تبارك وتعالى وليس بحاجة إلى تأييد من نظريات بشرية ولنتذكّر حديث النبي عليه السلام، فعن ابن عبّاس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار.

إن عظمة ما أبدعه الله سبحانه وتعالى في الكون فوق ما يطيقه وعينا وإدراكنا المحدودان، ولقد قضت حكمة الله أن يتيح لنا بين الحين والآخر اكتشاف سرٍّ من أسرار كونه فتتجلّى معجزة من معجزات القرآن، ويعجبني في هذا المجال قول ابن الأثير:

(واعلم أن المتصدّي لحلّ معاني القرآن يحتاج إلى كثرة الدروس، فإنه كلما ديم على درسه ظهر من معانيه ما لم يظهر من قبل، وهذا شيء جرّبته وخبرته، فاني كنت آخذ سورة من السور، وأتلوها وكلما مرَّ بي معنى أثبته في ورقة مفردة حتى أنتهي إلى آخرها ثم آخذ في حل المعاني تلك التي أثبتّها

---

(١) موريس بوكاي (١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م)، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث، ترجمة المرحوم الشيخ حسن خالد، مفتي الجمهورية اللبنانية، المكتب الإسلامي، بيروت، ص ٢٠٢.

(٢) الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذي، جـ ٥، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوه، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٥م، ص ١٧٢. ١٧٣.

واحداً بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أُعاود تلاوة تلك السورة، وأفعل ما فعلته أولاً، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر في كل مرة من المعاني ما لم يظهر في التي قبلها).

ثالثاً: إن القرآن الكريم كلام الله، والله هو الأول والآخر والدائم والباقي، وكذلك كلامه هو الأول والآخر والدائم والباقي، ولا نهاية لفهم كلام الله، إنما يفهم كلٌّ بمقدار ما يفتح الله عليه. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (سورة ص - ٨٧، ٨٨).

وقال سهل بن عبد الله التُّستري:

لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صنعته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه... وكلام الله غير مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة مخلوقة[1].

رابعاً: يمرُّ بعضنا بآيات القرآن مرور العابر دون تدبّر أو تفكير، وبعضنا يتأمّل في آيات الله ويعمل بعقله إذ إنه يدرك أن لا دِين بدون عقل: ولقد صدق الله العظيم القائل في كتابه الحكيم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال - ٢٢).

وشتّان ما بين مسلم يتدبّر آيات الله، وبين مسلم آخر مغلق الذهن مكفوف البصيرة، وحسبنا في محاولة فهم آيات الله والتبصير بها أن المجتهد مثاب أخطأ أم أصاب ما دام يريد وجه الحق، ولا تثنينا أصوات أولئك الذين إذا ما سمعوا تفسيراً لم تألفه نفوسهم - بحكم ضيق أُفقها - حوقلوا وسبّحوا ورفعوا أصواتهم بالاحتجاج دون أن يتدبّروا هذه الحقائق اليقينية التي أُميط اللثام عنها وأورد القرآن ما يشير إليها منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وإلا فكيف يستقيم فهمهم لحديث النبي عليه الصلاة والسلام بأن القرآن لا تنقضي عجائبه! ويمكننا القول إن بعض الناس يرون أن الجغرافيا علم إلحاد، وما إخال

(١) الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، سنة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م، جـ ١، ص ٩.

الجغرافيا إلا علما عرف به كثيرون الطريق إلى الله.

إن درساً في الجغرافيا هو تسبيح وتحميد لله الذي أبدع نظام هذا الكون. إن تفسير القرآن لم يكتمل، ولا يزال يترقّى إلى كماله وغايته، وما دام الإِنسان يترقّى ويزيد علماً فإن فهمه للقرآن يزداد يوماً بعد يوم، ولقد أورثنا كتب التفسير، التي لا تُعدُّ ولا تحصى ولو أن سلفنا آمنوا بإغلاق باب التفسير بعد النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لحرمنا من هذا التراث الضخم الذي لا يزال يترقّى ويكتمل، وكثيراً ما نجد قول المفسّرين في تفسير آية: جائز أن يكون كذا.. وجائز أن يكون، وقال فلان... وقال آخرون، وفي هذه الآية وجهان من التأويل[1].

خامساً: هناك حقيقة يجب أن نعيها جيداً وهي أن القرآن ليس مرجعاً في الجغرافيا لكن ما فيه من إشارات تعطي صورة حقيقية عن الكون وستظلّ هذه الصورة في وئام مستمرّ مع مكتشفات العصور، لأن القرآن حقيقة أنزلها الحق، والحقيقة لا تتغيّر وإن تغيّرت الأزمنة والأمكنة. وفي القرآن معجزات لم يصل إلى بعضها العلم حتى الآن لأن هذه المعجزات هي ما تنتهي إليه حقائق الكون.

ولقد ارتكب المستشرق الروسي كراتشكوفسكي أكبر أخطائه حينما ناقش القرآن وكأنه يناقش مرجعاً جغرافياً يتحتّم عليه استيعاب كل التفصيلات فيقول: (ان المادة الجغرافية في القرآن طفيفة على العموم)[2] وما نود قوله لأمثال كراتشكوفكسي، إن القرآن الكريم الذي نزل لكافة الناس ولكل العصور يحمل من الإِشارات العامة ذات الصبغة الإِعجازية ما يجعله موضع الاقتناع في كل زمان ومكان.

ومما تجدر الإِشارة إليه أن علماءنا الفضلاء ينقسمون إلى فريقين في موضوع التفسير العلمي للقرآن، فريق يجيز التفسير العلمي للقرآن والآخر

---

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تفسير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، سنة ١٣٧٤هـ، جـ ١، ص ٤٥٠- ٤٥١، جـ ٣، ص ٣٠٤.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، المرجع السابق، ص ٤٥.

لا يجيزه ولكل من الفريقين حججه وأنصاره وإن كان المجيزون أكثر عدداً وأقوى حججاً.

ويرى المجيزون للتفسير العلمي للقرآن أنه تجديد في طرق الدعوة إلى الله وأنه فتح جديد خصوصاً وأن كثيراً من الاكتشافات الحديثة وردت إشارات لها في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، ومن الذين ينتمون إلى هذا الفريق، الشيخ الإمام محمد عبده، وتلميذه محمد رشيد رضا، والشيخ محمد أبو زهرة وغيرهم كثيرون. ويضع أنصار هذا الفريق قواعد وشروط لخوض هذا المجال من هذه الشروط[1]:

١ ـ لا يُفسّر القرآن إلا باليقين الثابت من الحقائق العلمية بعيداً عن النظريات والافتراضات التي لا تزال موضع دراسة وتمحيص.

٢ ـ حقائق القرآن هي الأصل فما وافقها قُبِلَ وما عارضها نُبِذَ نبذَ النواة

٣ ـ البُعد عن التكلف والتصنُّع في بيان إعجاز القرآن العلمي.

٤ ـ ضرورة التقيُّد باللغة العربية ومعاني مفرداتها إبّان فترة نزول الوحي ومراعاة القواعد النحوية ودلالتها.

أما المعارضون للتفسير العلمي للقرآن فمنهم شيخ الأزهر محمود شلتوت يرحمه الله، ود .محمد حسين الذهبي. ويرى المعارضون أن القرآن كتاب هداية وليس مرجعاً علمياً يتناول أنواع المعارف والنظريات العلمية المختلفة، كما أن العلوم لا تعرف الاستقرار فكل يوم يأتي بجديد، فهل نعرّض القرآن للدوران مع مسائل العلوم التي تختلف من زمان إلى آخر، كما أن التفسير العلمي للقرآن قد يدفع بعض المغرمين بذلك، التوّاقين إلى السبق إلى التأويل المتكلّف الذي لا يقبله الذوق السليم.

وخلاصة هذا الموضوع أن التفسير العلمي للقرآن مرفوض إذا اعتمد

(١) رابطة العالم الإسلامي (تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة) من بحوث المؤتمر العالمي الأول للإعجاز العلمي في القرآن والسنّة، إسلام آباد، باكستان (٢٥ـ ٢٨ صفر ١٤٠٨هـ) خلاصته بحث التفسير العلمي للقرآن بين المجيزين والمانعين، الشيخ محمد الأمين ولد الشيخ، ص ٦٨.

على النظريات العلمية التي لم تُثبت ولم تستقرّ، وتصل إلى درجة الحقيقة، وهو مرفوض كذلك إذا خالف ما دلّ عليه القرآن في موضع آخر، أو دلّ عليه صحيح السنة، والتفسير العلمي مقبول بعد ذلك إذا اتّبع قواعد أصول التفسير من الالتزام بما تفرضه حدود اللغة العربية وقواعدها وحدود الشريعة، وجاء ممّن رزقه الله علماً بالقرآن وتخصّصَ في العلوم التي حاول الربط بينها وبين الآيات القرآنية[1].

نماذج من الإشارات الجغرافية في القرآن الكريم

أولاً - حقائق عن السماء والنجوم:

ورد ذكر (السماء والسموات) في القرآن الكريم ثلاثمائة وإحدى عشرة مرة، ويتوارد ذكر ما فيها من شمس وقمر ونجوم، ولقد جاء ذكر الشمس ثلاثاً وثلاثين مرّة، والقمر سبعاً وعشرين مرّة والنجوم اثنتى عشرة مرّة. ويتّفق هذا الترتيب في كثرة الورود مع مقدار لمعان هذه الأجرام السماوية بالنسبة للإنسان، ومعروف أن الشمس أكثر لمعاناً بمقدار ٤٠٠ ألف مرّة من القمر، والقمر ثاني الأجرام السماوية لمعاناً بعد الشمس، ثم تأتي النجوم التي لا تظهر إلا إذا غابت الشمس.

ومن الآيات التي يقف عندها الإنسان كثيراً في ظلّ ما توفّر من معلومات حديثة عن الفلك، الآيتان ٧٥، ٧٦ من سورة الواقعة، تقول الآيتان الكريمتان: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾

وحتى نعطي فكرة عامة عن مواقع النجوم في إطار ما تيسّر من معلومات فلكية لدى الإنسان المعاصر، فإننا نشير إلى مجموعتنا الشمسية، والمجرّة التي تنتمي إليها.

إن كوكب الأرض الذي نعيش على سطحه يتبع مجموعة كواكب تدور حول الشمس تُعرَف بالمجموعة الشمسية، وبعض هذه الكواكب يتمّ

(١) تأصيل الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، مرجع سبق ذكره، ص ص ٦٩ - ٧١.

دورته حول الشمس في ٨٨ يوماً (عطارد)، ويكمّل (بلوتو) هذه الدورة في ٢٤٨ سنة (أرضية) ويبعد نجم الشمس عن الأرض بمقدار ٩٣مليون ميل في المتوسط أو ١٥٠ مليون كم، وتصل إلينا أشعة الشمس في ثماني دقائق وثلث وهي المدة التي تقطع فيها هذه الأشعة المسافة بين الشمس والأرض بسرعة تصل إلى ٣٠٠ ألف كم / ثانية، ولو تطير طائرة في اتجاه الشمس بسرعة ٤٠٠ كم / ساعة فلن تصل إلى الشمس إلا بعد ٤٢ سنة!.

وتُعتبر الشمس مجرّد نجم في مجرّة يطلق عليها «طريق التبانة» وتضمّ هذه المجرّة مائة ألف مليون نجم شقيق للشمس، ولكي نتصوّر مائة ألف مليون أجريت عملية حسابية لحساب الوقت الذي يستغرقه عدّ مائة ألف مليون بالآلة الحاسبة على أساس أن كل رقم يستغرق نصف ثانية فكانت النتيجة أن الزمن اللازم لعدّ المائة ألف مليون هو بكل بساطة ١٥٨٠ سنة.

هذه هي مجرّتنا، التي تدور المجموعة الشمسية حول مركزها مرة كل ٢٠٠ مليون سنة، بسرعة (٣٢٠ كيلو متراً) في الثانية، وصدق الحق تبارك وتعالى القائل: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (سورة يس - ٣٨).

وأقرب نجم إلى المجموعة الشمسية هو «قنطورس» الذي يبعد عنا بمسافة خمس سنوات ضوئية[1]، ويأتينا الضوء من مجرّة «المرأة المسلسلة» بعد مليون ونصف مليون سنة ضوئيّة.

ومن الآيات الأخرى التي تشير إلى بعض الحقائق الجغرافية قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ (سورة الطارق ١ - ٤).

لقد أحاط الله سبحانه وتعالى كوكب الأرض بغلاف غازيّ يحمي الأرض بما عليها من أخطار ملايين الشهب والنيازك (النجم الثاقب) التي تدخل إلى جوّ الأرض يومياً، بعضها يحترق قبل أن يصل إلى الأرض نتيجة الاحتكاك بالهواء، وبعضها يصل إلى الأرض بما تبقّى من كتلته، والشهاب

(١) السنة الضوئية هي المسافة التي يقطعها الضوء في السنة بسرعة ٣٠٠ ألف كم / ثانية.

والنيزك شيء واحد، و (النيزة) كلمة فارسية تعني الرمح القصير. ولقد أصبح مفهوم النيزك في عُرف الجغرافيين العرب المعاصرين، جسماً كونياً يشبه الشهاب، ولكنه أكبر منه حجماً، وتُشاهد بقايا منه حينما يسقط على الأرض، وأكبر نيزك وُجد على سطح الأرض حتى الآن يصل وزنه إلى ٨٠طناً، وهو موجود في غروتفونتين Grootfontein في جنوب غربي افريقيا.

ولولا وجود هذا الغلاف الغازي الذي تحترق فيه ملايين هذه الشهب لأُصيبت الحياة على سطح الأرض بأضرار جسيمة، فالله سبحانه وتعالى حافظٌ للحياة بهذه الحماية الممثّلة في الغلاف الغازي.

وهناك أمر آخر تجدر الإشارة إليه، وهو وجود طبقة تسمى طبقة الأوزون Ozone يتراوح ارتفاعها ما بين ٢٠ ـ ٥٥ كيلومتراً (ما بين طبقة ستراتوسفير والميسوسفير) وتتركّز في هذه الطبقة جزيئات الأوكسجين المعروفة بالأوزون حيث تتّحد فيها ثلاث ذرات من الأوكسجين بدلاً من اثنتين والسبب في وجود طبقة الأوزون هو تأثير الأشعة فوق البنفسجية على الأوكسجين العادي، وهذه الطبقة تعمل كدرع واقية تحمي سطح الأرض من معظم الأشعة فوق البنفسجية التي يرسلها نجم الشمس، ولو وصلت هذه الأشعة بكامل كثافتها وتركُّزها إلى سطح الأرض لقضت على كل أنواع البكتريا ولاحترقت أنسجة الحيوانات في كل نفسٍ تدبُّ فيها الحياة، وليس الإنسان فقط، حقاً إنّ كل نفس لما عليها حافظ![1].

ويشير (بوكاي) العالِم الفرنسي الكبير إلى أن القرآن وصف الشمس بأنها سراج وضياء، ووصف القمر بأنه نور. وهذا إعجاز قرآني كريم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ (سورة يونس ـ ٥).

ولو قارنّا ذلك مع ما جاء بالتوراة لوجدنا أن التوراة وصفت الشمس والقمر بأنهما منيران ولم تميّز مهمّتهما، ولكنّ القرآن أكّد أن الشمس والقمر ليسا من طبيعة واحدة، وقد تبيّن أن القمر يعكس ضوء الشمس الذي يتلقّاه، ولم يكن هذا

(١) ترتفع أصوات علماء البيئة الآن بالتحذير من الإسراف في استخدام مادة الكلوروفلوروكربون التي تؤدي إلى تآكل طبقة الأوزون، وقد عقدت عدة مؤتمرات دولية في هذا المجال.

بطبيعته أمراً معروفاً وقت نزول القرآن، بل كان سائداً أن الشمس والقمر منيران، إنه أمر ليس غريباً أن نجد من غير المسلمين مَن يُعاود قراءة معاني القرآن دون تعصُّب أعمى فيخضع للحقائق القرآنية ويعترف بها[1]، ويزداد عدد هؤلاء يوماً بعد يوم، وذلك مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (سورة فصلت - ٥٣).

ثانيا - حقائق عن الفضاء:

يقول الحق تبارك وتعالى ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (سورة الأنعام - ١٢٥) ومن الحقائق التي وصل إليها العلم أن نسبة الأوكسجين الذي يحتاجه الإنسان في التنفُّس تقلُّ في الهواء كلما ارتفعنا إلى أعلى[2]. وقد قدّر العلماء وزن الغلاف الغازي بخمسة آلاف مليون مليون طن (٥،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠،٠٠٠ طن) أي أن نصيب كل فرد على سطح هذا الكوكب يصل إلى نحو مليون طن من الهواء. وذلك إذا استأثر الإنسان دون سائر الكائنات الحيّة بالهواء، ويقع نحو ٩٧ ٪ من وزن هذا الغلاف الغازي في نطاق ٢٩ كيلو متراً فقط فوق سطح الأرض.

وحينما نتتبّع كلمات هذه الآية تستوقفنا كلمتان، الأولى: فعل «يصعَّد» المضعف. والتضعيف في الفعل يعطيه قوة ومبالغة، فيصعَّد تعني المبالغة في الصعود والارتفاع، لأن الشعور بالضيق في التنفُّس لا يظهر إلا بعد الارتفاع بضعة كيلو مترات (٣ - ٥ كم) والكلمة الأخرى «في السماء» فلم يقل الله سبحانه وتعالى «كأنما يصعد جبلاً» ولو قال ذلك لقيلَ إن محمداً ﷺ يتكلم من واقع خبرته نتيجة صعوده «للجبال» التي كان يأوى إليها في تعبُّده.

ومما أورده القرآن الكريم ويتعلّق بأمور الفضاء، طريقة الانتقال في الفضاء، ويقول بوكاي إن أول وصف في العالم تناول كيفية التنقُّل في الفضاء، جاء في القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، إذ يقول الحق

---

(١) أنور الجندي، د. ت، صفحات مضيئة من تراث الإسلام، دار الاعتصام، القاهرة، ص ١٣ .

(٢) يكوّن الأوكسجين نحو ٢١٪ من حجم الهواء حولنا، وإذا قلّت هذه النسبة عن ١١٪ يهلك الإنسان.

تبارك وتعالى: «وكلٌّ في فلكٍ يسبحون» ومعنى هذه الكلمات أن كل ما يتحرّك في الفضاء الخارجي لا يتحرّك بطريق المشي أو العدو ولا بأي طريقة أخرى، ولكن يتحرّك بما يشبه السباحة، وهي نفس الكلمة التي استخدمها العلماء في كل مكان بالعالم في الاتحاد السوفييتي (سابقاً) والولايات المتحدة الأمريكية وأوربا، ولا يمكننا أن نتخيّل رجلاً كان في القرن السابع الميلادي - مهما كان واسع العلم - وهو ما لم يكن عليه حال محمد الأمّي ﷺ، أن يتصوّر طريقة الانتقال في الفضاء اعتماداً على إمكاناته[1].

ثالثا - كرويّة الأرض:

قال تبارك وتعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾ (سورة الزمر - ٥).

فسّرَ القدماء قوله تعالى «يكور الليل على النهار» أي يجريان متعاقبين لا يفتران، وهذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة وغيرهم.

ينشأ النهار عن سقوط أشعة الشمس فوق سطح الأرض، وأشعة الشمس تسير في خطوط مستقيمة، فإذا أسقطت على أي جسم أظهرته، وحينما يقول الله تبارك وتعالى «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» معنى ذلك أن أشعة الشمس سقطت على كرة تكور النهار، ومن إعجاز هذا الأسلوب القرآني كذلك في قوله سبحانه وتعالى «يكور الليل على النهار، ويكور النهار على الليل» تعاقب الليل والنهار على هذه الكرة وتغطيتها بالليل ثم يمحي الليل بالنهار. وقد تناول الإمام ابن حزم الأندلسي (توفي سنة ٤٥٦هـ) موضوع كروية الأرض تحت عنوان «مطلب بيان كروية الأرض» وذكر أن البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها قال عزّ وجلّ: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» وهذا أوضح بيان في تكوير بعضها

(١) بوكاي، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٧.

على بعضها مأخوذ من كور العمامة[1] وهو إدارتها.

قال سيّد قطب ـ يرحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى (يكور الليل على النهار... الآية) وهو تعبير عجيب يقسر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على أن لا أحمل القرآن على النظريات التي يكتشفها الإنسان) مع هذا الحرص، فإن هذا التعبير يقسرني قسراً على النظر في موضوع كروية الأرض)[2].

ورُبَّ معترض يقول إن هذا يتنافى مع قوله تعالى والأرض مددناها أي بسطناها، لكننا نقول لهؤلاء المعترضين إن هذا دليل آخر على كروية الأرض، لأن الأرض لو كانت أي شكل آخر غير كرة، مكعّباً أو قرصاً أو منشوراً، فإن هذا الشكل ستكون له أركان وحوافٍ ولا ينطبق عليه قوله تعالى «والأرض مددناها» إن الكرة هي الشكل الوحيد الذي يفسّر قوله تعالى والأرض مددناها لأنها تكون مبسوطة دون حوافٍ في أي اتجاه مهما سرَت من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، فالأرض ممدودة دون حوافٍ ولا نهايات.

رابعاً ـ دوران الأرض:

قال تعالى : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة النمل ـ ٨٨).

هذه الآية الكريمة تدلُّ على حركة الأرض والتي أصبحت حقيقة يقينيّة، وان كان القدماء قد فسّروها بيوم القيامة، فليس هناك ما يمنع القول بأنها تشير إلى حقيقة دوران الأرض.

تقول الآية الكريمة «تحسبها» وفعل «تحسبها» لا يكون صفة من صفات الإنسان في يوم الهول الأعظم يوم تذهل كل مرضعة عمّا أرضعت. وتقول الآية الكريمة «مرَّ السحاب» والسحاب يمرُّ في كل لحظة، ثم ختمت الآية

---

(١) الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، جـ ٢، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، بدون سنة طبع، ص ٩٥.

(٢) سيّد قطب، في ظلال القرآن،تفسير سورة الزمر، آية ٥.

الكريمة بما يدلّ على قدرة الله سبحانه وتعالى وإتقان صنعه، وكمال إعجازه ولو كانت الآية تصف يوم القيامة لخُتمت بغير هذه الكلمات.

والمفسّرون الذين فسّروا الآية السابقة بأنها تشير إلى يوم القيامة يستندون في ذلك إلى أن هناك آيات كثيرة تشير إلى تسيير الجبال يوم القيامة مثل قوله تعالى في سورة النبأ «وسيّرت الجبال فكانت سراباً» وقوله: «وتسير الجبال سيراً». ولكننا لو تتبّعنا هذه الآيات لما وجدنا فعل «تمرّ» لأن لهذا الفعل وقعاً آخر، ومرّ «السحاب» أي باستمرار لأن مرور السحاب لا ينقطع ولقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى الجبال لأن مرورها أبعد ما يتصوّره الإنسان بسبب ضخامتها، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: «أيها الإنسان إن هذه الجبال الضخمة التي تحسبها جامدة تمرّ في سهولة ويُسر كما يمرّ السحاب باستمرار، وهذا من إبداع الله سبحانه وتعالى الذي أتقن كل شيء».

وجدير بالذكر أن هناك من ينكر دوران الأرض[1]، ويستدلّ ببعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (سورة لقمان ـ ١٠)، والردّ على هؤلاء أن الله سبحانه وتعالى لم يقل إن الأرض راسية بل قال ألقى في الأرض رواسي، ويمكن تشبيه ذلك بالطائرة، فإذا قلنا إن في الطائرة مقاعد راسية ثابتة فهل يعني ذلك أن الطائرة لا تتحرّك؟. ويقول الحق تبارك وتعالى في سورة فصلت: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ (آية ١٠)، أي أن الرواسي فوق الأرض وهذه الإشارة تتضمن أن الأرض ليست راسية تماماً كالمركبة المتحركة وبها المقاعد الراسية فوقها!

خامساً ـ ظاهرة الليل والنهار:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (سورة الحديد ـ ٦) يتساوى الليل والنهار مرّتين في

(١) أنظر كتاب (الأدلة النقلية والحسية على جريان الشمس وسكون الأرض وإمكان الصعود إلى الكواكب) للشيخ عبد العزيز بن باز، من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة ١٣٩٥هـ، ص ٢١ ـ ٣٠.
قال ابن كثير في شرح قوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي يدورون في فلك السماء. قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني.

السنة إحداهما في ٢١ مارس (الاعتدال الربيعي) والأخرى في ٢٣سبتمبر (الاعتدال الخريفي)، ويزيد طول النهار بالنسبة لنصف الكرة الشمالي في فصل الصيف حينما تتعامد الشمس على مدار السرطان، ويقصر الليل ويحدث العكس في فصل الشتاء حينما تتعامد الشمس على مدار الجدي، وهذه الحقيقة تفسّر قوله تعالى «يولج الليل في النهار» أي يدخل جزءاً من الليل في النهار وذلك في فصل الصيف حينما يتعدّى نصيب النهار أكثر من نصف اليوم، ويولج النهار في الليل، وذلك حينما يتعدّى نصيب الليل أكثر من نصف اليوم في فصل الشتاء، ويعطي استخدام فعل يولج صفة الدخول التدريجي.

سادساً ـ (ربُّ المشرق والمغرب)، (ربُّ المشرقين وربُّ المغربين)، (ربُّ المشارق والمغارب):

جاء بالقرآن الكريم قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (سورة المزمل ـ ٩).

وقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (سورة الرحمن ـ ١٧).

وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (سورة المعارج ـ ٤٠).

حار بعض المفسّرين القدماء واختلفت آراؤهم حول الجمع بين (رب المشرق والمغرب، ورب المشرقين ورب المغربين ورب المشارق والمغارب).

وربما كان الجغرافي أقدر من يفسّر هذه الآيات الكريمة، إذ إنه من المعروف أن هناك أربعة اتجاهات رئيسية شمال وجنوب، وشرق وغرب، واهتمّ المسلمون والإسلام بالمشرق والمغرب لارتباطهما بالشروق والغروب والعبادات.

فالمقصود بقوله تعالى (رب المشرق والمغرب) أي رب المشرق الذي تشرق منه الشمس ورب المغرب الذي تغرب فيه الشمس، ويفصل بين الشرق والغرب منتصف النهار، وبالنسبة لقوله تعالى (رب المشرقين ورب المغربين) فتفسيره، أن الشمس تشرق في فصل الصيف شمالي خط الاستواء وأقصى

بُعد لها جهة الشمال يكون في يوم ٢١يونيو (الانقلاب الصيفي) حيث تشرق متعامدة على مدار السرطان، وفي الشتاء تشرق الشمس من جنوبي خط الاستواء، وأقصى بُعد لها صوب الجنوب بالنسبة لنصف الكرة الشمالي يكون يوم ٢١ديسمبر الانقلاب الشتوي، إذاً فهناك مشرق للصيف، ومشرق للشتاء، ومغرب للصيف وآخر للشتاء.

ولو تتبّعنا شروق الشمس كل يوم لوجدناها تشرق من مكان غير الذي أشرقت منه في اليوم السابق، وتغرب كذلك في غير المكان الذي غربت فيه اليوم السابق، إذ إنه من المعروف جغرافياً أن الشمس في حركتها الظاهرية تتحرك في تعامدها في فصل الصيف من فوق خط الاستواء إلى مدار السرطان، وهكذا يكون لها في كل يوم من أيام الصيف مشرقٌ ما بين خط الاستواء ومدار السرطان، وتتحرّك في الخريف من مدار السرطان إلى خط الاستواء، ثم تتحرّك في فصل الشتاء من خط الاستواء إلى مدار الجدي، وتتحرّك في فصل الربيع من مدار الجدي إلى خط الاستواء، وهكذا يكون لها كل يوم مشرق ومغرب جديدان فمشارق الشمس ومغاربها تتغيّر بتغيُّر الأيام.

وانطلاقاً من هذه الحقائق اليقينيّة الجغرافية نجد أن مدلول هذه التعبيرات القرآنية «رب المشرق والمغرب»، «رب المشرقين ورب المغربين» و «رب المشارق والمغارب» أنه سبحانه وتعالى هو رب الزمان والمكان.

سابعاً ـ توزيع اليابس والماء: أذهلني حقاً وأنا أحصي كلمات بحر وبحار في القرآن الكريم أني وجدتها إحدى وأربعين مرة، وجاء ذكر «البر» بمعنى اليابس (اثنتى عشرة مرة، أي بنسبة ٢٣٪ تقريباً للبرّ (اليابس)، ٧٧٪ للبحر وهذه النسبة تقارب نسبة التوزيع الحالي لليابس والماء فوق سطح الأرض الذي ينقسم بنسبة ٢٩٪ لليابس، ٧١٪ للبحار. فإذا عرفنا أن هذا التوزيع الحالي لليابس والماء ليس إلا صورة مؤقتة تتغيّر باستمرار، وأنها كانت في العصور السابقة على غير ما هي عليه الآن، وقد تتغيّر مستقبلاً، أدركنا دقّة التقارب، وأهمية عدم التطابق، لأن النسبة لو تطابقت مع ما هو موجود الآن لكان معنى ذلك اختلافها عما كان عليه توزيع اليابس والماء في العصور السابقة.

هذه بعض الإشارات الجغرافية، الواردة في القرآن الكريم والتي تؤكد حقائق يقينية، وليست نظريات ما زالت في طور التمحيص، وحسبي في عرضها أن المجتهد مثاب أخطأ أم أصاب.

قبل أن نترك موضوع الإشارات الجغرافية في القرآن الكريم، ينبغي لنا أن نتصدّى لبعض الافتراءات التي حاول بها المستشرق الروسي كراتشكوفسكي التشكيك في القرآن الكريم متّخذاً من عنوان «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ستاراً يحمي دسائسه كدأب أعداء الإسلام، الذين يتّخذون من البحث العلمي وسيلة يتستّرون بها لمهاجمة الإسلام.

٥ ـ كراتشكوفسكي والأدب الجغرافي العربي

في القرآن الكريم

يُعدُّ مصنّف كراتشكوفسكي Iganti u. Krachkovski المعروف «بتاريخ الأدب الجغرافي العربي» Istoria Arabskoi Geograficheskoi Literatury من أهم المؤلفات التي تناولت الجغرافيا عند العرب، وعمّت شهرته أوساط المستشرقين، ونظراً لمكانة هذا المصنّف قامت الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية بترجمته.

كلمة عن كراتشكوفسكي:

وُلد أغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي في مارس سنة ١٨٨٣ بمدينة ويلنا Vilna عاصمة ليتوانيا Lithuania لكنه انتقل في سنيّ طفولته الأولى مع أبيه إلى طشقند Tashkent فبهر برؤية المساجد والأسواق الشرقية، وترك ذلك انطباعات شديدة الوقع في نفسه دفعته دفعاً إلى الشرق، فقام برحلات كثيرة إلى بلدان الشرق العربي وتردَّد على مكتباتها في القاهرة، ودمشق، والقدس، وبيروت سعياً وراء المخطوطات العربية.

وقد تركّزت اهتمامات كراتشكوفسكي على مجالات الشعر العربي، وأدب النصارى العرب وتاريخ الأدب العربي المعاصر، وتاريخ الجغرافيا عند

العرب، وقد اهتمّ كراتشكوفسكي بالجغرافيا عند العرب والمسلمين في العشرين سنة الأخيرة من حياته، ولعلّ سبب ذلك أنه كان عضواً في الجمعية الجغرافية الروسية منذ سنة ١٩٠٩م واختير نائباً لرئيسها في الفترة من سنة ١٩٣٩م حتى سنة ١٩٤٥م، وقد ارتكز كراتشكوفسكي في كتابة مصنّفه «تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب» على دعامتين:

الأولى هي: اهتمامه الخاص بالجغرافيا، أما الدعامة **الثانية فهي معرفته** العميقة بالأدب العربي والحضارة الإسلامية.

ويصل عدد الأبحاث المطبوعة والمقالات التي كتبها كراتشكوفسكي في مجالات الأدب والتاريخ والجغرافيا عند المسلمين، إلى أربعمائة وثمانية وخمسين بحثاً ومقالاً.

وقد توفي كراتشكوفسكي في ٢٤ يناير سنة ١٩٥١ عن ثمانية وستين عاماً.

ملاحظات عامة حول مصنّف كراتشكوفسكي (تاريخ الأدب الجغرافي العربي):

يُعدُّ هذا المصنف ثمرة للمحاضرات التي ألقاها كراتشكوفسكي منذ سنة ١٩١٠ بالمعهد الشرقي بجامعة بطرسبرغ في الأدب الجغرافي العربي، واستغرق تدوين هذا الكتاب الفترة ما بين عامَي ١٩٣٨، ١٩٤٥، وقد مات كراتشكوفسكي سنة ١٩٥١ قبل أن يرى مصنّفه النور، لكن الدوائر العلمية فيما كان يعرف بـالاتحاد السوفيتي أشرفت على إصدار هذا المصنّف بعد وفاة صاحبه بستة أعوام، وقد قام بترجمته إلى العربية صلاح عثمان هاشم سنة ١٩٦١م.

ويقع المصنّف في جزأين ويشتمل بفهارسه على ٩٧٥ صفحة من القطع الكبير، وحديثنا عن مصنّف كراتشكوفسكي سيقتصر على ما ورد به من تهكّمات هاجم بها بعض الإشارات الجغرافية الواردة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية. وقد دفعني إلى كتابة هذا المقال ما لمصنّف كراتشكوفسكي من شهرة عالمية، وأنه لم يجد من بين الجغرافيين المسلمين متحمّسين يتصدُّون لافتراءاته على القرآن والأحاديث النبوية اللهم إلا الدكتورة بنت الشاطيء «جازاها الله عن ذلك كل الخير» التي أوضحت قصور كراتشكوفسكي وعجزه عن فهم أسرار العربية وأسلوب القرآن.

وما زال هذا المصنّف في حاجة إلى دراسات متعدّدة للردّ على ما به من سموم إلحادية، وضروري أن تترجم هذه الدراسات إلى اللغات المختلفة وذلك لتفنيد تلك الأباطيل التي هاجم بها كراتشكوفسكي «الإسلام» متستّراً وراء المادة الجغرافية بالقرآن.

وعلى قدَر طاقتي وإيماناً بواجبي الديني والجغرافي أستطيع أن أتناول أهم ما يؤخذ على هذا المصنّف على النحو التالي:

أولاً: لم يتخلّص كراتشكوفسكي من التعصُّب الإلحادي الممقوت الذي يشهد به كل سطر من كتابه، بل يكاد ينطق به كل حرف من حروف كلماته التي صاغ منها سطوره عندما تناول المادة الجغرافية في القرآن الكريم.

لقد أقحم هذا المستشرق العقيدة الدينية، في هذا المصنّف وتناول القرآن الكريم على أنه من وضع محمد ﷺ، وافترض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التي حصل عليها محمد عن طريق السماع، حيث يقول كراتشكوفسكي في ص ٤٥، جـ ١: «من الجلي أن محمداً كان رجلاً أميًّا وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيراً لأنها تسوقنا إلى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التي حصل عليها محمد عن طريق السماع...».

وهكذا حاول كراتشكوفسكي أن يتّخذ من هذا البحث مطيّة يصل بها إلى مهاجمة القرآن متجاهلاً أبسط أصول مناهج البحث العلمي التي تقتضي ترك القول في هذا الموضوع تركاً تاماً، نحن لا نطلب منه، ولا نلزمه بأن يشير إلى القرآن بأنه من لدن الله، لأنه من الذين أعمى الله بصيرتهم، وفي نفس الوقت لا ينبغي له أن يبثّ سمومه ويقحم عقيدته الإلحادية في هذا البحث. وكان بوسعه أن يشير إلى القرآن بقوله «الذي يعتقد المسلمون بأنه من وحي الله» وكان من الأفضل أن يركّز اهتمامه على المادة الجغرافية في النص القرآني دون التعرُّض لمهاجمة عقيدة المسلمين في القرآن. أما ما لجأ إليه كراتشكوفسكي من أن القرآن الكريم من وضع محمد عليه الصلاة والسلام فهذا أمر يشهد بأنه أسير تعصُّبه وأفكاره الإلحادية. وهو ليس بدعاً في هذا الاتجاه فكل المستشرقين غير المسلمين يتّفقون فيه، وهذا طبعي منهم لأنهم على دين غير الإسلام.

ثانيا: هاجم كراتشكوفسكي ما ذكر في القرآن بشأن السماء فقد نصّ القرآن على أنها شيّدت بعضها فوق بعض طبقة طبقة «طباقاً» ص ٤٦، جـ ١، وبشكل متين «شداداً» وهي على شكل «طرق» تسلكها الشمس والقمر كلٌّ يسبح في فلكه.. وهذه السموات السبع تقف دون عَمَد ومعتمدة على القدرة الإلهية فحسب، غير أن صورتها مادية بشكل واضح، ففي أكثر من موضع يرد الكلام، ولو مجازاً بإمكان سقوط قطع منها «كسف» وأنها قد شيّدت بناءً أو سقفاً.

لقد تصدّت بنت الشاطىء وأحسنت في ردّها على ما ذكره كراتشكوفسكي بأن صورة السماء في القرآن مادية، وأوضحت قصوره وعجزه عن فهم أسرار العربية وأساليبها البيانية، وعلى سبيل المثال فإننا نقول: يبنى مستقبله، ويبني الحضارة. فهل المستقبل «مادي» قابل للبناء. ويقول الفرزدق:

إن الذي سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمه أعزُّ وأرفعُ

ونضيف إلى ما ذكرته بنت الشاطيء لغوياً بعض الحقائق الجغرافية:

إن مفهوم السماء جغرافياً ولغوياً من السموّ أي العلوّ، ويقال لكل ما ارتفع وعلا قد سما يسمو والسماء[1] كل ما علاك فأظلّك، والسماء سقف كل شيء، وقد جاء في الشعر العربي:

وقالت سماء البيت فوقك مخلق   ولما تيسّر اجتلاء الركائب

وإذا ما نظر الإنسان إلى أعلى فقد نظر إلى السماء التي تشمل كل ما بها من أجرام سماوية. ويقسم علماء الجغرافيا حالياً الغلاف الغازي إلى طبقات، طبقة فوق طبقة، ويتفق ذلك مع ما ذكره القرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من وجود طبقات وإن كنا لا نراها فقد توصل العلم إليها وأثبت وجودها.

وكان أعضاء لجنة الغلاف الجوي العالمي High Atmosphere التابعة

(١) لسان العرب المحيط، إعداد وتصنيف يوسف خياط، نديم مرعشلي، جـ ٢، ص ٢١١.

لمنظمة الأرصاد الجوية العالمية World Meteorological Organization في اجتماع عقدوه بروما في شهر أغسطس سنة ١٩٦١ قد أجمعوا رأيهم على تحديد أربع طبقات تكون الغلاف الجوي ابتداء من سطح الأرض حتى ارتفاع يتراوح ما بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ ميل. على النحو التالي: التربوسفير Troposphere ستراتوسفير Stratosphere ميسوسفير Mesosphere ثرموسفير Thermosphere.

وقد أضافت الأبحاث التي قامت بها الأقمار الصناعية ورحلات الفضاء الأمريكية طبقة خامسة تعلو الطبقات السابقة أطلق عليها المغنيتوسفير Magnetosphere أي الطبقة المغنطيسية. وتمتد ما بين ٧٠٠ إلى ٤٠٠٠٠ ميل فوق سطح الأرض[1] ومعنى ذلك أن العلم الحديث كشف خمس طبقات متميزة بعضها عن بعض في الخصائص وكانت مجهولة تماماً منذ نزول القرآن إلى الآن، أليس هذا إعجازاً قرآنياً إلاهياً؟.

إذاً إن ما نراه فوقنا من غلاف غازي هو عبارة عن طبقات مختلفة وإن كنا لا نرى الفواصل التي تفصل بينها لكن العلم اكتشفها، ويجب أن نشير إلى أنه لا يجوز الجزم بمدلول السماوات السبع التي تشير إليها الآيات الكريمة اعتماداً على نظريات فلكية صاغها العلماء لأن مثل هذه النظريات قابلة للتعديل والتصحيح لأن ما يثبت اليوم قد يكتشف بطلانه غداً.

المقصود بالطرائق:

من الحقائق الفلكية أن لكل كوكب أو نجم طريقاً هو المعروف باسم المدار الذي يدور فيه الكوكب أو النجم فهناك مدارات أو «طرائق».

وأورد القرآن الكريم أن السماوات تقف دون عمد، ولقد استعصى فهمُ هذه الحقيقة الجغرافية على كراتشكوفسكي...، بل قل إنه تعامى عن المدلول العلمي الصحيح لهذا التعبير.

---

(١) Rumney, Roger, Climatology and the Worlds Climates, London. 1970, p.16.

وتوضيح ذلك أن هناك قوّتين تمنعان سقوط الأجرام السماوية بعضها على البعض الآخر وهاتان القوّتان هما قوّة الجذب التي تهيمن بها النجوم على كواكبها التابعة لها، وتحافظ هذه القوة على عدم ابتعاد الكواكب عن نجومها، وقوّة الطرد المركزيّة الناشئة عن دوران الكواكب حول نفسها. وتحافظ القوّة الأخيرة على بُعد الكواكب بمقدار معيّن عن النجوم التابعة لها، كما هي الحال بالنسبة للأرض والشمس، ويقدّر العلماء أن الأرض لو كفّت عن الدوران فإنها ستسقط، أي تنجذب صوب الشمس، وفيما يتعلّق بما أورده كراتشكوفسكي بإمكان سقوط قطع من السماء «كسفاً».. فتفسيره الجغرافي واضح معروف فيما نطلق عليه الشهب والنيازك، وهي الأجسام التي تأتي من الفضاء إلى جوّ الأرض، ونتيجة لاحتكاكها بالهواء فإنها غالباً تحترق وتصبح رماداً قبل أن تصل إلى الأرض، وقد تتبقى منها كُتَل من الحديد والنيكل ترتطم بسطح الأرض. ومعروف أنه في اليوم الواحد يدخل إلى الغلاف الجوّي آلاف الملايين من النيازك، وقلّما يقترب أحد هذه النيازك إلى أكثر من أربعين ميلاً من سطح الأرض دون أن يحترق، وأكبر نيزك وُجد حتى الآن يصل وزنه إلى ٨٠ طناً وهو موجود في جروتفونتين بجنوب غربي أفريقيا.

ثالثاً: ذكر كراتشكوفسكي: (ص ٤٦، جـ ١)، إذا كانت نظرية السماوات تلعب الدور الرئيسي في المتصوّرات القرآنية عن السماء، فإنه قد وُجد فيما يتعلّق بالأرض نظريات ارتبط بها الأدب الجغرافي على مرّ تاريخه. وإحدى هذه الأفكار الرئيسية هي أن الأرض مسطّح ثابت.. وقد عبّر القرآن عن هذا عادة بمقارنات حسيّة مباشرة، فالأرض تشبه «الفراش» و «البساط» و «المهاد».

إن هذا أسلوب بياني وتشبيه رائع، شبّه الأرض بالمهاد والبساط إشارة إلى الاستقرار وسهولة الحركة والحياة فوق سطحها، لكن تعصُّب كراتشكوفسكي الإلحادي دفعه للقول بأن القرآن قرّر نظرية ثبوت الأرض وتسطحها فخالف العلم في كرويتها ودورانها.

ونحن نتساءل أليست الأرض مهاداً وبساطاً للإنسان؟

إنه لمن الأمور التي تدمغ مصنّف «تاريخ الأدب الجغرافي عند العرب» بإسرافه وغلوائه في تعصُّبه الإلحادي أن يتعامى أو يتجاهل كاتبه كراتشكوفسكي عن قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ «سورة الزمر - آية ٥» ألا يوجد في هذه الآية ما يشير إلى كروية الأرض!، فالليل يكور (أي يغطي كرة) ويعقب النهار فيكور الليل ظلامه على المناطق التي كان النهار مكوراً عليها، لأن النهار لا يأخذ شكل كرة إلا إذا سقط الضوء على كرة، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل.

أما قوله بأن الأرض (مسطّح ثابت) ففي سورة النمل - آية ٨٨- ما يشير إلى دوران الأرض ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ هذه الآية الكريمة تدلُّ على حركة الأرض، والتي أصبحت حقيقية يقينية، وقد سبق لنا تفسير هذه الآية.

رابعاً: يقول كراتشكوفسكي (ص ٤٧، جـ ١) متهكّماً وساخراً:

وفقاً لما جاء في القرآن فإن الجبال تخدم غرضاً خاصاً هو جعل الأرض تثبت في حالة من التوازن كيلا تميد ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ «سورة النحل - ١٥» ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [(١)] «سورة الأنبياء - ٣١» ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ «سورة لقمان - ١٠».

لقد توصّل العلماء إلى التمييز بين طبقتين تكوّنان قشرة الأرض وقيعان المحيطات على النحو التالي:

(١) طبقة السيما Sima وتكوّن قيعان المحيطات وهي من الصخور النارية معظمها سليكا (Si) ومغنسيوم (Ma) ويبلغ سمكها نحو ١٢٠كم وكثافتها ما بين ٢،٩ إلى ٣،٦ جم/سم^{3}.

(٢) طبقة السيال Sial وتمثّل سطح كتل القارات وتتكوّن أساساً من سليكا (Si) وألمنيوم (Al)، ويختلف سمكها من جهة إلى أخرى، لكن العلماء

(١) جاء في الأدب الجغرافي العربي، «أن هذه الآية هي الثانية والثلاثون من سورة الأنبياء (ولا ندري هل الخطأ من كراتشكوفسكي) أم من المترجم.

اتفقوا على أن متوسط سمكها ٥٠ كم، أما كثافتها فهي في المتوسط ٢،٧ جم/سم٣ . ويرى العلماء أن القارات المكوّنة من «السيال» تطفو على قيعان الأحواض المحيطية المكوّنة من «السيما» ولكي تحتفظ كتل السيال الجرانيتية بتوازنها، كان لا بدّ أن تكون لها جذور تتعمّق في السيما وكأنها أوتاد تثبيتها، وقدّر العلماء الأجزاء المغمورة من «السيال» في «السيما» بنحو ثمانية أمثال الجزء الظاهر، أي أن الكتل الجبلية أو «الرواسي» ذات جذور أو أوتاد عميقة في مادة السيما، كما هي الحال في الكتل الجليدية الطافية على سطح الماء (شكل ٣).

ويُطلق على هذا الافتراض الذي يكاد يجزم به بعض العلماء ظاهرة التوازن الأرضي Isostasy.

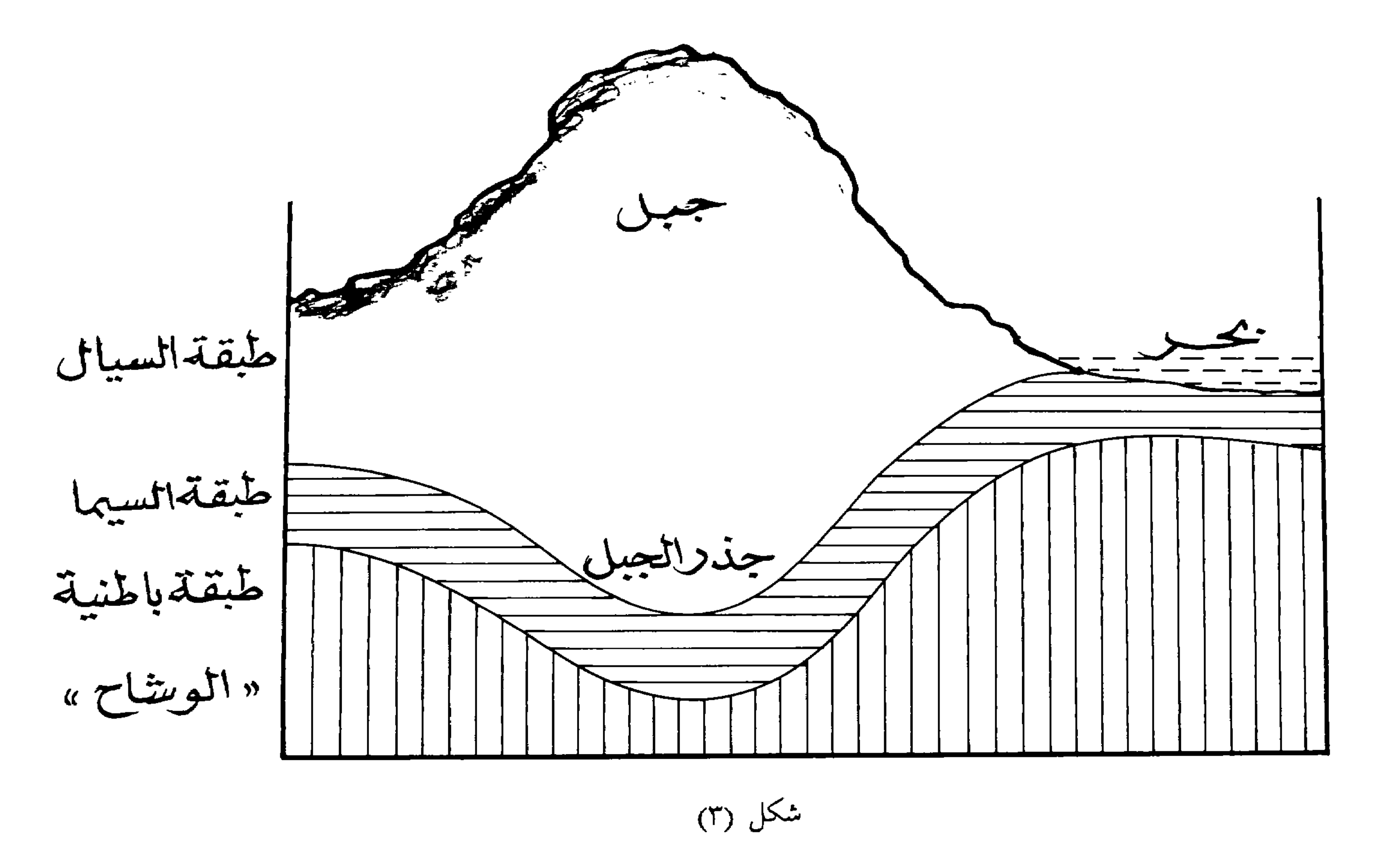
وقد صاغ الجيولوجي الأمريكي دتون Dutton في نهاية القرن (١٩) «نظرية التوازن»، المشهورة ومفادها أن الصخور النارية المكوّنة من مادة «السيال» تتعمّق في طبقة «السيما» بمقادير تتناسب مع ارتفاعها حتى يؤدي ذلك إلى ثباتها وتظلُّ الأرض محتفظة بكرويتها دون أن تتأثّر بحركة الدوران. وقد مثل بعض الجغرافيين الجبال بالسفن إذ كلما زاد ارتفاعها زاد وزنها وزاد غاطسها(١).

وهكذا تبطل هذه الآراء العلمية الحديثة تهكّمات كراتشوفسكي على ما ورد بالقرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من أن الجبال تحافظ على توازن الأرض.

وهناك أمر آخر يعرفه أكثر الجغرافيين جيداً، وهو أنه لولا وجود التضاريس الأرضية الممثّلة في السلاسل الجبلية والأحواض المحيطيّة، لما كانت هناك حياة على سطح الأرض بصورتها الحاليّة وأنه لو فرض وكان سطح الأرض مستوياً لغمرت مياه البحار والمحيطات سطح الكرة الأرضية بطبقة يصل عمقها إلى ٨٠٠٠ قدم أو ٢٤٤٠ متراً.

---

(١) Tarbuck Edward, J., and Frederick K., Earth Science, Ohio 1976, P. 162.


جبل
بحر
طبقة السيال
طبقة السيما
جذر الجبل
طبقة باطنية
« الوشاح »

شكل (٣)

خامساً: يعترض كراتشكوفسكي على مثل الآية الكريمة «مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان» فقد تناول ما أسماه «النظرية القائلة بوجود بحرين» في نحو خمسين سطراً من مصنّفه، وذكر بأن هذه النظرية تكاد تكون أعسر مشكلة في الأدب الجغرافي العربي على الإطلاق (ص ٤٧، جـ ١). وتناول كراتشكوفسكي الآراء المختلفة التي تعدّدت لتوضيح المراد بهذين البحرين، وأشار إلى أن بعض الآراء أوضحت بأن المراد من البحرين (هو البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي بخليجه الذي يتمثّل في البحر الأحمر، وأن البرزخ المقصود هو برزخ السويس.) وأضاف كراتشكوفسكي يقول (وقد أهملت في هذا الصدد إن قصداً أو سهواً إشارة القرآن إلى أن أحد هذين البحرين عذب، وأن الآخر ملح ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (سورة الفرقان ـ ٥٣). ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (سورة فاطر ـ ١٢)﴾

ويشير كراتشكوفسكي في (ص ٣٤، جـ ١) بعد استعراض الآراء المختلفة إلى أنه من العبث البحث عن تفسير لها في واقع الأحوال بالأرض. ويضيف قائلاً: ومما زاد في اللبس أكبر أن هذه المسألة لم تكن واضحة لمحمد نفسه وأن ألفاظه في عدد من المواضع تحمل طابع الغموض. أي أحقاد إلحادية تلك التي صاغت هذه السطور... وأي تعصُّب أعمى هذا الذي يوصد باب البحث ويقول إنه من العبث البحث عن تفسير لها في واقع الأحوال بالأرض، ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (سورة يونس ـ ٣٩).

إن الحقيقة التي لا تقبل الشكّ هي أن عرض كراتشكوفسكي لهذا الموضوع بتلك الصورة يوضح عجزه عن فهم اللغة العربية. إذ ليست هناك مشكلة أو نظرية تتعلّق بالبحرين، ولقد أصابت بنت الشاطىء حين أشارت إلى هذا الموضوع بقولها إنه من المألوف في لغتنا العربية أن نثني الشيئين بتثنية

أحدهما على التغليب، أي ترجيح أحدهما على الآخر فنقول: «الوالدان» على الوالد والوالدة، و «الأبوان» على «الأب والأم» وكذلك «البحرين» على البحر المالح والنهر العذب تغليباً.

«وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج» وكان أجدر بكراتشكوفسكي أن يعرف بأنه لا يوجد بحر عذب، وأن المقصود بالبحرين هو البحار و «الأنهار» والبرزخ هو المستوى الفاصل بينهما، فالأنهار ترتفع في منسوبها فوق مستوى سطح البحر لأنها تجري على سطح الأرض ويحميها هذا الارتفاع من أنْ تُلوَّث بمياه البحار المالحة، ومدلول الآية ببساطة، أن الله جعل الماءين الملح والعذب يمتزجان تماماً فتتلامس جزيئاتهما بدون طغيان الملوحة على العذوبة، وهذه الظاهرة مرئيّة بالعين عند مصبّات الأنهار في البحار، بل توجد في منطقة (البحرين) عيون عذبة في أعماق قاع البحر المالح ويُنزِل الملاّحون الدِّلاء ويستخرجونها.

ويعتقد محمد متولّي أن المقصود بالبحرين في القرآن الكريم هو منطقة الخليج حيث كان الغوّاصون يحملون قراب الماء ويغوصون بها في ماء الخليج الملح بعد أن يحكموا إغلاقها حتى إذا بلغوا القاع أو اقتربوا منه (الأعماق هنا قليلة تتراوح بين ١٥متراً و ٢٠متراً) وجدوا عيوناً يتدفّق منها الماء العذب، ويندفع إلى أعلى اندفاعاً قوياً وسط الماء الملح، بحيث تساعد هذه القوة في الاندفاع على تكوين البرزخ المعجزة بين الماء العذب المتدفّق من العيون، والماء الملح مما يساعد على ملء هذه القِراب بالماء العذب. وهذه العيون من الماء الجوفي العذب منتشرة في قاع الخليج العربي حول جزر البحرين، ويعرف الغوّاصون موقعها، كما يعرف سكان جزر البحرين ٢٣ موقعاً لهذه العيون (شكل ٤).

ويستمرُّ محمد متولّي في تأكيد أن منطقة الخليج هي المنطقة المقصودة «بالبحرين» ويستشهد بأن بها بحرين أحدهما ملح أجاج هو الخليج العربي والآخر عذب فرات هو عيون الماء العذب، كما أن فيها اللؤلؤ والمرجان..

وهلاَّ يمكن اعتبار اسم البحرين الذي يُطلَق حالياً على مجموعة جزر البحرين والذي كان يطلق وقت نزول القرآن الكريم على مجموعة الجزر وعلى

إقليم الأحساء معاً، ألا يمكن اعتبار هذا الاسم مشتقًّا من وجود هذين البحرين العظيمين العذب والملح[1].

سادساً: ناقش كراتشكوفسكي «القرآن الكريم» وكأنه يناقش مرجعاً جغرافياً، فيقول: إن المادة الجغرافية في القرآن طفيفة على العموم.

ومن العجيب أن يردّد بعض المؤلفين المسلمين آراء كراتشكوفسكي وكأنها قضايا مسلمة، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، ما جاء في سلسلة كُتيِّبات تحمل عنوان «كتب دائرة المعارف الإسلامية»، حيث كتب عن الجغرافيا عند المسلمين، أحد غير المختصّين في الجغرافيا، ونقل عن كراتشكوفسكي أقوالاً منها[2]: (والقرآن أقدم الوثائق التي تناولت معلومات جغرافية ليست عربية خالصة، ومع ذلك فالإشارات الجغرافية الواردة فيه نادرة، وفيها الفكرة القائلة: (بأن الأرض مستوية عليها الجبال كالأوتاد)... وينطبق هذا خاصة على مذهب (البحرين بينهما برزخ)...

ويقول في موضع آخر، وأغلب الظن أن فكرة وجود بحرين أحدهما ماؤه عذب فرات والآخر ملح أجاج (سورة الفرقان، الآية ٥٣) إشارة إلى البحر المتوسط وبحر العرب، وبين البحرين برزخ (وهي صيغة متفرّعة من «فرسخ» من الفهلوية (فرسنگك) فكرة أصلها إيراني!!

ويذكر كذلك: (ولا بدّ أن يكون قد انتقل إلى العرب من هذه العهود الإسلامية الموغلة في القِدَم، إن لم يكن قبل ذلك آراء جغرافية أولية تناقلها اليهود والنصارى...)[3].

ونحن نقول إن القرآن ليس بكتاب جغرافيا أو «كارتوجرافيا» وأن الذي

---

(١) محمد متولّي ـ التطبيق الجغرافي لما جاء في قوله تعالى: مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان، مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، العدد الثاني، سنة ١٣٩٨هـ، ص ص ٢٦٦- ٢٦٩.

(٢) جمال الفندي (١٩٨٢م)، الجغرافيا عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ١٥، ١٦، ص ٨٨.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ص ١٦، ٨٨



البحران العذب والملح يلتقيان
(رأي الدكتور محمد متولي)

شكل (٤)

ورد فيه من مادة جغرافية لم يكن يقصد منه أن يكون النبي ﷺ معلّماً للجغرافيا أو الفلك أو الكارتوجرافيا، وإنما الذي جاء به هو بعض إشارات تدفع الإنسان إلى التأمُّل في الكون، وأن نظامه ليس عشوائياً أو شيئاً من العبث «إنّ هذه تذكرة فمَن شاء اتخذ إلى ربّه سبيلاً»، فكل الحقائق العلمية الواردة بالقرآن سواء في التاريخ أو الجغرافيا أو الطبيعة أو الطب، ..إلخ قصد بها بيان قدرة العقول للتأمل وخدمة الهدف الأول من الكتاب السماوي وهو هداية البشر للخير.

والقرآن الكريم الذي نزل لكافة الناس ولكل العصور يحمل من المعجزات ما يجعله موضع الاقتناع في كل زمان ومكان.. ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم أن الآية الواحدة تتضمّن وجوه إعجاز عديدة ما بين أدب وبلاغة وتشريع إلى جانب الحقائق العلمية المتنوّعة التي جاءت على هيئة إشارات وومضات في فروع العلوم المختلفة، منها ما توصّلنا إلى معرفته ومنها ما لا نستطيع في وقتنا الحاضر إدراكه إذ إن القرآن الكريم لا تنقضي عجائبه كما جاء بالحديث النبوي الشريف فلا بدّ أن تظل فيه بعض الأسرار التي لا تنكشف للإنسان دفعة واحدة «وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً».

سابعاً: لم يناقش كراتشكوفسكي ما ورد بالقرآن من لمحات جغرافية بل تناول بعض الآيات التي جرّه سوء فهمه لمهاجمتها وترك آيات أخرى كثيرة تتضمن إشارات جغرافية قيّمة ولا ندري أكان ذلك عن سوء قصد أو جهل والمؤكد أن السببين واردان ولنا ما يبرّر وجهة نظرنا في هذين الافتراضين، فحينما نقول عن جهل فإنه يساند رأينا ما نسوقه عن بعض ما وقع فيه كراتشكوفسكي من أخطاء، فهو يقول إن القمر ذُكر مرّتين في القرآن «ص ٤٦، جـ ١» في سورة يونس ـ آية ٥، سورة يس ـ آية ٣٩، لكن القمر ذُكر في القرآن سبعاً وعشرين مرّة، وذلك على سبيل المثال. أما بالنسبة للافتراض الثاني وهو إهمال ذكر الإيحاءات الجغرافية القرآنية عن سوء قصد، فهذا ما تؤكّده آراؤه وتشهد به، حيث يقحم فكره الإلحادي في كل ما يُكتب دون أن يلتزم بمنطق البحث العلمي الأصيل، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما افترضه كراتشكوفسكي من القول: «إن القرآن يبدو أفقر بكثير من الشعر العربي في المادة الجغرافية

الواقعية» كما أنه أشار إلى أن القرآن الكريم سار باتّساع الأُفق الجغرافي في اتجاه مضادّ. ونكتفي هنا بذكر مثال لما تغافل عنه كراتشكوفسكي جهلاً أو حقداً، وهو قوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ (سورة الأنعام ـ ١٢٥). وقد سبق شرح هذه الكلمات القرآنية.

ثامناً: قال كراتشكوفسكي إن مصادر المادة الجغرافية في القرآن هي من تراث بابل وإيران واليهود والنصارى، وقد ردّد كراتشكوفسكي ما ذكره من قبل المستشرق اليهودي غولد زيهر حيث قال: فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخَباً من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها[1]. ونحن نقول إن هذا القول قد رُدّد مراراً وتكراراً في صُوَر مختلفة ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (سورة الفرقان ـ ٥). إلا أننا نجد أن كراتشكوفسكي تحمّس حين ذكر ذلك كأنه اكتشف سراً خطيراً استعصى فهمه على الآخرين، وأنه وصل إلى هذا الاكتشاف الخطير بعد أن أضناه البحث وأشقاه الفحص.

لقد نسي أو تناسى أولئك الذين جمعت بينهم عداوتهم للإسلام أن القرآن الكريم قد أكّد في أكثر من آية بأن كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله قد جاء مصدّقاً ومؤكّداً لما قبله فالإنجيل مصدّق ومؤيّد للتوراة، والقرآن مصدّق ومؤيّد للإنجيل والتوراة. وقد صرّح القرآن في آيات كثيرة بأنه «مصدّق لما بين يديه من التوراة والإنجيل».

إن سعي كراتشكوفسكي في كل ما كتبه عن المادة الجغرافية في القرآن الكريم ينمُّ عن غايته ويكشف عن قصده ألا وهو الطعن وإثارة الشبهات من حول الإسلام، ومهما تظاهر كراتشكوفسكي أو تستّر بالنزاهة العلميّة البريئة بهتاناً وخداعاً، فإن كلماته ما زالت ملوّثة بتيارات وأهواء شخصية أبعدتها عن روح البحث العلمي النزيه.

من العرض السابق يتّضح لنا إلى أي مدى تفسد روح التعصُّب الأعمى

---

(١) رمزي نعناعة، الإسرائيليات، دار القلم، بيروت، سنة ١٣٩٠هـ، ص ٤٠٥,

أعمال بعض المستشرقين، وهذا الأمر يوجب علينا أن نتناول مؤلفات أمثال هؤلاء المستشرقين بشيء من الحذر، وأن نتنبّه لما في ثناياها من سموم. ومن الواجب أن يتضافر الجميع بفكرهم وأقلامهم للتصدّي لها حماية لدِيننا وتبصيراً لبني البشر بأن الإِسلام دِين كل زمان ومكان، وأنه كلمة الله الأخيرة إلى البشرية جمعاء.

الفصل الثاني

بعض الآفاق الجغرافية الإسلامية

أولاً ـ الجغرافيا الفلكية عند المسلمين:

١ ـ علم الفلك وأقسامه.

٢ ـ كتب المسلمين في الفلك والجغرافيا الفلكية.

٣ ـ نماذج من الفكر الجغرافي الفلكي عند المسلمين.

٤ ـ نموذج من الكتابات الجغرافية الفلكية الإسلامية.

ثانياً ـ الجغرافيا الإقليمية:

١ ـ مفهوم الإقليم عند المسلمين.

٢ ـ تطوُّر الدراسة الإقليمية.

٣ ـ المقدسي نموذج للجغرافيين الإقليميين المسلمين.

بعض الآفاق الجغرافية الإسلامية

أسهم العلماء المسلمون إسهامات كبيرة في إثراء الفكر الجغرافي في العصور الوسطى. ولم تقتصر كتاباتهم في الجغرافيا على مجالات محدّدة بل امتدّت لتشمل مجالات عديدة ومتنوّعة. ولقد بدأت الكتابات الجغرافية عند المسلمين واعتمدت على المعرفة الجغرافية القديمة التي كانت لدى الشعوب التي اعتنقت الإسلام، من عرب وفرس وهنود، كما اعتمدت كذلك على ترجمة كثير من الكتب اليونانية والفارسية. ولم تكن أعمال العلماء المسلمين مقصورة على ترجمة الكتب فقط، بل صحّحوا أخطاءها وأضافوا إليها كثيراً من ملاحظاتهم وما حقّقوه من آراء.

وعموماً نستطيع أن نقسم الفكر الجغرافي عند المسلمين في العصور الوسطى من حيث أصالته إلى نمطين:

النمط الأول: نمط اتباع حذا فيه الجغرافيون المسلمون حذو الكتب التي نقلوا عنها وتأثّروا بها، ومن أمثلة ذلك الجغرافيا الفلكية والرياضية والجغرافيا الإقليمية والوصفية.

النمط الثاني: نمط ابتداع ابتكره الجغرافيون المسلمون، مثل المعاجم الجغرافية، والجغرافيا اللغوية والجغرافيا الدينية أو الروحية.

إن من يتتبّع كتابات الجغرافيين المسلمين يجد أنها تشكّل مدرسة جغرافية خاصة بهم، أصدق ما توصف به هي أنها مدرسة روحية لغوية.

إن المادة الجغرافية التي نجدها في المصنّفات الجغرافية الإسلامية مادة غنيّة تشمل جميع الفروع الجغرافية التي تشعَّب إليها علم الجغرافيا، وإن كان اهتمام الجغرافيين المسلمين بالإنسان يفوق اهتمامهم بالظروف الطبيعية، ولقد كانت الرحلات وسيلة مهمة جمع بها الجغرافيون المسلمون معلوماتهم. وفيما يلي معالجة لأهم المجالات الجغرافية التي كتب فيها الجغرافيون المسلمون، وفق ما هو متعارف عليه الآن من فروع لعلم الجغرافيا:

أولاً: الجغرافيا الفلكية عند المسلمين

اهتمّ العرب قبل الإسلام بالسماء وما فيها من نجوم وكواكب وظواهر مختلفة وربطوا بين حركات الشمس والقمر والنجوم وبين الظروف المناخية، واستعانوا بمواقع النجوم ليهتدوا بها في أسفارهم. ثم كثُرَ شوقهم وتطلُّعهم إلى معرفة الأمور الفلكية لاعتقادهم بارتباط الحوادث الدنيوية بحركات الأجسام السماوية، وأن استقراء أوضاع النجوم يمكن أن ينبىء عن المستقبل.

١ ـ علم الفلك عند المسلمين وأقسامه

أطلق العرب أسماء مختلفة على العلوم التي تهتمّ بالفلك، فمنها علم الهيئة، وعلم التنجيم، وعلم النجوم، وصناعة التنجيم، وصناعة النجوم، وعلم أحكام النجوم، وعلم هيئة الأفلاك، وعلم هيئة العالم، وعلم الأفلاك، وعلم الزيجات والتقاويم.

ومع ظهور الإسلام وانتشاره، ودخول شعوب مختلفة فيه من الفرس والهنود، ازدهر علم الفلك وطُوِّرت أجهزته وآلاته لأن لهذه الشعوب علومها الفلكية التي نقلتها معها إلى الإسلام، واعتمد العلماء المسلمون على ما لا يتعارض منها مع تعاليم الإسلام، وذلك لأن عبادات الإسلام من صلاة وصوم وحجّ ترتبط بأوقات محدّدة وبأماكن معيّنة، والأوقات والاتجاهات يمكن أن تعيّن بواسطة رصد الأجسام السماوية.

وقد عرّف الفارابي علم النجوم بقوله: (إن علم النجوم يشتمل على قسمين: أحدهما علم دلالات الكواكب على المستقبل، والثاني العلم التعليمي، وهذا القسم الثاني هو الذي يُعدُّ من العلوم. وأما الأول فهو إنما يُعدُّ من خواص النفس التي يتمكن بها الإنسان من معرفة ما سيحدث في العالم قبل حصوله، وذلك من نوع الفراسة والزجر والطَّرْقُ بالحصى وغير ذلك.

وعلم النجوم التعليمي يبحث فيه عن الأجرام السماوية وعن الأرض من ثلاثة وجوه.

الأول: عدد تلك الأجرام وأشكالها ووضع بعضها إلى بعض وترتيبها في العالم ومقاديرها وأبعادها عن الأرض، وأن الأرض ساكنة ما تتحرّك عن موضعها ولا في موضعها.

الثاني: يبحث في حركات الأجرام السماوية وكم هي، وأنها كلها كروية وما منها عام لجميع الكواكب وما منها خاص لكل كوكب، ثم ما يعرض لاحقاً لهذه الحركات من الاجتماعات والاستقبالات والكسوفات وغير ذلك.

الثالث: يبحث فيه عن الأرض والمعمور والخراب منها، وقسمة المعمور بالأقاليم وأحوال المساكن وما تسبّبه حركة الكرة اليومية من المطالع والمغارب واختلاف طول النهار في الأقاليم وهلُمّ جرا)[1].

وقد تضمّنت الرسالة الثالثة من رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء[2] شرح موضوع علم النجوم على النحو التالي:

(إن علم النجوم ينقسم ثلاثة أقسام: منها قسمٌ هو معرفة تركيب الأفلاك وكميّة الكواكب، وأقسام البروج وأبعادها وعظمها وحركاتها وما يتبعها من هذا الفن ويسمّى هذا القسم «الهيئة»، ومنها قسم هو معرفة حلّ الزيجات وعمل التقاويم واستخراج التواريخ وما شاكل ذلك. ومنها قسم هو معرفة كيفية الاستدلال بدوران الفلك وطوالع البروج وحركات الكواكب على الكائنات، ويسمى هذا النوع «علم الأحكام»).

وقد عرّف ابن سينا علم الهيئة بقوله[3]: (وعلم الهيئة يُعرف فيه حال أجزاء العالم في أشكالها وأوضاع بعضها عند بعض ومقاديرها، وأبعاد ما بينها

---

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤.

(٢) جماعة فلسفية ظهرت بمدينة البصرة بالعراق في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، وضعت اثنتين وخمسين رسالة تناولت فروع العلم المختلفة، وسنتحدّث عنهم عند تناولنا للجغرافيا الحيوية والتربة.

(٣) ابن سينا ـ تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات، طبعة مصر، سنة ١٩٠٨م، ص ص ١١١ـ ١١٣، نلينو، ص ٢٧.

وحال الحركات التي للأفلاك والتي للكواكب، وتقدير الكرات والقطوع والدوائر التي بها تتمُّ الحركات.. ومن فروع علم الهيئة عمل الزيجات والتقاويم). ومن هذا التعريف نجد أن ابن سينا لا يعدُّ التنجيم أو علم أحكام النجوم من علم الهيئة.

من التعريفات السابقة يتّضح لنا أن علم الهيئة عند العرب شمل فيما اشتمل على ما نطلق عليه حالياً الجغرافيا الفلكية، التي تتعلّق بعلاقة كوكب الأرض بكل من الشمس والقمر والكسوف والخسوف وعروض الأرض وأطوالها والتقاويم وما إلى ذلك.

٢ ـ كتب المسلمين في الفلك والجغرافيا الفلكية

تنوّعت كتب المسلمين في الفلك وتعدّدت الموضوعات التي كُتبت فيها، وقد قسّمها العلاّمة نلينو إلى أربعة أنواع هي[١]:

(أ) كتب ابتدائية على صفة مدخل إلى علم الهيئة وتشمل مبادىء عامة مثل كتاب «في جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية» لأحمد بن محمد بن كثير الفرغاني، المتوفى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

(ب) كتُب مُطوَّلة ومُفصَّلة تشتمل على البراهين الهندسية مثل كتاب «المجسطي» لأبي الوفاء البوزجاني، المتوفى سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م و «القانون المسعودي» لأبي الريحان البيروني، المتوفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م.

(ج) كُتُب الزيجات (من زيك الفارسية، ومعناها خيوط النسيج الطولية) وهي عبارة عن جداول رياضية فلكية مثل «الزيج الصابىء» لمحمد ابن جابر بن سنان البتاني.

(د) كُتُب في موضوعات خصوصية كالتقاويم والآلات المستخدمة في

---

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠. ٤٣، وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الكتب تحوي ما يسمى الآن بعلم الفلك إلى جانب موضوعات من الجغرافيا الفلكية.

الرصد وتعيين الأطوال والعروض مثل كتاب «الكواكب والصُّوَر» لأبي الحسين عبد الرحمن بن عمر الصوفي، المتوفى سنة (٣٧٦هـ / ٩٨٦م).

٣ ـ نماذج من الفكر الجغرافي الفلكي عند المسلمين

سبقت الإشارة إلى اهتمام العرب بالكواكب الثابتة (النجوم)، والسيّارة، وذلك قبل الإسلام، واختاروا ثماني وعشرين مجموعة نجمية غير بعيدة عن فلك القمر، وسمُّوا هذه المجموعات النجمية بنجوم المنازل، واختلف العرب عن سائر الأمم في استخدام هذه المنازل، إذ إن الشعوب الأخرى استخدمتها في التنجيم، واستخدمها العرب لمعرفة أحوال المناخ وحوادث الجوّ في فصول السنة، وكانوا ينسبون تلك الحوادث إلى طلوع المنازل وغروبها، وقت الفجر حين تطلع الشمس في وقت محدد، ومعلوم أن كل ليلة في أي وقت ترى فوق الأرض أربع عشرة منزلة وتبقى الأربع عشرة الأخرى غير مرئيّة تحت الأرض، ثم إنه كلما غربت إحداها طلعت نظيرتها في المشرق، وهي التي كانت العرب يسمّونها الرقيب[1]، وتنقضي مدة ثلاثة عشر يوماً تقريباً من غروب منزلة إلى التي تليها، وقد أطلق العرب نوءاً على سقوط المنزلة في المغرب مع الفجر ونسبوا إلى الأنواء الظروف المناخية المختلفة.

ويرجع اهتمام الجغرافيين المسلمين بالنجوم والكواكب والأنواء إلى ما هو معروف من ارتباط واضح بين بعض العبادات في الشريعة الإسلامية وبين بعض الظواهر الفلكية، فأوقات الصلوات تختلف من قطر إلى آخر حسب الموقع، كما أن الاتجاه إلى الكعبة قبلة المسلمين يستلزم معرفة سمت القبلة (يرتبط ذلك بحساب المثلثات الكروي) وابتداء شهر رمضان شهر الصوم وانتهاؤه يرتبط برؤية الهلال، كما هي الحال كذلك بالنسبة للحج. وقد تفاوت الاهتمام بالعلوم الفلكية في عصور الإسلام المختلفة.

ففي عصر الخلفاء الراشدين شغل المسلمون بالجهاد والأمور الدينية، وفي

---

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٣.

عهد الدولة الأموية اهتمّ المسلمون بالشعر والصيد والصنائع. وأول من عنى بترجمة كتب اليونان هو حكيم آل مروان (خالد بن يزيد بن معاوية) الذي تُرجمت له كتب في الطب والكيمياء والنجوم.

وبانتشار الفتوح الإسلامية انتشرت اللغة العربية في الأقطار التي فُتِحَت، فأخذ المسلمون من كل قطر وجنس يستخدمونها في التأليف، فصار الفرس وأهل العراق والشام ومصر يُدخلون علومهم في التمدُّن الإسلامي الجديد.

ويرجع إلى الذين أسلموا من أبناء الملل الأخرى ما أدخلوه في مؤلفاتهم وما وضعوه من أحاديث لا يقبلها العقل من أمثال الخرافات الكثيرة، وعلى سبيل المثال ما ذكره أبو حذيفة عن عطاء أنه قال: بلغني أنه قال الشمس والقمر طولهما وعرضهما تسع مائة فرسخ في تسع مائة فرسخ.. وعن عكرمة أنه قال: سعة الشمس مثل الدنيا وثلثها وسعة القمر مثل الدنيا سواء[1].

وقد اهتمّت الدولة الإسلامية بالعلوم العلميّة من طب وكيمياء. وحينما بدأ عهد الدولة العباسية وانتهت الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م زاد الاختلاط بالفرس والأخذ عنهم، وزاد الاهتمام بالفلك، وقسّمت العلوم آنذاك إلى ثلاثة فروع رئيسية هي:

الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان.

وقد قرّب أبو جعفر المنصور إليه المنجّمين يأخذ برأيهم ويستشيرهم فيما يقدم عليه، وكان نوبخت، المنجّم الفارسي، يصحب المنصور، ومن بعده ابنه أبو سهل بن نوبخت.

وقد ذكر ابن واضح اليعقوبي في كتابه البلدان، أن المنصور لما ابتدأ بناء بغداد سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م استعان بالمنجّم نوبخت الذي حدّد الوقت الذي وضع فيه أساس المدينة، وجاء على لسان اليعقوبي: «وضع أساس المدينة في وقت اختاره نوبخت المنجّم وما شاء الله بن سارية»[2].

---

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٣٨ - ١٤١ نقلاً عن ابن طاهر المقدسي، كتاب البدء والتاريخ، باريس سنة ١٩٠١، ص ١٧ .

(٢) اليعقوبي، البلدان، طبعة ليدن سنة ١٨٩٢، ص ٢٣٨.

وقد شجّع المنصور «علم الهيئة» وأمر بترجمة بعض الكتب الهندية وتولّى الترجمة الفزاري. وقد أخذ المسلمون كلمة (سدهانت) وتعني بالسنسكريتية، معرفة وعلم ومذهب[1] وأطلقوها على كل كتاب في علم الهيئة وحركات الكواكب ثم حرفوها إلى السند هند نسبة إلى البلاد التي نقلوا عنها. وفسر بعض العلماء العرب «السند» هند بمعنى دهر الدهور[2] وهذا تفسير خاطىء.

وقد قال محمد بن جابر البتاني في شأن علم الفلك ومكانته[3]:

(إن من أشرف العلوم منزلة وأسناها مرتبة وأحسنها حليّة وأعلقها بالقلوب وألمعها بالنفوس وأشدّها تحديداً للفكر والنظر وتذكية للفهم ورياضة للعقل بعد العلم بما لا يسع الإِنسان جهله من شرائع الدين وسننه، علم صناعة النجوم لما في ذلك من حسن الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة النهار والليل ونقصانهما، ومواضع النيرين وكسوفهما وسير الكواكب في استقامتها ورجوعها، وتبدُّل أشكال ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها، إلى ما يدرك بذلك من أنعَمَ النظر وأدام الفكر فيه من إثبات التوحيد ومعرفة كُنْه عظَمَة الخالق وسعة حكمته وجليل قدرته ولطف صنعه، وقال عزّ من قائل: «إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب».

وعلى الرغم من تقدّم المسلمين في حساب التقاويم واستخراج التواريخ، إلا أن غالبية فقهاء المسلمين قد أجمعوا على عدم قبول الحساب مكان الرؤية اتّباعاً لسُنّة النبي ﷺ وأصحابه الذين اعتمدوا على رؤية الأهلة بالأبصار لا بالحساب، خشية الوقوع في الأخطاء. ولما كان حسب المثلثات الكروي أساساً مهماً من أساسات علم الفلك، فقد نبغ فيه كثير من العلماء المسلمين،

---

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

(٢) المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ١٥٠.

(٣) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤.

ووضعوا فيه قوانين جديدة من ابتكارهم. ومن أمثال هؤلاء المسلمين، أبو الريحان البيروني وأبو الوفاء محمد بن محمد البوزجاني.

ومعظم اليونانيين الذين نقل عنهم العرب، تصوّروا أن السماء كرة عظيمة ركّزت في بسيطها النجوم، وأنها تدور بجميع ما فيها من النجوم على قطبين ثابتين غير متحرّكين، أحدهما من ناحية الشمال والآخر من ناحية الجنوب، وجهة ذلك الدوران من المشرق إلى الغرب، وأن الأرض ثابتة في المحور الذي تدور عليه الكرة السماوية، ومن الذين اعتنقوا هذا الرأي وآمنوا به بطليموس. وعلى الرغم من تقدير المسلمين لأفكار اليونانيين، إلا أنهم نبذوا فكرة ثبوت الأرض، وأعلن معظم العلماء المسلمين البارزين أن الأرض تدور. ومن هؤلاء البيروني، الذي ذكر في كتابه (مفتاح علم الهيئة) وتحقيق ما للهند من مقولة: (أن الأرض متحرّكة حركة الرحى على محورها)[1].

ومن العلماء المسلمين الذين قالوا إن الأرض تدور، أبو سعيد أحمد ابن محمد بن عبد الجليل السجزي[2]، (في القرن العاشر الميلادي)، بينما لم ينتشر عند الأوروبيين تعليم حركة الأرض الدورية إلا في القرن السادس عشر الميلادي.

وقد تناول الفلكي المسلم «محمود بن محمد بن عمر الجغميني» المتوفي سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٥م في كتاب (الملخّص في علم الهيئة) خط الاستواء وعلاقة طول الليل والنهار بدوائر العرض فقال: (أما خط الاستواء فمن خواصه أن معدل النهار يسامت رؤوس أهله، إذ هو في سطحه، وكذا الشمس عند بلوغها نقطتي الاعتدالين، وأن أُفقه (ويسمى أُفق الفلك المستقيم) وأُفق الكرة المنتصبة ينصف معدل النهار وجميع المدارات (دوائر موازية لدائرة معدل النهار) اليومية على زوايا قائمة، ويكون هناك دور الفلك دولابياً، أعني كما يخرج العصامير من سطح الماء (كالساقية، والعصامير = القواديس) على زوايا قائمة، ولا يكون كوكب ولا نقطة في الفلك إلا وهو يطلع ويغرب إلا قطبَي

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥١.

(٢) في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي).

العالم، فإنهما يكونان على الأفق، ويكون القسي الظاهرة للمدارات كالتي تحت الأرض، فلذلك يكون النهار والليل أبداً متساويين... وكلما كان عرض البلد أكثر كان مقدار التفاوت بين الليل والنهار أكثر، وذلك لأن سمت الرأس مائل في هذه المواضع لا محالة عن معدل النهار، وبقدر ميله يرتفع القطب الشمالي والمدارات التي في ناحيته... وأما المواضع التي عرضها الشمالي تسعون جزءاً فيوافق قطب العالم سمت الرأس فيها، ومعدل النهار منطبق على دائرة الأفق، ودور الفلك الأعظم رحوي موازٍ للأفق، وتكون السنة الشمسية هناك يوماً وليلة ستة أشهر شمسية حقيقية نهار وذلك إذا كانت الشمس في البروج الشمالية، وستة أشهر ليلة إذا كانت الشمس في البروج الجنوبية[١].

ومن الجدير بالذكر أن العرب أشاروا إلى ما يسمى بقبّة الأرض أو قمّة الأرض، أو قمّة أرين، وهي النقطة التي يلتقي فيها خط طول صفر، وخط الاستواء (درجة عرض صفر). وهناك اختلاف بين الجغرافيين المسلمين بشأن اختيار خط الطول الأساسي أو خط الصفر، فبعضهم سار على نهج بطليموس وجعل هذا الخط يمرُّ بجزر كناريا (الجزر الخالدات)[٢]، ومنهم من اتّبع طريقة الهنود الذين قالوا إنّ هذا الخط يمرُّ بمدينة أوجّين Ujjain ثم حُرِّفت إلى أوذين Uzayn ثم صارت أرين Arin، وقد أطلق بعض الجغرافيين المسلمين مثل البيروني والبتاني والمسعودي على جزيرة زنجبار «جزيرة الأرين» التي اعتقدوا أن خطّ طول صفر يمرُّ بها (شكل ٥).

وقد أشار ابن رسته في القرن الثالث الهجري إلى أن وسط الأرض، وهو الموضع الذي يسمى القبّة، مدينة تسمى أذين، وهو الموضع الذي لا تزيد ساعات نهاره على ساعات ليله، ولا ليله على نهاره في شيء من الأزمنة، فيكون نهاره أبداً اثنتى عشرة ساعة وليله كذلك، فإذا انحدرتَ عن هذا الموضع، وهو الذي يسمى القبّة، فأخذت ناحية الشمال والجنوب، تغيّرت

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٢٦١، نسبة إلى جغمين من قرى بلاد خوارزم شرقي بحر الخزر.
(٢) أحمد سوسه، الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، بغداد سنة ١٩٧٤م، ص ٢٦٦.

ساعات الليل والنهار وزيد فيها على حسب البُعد من القبّة[1].

وقد ذكر البيروني أن جزيرة لانكا Lanka (سيلان أو سري لانكا حالياً) اعتبرها الهنود مركز الأرض، لأنها متوسطة البُعد ما بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب. أما تعبير قبّة الأرض فهو تعبير إسلامي لم يستخدمه الهنود إطلاقاً للإشارة إلى لانكا. ولا شك أن اعتبار خط الطول الذي يمرُّ بجزيرة لانكا هو خط طول صفر افتراض يمكن قبوله إلا أنه من الخطأ اعتبار أن خط الاستواء يمرُّ بلانكا، لأن لانكا تقع جنوبي درجة عرض ١٠ شمالاً.

ويرى بعض الباحثين أن فكرة قبّة الأرض قد تكون لها علاقة بالفكرة الساميّة التي سادت لدى البابليين عن جبل الأرض، أو بفكرة سرة الأرض عند الإغريق[2]. وقد انتقلت فكرة قبّة الأرين أو الأريم إلى الأوربيين، وورد ذكرها في كتاب «صورة العالم Imago Mundi» الذي وضعه الكاردينال بيتر Peter كاردينال إيلي سنة ١٤١٠م.

ومما هو جدير بالذكر، أن كريستوفر كولمبوس قد أشار إلى جزيرة أرين في خطابه إلى الملكة إيزابيلاّ ملكة اسبانيا، وذلك بشأن رحلته الثالثة سنة ١٤٩٨م. وقد ذكر المستشرق كرامرز أن للنظرية الإسلامية الجغرافية الحق أن تدّعي بأنها أسهمت في كشف العالم الجديد[3]. وحينما نتتبّع الأعمال الجغرافية العربية في القرن الرابع عشر الميلادي والخامس عشر الميلادي نجد أن نظرية قبّة الأرض قد اختفت، اللهمّ إلا ابن بطوطة الذي زار أجين الأصلية في مالوا، لكنه لم يُشِر إليها ولم يذكر ما قاله الجغرافيون المسلمون من قبل عنها.

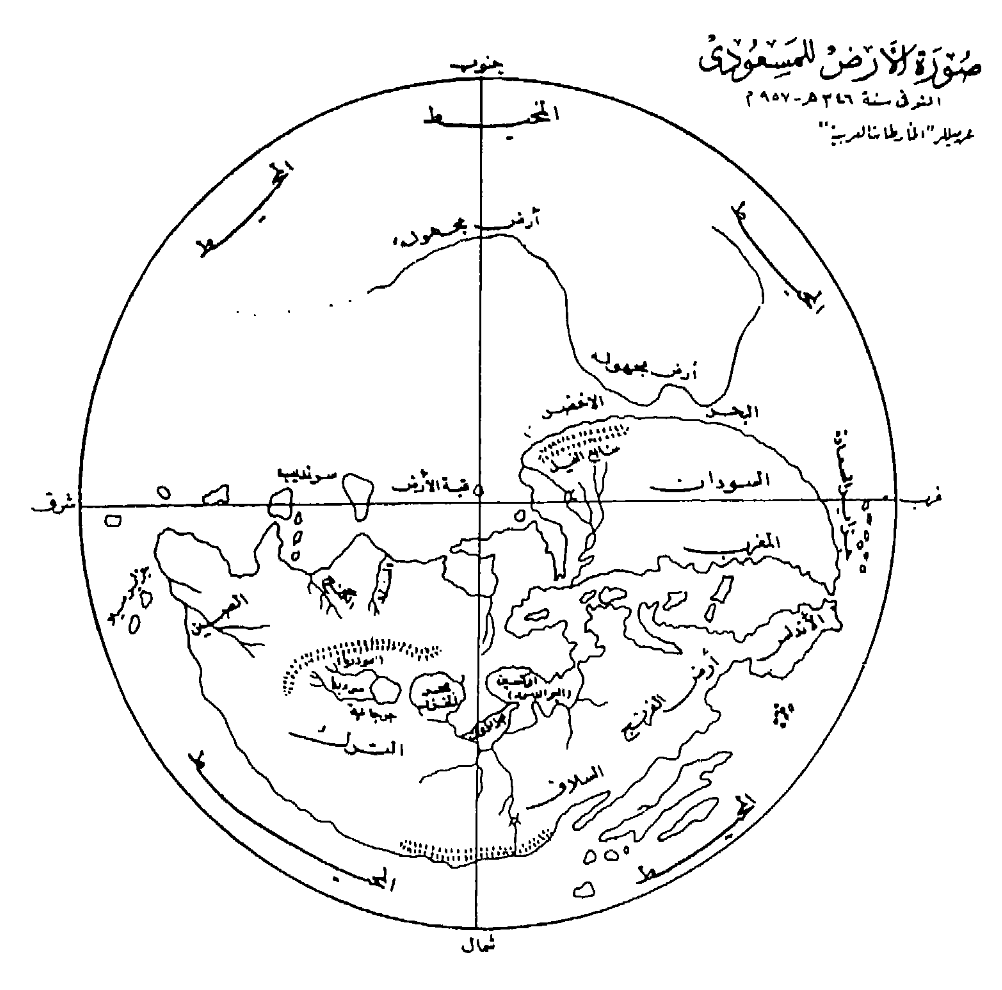
وقد حظيت الأجرام السماوية بملاحظة الفلكيين والجغرافيين المسلمين واستأثر القمر باهتمام كبير لاعتماد التقويم الهجري عليه. وقد ذكر القزويني:

---

(١) أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، سنة ١٨٩١، ص ٢٠.

(٢) D.M. Dunlop, Arab Civilization to A.D. 1500, Beirut, 1971, PP. 154 - 156.

(٣) Dunlop. Op. Cit, P. 156.



شكل (٥)

تحقيق أحمد سوسة

(وأما القمر فهو كوكب طبيعي، مكانه الطبيعي الفلك الأسفل، من شأنه أن يقبل النور من الشمس على أشكال مختلفة، ولونه الداني إلى السواد يبقى في كل برج ليلتين وثلث ليلة، ويقطع جميع الفلك في شهر.. وزعموا أن جرم القمر جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من جرم الأرض.

والقمر جرم كثيف مظلم قابل للضياء إلا القليل منه على ما يرى في ظاهره، فالوجه الذي يواجه الشمس مضيء أبداً، فإذا كان قريباً من الشمس كان الوجه المظلم مواجهاً للأرض، وإذا بَعُدَ عن الشمس إلى المشرق، ومال النصف المظلم من الجانب الذي يلي المغرب إلى الأرض تظهر من النصف المضيء قطعة هي الهلال ثم يتزايد الانحراف وتزداد بتزايده القطعة من النصف المضيء حتى تصبح بدراً. حتى إذا كان في مقابلة الشمس ينقص الضياء من الجانب الذي بدأ بالضياء على الترتيب الأول، حتى إذا صار في مقابلة الشمس ينمحق نوره ويعود إلى الموضع الأول وينزل كل ليلة منزلاً من المنازل الثمانية والعشرين ثم يستتر ليلة، فإذا كان الشهر تسعة وعشرين استترَ ليلة ثمانية وعشرين)[1].

وإن كان ثلاثين استتر ليلة تسعة وعشرين، ويقطع استتاره منزلاً ثم يتجاوز الشمس فيُرى هلالاً، وذلك في قوله تعالى (والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم).

ويتناول القزويني كذلك تفسير ظاهرتي الخسوف والكسوف فيقول عن خسوف القمر:

(وسببه توسُّط الأرض بينه وبين الشمس، فإذا كان القمر في إحدى نقطتي الرأس والذنب أو قريباً منها عند الاستقبال، تتوسّط الأرض بينه وبين الشمس فيقع في ظلّ الأرض ويبقى على سواده الأصلي فيُرى منخسفاً والشمس أعظم من الأرض فيكون ظل الشمس مخروطاً قاعدته دائرة صفحة الأرض.

فإذا لم يكن للقمر عرض فلك البروج عند الاستقبال، وقع كله في

---

(١) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦، ص ١١.

جرم المخروط فيخسف كله حينئذٍ، وإن كان له عرض يخسف بعضه، وربما يماس جرم القمر مخروط الظل ولا يقع فيه شيء، وذلك إذا كان عرض القمر مساوياً لنصف مجموع القطرين، أعني أن قطر القمر وقطر الظلّ، وإذا كان أقلّ من نصف القطرين يخسف بعضه»[1].

أما عن كسوف الشمس فقد ذكر القزويني أن سببه كون القمر حائلاً بين الشمس وبين أبصارنا[2].

ومما لاشك فيه أن ما ذكره القزويني هو التفسير العلمي الصحيح لهاتين الظاهرتين.

وتناول الدمشقي (المعروف بشيخ الربوة) موضوع كروية الأرض فقال: (والدليل على أن الأرض كروية الشكل مستديرة، أن الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع النواحي في وقت واحد، بل يرى طلوعها في النواحي المشرقية من الأرض قبل طلوعها على النواحي المغربية وغيوبتها عن المشرقية قبل غيوبتها عن المغربية، وكذلك خسوف القمر إذا اعتبرناه وجدناه في النواحي المشرقية والمغربية مختلفاً متفاوت الوقت. ولو أن إنساناً سار من ناحية الجنوب إلى ناحية الشمال، فإنه يظهر له من الناحية الشمالية بعض الكواكب التي كان لها غروب فتصير أبديّة الظهور، وبحسب ذلك يكون عنده من ناحية الجنوب، وبعض الكواكب التي كان لها طلوع فتصير أبدية الخفاء على ترتيب واحد... ثم إنهم مثّلوا حلول الساكن فيها بتفاحة غُرز فيها شعير من سائر جهاتها، فكل شعيرة منتصبة إلى ما قابلها من جميع جهاتها لا فرق بين شيء منها في استقامته، وحيث كان الناس في استيطانهم فإن أرجلهم إلى الأرض ورؤوسهم إلى السماء[3].

ولكن أهم أعمال العرب في الجغرافيا الفلكية هي محاولة قياس الدرجة

(١) القزويني، المصدر السابق، ص ص ١٣ ـ ١٥ .

(٢) القزويني، المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) شمس الدين أبي عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، المتوفي سنة ٧٢٧هـ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، ص ٩.

العرضيّة، وهذا يدلّ على شدّة عنايتهم بالدقة العلمية وعلى مهارتهم العجيبة في الأرصاد.

وقد ذُكر هذا القياس في عدّة كتب عربية منها: «الزيج الكبير» لابن يونس المصري (الباب الثاني)، وفي كتاب «وَفَيات الأعيان» لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م وذلك عند كلامه عن محمد بن موسى بن شاكر الرياضي الفلكي. وقد جاء في كتاب الوفيات (أن المأمون كان مغريٌّ بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أن دورة كرة الأرض أربعة وعشرين ألف ميل كل ثلاثة أميال فرسخ.. فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين (محمد بن موسى وأخويه أحمد والحسن) عنه فقالوا: نعم هذا قطعي. وقال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرّر ذلك أم لا. فسألوا عن الأرض المتساوية في أي البلاد هي، فقيل لهم صحراء سنجار، في غاية الاستواء، وكذلك وطآت الكوفة. فأخذوا معهم جماعة مما يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة، فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي (ارتفاع القطب في الأفق يساوي عرض البلد) ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار وحسب الإمكان، فلما فرغ نصبوا في الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة، فمسحوا ذلك القدر الذي قدّروه من الأرض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل، فعلموا أن كل درجة من درجة الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان. ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدّوا فيه حبلاً وتوجّهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشدِّ الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمالي، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الجنوبي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة، فصحَّ حسابهم

وحقّقوا ما قصدوه من ذلك. وهذا إذا وقف عليه مَن له يد في علم الهيئة، ظهر له حقيقة ذلك. فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا، وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل، طلب تحقيق ذلك في موضع آخر، فسيّرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار، فتوافق الحسابان. فعلم المأمون صحّة ما حرّره القدماء في ذلك[1]).

ويعترض كرلونلينو على رواية ابن خلكان من عدّة وجوه، منها أن بني موسى أعادوا القياس في وطآت الكوفة، وهو قول مناقض لإجماع أصحاب علم الفلك والجغرافيا من العرب، ومضادّ لأحوال الأماكن الطبيعية لأن وطآت الكوفة كانت كلها بطائح وترعاً ومزارع وغابات، فلا يعقل إمكان إجراء الأعمال الموصوفة في مثل تلك النواحي.

ويرجّح نلينو رواية ابن يونس المصري التي جاء فيها أن سند بن علي وخالد بن عبد الملك المرَوْرُّذي هما اللذان قاما بالقياس، وأن متوسط قياس الدرجة كان ستة وخمسين وثلثي ميل تقريباً، وإذا عرفنا أن الميل العربي ١٩٧٣،٢ متر، فإن طول الدرجة عند فلكي المأمون ١١١،٨١٥ كيلو متر، وطول محيط الأرض ٤١٢٤٨ كيلو متراً، وهو قريب من الحقيقة[2]. ويُعدُّ قياس العرب أول قياس حقيقي أجري كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقّة، واشتراك جماعة من الفلكيين والمسّاحين في العمل (فلا بدّ لنا من إعداد ذلك القياس في أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة)[3].

وقد صاغ أبو الريحان البيروني نظرية بسيطة لإيجاد مقدار محيط الأرض بالتقريب، وذلك في آخر كتابه الأسطرلاب، في فصلٍ جعل عنوانه (في معرفة مقدار استدارة الأرض).

---

(١) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الثقافة، بيروت (د.ت) المجلد الخامس، ص ص ١٦١ - ١٦٣ .

(٢) نلينو، مرجع سبق ذكره، ص ص ٢٧٦- ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٩.

العرضيّة، وهذا يدلّ على شدّة عنايتهم بالدقة العلمية وعلى مهارتهم العجيبة في الأرصاد.

وقد ذُكر هذا القياس في عدّة كتب عربية منها: «الزيج الكبير» لابن يونس المصري (الباب الثاني)، وفي كتاب «وَفَيات الأعيان» لابن خلكان المتوفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م وذلك عند كلامه عن محمد بن موسى بن شاكر الرياضي الفلكي. وقد جاء في كتاب الوفيات (أن المأمون كان مغريٌّ بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أن دورة كرة الأرض أربعة وعشرين ألف ميل كل ثلاثة أميال فرسخ.. فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين (محمد بن موسى وأخويه أحمد والحسن) عنه فقالوا: نعم هذا قطعي. وقال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرّر ذلك أم لا. فسألوا عن الأرض المتساوية في أي البلاد هي، فقيل لهم صحراء سنجار، في غاية الاستواء، وكذلك وطآت الكوفة. فأخذوا معهم جماعة مما يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار، وجاءوا إلى الصحراء المذكورة، فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي (ارتفاع القطب في الأفق يساوي عرض البلد) ببعض الآلات وضربوا في ذلك الموضع وتداً وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار وحسب الإمكان، فلما فرغ نصبوا في الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة، فمسحوا ذلك القدر الذي قدّروه من الأرض بالحبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل، فعلموا أن كل درجة من درجة الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان. ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدّوا فيه حبلاً وتوجّهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشدٌ الحبال حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمالي، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الجنوبي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة، فصحّ حسابهم

وكانت مياه البحر سائحة على وجهها، فلم يكن الزرع ولم يكن لها غدران تفضي مياه السيول إليها[1].

٤ ـ نماذج من الكتابات الجغرافية الفلكية الإسلامية

موضوع «التقاويم» في كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيروني[2].

أطلق سارتون Sarton على النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي اسم عصر البيروني، وذلك في مؤلفه الضخم «تاريخ العلم العالمي»، لم يكن سارتون مبالغاً في ذلك، إذ إن البيروني هو أكبر شخصية علمية في تلك الفترة، فقد كان فلكياً وجغرافياً ومؤرّخاً وطبيعياً وجيولوجيا، ودرّس الطب والتقاويم، وكان يجيد من اللغات: الفارسية والعربية والسنسكريتية، والخوارزمية، والسريانية، واليونانية.

وُلد البيروني[3] في الثاني من ذي الحجة عام ٣٦٢هـ (٤سبتمبر سنة ٩٧٢م) بإحدى ضواحي خوارزم، ولا يُعرف أصل البيروني، إذ أنه يُنسَب إلى الحيّ الذي وُلد فيه، فنسبه مجهول، ورُبَّ معترض يقول إن اسمه هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، إلا أننا نقول إن العادة جرت على استخدام مثل هذه الأسماء عندما نجهل الأسماء الحقيقية.

وقد أورد ياقوت الحموي أبياتاً على لسان البيروني جاء فيها[4]:

وذاكراً في قوافي شعره حسبي	ولست والله حقاً عارفاً نسبي
إذ لست أعرف جدّي حق معرفةٍ	وكيف أعرفُ جدّي، إذ جهلتُ أبي
إني أبو لهب شيخ بلا أدب	نعم ووالدتي حمّالةُ الحطب

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٥.

(٢) ينطق اسم البيروني (بالإمالة).

(٣) كرتشكوفسكي، جـ ١، ص ٢٤٥.

(٤) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، بدون تاريخ طبع، جـ ١٧، ص ١٨٩.

وقد نشأ البيروني في الدولة العباسية، وكانت هذه الدولة قوية الشوكة مرهوبة الجانب، تبسط نفوذها من أفغانستان شرقاً حتى الشام ومصر غرباً، إلا أنه لم ينتصف العقد الثالث من القرن الرابع الهجري حتى أُصيب العالم الإسلامي بانقسام كبير، كأنه عقدٌ انفرط أو صخرةٌ تفتّتت[1]. ولكن الحق يُقال إن المسلم كان يلقى الترحيب حيثما رحل، إذ إن المملكة الإسلامية كانت كلها وطناً للمسلمين جميعاً.

رحل البيروني عن موطنه وهو في العشرين من عمره لأنه كان محباً للمعرفة، متعطّشاً للبحث، مغرماً بالأسفار، واتّجه في اهتماماته العلمية إلى نواحٍ متعدّدة، وتقرّب إلى علماء يونانيين ليتلقّى على أيديهم أسماء النباتات المختلفة، كما سافر إلى جرجان والتقى بأكبر أساتذته، وهو الطبيب الفلكي المسيحي أبو سهل عيسى[2]. وحينما أُطيح بشمس المعالي، رجع البيروني إلى وطنه خوارزم، واستقرّ في مدينة جرجانية، عاصمة الدولة الخوارزمية سنة ٤٠٠هـ (١٠١٠م) حيث اشتغل أستاذاً في مجمع العلوم الذي أسّسه أمير خوارزم مأمون بن مأمون، وزاملَ البيروني في نفس المجمع ابن سينا، واستمرّت الصداقة بينهما نحو عشرين سنة.

وفي قصر أمير جرجان كتب البيروني كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» وهو كتاب وصفه المستشرق روزن Rozen منذ أكثر من سبعين عاماً بأنه مؤلّف فريد في بابه، لا مثيل له في الأدب العلمي القديم أو الوسيط، سواء في الغرب أو الشرق[3].

وقد اكتسب البيروني شهرة فائقة كباحث متعدّد الاهتمامات في الفترة التي سبقت سقوط «خيوة» عام ١٠١٧م ووقوعه أسيراً في يد السلطان محمود الغزنوي[4] الذي وضع البيروني تحت مراقبة شديدة لأنه لم يثق به، إلا أن هذا

(١) على أحمد الشحات، أبو الريحان البيروني، دار المعارف سنة ١٩٦٨، ص ٢٠.

(٢) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٤٦.

(٣) عبد الرحمن حميده، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، سنة ١٩٨٠م، ص ٢٧٨.

(٤) نفيس أحمد، جهود المسلمين في الجغرافيا، دار القلم، بدون تاريخ، ص ٦٤.

الوضع لم يستمر طويلاً، حيث تمكُّن البيروني من التقرُّب من السلطان محمود فاستطاع أن يتمتّع بشيء من الحرية، ورافق السلطان في حملاته بعد أن كاد السلطان محمود أن يقتله، كما قتل أستاذ البيروني عبد الصمد الحكيم بعد أن اتهمه بالكفر والزندقة. ولولا أن بعض مرافقي السلطان أخبروه بأن البيروني إمام عصره ووقته في علم النجوم، وأن الملوك لا يستغنون عن مثله، لما أبقى عليه السلطان محمود الغزنوي واصطحبه ثلاث عشرة مرة في غزواته السبع عشرة في الهند[1]. وفي الهند تعلّم البيروني اللغة السنسكريتية في شمالي غربي الهند، وبحث عن العلوم الهندية فأتقنها، وأودع حصيلة دراساته ورحلاته كتاب «تحقيق ما للهند من مقولة معقولة في العقل أو مرذولة» ويطلق على الكتاب عموماً «كتاب الهند»[2].

ويذكر المؤرخون أن البيروني حينما وجد إعراضاً من السلطان محمود الغزنوي عن علومه بدأ يفكر في وسيلة ينفذ بها إلى قلب السلطان الذي كان يحب الدين ويجلّ القرآن الكريم وعلومه، فاتّجه البيروني إلى تطبيق قضايا العلم على آيات القرآن الكريم، بحيث تكون أحاديثه في إطار هذه الآيات، وهكذا نجد أن البيروني هو أول روّاد شرح الآيات الكريمة على ضوء العلوم الكونية أو تفسير العلوم الكونية على ضوء الآيات.

إن هذا الاهتمام للربط بين القرآن الكريم والعلوم الكونية بدأ يظهر جلياً منذ أواخر القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجريين، ويظهر ذلك إذا ما تتبّعنا التراث الذي خلّفه كثير من المفكرين المسلمين مثل إخوان الصفاء وابن طفيل وغيرهم. وفي إطار هذا الاتجاه فسّر البيروني قوله تعالى: «حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً» الكهف: ٩٠، بظهور الشمس طوال اليوم في المناطق القطبية وذلك في القطب الشمالي في نصف السنة الصيفي.

---

(١) علي أحمد الشحات، المرجع السابق، ص ٦٩- ٧٠.

(٢) نفيس أحمد، المرجع السابق، ص ٦٥.

وعندما رجع البيروني من الهند استقرّ في بلاط الأمير مسعود الغزنوي أكبر أولاد محمود الغزنوي، وأخرج سفره الضخم «القانون المسعودي في الهيئة والنجوم» وسمّاه المسعودي، نسبة إلى السلطان مسعود، وأهداه إليه تقريباً.

ومن مؤلفات البيروني الأخرى «تقاسيم الأقاليم» الذي نقل عنه ياقوت كثيراً، و «كتاب التفهيم»، و «الجواهر»، و «الصيدنة». وقد خلّف البيروني أكثر من ١٨٣ مخطوطاً ضاع معظمها، والباقي موزّع ومشتّت بين مكتبات العالم، وقد توفي البيروني بغزنة في ١٣ديسمبر سنة ١٠٤٨م عن ستة وسبعين عاماً.

البيروني والتقاويم:

على الرغم من أن البيروني انتهى من وضع كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية» في سن السابعة والعشرين، إلا أن هذا المؤلف من أعظم مؤلفات البيروني وأكثرها شهرة في جميع أرجاء العالم، في الأوساط التي تهتمّ بالتراث العربي والإسلامي، والكتاب في مجمله عبارة عن خلاصة للتقاويم المختلفة مع عقد المقارنات بينها.

يذكر البيروني في مقدمة كتابه أن السبب في تأليفه هو أن أحد الأدباء سأله عن التواريخ التي تستعملها الأمم والاختلاف الواقع في الأصول التي هي مبادئها والفروع التي هي شهورها وسنوها[1].

ويبدأ البيروني في تعريف اليوم فيقول: (إن اليوم بليلته هو عودة الشمس بدوران الكل إلى دائرة قد فرضت ابتداءً لذلك اليوم بليلته). ويقول البيروني: (ثم أن العرب فرضت أول مجموع اليوم والليلة نقط المغارب على دائرة الأفق فصار اليوم عندهم بليلته هو من لَدُن غروب الشمس عن الأُفق إلى غروبها من الغد والذي دعاهم إلى ذلك هو أن شهورهم مبنيّة على مسير القمر

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الخوارزمي، الآثار الباقية من القرون الخالية، طبعة ليبزج، سنة ١٩٢٣، ص ٤.

مستخرجة من حركاته المختلفة وأوائلها مقيّدة برؤية الأهلة لا الحساب.. فصارت الليلة عندهم قبل النهار وعلى ذلك جرت عادتهم)[1] من عبارات البيروني السابقة يتّضح لنا مدى حسّه الجغرافي وتعليلاته وتحليلاته التي يتميّز بها، فهو لا يكتفي بسرد الحقائق بل يحاول جهد إخلاصه أن يحلّل ويعلّل ثم يقارن، فهو يقول في مجال المقارنة: (فأما عند غيرهم من الروم والفرس ومن وافقهم فإن الاصطلاح واقع بينهم على أن اليوم بليلته هو من لدن طلوعها (الشمس) من أُفق المشرق إلى طلوعها بالغد)[2] ويعلّل البيروني ذلك بأن حساب شهورهم لا يتعلق بالقمر ولا غيره من الكواكب.. ويذكر البيروني رأي بعض فقهاء الإِسلام في قضية تحديد اليوم فيقول: (إلا أن بعض علماء الفقه في الإِسلام حدَّ أول النهار بطلوع الفجر وآخره بغروب الشمس، واحتجّ بقوله تعالى: «وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر، ثم أتمُّوا الصيام إلى الليل» فادّعى أن هذين الحدّين هما طرفا النهار)[3].

ويتطرّق البيروني بعد ذلك إلى تعريف الشهور والأعوام فيقول، السنة هي عودة الشمس في فلك البروج إذا تحرّكت على خلاف حركة الكل إلى أي نقطة فرضت ابتداء حركتها، وذلك أنها تستوفي الأزمنة الأربعة التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء[4].

ويصنّف البيروني السنة إلى قمرية وشمسية، ويتتبّع ذلك عند الشعوب المختلفة فيقول: فأما أهل القسطنطينية والإِسكندرية وسائر الروم والسريانيون.. فقد أخذوا بالسنة الشمسية التي هي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً وربع يوم بالتقريب، وصيّروا سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوماً، وألحقوا الأرباع في كل أربع سنين يوماً حين انجبرت وسمُّوا تلك السنة كبيسة لانكباس الأرباع فيها.

(١) البيروني، المصدر السابق، ص ٥.

(٢) المصدرالسابق، ص ٦.

(٣) المصدر السابق، نفسه، ص ٧.

(٤) المصدر السابق، ص ٩.

أما القبط القدماء فكانوا يعملون غير ذلك.. يتركون الأرباع حتى يجتمع منها أيام سنة تامة، وذلك في ألف وأربع مائة وستين سنة، ثم يكبسونها سنة واحدة.

أما الفرس فصيّروا سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وأسقطوا ما اتّبعها من الكسور. فألحقوا الشهر التام بها في كل مائة وست عشرة سنة.

وأما العبرانيون واليهود وجميع بني إسرائيل والصابئون والحرانيون، فإنهم قالوا بقول بين قولين، فأخذوا سنتهم من مسير الشمس وشهورها من مسير القمر لتكون أعيادهم وصيامهم على حساب قمري، وتكون مع ذلك حافظة لأوقاتها من السنة فكبسوا كل تسع عشرة سنة قمرية بسبعة أشهر[١].

ويذكر البيروني أن العرب في جاهليتهم كانوا ينظرون إلى الفرق بين سنتهم وسنة الشمس وهو عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وخُمْس ساعة، فيلحقونها بها شهراً كلما تمّ منها ما يستوفي أيام الشهر، ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة، ويتولى ذلك النَّسأة من كِنانَة المعروفون بالقَلامِس[٢].

وبعد أن حجّ النبي عليه الصلاة والسلام حجّة الوداع وأُنزل عليه «إنما النَّسيء زيادة في الكفر» أهمل الكبس وزالت شهورهم عما كانت عليه وصارت أسماؤها غير مؤدّية إلى معانيها.

بداية التواريخ واختلاف الأمم فيها:

يقول البيروني إن التأريخ هو مدة معلومة تُعدُّ من لَدُن سنة ماضية كان فيها مبعث نبي بآيات وبرهان أو قيام ملك مُسَلَّط عظيم أو هلاك أُمّة بطوفان عام مخرب أو زَلزلة.. أو حادثة عظيمة من الآيات السماوية.

وأول الأوائل القديمة وأشهرها عندنا هو كون مبدأ البشر، ولأهل

---

(١) البيروني، المصدر السابق، ص ١٠ ـ ١١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٢.

الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس وأصنافهم في كيفيته وسياقه التأريخ من لدنه من الخلاف ما لا يجوز مثله في التواريخ وكل ما يتعلق معرفته لبدء الخلق وأحوال القرون السالفة فهو مختلط بتزويرات وأساطير لبُعد العهد به وامتداد الزمان بيننا وبينه.

إن البيروني يرفض مزاعم الفرس والمجوس بشأن عمر العالم إذ إنهم يعتقدون أن عمر العالم اثنا عشر ألف سنة على عدد البروج والشهور، ويرفض كذلك ممزاعم اليهود والنصارى بشأن ما انقضى من الأعوام من لدن آدم إلى الإسكندر، إذ إن اليهود يزعمون أن ما مضى من لدن آدم إلى الإسكندر هو ٣٤٤٨ سنة، والنصارى يزعمون ما مضى هو ٥١٥٨ سنة.

ثم يتطرّق البيروني لتأريخ فيلفس والد الإسكندر، وتاريخ أغسطس الملك، وهو أول القياصرة، ومعنى قيصر بالإفرنجية «شق عنه» والسبب في ذلك أن أمّه ماتت في المخاض وهي حامل به فشُقّ بطنها وأُخرج عنه ولُقّب بقيصر[1].

ويتعرّض بعد ذلك لتأريخ دقلطيانوس وهو آخر عبَدَة الأوثان من ملوك الروم.

ثم تأريخ النبي ﷺ من مكة إلى المدينة وهو على السنين القمرية برؤية الأهلة لا الحساب، وعليه يعمل أهل الإسلام بأسرهم. وتتبّع البيروني أسماء الشهور التي تستعمل في التواريخ المختلفة، وبدأ يذكر ما كانت الفرس تستعمله وقال شهور الفرس اثنا عشر وأسماؤها:

١ ـ فروردين ماه.

٢ ـ أرديبهشت ماه.

٣ ـ خرداذ ماه.

٤ ـ تير ماه.

---

(١) كان يفخر على الملوك بأنه لم يخرج من بضع امرأة، البيروني، المصدر السابق، ص ٣٩.

٥ ـ مرداذ ماه.

٦ ـ شهريور ماه.

٧ ـ مهر ماه.

٨ ـ آبان ماه.

٩ ـ آذر ماه.

١٠ ـ دي ماه.

١١ ـ بهمن ماه.

١٢ ـ أسفندارمذ ماه.

وكل واحد من شهور الفرس ثلاثون يوماً لكل يوم منها اسم مفرد بلغتهم(١).

ويتتبّع البيروني أسماء الشهور عند قدماء سجستان، وشهور مجوس ما وراء النهر وهم أهل خوارزم والسند.

ويذكر البيروني أن أول من استعمل الأسابيع أهل الشام وحواليه بسبب ظهور الأنبياء فيه وأخبارهم عن الأسبوع الأول وبدء العالم فيه على مثل ما افتتحت به التوراة، ثم انتشر ذلك منهم في سائر الأمم واستعمله العرب العاربة بسبب تجاور ديارهم وديار أهل الشام وتعاقب مراكزهم، وتعرّب إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام(٢).

وذكر البيروني أسماء الشهور القبطية في مصر القديمة والحديثة، والشهور القبطية الحديثة هي:

١ ـ توت. ٢ ـ بابه.

٣ ـ هتور. ٤ ـ كهيك.

٥ ـ طوبة. ٦ ـ أمشير.

(١) البيروني، المصدر السابق، ص ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٨.

٧ - برمهات.	٨ - برموذة.
٩ - بشنس.	١٠ - بؤنه.
١١ - أبيب.	١٢ - مسري.

ويستند البيروني في ذكر شهور المغاربة إلى ما ذكره أبو العباس الأملي في كتابه «دلائل القبلة» وهذه الشهور هي:

مايه (مايو)	ستنبر (سبتمبر)	ينير (يناير)
يونيه	أكتوبر	فبرير (فبراير)
يوليه	نونبر (نوفمبر)	مرسه (مارس)
أغست (أغسطس)	دخيمبر (ديسمبر)	ابرير (ابريل)

أما الروم فشهورهم اثنا عشر شهراً أبداً وهذه أسماؤها:

ينواريوس	مايوس	سبطمبريوس
فبراريوس	يونيوس	طمبريوس
مرطييوس	يوليوس	نوامبريوس
افليريوس	أغسطس	دميريوس

وشهور العبرانيين وجميع من انتمى إلى موسى عليه السلام من اليهود اثنا عشر وهذه أسماؤها:

تشري	شفط	سيون
مرحشوان	آذر	تمز
كسليول	نيسن	أوب
طيبث	ايركط	ايلل

ويتحدّث البيروني بعد ذلك عن شهور العرب ويفسّر أسماءها على النحو التالي:

المُحرَّم	(قيل في تسمية المحرَّم بهذا الاسم لكونه من جملة الحُرم)
صَفَر	(لامتيارهم في فرقة تسمّى صَفَريَّة).
ربيع الأول ربيع الآخر	(للزهر والأنوار وتواتر الأندية والأمطار).
جُمادَى الأولى جُمادَى الآخرة	(لجمود الماء فيهما)
رجب	(لاعتمادهم الحركة فيه)
شعبان	(لتشعُّب القبائل فيه)
رمضان	(لأن الحجارة تَرمَض فيه من شدّة الحرّ)
شوال	(لارتفاع الحرّ وادباره)
ذو القعدة	(للزومهم منازلهم)
ذو الحجة	(لحجّهم فيه)

وكانت الشهور العربية بأسماء أخرى هي:

المُؤتَمِر	حنتم	نَافِق
نَاجِر	زَبَّاء	واغِل
خَوَّان	الأصم	هُوَاع
صُوَان	عادل	بُرَك

وقد وُجدت هذه الأسماء مختلفة في بعض الأشعار على النحو التالي:

بمُؤتمر وناجرة بدأنا   وبالخَوَّان يتبعه الصُّوان
وبالزّبَاء بائدة تليه   يعود أصَمٌّ صَمٌّ به الشُّنانُ
وواغِلة وناطِلة جميعا   وعادلة فهم غُرَر حِسانُ
وَرنَّةُ بعدها بُرَك فتمت   شهورُ الحَوْلِ يعقدها البَنانُ

وذكرت كتب اللغة في تفسير أسماء الشهور العربية القديمة أن المؤتمر يأتمر بكل شيء مما يأتي به السنة من أقضيتها، وناجر من النَّجر، وهو شدّة الحرّ، وخَوَّان من الخيانة، وصُوَان من الصيانة، وأما الزَّباءَ، فهي الداهية العظيمة ويسمى لكثرة القتال فيه، البائد من القتال إذ كان يبيد فيه كثير من الناس، الأصمّ لأنهم كانوا يكفُّون عن القتال فيه فلا يسمع فيه صوت سلاح، الواغل أي الداخل، وذلك لهجومه على شهر رمضان الذي يكثرون فيه شرب الخمر لأن ما يتلوه من أشهر الحجّ، وأما نَاطِل فهو مِكيالٌ للخمر، والعادل من العدل لأنه من أشهر الحجّ، وأما الرَّنَة لأن الأنعام كانت ترنُّ فيه لقُرب الحرّ، وأما بُرك فهو لبروك الإبل إذا أُحضِرَت للنحر.

ونقل البيروني عن أبي بكر محمد بن دُرَيد في كتاب الوشاح أن ثموداً كانوا يسمُّون الشهور بأسماء أخرى على النحو التالي:

مُوجِبٌ	ثم مُصدِر	ثم دَيْمُر
ثم مُوجر	ثم هَوْبَر	ثم دَابِر
ثم مُورِد	ثم هَوْبَل	ثم حَيْفل
ثم مُلْزِم	ثم مَوْهَاء	ثم مُسبِل

وأنهم كانوا يبتدئون بها من ديمر وهو شهر رمضان.

ولم تكن العرب تسمّي كل يوم باسم معيّن كما فعل الفرس، بل كانوا يفردون لكل ثلاث ليال من كل شهر من شهورهم اسماً على حدة، وتتعلّق التسمية بحال القمر وضوءه، فإذا ابتدأ أطلقوا على الأيام الثلاثة الأولى

(غُرَر) جمع غُرَّة، وغُرَّة كل شيء أوله، ثم ثلاث (نُفَل) من قولهم تنفَّل إذا ابتدأ بالعطيّة ثم ثلاث (تُسَع أو بُهْر) ثم ثلاثة (عُشَر) لأن أولها العاشرة، ثم ثلاث (بِيض) لأنها تَبْيضُّ بطلوع القمر، ثم ثلاث (دُرَع) تشبيهاً بالشاة الدَّرْعاء التي بها اسوداد، ثم ثلاث (ظُلَم) ثم ثلاث (حَنادِس) أو دُهْم لسوادها، ثم ثلاث (دآديء) لأنها بقايا، ثم ثلاث (مِحاق) لانمحاق القمر للشهر: واستعمل العرب كذلك الأسابيع، وذكر شاعرهم أسماء أيامها فقال:

أُؤمل أن أعيش وأنّ يومي ... بِأَوَّل أو بِأَهْون أو جُبَارِ
أو التالي دُبَار فإن أَفُته ... فَمُؤنسَ أو عَرُوبَة أو شِيَارِ

فكان أول أيام أسبوعهم الأول وهو الأحد والأهون (الاثنين)، جُبَار (الثلاثاء) دُبَار (الأربعاء) مُؤنِس (الخميس) عروبه (الجمعة) وشِيَار (السبت)[1].

لقد استطاع البيروني جمع هذه التقاويم من مصادر مختلفة من مؤلفات لا نجدها الآن، أو من الروايات المتواترة، وقد كان البيروني دقيقاً ومخلصاً ويتّضح ذلك من قوله:

(وأما شهور سائر الأمم من الهند والصين والتبت والترك والخزر والحبشة والزنج، فإنه وإن تقرّر عندنا أسماء بعضها فإنّا قد أعرضنا عن ذكرها إلى وقت يتفق لنا الإحاطة فيه بها إذ لا يليق بطريقتنا التي سلكناها أن نضيف الشكّ إلى اليقين والمجهول إلى المعلوم[2]). من هذه العبارة السابقة تظهر لنا أصالة البيروني العلمية.

وبسبب شهرة البيروني فإن بعض الدول تتنازع انتسابه إليها مثل إيران وروسيا وتركيا، فروسيا تتمسّك بأن خوارزم تقع في جمهورية تركستان السوفيتية، وإيران تقول لقد أقام البيروني طويلاً في ديارها. أما تركيا فتدّعي أنه ينتسب إلى السلالة التركية وأنه في اعتقادهم تركماني. والعرب يقولون إن البيروني كان عربياً في ثقافته، وفي لغته التي كتب بها أبحاثه ومشاهداته،

---

(١) البيروني، مصدر سبق ذكره، ص ص ٦٠- ٦٤.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٦٨.

ولقد قال البيروني نفسه: (الهجو بالعربية أحبُّ إليَّ من المدح بالفارسية).

وقد أصدرت أكاديمية العلوم السوفيتية سنة ١٩٥٠م مجلداً تذكارياً بمناسبة مرور ألف سنة على مولد البيروني، وأشرف على إخراج هذا المجلّد المستشرق تولستوف الروسي، وعنوان هذا المجلّد «البيروني». وفي سنة ١٩٥١م صدر بالهند مجلّد تذكاري عن البيروني.

ثانياً: الجغرافيا الإِقليمية

(١) مفهوم الإِقليم عند المسلمين:

إن من يدرس تراث الجغرافيا عند المسلمين يسترعي انتباهه تعدُّد ورود كلمة «الأقاليم» في كتب المسالك والممالك، وتقسيم المعمور من الأرض إلى أقاليم مختلفة، كما أن بعض الكتب اتّخذ من «الأقاليم» عنواناً له.

ومن أول الكتب في هذا المجال «كتاب الأقاليم»[١] الذي كتبه هشام الكلبي (توفي سنة ٢٠٦هـ / ٨٢٠م). وكتاب «صوَر الأقاليم» للبلخي في القرن الرابع الهجري (بداية القرن العاشر الميلادي)، وكتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي في نهاية القرن العاشر الميلادي.

وحينما نتلمّس معنى لفظ «الإِقليم» نجد تبايناً كبيراً بين مفهوم هذا اللفظ وأصل اشتقاقه عند الجغرافيين المسلمين. يقول ياقوت الحموي: (وأما اشتقاق الأقاليم فذهبوا إلى أنها كلمة عربية واحدها إقليم، مثل اخريط وأخاريط، والإِقليم إنما سمّي إقليماً لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه أي مقطوع، والقلم في أصل اللغة القطع، ومنه قلّمت ظفري. وبه سمى القلم لأنه مقلوم أي مقطوع مرة بعد مرة)[٢]. وقال حمزة الأصفهاني[٣]: الأرض مستديرة الشكل المسكون منها دون الربع، وهذا الربع قسمان[٤] براً وبحراً، ثم ينقسم هذا الربع سبعة أقسام يسمى كل قسم منها بلغة الفرس كشخر، وقد استعارت العرب من السريانيين للكشخر اسماً وهو الإِقليم اسم للرستاق.

وقال محمد بن أحمد أبو الريحان البيروني، الإِقليم على ما ذكر

---

(١) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ١٢٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة بيروت سنة ١٩٥٥، جـ ١، ص ٢٥.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٤) جاءت في النص قسمين.

أبو الفضل الهروي في «المدخل الصاحبي» هو الميل، فكأنهم يريدون بذلك المساكن المائلة عن معدل النهار[1].

ومن دراسة الأقوال السابقة يتّضح لنا أن أبا الفضل الهروي قد أصاب الحقيقة إذ إن كلمة «إقليم» مُحرَّفة عن الكلمة اليونانية Klima التي استخدمها العالِم اليوناني «هيبارخوس» Hipparchus[2] في القرن الثاني قبل الميلاد (في سنة ١٤٠ق.م تقريباً) حيث ابتكر نظاماً من الخطوط الموازية لخط الاستواء، والتي تقسم سطح الأرض إلى مناطق وفقاً لطول النهار في كل منطقة وقت الانقلاب الصيفي. وقد أطلق على كل منطقة Klima وعلى المناطق Klimata بحيث يختلف طول النهار في كل منطقة بمقدار نصف ساعة عن الأخرى. ولقد اشتقّت كلمة Climate الدالّة على المناخ في اللغة الإنجليزية من هذا الأصل الإغريقي Klimata، ويبدو أن الرومان الذين هزموا اليونان عسكرياً قد أخذوا كثيراً عن الإغريق، وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا إن الرومان كانوا أسارى الفكر والثقافة اليونانية، ومن هنا أخذوا كلمة Klima ونقلها عنهم العرب، ولا يخفى على أحد ما بين الكلمتين من تقارب في النطق؛ ويؤكّد هذه الحقيقة ما ذكره حمزة الأصفهاني من أن العرب قد استعارت اسم الإقليم من السريانيين.

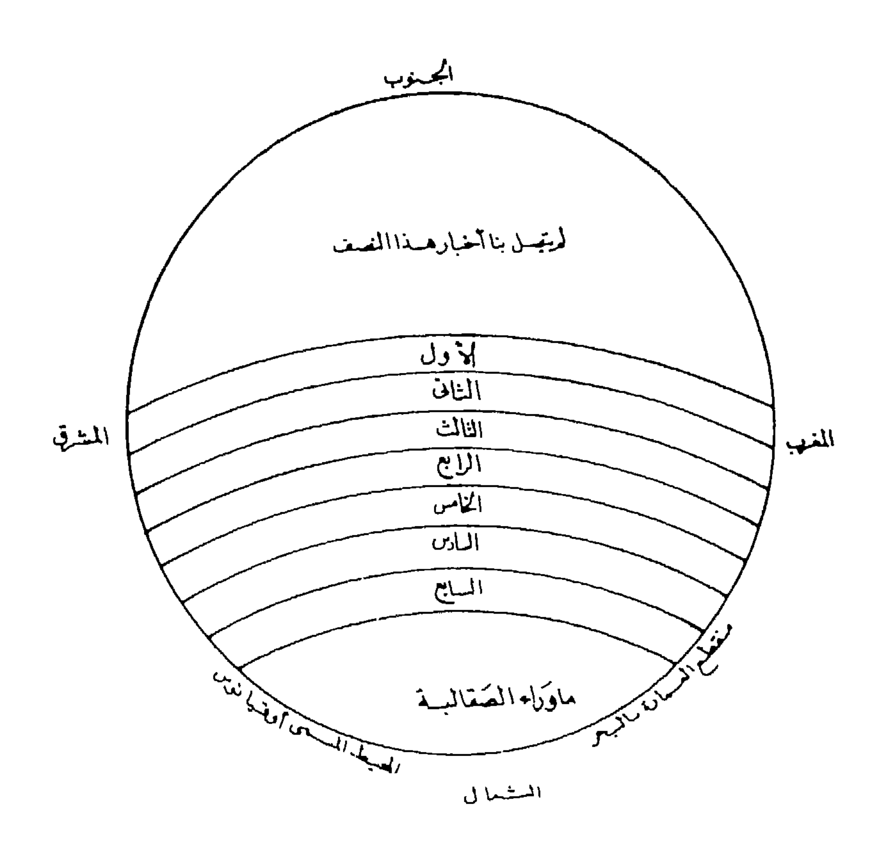
ومن الأمور التي تلفت النظر، تأثُّر الجغرافيين المسلمين بنظرية تقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم، كل إقليم عبارة عن شريط عريض يمتدّ بموازاة خط الإستواء، وهذه الأقاليم مرتّبة من الجنوب إلى الشمال (شكل ٦).

ويقول كراتشكوفسكي إن هذا التقسيم يعتمد أساساً على حسابات العلماء اليونان[3]، والواقع أن في ذلك مبالغة، إذ إن اليونان لم يُقسّموا العالم

(١) البيروني، كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، طبعة مكتبة المثنى ببغداد، بدون تاريخ طبع، ص ص ١٤٤- ٢٣٨.

(٢) Rummey, George R., Climatology and the World Climates, New York, 1970, P. 3.

(٣) كراتشكوفسكي، جـ ١، المرجع السابق، ص ١٠١.



الأقاليم السبعة كما رسمها البيروني

المصدر: ياقوت الحموي

شكل (٦)

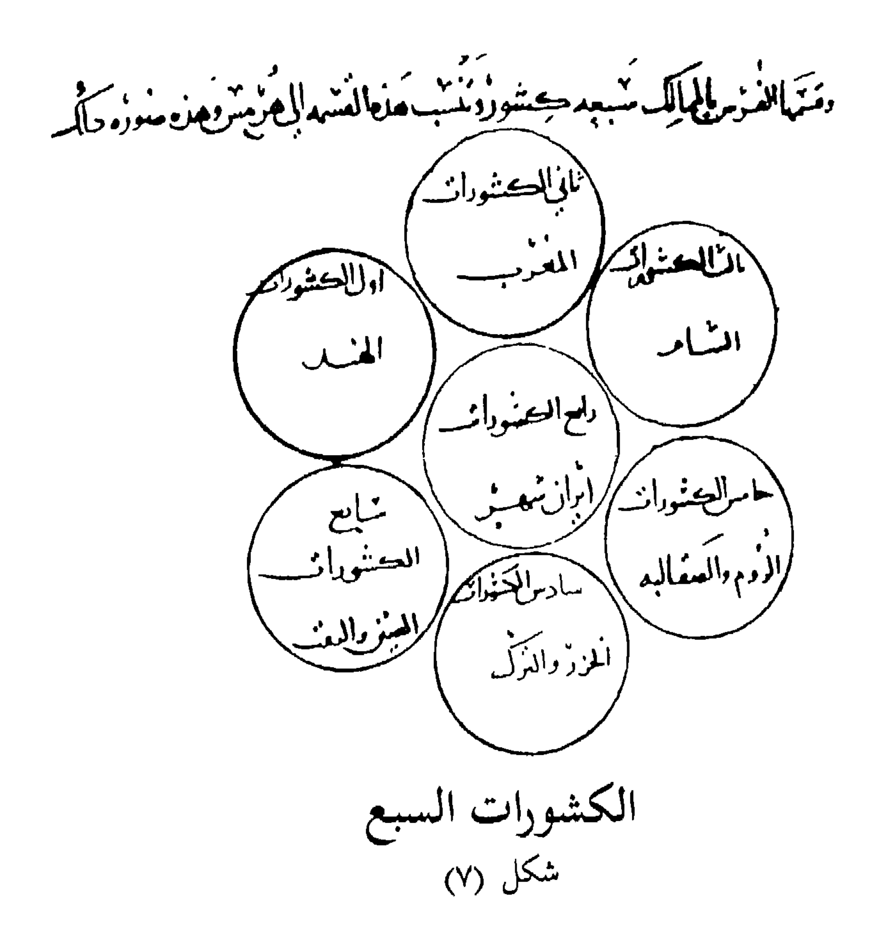
إلى سبعة أقاليم، ولكنّهم إبتكروا نظام Klimata الذي سبقت الإشارة إليه، أما التقسيم إلى سبعة أقاليم فهو تقسيم للفرس قديم، حيث قسّموا الأرض المعمورة إلى سبعة أقسام تسمى كشوارت[1]. ويقول أبو الريحان: قسّم الفرس الممالك المطيفة بايرانشهر، في سبع كشورات (شكل ٧) وخطّوا حول كل مملكة دائرة سمّوها كشورا وكشخرا (اشتقاقاً من كشسته)، وهي اسم الخط في لغتهم، والأصل في هذه القسمة ما أخبر به زرادشت، صاحب ملّتهم، من حال الأرض، وأنها مقسومة بسبعة أقسام[2]. ويذكر المقدسي أن التمسّك بالسباعيات يرجع إلى: أن الله عزّ اسمه خلق السموات والأرض سبعاً سبعاً، والأيام والليالي سبعاً سبعاً، والأرزاق من سبع، ونزل القرآن على سبعة أحرف، والمساجد سبعة.

ويعتقد بعض الباحثين أن التقسيم إلى سبعة أقاليم عند العرب وليد اهتمامهم بالتنجيم وربطهم الحوادث بالنجوم، لأن بيوتات العرب للعبادة قديماً كانت للكواكب السبعة بما في ذلك الشمس والقمر.

---

(١) كرلو نلينو، مصدر سبق ذكره ص ١٥٨.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٢٦.



الكشورات السبع

شكل (٧)

المصدر : البيروني كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم

٢ . تطوُّر الدراسة الإِقليمية:

بدأت الدراسة الإِقليمية بجزيرة العرب وتمثّلت في تصنيف ذكر المدن المعمورة والبلدان المسكونة المشهورة. ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقِفار، ومنها ما اقتصر على منازل العرب الواردة في أخبارهم والأشعار. ومن الذين كتبوا عن جزيرة العرب هشام الكلبي، وقد ذكر ابن النديم أن له عشرة مؤلفات في الجغرافيا منها: كتاب الأقاليم، وكتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير، وقال ياقوت الحموي عنه: (إنه كان عالماً بالنّسب وأخبار العرب وأيامها ووقائعها ومثالبها)[١]. وما تنازع العلماء في شيء من أمور العرب إلا وكان قوله أقوى حجّة.

وللأصمعي (١٢٢هـ ـ ٢١٦هـ / ٧٤٠ ـ ٨٣١م) كتاب «جزيرة العرب» الذي يعدّه ياقوت المصدر الأساسي عن جزيرة العرب.

وللهمداني (توفي سنة ٣٣٤هـ / ٩٣٥م) كتاب صفة جزيرة العرب.

وقد وردت مقتطفات مهمة في معجمَي البكري وياقوت الحموي عن كتاب السيرافي (توفي حوالي ٣٦٨هـ / ٩٧٩م) بعنوان جزيرة العرب.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي بدأ يطرأ على هذه المصنّفات التي اهتمّت بالجزيرة العربية بعض التغيير فشملت أقطاراً أخرى.

وقد ذكر المسعودي في مروجه أن للجاحظ كتاباً تحت اسم «كتاب الأمصار وعجائب البلدان»[٢]، وتوجد بضع وُريقات في إحدى مخطوطات المتحف البريطاني تحت اسم «كتاب الأوطان والبلدان»[٣] وتُنسب للجاحظ. ويبدو مما نقله عنه ياقوت أنه يتكلم عن عجائب البصرة ومساوئها، وعن مساوىء مصر وعجائبها، أي يتكلم عن خصائص عامة. وقد أشار الثعالبي

---

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون، بدون سنة طبع، جـ ١٩، ص ٢٨٧.
(٢) المسعودي، مروج الذهب، ص ٢٠٦.
(٣) حاجي خليفة، كشف الظنون، جـ ٥، ص ٥٢.

الذي توفي (٤٢٩هـ / ١٠٣٨م) إلى كتاب الجاحظ تحت اسم «خصائص البلدان».

وقد تخطّت الدراسة الإقليمية الجزيرة العربية في كتاب صورة الأرض للخوارزمي، والخوارزمي هو محمد بن موسى الخوارزمي من أشهر الجغرافيين المسلمين، وقد تأثّر ببطليموس. ويعتقد كثير من الباحثين أنه ترجم كتابه الجغرافيا إلى «صورة الأرض»، ونظراً لاهتمام الخوارزمي بالرياضة والفلك، فقد ظهر كتابه على هيئة أزياج «جداول».

والحقّ أن صورة الأرض ليست ترجمة حرفيّة لجغرافية بطليموس كما ذكر كثير من الجغرافيين العرب، لأن الخوارزمي رتّب المادة الجغرافيّة ترتيباً جديداً، وأضاف كثيراً من ميدان الجغرافيا العربية، وعلى سبيل المثال، قسّم بطليموس العالم إلى إحدى وعشرين منطقة، بينما قسّم الخوارزمي العالم إلى سبعة أقاليم حسب درجات العرض، وهو تقسيم جديد فيه ابتكار وأصالة[١]. ويمكن أن نطلق على هذه الأقاليم «أقاليم نهارية» حيث تعتمد على طول النهار. وتبدأ هذه الأقاليم في الترتيب من الجنوب إلى الشمال، الإقليم الأول ثم الثاني هكذا. ويعرض الخوارزمي المادة الجغرافيّة في جداول مع تحديد مواقع الظاهرات الجغرافية، وهي المدن، ويذكرها موزّعة على الأقاليم المختلفة على أساس ابتعادها عن خط الزوال الذي يمرُّ بجزر السعادة في أقصى غربي افريقيا، ويبدو هنا تأثُّره ببطليموس. وهناك اختلاف حول تحديد أبعاد الظاهرات ما بين كتاب الخوارزمي وبطليموس. وتحدّث الخوارزمي عن الجبال والبحار ثم أنهى الكتاب بذكر العيون والأنهار في كل اقليم.

ويمكن القول بأن الخوارزمي اتّخذ الأسس الآتية في دراسته:

أولاً: تقسيم سباعي حسب درجات العرض فيما يمكن أن نطلق عليه أقاليم نهارية لأن الأساس طول النهار.

ثانياً: ذكرت المادة الجغرافية حسب الظاهرات، مدن، جبال، بحار.

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ١٠٠.

ثالثاً: عرضت المادة في جداول أو قوائم بحيث يمكن أن تسمى «جغرافية القوائم» أو الجغرافيا الجدولية. ويذكّرنا ذلك بما كان سائداً في بريطانيا حتى نهاية القرن التاسع عشر تحت اسم «الليكسوغرافيا» وقد ذكر المؤرخ البريطاني J.R. Green ذلك حين أعطى صورة واضحة عن الجغرافيا سنة ١٨٨٠م في بريطانيا إذ قال: «إنها عبارة عن جداول تتضمّن ارتفاعات الجبال والهضاب والمساحات مرتّبة ترتيباً أبجدياً[١]».

وقد ظهرت في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري مجموعة من الكتب التي تحمل عنوان «المسالك والممالك» وقد ذكر ابن النديم في الفهرست[٢] أن أول من صنّف في المسالك والممالك هو الأديب أبو العبّاس جعفر بن أحمد المروزي المتوفى سنة ٢٧٤هـ / ٨٨٧م، وقد كرّر هذا القول ياقوت الحموي[٣].

ويبدو أنه في الوقت الذي توفي فيه المروزي كان ابن خرداذبة قد فرغ من المسودّة الأولى أو الثانية لكتاب يحمل نفس العنوان، «المسالك والممالك»[٤].

ولأحمد بن محمد بن الطيّب السرخسي الذي توفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) كتاب المسالك والممالك.

ومن الذين تنسب لهم كتب بعنوان المسالك والممالك الأصطخري ومحمد الورّاق، ويُكنّى بالتاريخي، وتوفي سنة (٣٦٣هـ / ٩٧٣م) والمُهَلَّبي الذي توفي سنة (٣٨٦هـ / ٩٩٦م)، والبكري الذي توفي سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م.

ومعظم مؤلفات المسالك والممالك، عبارة عن مصنّفات جغرافية وُضعَت

---

(١) ج .ر. كرون، أعلام الجغرافية الحديثة، تعريب شاكر خصباك، طبعة دار المعارف القاهرة، ص ٧.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ١٥.

(٣) ياقوت الحموي، المعجم، جـ ٢، ص ٤٠٠.

(٤) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ١٣١.

من أجل تبصير الاداريين وعمّال الدواوين بأطراف العالم الإسلامي ونظامه الإداري مع الاهتمام بوصف الطرق. ويمكن القول بأن هذه الكتب وظّفت الجغرافيا من أجل تيسير جباية الضرائب وبيان الولايات المختلفة وحدودها. كما أن المادة التاريخية تطغى على ما بها من معلومات جغرافية، وكثيراً ما نجد أن المادة التاريخية الموجودة لا تستند إلى حقائق علميّة.

ويُعدُّ كتاب «المسالك والممالك» لابن خرداذبه نموذجاً جيّداً للكتب التي حملت هذا العنوان، والتي لم تبق إلا عناوينها في غالب الأحيان. وابن خرداذبه وهو فارسي الأصل، عمل صاحب البريد بنواحي الجبال في إيران، وكان مُقرّباً من بلاط الخليفة المعتمد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري.

وكان لمنصب ابن خرداذبة كصاحب بريد تأثير كبير في تشجيعه على تأليف هذا الكتاب. ويعتقد كراتشكوفسكي أن ابن خرداذبه ربما كتب هذا الكتاب استجابة لطلب أحد العباسيين[1]. وقد توفي ابن خرداذبه سنة (٣٠٠هـ الموافق ٩١٢م) كما ذكر حاجي خليفة.

وكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه في رأي بعض الباحثين ترجمه عن مؤلف بطليموس «الجغرافيا» مع إضافات جيّدة من ابن خرداذبه الذي يذكر ذلك في مقدمة كتابه فيقول:

(هذا كتاب فيه صفة الأرض وبنية الخلق عليها وقبلة أهل كل بلد، والممالك والمسالك إلى نواحي الأرض.. فوجدت بطليموس قد أبان الحدود وأوضح الحجة في صفتها بلغة أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة)[2].

ثم يبدأ بصفة الأرض وبنية الخلق عليها وقبلة أهل كل بلد والمسالك والممالك.

ويتعرّض تحت هذا العنوان لصفة الأرض أي شكلها، والجاذبية وخط

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ١٥٥.

(٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد، ص ٤.

الاستواء، وأبعاد الأرض. ثم ذكر أن المعمور هو الربع الشمالي من الأرض، والربع الجنوبي خراب لشدّة الحرّ فيه، والنصف الذي تحتنا لا ساكن فيه، وكل ربع من الشمالي والجنوب سبعة أقاليم[1].

ثم يذكر ابن خرداذبه قبلة كل بلد: فقبلة أهل أرمينية وأذربيجان وبغداد وواسط الكوفة.. وقشمير والهند إلى حائط الكعبة الذي فيه بابها، وهو من القطب الشمالي عن يساره إلى وسط المشرق.

ثم يذكر خبر المشرق (من ص ٧٢ إلى ص ١٨٧) ويُعدُّ هذا القسم أطول الأقسام حيث تكلّم عن خراسان وطرقها ـ وألقاب ملوكها وبلاد السند وسرنديب، وقد ذكر بعض الخرافات عن سرنديب حيث قال: (بها الجبل الذي هبط عليها آدم صلى الله عليه.. أثر قدَمِه مغموس في الحجر وهو نحو من سبعين ذراعاً)[2].

وتحدّث ابن خرداذبه عن خبر المغرب وخبر الجربي، أي بلاد الشمال، (أرمينية ـ أذربيجان الري ـ دَنْباوندَ).. ثم تحدّث عن خبر التيمن، والتيمن بلاد الجنوب ربع المملكة. وتحدّث كذلك عن سكك البريد والتجارة.

ثم يتحدّث عن عجائب الأرض، وبعض هذه العجائب غير مألوفة لابن خرداذبة وبعضها خرافات. ومن الحقائق التي ذكرها ابن خرداذبه مطر اليمن، حيث قال: (فمطر صنعاء وما والاها حزيران وتموز وآب وبعض أيلول من الزوال إلى المغرب يلقى الرجل الرجل نصف النهار فيكلّمه فيقول عجل قبل الغيث لأنه لا بدّ من المطر في هذه الأيام)[3].

ومن الخرافات التي ذكرها ابن خرداذبه وغيره قوله: (إن من دخل التبت لم يزل ضاحكاً مسروراً من غير سبب يعرفه حتى يخرج منها)[4].

وعموماً فإن «المسالك والممالك» لابن خرداذبه عبارة عن جغرافيا

---

(١) المصدر السابق، ص ٥.

(٢) ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٥.

(٤) المصدر السابق، ص ١٧١.

وصفيّة واهتمّ هذا الكتاب بالنقل، وليس له منهج ثابت في معالجة أجزاء المعمورة. وقد اشتمل الكتاب على ما يمكن أن نصفه بجغرافية العجائب، وقد وردت في أجزاء متفرّقة من الكتاب ثم جمعها في نهاية الكتاب تحت عنوان (عجائب طبائع البلدان).

واتّخذت الجغرافيا الإقليمية عند المسلمين اتّجاهاً جديداً عند أبي زيد البلخي (٢٣٥هـ - ٣٢٢هـ) / (٨٥٠م - ٩٣٤م) والاصطخري (توفي سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م). وابن حوقل (توفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م) المقدسي (توفي سنة ٣٩٠هـ /١٠٠٠م).

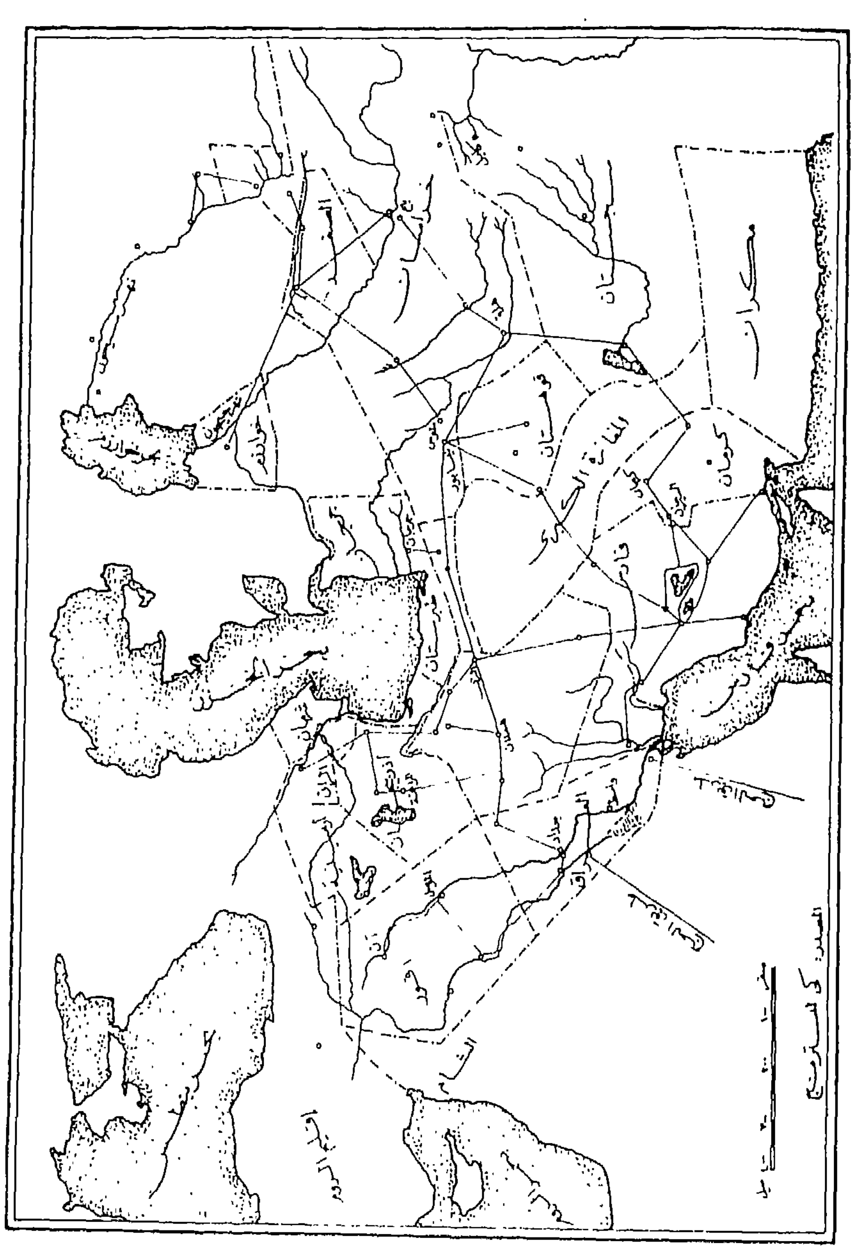
ويتمثّل هذا الاتجاه الجديد في دراسة مملكة الإسلام، أو بلاد الإسلام ومدنها. وقد ذكر الاصطخري في مقدمة كتابه (الغرض منه هو تصوير هذه الأقاليم التي لم يذكرها أحد علمته) علماً بأن البلخي قد سبقه إلى ذلك، وإن كان الاصطخري قد جعل أساس التقسيم للأقاليم هو بلاد الإسلام، ولكثرة استخدام الاصطخري للفظ بلغني كذا أو كذا، جعل دي خويه يتّهمه بأن كتابه ليس سوى نسخة حديثة لمصنّف سابق كتبه أبو زيد البلخي[1].

ولم يعد الاقليم في كتابات «البلخي، الاصطخري، ابن حوقل، المقدسي» هو ذلك النطاق العريض الذي يضمّ عدداً من درجات العرض، بل أصبح منطقة جغرافية ذات مظاهر طبيعية معيّنة، أو منطقة إدارية (شكل ٨).

ويقول الاصطخري في ذلك: (لم أقصد التقسيم إلى الأقاليم السبعة التي عليها قسمة الأرض، بل جعلت كل قطعة أفردتها، مفردة مصوّرة تحكي موضع ذلك الإقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن، وما في أضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والأنهار، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من غير أن استقصيت ذلك كراهة الإطالة التي تؤدي إلى ملال من قرأة... ثم أفردت لكل إقليم من أقاليم الإسلام صورة.

---

(١) محمد محمود الصياد، من الوجهة الجغرافية «دراسة في التراث العربي»، مطبوعات جامعة بيروت، سنة ١٩٧٠م، ص ٢٢.



أقاليم آسية الجنوبية الغربية فى أيام الخلافة العباسية

شكل (٨)

ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليماً، وابتدأت بديار العرب فجعلتها إقليماً لأن فيها الكعبة، ومكّة أمّ القرى).

والأقاليم العشرون التي تناولها الاصطخري هي: (ديار العرب، بحر فارس، ديار المغرب، ديار مصر، أرض الشام، بحر الروم، أرض الجزيرة، العراق، خُوزستان، بلاد فارس، بلاد كِرمان، بلاد السند، اذربيجان، الجبال، الديلم، بحر الخزر، مفازة خراسان، سجستان، خراسان، ما وراء النهر).

أما ابن حوقل فقد جعل الأقاليم الإسلامية اثنين وعشرين إقليماً هي نفسها الأقاليم التي ذكرها الاصطخري مع إضافة إقليمين هما: (الأندلس وصقلية).

وقسّم المقدسي مملكة الإسلام إلى أربعة عشر إقليماً، ستة منها عربية وثمانية للعجم.

وقد اختلف تقسيم الأرض الآهلة بين الجغرافيين المسلمين وفقاً لمنهج كل منهم، وعلى سبيل المثال، نجد أن الإدريسي قسّم الأقاليم في كتابه «نزهة المشتاق» إلى سبعة أقاليم كبرى، قسّم كلاً منها إلى عشرة أقاليم فرعيّة، فصار مجموع الأقاليم سبعين إقليماً.

وقسّم أبو الفداء الأرض الآهلة إلى ثمانية وعشرين إقليماً.

وتطوّرت الجغرافيا الإقليمية عند المسلمين وأصبحت تركّز على دراسة قطر واحد، كما هي الحال في كتاب الهند، للبيروني (توفي سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م) ويقع كتاب الهند في ثمانين باباً تناولت أديان الهند ومذاهبهم، ولغاتهم وعاداتهم، وطبقات الناس وأصحاب المهن. ويُعدُّ الباب الثامن عشر أهمّ أبواب كتاب الهند حيث تناول جغرافية بلاد الهند، ووصف الجبال الشاهقة، وأرض الهند من البراري الحديثة المنكبسة بحمولات السيول[1].

أما كتاب «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهَدَة والحوادث المعايَنَة بأرض

---

(١) أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، سنة ١٣٧٧هـ، ص ص ١٥٥- ١٧٠.

مصر» فهو لعبد اللطيف البغدادي (سنة ٥٥٧هـ ـ ٦٢٩هـ) / (١١٦٢-١٢٣١م) ولقد عنى موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف البغدادي بوصف آثار مصر، وقال إنه لم يرَ مثل مبانيهم في جميع البلاد، ووصف حمّامات مصر ونباتاتها وحيواناتها، كما تحدّث عن النيل والأهرامات. وعموماً يعدّ المقدسي أبرز من كتب في الجغرافيا الإقليمية من الجغرافيين المسلمين.

٣ . المقدسي نموذج للجغرافيين الإقليميين المسلمين:

المقدسي هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدسي البشاري. وُلد سنة (٣٣٥هـ / ٩٤٧م) ببيت المقدس، ومن هنا اشتهر بالمقدسي، أو بالمُقدَّسي، بتشديد الدال، وقد دعاه ياقوت الحموي في القرن ١٣م «بالبشاري»، والمقدسي حفيد لبنّاء اشترك في بناء مدينة عكا في عهد الدولة الطولونية.

وقد صنّف المقدسي مؤلفه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) في سنّ الأربعين بمدينة شيراز سنة (٣٧٥هـ / ٩٨٥م)[١].

وتوفي المقدسي حوالي سنة (٣٩٠هـ / ١٠٠٠م) أي في سن الخامسة والخمسين.

ويقع كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» في ٤٩٨ صفحة من القطع المتوسط[٢].

مفهوم الإقليم وأسلوب دراسته عند المقدسي[٣]:

مفهوم الإقليم عند المقدسي، كما يتضح من كتاباته، يتلخّص في أن المقدسي اعتمد في تقسيمه لأقاليم العالم على ما كان سائداً، ويعترف بذلك ويقول:

---

(١) نفيس أحمد، مرجع سبق ذكره، ص ٥٧.
(٢) طبعة مكتبة خياط، بيروت.
(٣) من بحث قدّم للمؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول بالرياض سنة ١٣٩٩هـ ـ (للمؤلف).

(اعلمْ أنّ كل مصنّف في هذا الباب جعل الأقاليم أربعة عشر: سبعة ظاهرة عامرة، وسبعة خراباً. وسمعت بعض المنجّمين يقول: الخلق كلهم في المغرب.. ونحن ننقل منها وعمّن لقينا من كبراء المنجّمين هذا الباب لأنه علم يُحتاج إليه في تحديد القبلة)[1].

ثم يبدأ المقدسي في تتبّع الأقاليم السبعة التي يعتمد تحديدها على أساس طول الظل إذا استوى الليل والنهار، وذلك وقت الظهيرة، فالإقليم الأول أوّله حيث يكون الظلّ نصف النهار إذا استوى مع الليل قدَماً واحدة ونصفاً وعُشراً وسُدس عُشر قدم، وآخره في هذا الوقت قدمان وثلاثة أخماس[2]... والإقليم الثاني أوله حيث يكون الظل إذا استوى الليل والنهار كما قلنا عند الظهيرة قدمين وثلاثة أخماس.

وبعد أن يتتبّع المقدسي تحديد الأقاليم السبعة ويحدّد أطوالها وعرضها بالفراسخ، يتناول ذكر مملكة الإسلام معتمداً على أُسس جديدة ومتحرّراً من ناحية تقسيم المعمورة إلى النطاقات المرتّبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء، والتي التزم بها في تقسيمه للعالم على أساس ما كان سائداً حتى لا يخرج عما كان مألوفاً ومُتعارفاً عليه آنذاك. ويتناول المقدسي ذكر مملكة الإسلام فيقول: (اعلمْ أن مملكة الإسلام حرسها الله تعالى ليست بمستوية فيمكن أن توصف بتربيع أو طول أو عرض، إنما هي متشعّبة يَعْرف ذلك من تأمل مطالع الشمس ومغاربها، ودوخ البلدان، وعرف المسالك، ومسح الأقاليم بالفراسخ[3])، ثم يحاول المقدسي تحديد أبعادها بالفراسخ تارة وبالمراحل والأيام تارة أخرى.

ومما تجب الإشارة إليه، أن الاتجاه إلى وصف العالم الإسلامي والاقتصار عليه قد بدأ كاتجاه جديد في القرن العاشر الميلادي، ويصف كراتشكوفسكي هذا الاتجاه بالمدرسة الكلاسيكية لجغرافيي القرن العاشر الميلادي، ويقول: (إن

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة مكتبة خياط سنة ١٢٧٩هـ، ص ٥٨.
(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ٥٩.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٦٢.

هذا النمط من المصنّفات الجغرافية الذي يرجع في الأصل إلى وصف العالم الإِسلامي وضعه رجل أصله من بلخ، ويقصد بذلك «أبو زيد البلخي»وأخذه عنه وأضاف إليه عالم من ولاية فارس بإيران ويقصد بهذا العالِم «أبو إسحق الفارسي الاصطخري). ومن الجغرافيين الذين عاصروا الاصطخري وتأثّروا به «أبو القاسم بن حوقل» والذي قابل الاصطخري سنة ٣٤٠هـ / ٩٥١م وقد اهتمّ ابن حوقل بوصف (دار الإِسلام)[١].

وقد قسّم المقدسي «مملكة الإِسلام» إلى أربعة عشر إقليماً. ستّة منها عربية هي: (جزيرة العرب ـ العراق ـ آقور ـ الشام ـ مصر ـ المغرب)، وثمانية للعجم هي: المشرق ـ الديلم ـ الرحاب ـ الجبال ـ خوزستان ـ فارس ـ كرمان ـ السند. ويعلّل المقدسي اقتصاره في كتابه «أحسن التقاسيم» على ذكر الأقاليم الإِسلامية، وعدم دراسته لبقية أجزاء العالم أو أقاليم الكفّار بقوله: (لم ندخلها ولم نرَ فائدة من ذكرها، بل قد ذكرنا مواضع المسلمين فيها)[٢]. ويختلف المقدسي في تقسيمه عن الاصطخري الذي قسّم العالم الإِسلامي إلى عشرين إقليماً.

وقد حدّد المقدسي كل إقليم من الشمال والجنوب والشرق والغرب (وإقليم مصر يأخذ من البحر الرومي طولاً إلى بلد النوبة، ويقع بين بحر القلزم وتخوم المغرب. ويمتد (اقليم المغرب) من تخوم مصر إلى البحر المحيط مثل الشريط يضغطه من قبل الشمال بحر الروم ومن قبل الجنوب بلدان السودان)[٣].

وما نلاحظه على تقسيم المقدسي أنه اعتمد على الدين كرابطة للأقاليم التي تناولها، وبذلك حلَّ «الدين» محلّ «طول الظلّ»، ثم اعتمد على اللغة فقسّم الأقاليم الإِسلامية على أساسها إلى أقاليم عربية، وأقاليم العجم، ولا شك أن المقدسي العربي الأصل قد اهتم بتمييز كل من الأقاليم العربية وأقاليم العجم،

---

(١) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٦٢.
(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩.
(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ٦٣.

وهذا التمييز لا نجده عند غيره من الجغرافيين غير العرب. واعتمد المقدسي في تقسيمه الأقاليم العربية على أساس إداري أو سياسي، فالإقليم عند المقدسي رقعة حدّدت على أساس ديني ولغوي وإداري، إذ إن العالم الإسلامي فسيح المساحة يضمّ في رحابه ظاهرات مختلفة، فكان لا بدّ من التقسيم إلى أقاليم حتى يمكن إدراك ما بها من ظاهرات طبيعية وبشرية قد تتشابه أو تتباين.

ويدافع المقدسي عن تقسيمه أحياناً بالمقارنة مع التقسيمات المختلفة فيقول: (فإن قال قائل لِمَ جُعِلت اليمن والمشرق والمغرب جانبين جانبين؟ قيلَ له: أما اليمن فالنبي ﷺ جعلها حيث فرّق مواقيتها في الإحرام، وأما خراسان فإن أبا زيد جعلها إقليمين وهو إمام في هذا العلم، بخاصة في إقليمه، فلا عيب علينا أن جعلناها جانبين. فإن قال: لِمَ خالفته بعدما نصَّبتُه إماماً، فصيّرت خراسان إقليماً واحداً قيل له: لنا في هذا جوابان أحدهما، أنّا لم نحب أن نفرّق مملكة آل سامان.. والجواب الثاني، أنّ أبا عبد الله الجيهاني أيضاً إمام في هذا العلم وهو لم يفرّق خراسان)[1].

وقد قسّم المقدسي الإقليم إلى كور، ثم لكل كورة قصبة، ثم لكل قصبة مدن. ويقول: (اعلمْ أنّا جعلنا الأمصار كالملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند، والقرى كالرجالة)[2].

مصادر المقدسي في دراسته الإقليمية:

يقسّم المقدسي مصادره في دراسته لأقاليم العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقسام كانت على حدّ قوله: أحدها ما عاينّاه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنّفة[3].

ويقصد بالمصدر الأول (ما عاينّاه) الدراسات الميدانية المبنيّة على المقابلة وما تمّ جمعه بعد الجولات في البلدان ودخول الأقاليم الإسلامية ومعايشة

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٦٦- ٦٧.

(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ٤٧.

(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ص ٣ – ٨.

أهلها ولقاء العلماء ومجالسة القضاة والدرس على الفقهاء والاختلاف إلى الأدباء.

أما بالنسبة لقول (ما سمعناه من الثقات) فيذكر المقدسي: سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدتُ عنها ولم يتقدّر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أُثبته، وما اختلفوا فيه نبذته.. وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره أو قلت زعموا[١]..

وقد أطلع المقدسي على كثير من الكتب وقرأها قراءة فاحصة وانتقدها جميعها ولم يسلم كتاب واحد من عيب أو نقيصة يراها فيه المقدسي، وعلى سبيل المثال لا الحصر، يذكر المقدسي: وأما ابن الفقيه الهمداني فإنه سلك طريقة أخرى ولم يذكر إلا المدائن العظمى، ولم يرتّب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، وأما الجاحظ وابن خرداذبه فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما فائدة كثيرة[٢].

أسلوب الدراسة الإقليمية عند المقدسي:

انفرد المقدسي باتجاهات جديدة في دراسة الأقاليم، إذ إنه حاول جاهداً في معالجته لكل إقليم أن يبرز شخصيته وهذا ما تسعى إليه الجغرافيا الحديثة. فهو يذكر: أظرف الأقاليم العراق وهو أخفّ على القلب، وأحد للذهن، وأشدّهم حَراً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب، وأكثرها عباداً وقرّاءً وأموالاً ومتجراً وخصائص وحبوباً مصر[٣].

وقد أعجب سبرنجر Sprenger بالمقدسي واعتبره «أكبر جغرافي عرفته

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٣.
(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ٤.
(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٢.

البشرية قاطبة»؛ ويرى كرامرز Kramers أن المقدسي أكبر الجغرافيين العرب أصالة، وأن كتاب «أحسن التقاسيم» أكثر المصنّفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة[1].

ويبدأ المقدسي في دراسة أقاليمه بالاتجاه التقليدي الذي كان سائداً آنذاك أو ما يمكن أن نسمّيه بالجغرافيا الفلكية؛ وكان من أول من ساروا وفق هذا الاتجاه ابن خرداذبه[2]، ويمكن القول إن هذا الجزء الفلكي، الذي يتناول وصف الأرض ووضعها في جوف الفلك ويشرح الجاذبية الأرضية، قد نقله المقدسي عن أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه؛ ويمكن التوصُّل إلى ذلك إذا ما قارنا ما ذكره ابن خرداذبه في كتابه (المسالك والممالك)[3]؛ (ص ٤)؛ وما أورده المقدسي (ص ٥٨)[4] إذ يتّضح لنا أن المقدسي قد نقل عشرة سطور لم يغيّر فيها سوى تعبير «لما في أبدانهم» جعلها لما في أيديهم؛ ولم يذكر المقدسي مصدر العشرة السطور المنقولة حرفياً مع أنه ذكر في كتابه: اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً قد سطّروه ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم[5]. ويبدأ المقدسي في معالجته من الكل إلى الجزء أو ما يعرف بطريقة «الجشتالط»؛ أو الطريقة الكلية حيث يبدأ بوصف الكرة الأرضية؛ ثم أقاليمها السبعة ويحدّدها، ثم يحدّد مملكة الإسلام فيقسّمها إلى أقاليم عربية، وأقاليم عجم.

ويبدو اهتمام المقدسي بالجانب الديني بوضوح وذلك في أسلوب دراسته للأقاليم المختلفة. وقد بدأ دراسة أقاليمه «بجزيرة العرب» لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبي ﷺ؛ ويذكر المقدسي قبلة كل إقليم، ويذكر المذاهب والذمة فيقول: (اعلم أن المذاهب المستعملة اليوم في الإسلام التي لها خاص

---

(١) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٢٠٨.

(٢) توفي ابن خرداذبه سنة ٣٠٠هـ.

(٣) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، طبعة المثنى ببغداد، ص ٤.

(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم.

(٥) المقدسي، المصدر السابق، ص ٦.

وعام ودعاء وجُمع، ثمانية وعشرون مذهباً، أربعة في الفقه، وأربعة في الكلام، وأربعة في الحكم فيهما، وأربعة مندرسة، وأربعة في الحديث، وأربعة غلب عليها أربعة، وأربعة رستاقية، فأما الفقهيات: فالحنفية والمالكية والشفعوية والداودية. وأما الكلاميات: فالمعتزلة، والبخارية، والكُلاَّبيَّة، والسالمية..)[1] ويذكر المقدسي كذلك القراءات المنتشرة في الأقاليم الإسلامية مع توزيع المذاهب. ويمكن أن يندرج اهتمام المقدسي بذكر كل ما يتعلّق بالنواحي الدينية، مع توزيع ذلك على الأقاليم المختلفة تحت ما يسمى بالجغرافيا الدينية.

وقد تعدّدت الجوانب الجغرافية التي تحدّث عنها المقدسي في تناوله لكل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي (وما فيها من المنافذ والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم، وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم. وذكر مواضع الأخطار في المفازات وعدد المنازل في المسافات وذكر السباخ والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال... ومعادن السعة والخصب ومواضع الضيق والجدب. وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والمسالك والحدود... والمخاليف والزموم والطساسيج والتخوم والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر والمناسك والمشاعر)[2].

ولو صنّفنا هذه الجوانب لوجدناها تشمل جميع فروع الجغرافيا الحديثة حالياً، إلا أن المقدسي لا يلتزم بتغطية جميع هذه الجوانب التي ذكرها عند دراسته لكل إقليم.

ويسير المقدسي في تناوله دراسة الأقاليم المختلفة على نهج متشابه، فهو

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٣٧.

(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ٢.

يبدأ بإبراز أهمية الإقليم الدينية وارتباطه بتاريخ الإسلام، وعلى سبيل المثال عند تناوله لجزيرة العرب يقول:[1] (إنما بدأنا بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبي ﷺ، ومنها انتشر دين الإسلام، وفيها كان الخلفاء الراشدون والأنصار والمهاجرون، وبها عُقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين، وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر...).

وحينما يتناول اقليم العراق فيقول: (أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء، وسفيان سيّد القرّاء، ومنه كان أبو عبيدة والفرّا... به مولد ابراهيم الخليل وإليه رحل كل صحابي جليل)[2].

وعند دراسة إقليم آقور يقول: (به مشاهد الأنبياء ومنازل الأولياء، به استقرّت سفينة نوح على الجودي)[3].

ونلاحظ بصفة عامة ميل المقدسي إلى السجع المتكلّف أحياناً مما جعل المستشرقين يجدون صعوبة في فهمه، حتى إن كراتشكوفسكي المستشرق الروسي الذي يجيد العربية يقول فيه:

(ولعلّ لغة المقدسي وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة[4] فحسب، بل إلى أعسر أساليب مكتبة الجغرافيين العرب،... ويحفل متن المقدسي بالألفاظ الصعبة القليلة الاستعمال لأنه كان يميل بعض الشيء إلى غريب اللغة[5]). وبعد أن يفرغ المقدسي من إبراز أهمية الإقليم الدينية والتاريخية يقسم الإقليم إلى كور، وبالنسبة لإقليم جزيرة العرب يقول: وقد جعلناه أربع كور جليلة... أولها الحجاز ثم اليمن ثم عمان ثم هجر، ويذكر بعد ذلك قصبة كل إقليم، فأما الحجاز فقصبته مكة ثم يذكر المدن المختلفة من حيث موقعها ومناخها وتجارتها ومبانيها ومياهها.

---

(١) المقدسي، المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ١١٣.

(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٤) يقصد المدرسة الجغرافية الكلاسيكية العربية في القرن العاشر الميلادي.

(٥) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص ٣١٤.

ولعلّ أبرز ما ابتكره المقدسي في دراسته للأقاليم هو محاولة إبراز شخصية كل إقليم بعد دراسته في خلاصة موجزة تحت عنوان: (جمل شؤون هذا الإِقليم) وأهم ما تشتمل عليه هذه الخلاصة عادة، إبراز أهم سمات المناخ من حيث الحرارة والمطر، والمذاهب الدينية السائدة، وأهم اللغات واللهجات والقراءات الشائعة، والتجارات والأسواق وأهم السلع ومزاياها، والمكاييل والموازين المتداولة والنقود وأنواعها، والأزياء. ويتناول كذلك «المياه» ومصادرها المختلفة مع المقارنة بينها، ويتناول الجوانب الصحية فيذكر المضار التي يتعرّض لها الإِنسان في هذا الإِقليم، ويتكلم عن الثروة المعدنية، والمشاهد أي الأماكن ذات الشهرة التاريخية، ثم يتكلم عن الأخلاق وتوزيع القبائل، ثم يتكلم عن الضرائب والمكوس، ثم يتتبّع الطرق والمسافات بين المدن المختلفة.

الفصل الثالث

ثالثاً: جغرافية الرحلات

١ ـ أغراض الرحلات.

(رحلات الحج ـ الرحلات العلمية ـ الرحلات الإِدارية والسياسية ـ الرحلات التجارية)

٢ ـ نماذج من الرحلات والرحّالة المسلمين.

أ ـ سلام الترجمان ب ـ ناصر خسرو

جـ ـ ابن جبير د ـ ابن بطوطه

رابعاً: المعاجم الجغرافية

١ ـ معجم ما استعجم.

٢ ـ معجم البلدان.

٣ ـ تقويم البلدان لأبـي الفداء.

٤ ـ معجم الروض المعطار في خبر الأقطار.

ثالثاً: جغرافية الرحلات

الرحلات وزيارة الأقطار المختلفة وسيلة من أهم وسائل المعرفة الجغرافية المباشرة، ولقد نالت الرحلات قبل ظهور الإسلام اهتمام العرب لتعوّدهم على الترحال والتنقُّل، كما أن عادات العرب من كرم الضيافة والشجاعة جعلتهم يأمنون على أنفسهم أثناء الرحلات مما حبّب إليهم الأسفار.

وحينما أشرقت الدعوة الإسلامية وفُرض على المسلمين الصلاة والصوم، راعى الإسلام مشقّات السفر ومصاعبه فخفّف على المسلمين الصلاة (صلاة القصر) وأباح للمسافر الصائم الإفطار أثناء السفر، على أن يقضي عدّة الصوم من أيام أخر.

ولا شك أن اتّساع رقعة العالم الإسلامي أو مملكة الإسلام وما سادها من وحدة دينيّة، يسّر السفر وساعد عليه، كما أن الحجّ إلى بيت الله كان عاملاً مهماً للسفر والالتقاء بالمسلمين من شتى بقاع العالم الإسلامي في مكة المكرّمة؛ مما ساعد على تبادل المعلومات وأخبار البلدان بعجائبها وغرائبها، فرغّب ذلك المسلمين في السفر.

١ . أغراض الرحلات:

لقد عرف المسلمون أهمية الرحلات فقاموا بالعديد منها لأغراض وغايات متنوّعة. وتُنسب للإمام الشافعي ـ رحمة الله عليه ـ أبيات حثَّ فيها على السفر وعدَّدَ فوائده، جاء فيها:

تغرب عن الأوطان في طلب العلى　　　وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرُّج همّ، واكتساب معيشة　　　وعلم، وآداب، وصحبة ماجدِ

ونستطيع أن نتناول أغراض الرحلات على النحو التالي:

أ . رحلات الحجّ:

الحجّ هو الركن الخامس من أركان الإسلام لمن استطاع إليه سبيلاً،

فكانت مكّة ملتقى المسلمين يأتون إليها من كل فجّ عميق فيتعارفون ويتبادلون الآراء والمنافع والأخبار. ولم يكن الوصول إلى مكة سهلاً لكل المسلمين، بل كان بعضهم يقطع بضعة آلاف من الكيلو مترات للوصول إليها كما هي الحال بالنسبة لأهل المغرب. وكان بعض الرحّالة يكتبون ما يشاهدون من عجائب وغرائب وهم في طريقهم إلى الحجاز.

ويذكر كثير من الرحّالة أمثال ابن جبير وابن بطوطة والتجاني أن هدفهم الأساسي في بداية رحلاتهم كان حجّ بيت الله الحرام، لكنهم كانوا يتخلّفون في بعض المدن الإسلامية ذات المكانة العلمية للتزوُّد بالعلم والدراسة على أيدي فقهائها. وقد دوّن الرحّالة أنباء الفقهاء والأولياء وكل ما له صبغة دينيّة مما يؤكد أن الدين كان الهدف الأساسي لتلك الرحلات لأن أنباء الفقهاء المشهورين والمزارات الدينية كانت ذات جاذبية روحية لمسلمي هذه العصور.

ب . الرحلات العلمية:

من الرحلات ما كان هدفه السعي إلى طلب العلم عملاً بقول النبي ﷺ: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، كذلك نجد أن الارتحال في طلب العلم ظاهرة مألوفة منذ ظهور الإسلام. وقد روي البخارى في القرن الثالث الهجري أن جابر بن عبد الله رحل مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس الأنصاري في طلب حديث واحد.

وهناك أمثلة كثيرة لعلماء مسلمين قطعوا آلاف الأميال لتصحيح حديث أو ضبط سنده ومنهم البخاري، وقد ساعد على مثل هذه الرحلات تفرّق الصحابة والعلماء في أقطار العالم الإسلامي. وكانوا بطبيعة الحال يتعرّفون على جغرافية البلاد التي يمرّون بها فيصفون المسالك والدروب وعادات الناس وأخلاقهم. وقال الشعبي:

لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ليسمع كلمة حكمة، ما رأيت أن سفره ضاع.

وقد حثَّ الإِمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤هـ على السعي في التنقُّل والارتحال، وذلك في قصيدة جاء فيها:

إنــي رأيــت وقــوف الماء يــفــســده	إن سال طاب وإن لم يجرِ لم يَطبِ
الأسد لولا فراق الغاب ما افترست	والسهم لولا فراق القوس لم يُصُبِ

إن الرحلة العلمية ظاهرة مألوفة عند المسلمين في جميع الأقطار شرقها وغربها، وقد أورد المَقَّرِي المتوفى (١٠٤١هـ) في الباب الخامس من كتابه «نفح الطيب»، أسماء بعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق، وشملت قائمة الأسماء ثلاثمائة وسبعة أشخاص معظمهم رحل في طلب العلم[1].

وقد قام تاج الإِسلام أبو سعد بن محمد السمعاني (توفي سنة ٥٦٢هـ / ١١٦٦م) ويُنسب إلى أُسرة كبيرة اهتمّت بالعلم في مرو، برحلات إلى خراسان وجرجان والعراق والحجاز والشام وغيرها؛ وذلك لدراسة الحديث. وفي خلال رحلاته جمع كثيراً من المعلومات الجغرافية، وقد ورد ذكر السمعاني كثيراً في معجم ياقوت[2].

وهناك نمط آخر من الرحلات العلميّة، هي تلك التي سعت للوصول إلى الأماكن الواردة بالقرآن الكريم مثل الرحلات التي تمّت في عهد الخليفة العباسي الواثق (٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ). حيث أمر محمد بن موسى بالتوجُّه إلى آسيا الصغرى بعد أن حصل على موافقة الإِمبراطور البيزنطي، وذلك لفحص كهف الرقيم، وذلك بين عمورية ونيقيا Nicaea وحينما شاهد محمد ابن موسى جثثاً محنّطة، لم يقنع بأنها جثث أصحاب الكهف الوارد ذكرهم

---

(١) أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٨م، جـ ٢، ص ٥.

(٢) صلاح الدين هاشم، آثار في الجغرافيا تنتظر النشر، بحث قدّم للمؤتمر الجغرافي الإِسلامي الأول سنة ١٩٧٩م.

في القرآن الكريم. وقد أوردت هذه القصة عدّة مصادر مثل ابن خرداذبه، والسرخسي الذي نقلها عنه المسعودي.

ويذكر ابن رسته، وياقوت الحموي، والإدريسي والقزويني وغيرهم، أخبار رحلة أخرى، أمر بها الخليفة الواثق، سلام الترجمان ليستقصي خبر يأجوج ومأجوج، إذ أن الخليفة الواثق رأى في منامه أن السدّ الذي بناه ذو القرنين حول يأجوج ومأجوج قد انفتح، وقد سار سلام إلى بلاد الخزر ثم اتّجه شرقاً إلى بحيرة بلكاش وعاد من هناك إلى سامرا بالعراق، ويُقال إنه بلغ سور الصين العظيم. ويقف المستشرقون إزاء سلام الترجمان فريقين، فريق يرى أنها حكاية خرافيّة بعثرت فيها بضعة أسماء جغرافيّة، ومن هذا الفريق: سبرنجر، ومينورسكي، وفريق آخر يرى أن الرحلة واقعة تاريخيّة لا شكّ فيها، وجديرة باهتمام العلماء، ومن هؤلاء دي خويه وتوماشك Tomaschek[1].

جـ . الرحلات الإدارية والسياسية:

إلى جانب الرحلات العلمية، هناك رحلات إدارية أو سياسية لخدمة شؤون الدولة الإسلامية التي ترامت أطرافها وأصبحت هناك حاجة إلى معرفة الطرق ومراحلها وتحديد المسافات، ووصف ذلك وصفاً دقيقاً، ومن هنا ظهرت كتب المسالك والممالك التي تولّت وصف الطرق ومنازل البريد. وكانت مثل هذه الرحلات الخاصة بالتعرُّف على أحوال أقطار العالم الإسلامي تهتمُّ بالظروف الاقتصادية من حاصلات زراعية ونشاط تجاري وذلك لتقدير قيمة الخراج، كما كانت بعض الرحلات توفد إلى أقطار الأعداء لجمع المعلومات عنها. واستعان الخلفاء العباسيون بالجواسيس من الرجال والنساء في آسيا الصغرى، وظلّ عبد الله، الشهير بسيّد غازي، يجمع المعلومات عن بلاد الروم عشرين سنة، ويخبر هارون الرشيد عن عجائب الأمور وأخبار الروم كما حكى الإمام الدمشقي في فضايل الجهاد،

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٩.

وإن كانت هذه القصة يحوم حولها الشكّ[١].

د . الرحلات التجارية:

استمرّت الرحلات التجارية التي اشتهرت بها العرب (رحلة الشتاء والصيف) في ظل الإِسلام، وازدهرت نتيجة لاتساع الدولة وسهولة التنقُّل في داخل أقاليمها، إلى جانب التقاء المسلمين في موسم الحجّ، فكانوا يعقدون الاتفاقات والصفقات التجارية، وساعدهم على الرحلات التجارية وحدة الثقافة والدِّين في أقطار العالم الإِسلامي.

وقد ذكر الإِدريسي أن إبراهيم بن المهدي شقيق هارون الرشيد، روى في مصنّفه «كتاب الطبيخ» أن الخليفة بعث إلى اليمن أشخاصاً ليعرفوا من أين يأتي العنبر الأشهب الذي كان يُستخدم كوسيلة للعلاج وكنوع من الطيب، وكان يحصل عليه غالباً من السواحل الشرقية لأفريقيا قبالة اليمن، وكان له دور في اقتصاديات الخلافة كمورد مهم للخراج يعادل اللؤلؤ[٢].

إن الرحلات رغم أغراضها وغاياتها المختلفة، أضافت كثيراً إلى المعرفة الجغرافية لأنها كانت مصدراً مباشراً للمعلومات الجغرافية، وهذا ما نجده عند معظم الجغرافيين المسلمين الذين اعتمدوا في كتاباتهم على المعلومات التي جمعوها أثناء رحلاتهم وأسفارهم.

٢ ـ نماذج من الرحلات والرحّالة المسلمين

اشتهر كثير من الجغرافيين المسلمين مثل ابن حوقل والمسعودي والمقدسي والإِدريسي وابن بطوطة برحلاتهم الطويلة، ويرى كراتشكوفسكي أن أول من

---

(١) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، جـ ١، ص ١٣٣، نقلاً عن فرين، ويشكّك كراتشكوفسكي في صحتها.

(٢) المرجع السابق، ص ٣٢.

وضع فن وصف الرحلات هو الفقيه أبو بكر محمد بن العربي (٤٦٨ـ - ٥٤٣هـ) وذلك في مصنّفه (ترتيب الرحلات).

ومن يتتبّع أعظم الرحّالة المسلمين يجد أن جلّهم من المغاربة أمثال: ابن جبير، وابن بطوطة، وابن سعيد، والعبدري، والتجاني.

وكان أداء فريضة الحجّ إلى بيت الله هي بداية رحلاتهم، كما أن بعضاً منهم سعى إلى الدراسة على أيدي علماء الفقه في بلدان المشرق الإسلامية.

وفيما يلي نعرض بعض نماذج من الرحّالة المسلمين ورحلاتهم.

أ ـ رحلة سلام الترجمان

أورد القزويني أن سلام الترجمان؛ قال[1]: (إنّ الواثق بالله رأى في المنام أن السدّ الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج مفتوح، فأرعبه هذا المنام، فأحضرني وأمرني بالمشي إلى السدّ والنظر إليه، والرجوع إليه بالخبر، وضمَّ إليَّ خمسين رجلاً، ووصلني بخمسة آلاف درهم، وأعطاني ديَّتي عشرة آلاف درهم، ومائتي بغل تحمل الزاد والماء، فخرجنا من سرّ من رأى بكتاب إلى صاحب أرمينية إسحق بن إسماعيل وكان بمدينة تفليس،... السرير... اللان... فيلانشاه... الخزر، فسِرنا ستة وعشرين يوماً، فوصلنا إلى أرض سوداء منتنة الرائحة، وكنّا حملنا معنا خلاً لنشمّهُ لدفع غائلة رائحتها بإشارة الأدلاء، وسِرنا في تلك الأرض عشرة أيام، ثم صرنا في بلاد خراب مدنها فسرنا فيها سبعة وعشرين يوماً فسألنا الأدلاء سبب خرابها، فقالوا: خرّبها يأجوج ومأجوج. ثم صرنا إلى حصن قريب من الجبل الذي يقوم في السدّ في بعض شعابه، ومنه جزنا إلى حصن آخر، وبلاد ومدن فيها قوم مسلمون يتكلّمون بالعربية والفارسية... ثم ساروا معنا إلى جبل أملس ليس عليه شيء من النبات، وإذا هو مقطوع بوادٍ عرضه مائة وخمسون ذراعاً، فإذا عضادتان مبنيّتان مما يلي الجبل من جنبتي الوادي، عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعاً، الظاهر من ثخنها عشرة أذرع خارج الباب، كلٌّ مبني بلبن حديد مغيّب في نحاس في سمك خمسين ذراعاً...).

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، سنة ١٣٩٩ هـ، ص ص ٥٩٧ ـ ٥٩٨ .

ويواصل سلام الترجمان وصف السدّ ويذكر: «وإذا باب حديد له مصراعان مغلقان، عرض كل مصراع ستّون ذراعاً في ارتفاع سبعين ذراعاً في ثخن خمسة أذرع... وعلى الباب قفلٌ طوله سبعة أذرع في غلظ باع، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً...). ويواصل سلام الترجمان فيقول: (ورئيس تلك الحصون يركب كل يوم جمعة في عشرة فوارس، مع كل فارس مرزبة حديد يدقّون الباب، ويضرب كل واحد منهم القفل والباب ضرباً قوياً مراراً ليسمع من وراء الباب ذلك، فيعلمون أن هناك حفظة ويعلم هؤلاء أن أولئك لم يحدثوا في الباب حدثاً)[1].

لا شك أن أخبار هذه الرحلة تحوي كثيراً من الأمور التي هي أقرب إلى الخيال من الواقع، ولا يمكن الاعتماد عليها من حيث المعلومات الجغرافية الواردة، خصوصاً وأن سلام الترجمان لم يدوّنها، وإنما تناولتها بعض المصادر مثل القزويني وياقوت الحموي والإدريسي[2].

ب ـ رحلة ناصر خسرو

«سفر نامة»

ناصر خسرو: وُلد سنة (٣٩٤هـ / ١٠٠٣م) في قباديان ببلاد فارس من أسرة متوسطة الحال، وشغل ناصر خسرو منصباً كبيراً في الدولتين الغزنوية والسلجوقية. وكان واسع الاطّلاع، قرأ في الديانات المختلفة وكاد يصل إلى درجة الإلحاد، وظهرت آثار تلك المرحلة في شعره، فقد كان من أعظم شعراء الفرس. وانتهز خصومه فرصة الشكّ هذه وأخذوه ببعض أبيات قالها تنمُّ عن الحيرة ورماه بعضهم بالكفر. وحينما علم بالمذهب الفاطمي الذي روّج له بعض دعاة مصر في خراسان، آثر أن يذهب إلى مصر علّه يجد من الأجوبة ما تشفي غلّته.

---

(١) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص ص ٥٩٧. ٥٩٨.

(٢) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحّالة المسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

أسباب القيام برحلاته:

رحل ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين، ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري. ويذكر أن الذي دفعه إلى رحلته هو ما قرأه من القرآن الكريم في سورتي محمد والفتح من قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾(سورة محمد - ٢٤). إذن ففي القرآن ما يفكّ كربته ويبدّد الشكّ من نفسه إذا أمعن النظر فيه وتدبّر معانيه. وحينما قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح - ١٠). حينئذٍ بلغ به الحماس درجة جعلته يعزم الرحيل إلى حيث الشجرة التي بايع تحتها المؤمنون النبي ﷺ على أن يقاتلوا معه، فلعلّ من سحر المكان ما ينفذ إلى نفسه الحائرة بالسكينة والأمن[1]. ودعا ناصر خسرو ربّه في يوم اقتران الرأس والمشترى لأنه كان يعتقد آنذاك أن الله يستجيب الدّعاء في هذا اليوم. ولاحت لناصر بعض الشواهد التي زادت من يقينه بأن الله تعالى سيقضي حاجته. وفي هذه الحال النفسية، حال رجل ضالّ يبحث عن الهدى والسبيل إلى الحق، أخذ ناصر يشرب الخمر شهراً كاملاً، حتى إذا كانت ذات ليلة رأى في المنام رجلاً ينهره لأنه يدمن الشراب، فيناقشه ناصر ويدافع عن مسلكه وحجّته في ذلك بأن الفيلسوف الحائر يجد في الخمر ونشوتها ما يخفّف من همومه، وحجّة صاحبه أن التسرية عن النفس لا تكون بفقدان الشعور، وأن الفيلسوف لا يستطيع أن يكون هادياً للناس وهو فاقد لوعيه... ويسأل ناصر محدّثه عن السبيل لهذه الزيارة فيشير المحدّث إلى القبلة قائلاً: مَن جدَّ وجد، ثم ينصرف عنه. ويصحو ناصر من نومه ويتمثّل الرؤيا كأنها حقيقة، فيفيق من الخمار ويقول لنفسه، إن عليه أن يفيق من غفلة أربعين عاماً كما أفاق من سبات البارحة، ويعتزم الرحلة إلى مكّة إلى القبلة التي أشار إليها محدّثه... ويذهب إلى مَروْ طالباً إعفاءه من الوظيفة ويعزم على الحج سنة ١٠٤٧م[2].

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه، نقلها إلى العربية يحيى الخشّاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، سنة ١٩٧٠م، ص ١٣.

(٢) سفر نامه، المصدر السابق، ص ١٤.

غادر ناصر مدينة مَروْ مستصحباً أخاه أبا سعيد وغلاماً هندياً، وبعد أن زار بيت المقدس قصد الحج ثم عاد إلى بيت المقدس وعزم على زيارة مصر على أن يذهب منها إلى مكة، واستمرّت رحلته سبع سنوات زار فيها بلاداً لم يكن في نيّته أن يزورها، ولم يكن مستعداً لمشاقّ هذه الرحلة الطويلة التي لاقى فيها صعوبات كثيرة، وخصوصاً في «فلج» الأفلاج حيث لبث فيها أربعة أشهر. وفي البصرة لاقى الأهوال، فقد كانت ملابسهما هو وأخوه قد بليت ولم يبقَ منها إلا خِرَقٌ مدلاّة على جسدهما، وطال شعر رأسهما، وباع الكتب التي كانت معه وذهب مع أخيه إلى الحمّام ولكن الحمّاميّ رفض إدخاله... وحسب أطفال الطريق أنّ بهما جنة فأخذوا يعدون وراءهما ويقذفونهما بالحجارة.

ولقد كتب ناصر خسرو حوادث رحلته يوماً فيوماً، ويتّضح ذلك جلياً من دقّة أوصافه لبعض الأماكن كمسجد بيت المقدس. وكتب ناصر خسرو كتابه «سفر نامه» على الأرجح قبل سنة ٤٥٣هـ (١٠٦٠م) وإن كانت بعض الأقوال ترجّح أنه كُتب بعد سنة ٤٥٥هـ (١٠٦٣م).

وقد قسّم الخشّاب رحلة ناصر خسرو إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: تبدأ بقيامه من مرو في أكتوبر سنة ١٠٤٥م وتنتهي إلى القاهرة في أغسطس سنة ١٠٤٧م أي ما يقرب من اثنين وعشرين شهراً.

المرحلة الثانية: إقامته في مصر من ٤ أغسطس سنة ١٠٤٧م (٧صفر سنة ٤٣٩هـ) حتى أواخر أكتوبر سنة ١٠٥٠م (أواخر جمادى الثانية سنة ٤٤٢هـ) أي استمرّت أكثر من ثلاث سنوات.

المرحلة الثالثة: عودته إلى بلخ عن طريق الحجاز وفلج (الأفلاج) والحسا والبصرة، وتبدأ من رحيله عن مصر إلى وصوله في ٢٦أكتوبر سنة ١٠٥٢م (٢٦جمادى الثانية سنة ٤٤٤هـ). واستمرّت أكثر من سنتين.

مقتطفات من (سفر نامة) في وصف مصر[1]:

تنيس[2] جزيرة ومدينة جميلة، وهي بعيدة عن الساحل بحيث لا يرى من أسطحها. والمدينة مزدحمة، وبها أسواق فخمة وجامعان. وقد بلغ عدد الدكاكين بها عشرة آلاف دكان، منها مائة دكان عطّار، وهناك في فصل الصيف يبيعون «الكشكاب» (لبن زبادي مع ماء)... ويُنسَج بتنيس القصب الملوّن عمامات ووقايات ومما يلبس الناس. ولا يُنسج مثل هذه القصب في جهةٍ ما غير تنيس. والأبيض منه يُنسج في دمياط. وما يُنسج منه في مصانع السلطان لا يُباع ولا يُعطى لأحد. وقد سمعت أن ملك فارس أرسل رسله إلى تنيس بعشرين ألف دينار ليشتري له بها حلّة من كسوة السلطان، وقد بقيت رسله هناك عدّة سنين ولم يستطيعوا شراءها. وبتنيس صنّاع مختصّون بنسيج ملابس السلطان. وقد سمعت أن عاملاً نسج عمامة السلطان، فأمر له بخمسمائة دينار ذهب... وينسجون في مدينة تنيس هذه البوقلمون، الذي لا يُنسج في مكان آخر من جميع العالم، وهو قماش ذهبي يتغيّر لونه بتغيُّر ساعات النهار... وسمعت أن سلطان الروم كان قد أوفدَ رسولاً ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان.

وسكان تنيس خمسون ألفاً، ويرابط حولها دائماً ألف سفينة منها ما هو للتجار وكثير منها للسلطان.

أما القاهرة فلها خمسة أبواب: باب النصر، وباب الفتوح، وباب القنطرة، وباب زويلة، وباب الخليج. وليس للمدينة قلعة، ولكن أبنيتها أقوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة، وكل قصر حصن، ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات...

ويجلب ماء الشرب من النيل ينقله السقّاؤن على الجِمال. والآبار القريبة من النيل عذبٌ ماؤها، وأما البعيدة عنه فماؤها مالح. ويُقال إن في

---

(١) سفر نامه، ص ٧٦.

(٢) مدينة تنيس قريبة من دمياط.

القاهرة اثنين وخمسين ألف جمَل يحمل عليها السقّاؤن الروايا، عدا من يحمل الماء على ظهره في الجِرار النحاسية أو القِرَب، وذلك في الحارات الضيّقة التي لا تسير فيها الجِمال.

وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول إنها بُنيت من الجواهر لا من الجصّ والآجر والحجارة وهي بعيدة عن بعضها، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر، ويستطيع كل مالك أن يجعل ما ينبغي لبيته في كل وقت من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره...

وبمصر بيوت مكوّنة من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات[1] وسمعت من ثقات أن شخصاً غرس حديقة على سطح بيت من سبعة أدوار، وحمل إليها عجلاً ربّاه فيها حتى كَبُر، ونصب فيها ساقية كان هذا الثور يديرها ويرفع الماء إلى الحديقة من البئر. وزرع على هذا السطح شجر النارنج والترنج والموز وغيرها. وقد أثمرت كلها، كما زرع فيها الورد والريحان وأنواع الزهور الأخرى.

وتجّار مصر يصدقون في كل ما يبيعونه، وإذا كذب أحدهم على مُشترٍ، فإنه يوضع على جمَل، ويعطى جرساً بيده، ويُطاف به في المدينة، وهو يدقّ الجرس، وينادي قائلاً: قد كذبت وها أنا أعاقَب، وكل من يقول الكذب فجزاؤه العقاب[2].

ويركب أهل السوق وأصحاب الدكاكين الحُمر المسرجة في ذهابهم وإيابهم من البيوت إلى السوق. وفي كل حيّ على رأس الشوارع، حُمُرٌ كثيرة عليها برادع مزيّنة يركبها من يريد نظير أجر زهيد، وقيل إنه يوجد خمسون ألف بهيمة مسرّجة تزيّن كل يوم وتُكرى. ولا يركب الخيل إلا الجند والعسكر.

---

(١) سفر نامه، المصدر السابق، ص ١١.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٠٥.

وصفه لمكّة[1]:

وقد بلغتُ مكّة في يوم الأحد السادس من ذي الحجّة سنة ٤٤٠هـ. ونزلنا عند باب الصفا. وكان بمكة قحط... وقد هاجر منها المجاورون، ولم يفد عليها حاجّ من أي بلد، وقد أدّينا فريضة الحجّ لله الحق سبحانه وتعالى يوم الأربعاء في عرفات. وقد لبثنا بمكة يومين. وقد خرج من الحجاز كثير مما أصابهم من الجوع والفقر، وتفرّقوا في البلاد...

ثم توجّهنا ناحية مصر فبلغناها بعد خمسة وسبعين يوماً، وقد هاجر إليها من الحجاز في هذا العام خمسة وثلاثون ألف آدمي فكساهم السلطان وأجرى عليهم الرزق سنة كاملة. وقد كانوا جميعاً جائعين عرايا[2].

وجدّة مدينة كبيرة لها سور حصين، تقع على شاطىء البحر، وبها خمسة آلاف رجل، وفيها أسواق جميلة، وقبلة مسجدها الجامع ناحية المشرق، وليس بخارجها عمارات أبداً عدا المسجد المعروف بمسجد رسول الله ﷺ. ولها بوّابتان إحداهما شرقية تؤدي إلى مكة، والثانية غربية تؤدي إلى البحر... وليس في جدّة شجر ولا زرع، وكل ما يلزمها يحضرونه إليها من القرى... وقد ذهبت إلى أمير جدّة فأكرمَ وفادتي وأعفاني مما كان يجب عليّ من المكس ولم يطلبه[3].

وتقع مكة بين جبال عالية، ولا تُرى من بعيد، وأقرب جبل منها هو جبل أبي قبيس، وهو مستدير كالقبّة، لو رُمي سهم من أسفله لبلغ قمّته، وهو شرقي مكة... وتشغل هذه المدينة الوادي الذي بين الجبال والذي لا تزيد مساحته عن رمية سهمين في مثلها، والمسجد الحرام وسط الوادي... وبمكة حمّامان بلاطهما من الحجر الأخضر السنان، وقدّرت أن سكانها القاطنين بها لا يزيدون على ألفين، والباقي يقربون من الخمسمائة، من الغرباء المجاورين، وفي ذلك الوقت كان بمكة قحط.

---

(١) سفر نامه، المصدر السابق، ص ١١١.

(٢) المصدر السابق، ص ١١٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٢٠.

وقد كان لأهالي كل مدينة من خراسان وما وراء النهر والعراق وغيرها منازل بمكة.

وقد أسهب ناصر خسرو في وصف المسجد الحرام والكعبة، وشمل الوصف أطوال الكعبة وبابها ووصف الكعبة من الداخل، وبئر زمزم[1].

وصف الأحساء[2]:

الحسا مدينة في الصحراء، والبصرة أقرب البلاد الإسلامية إلى الحسا، ويحيط بالحسا أربعة أسوار قوية متعاقبة من اللّبن... وفي المدينة عيون ماء عظيمة تكفي كل منها لإدارة خمس سواقٍ، ويستهلك كل هذا الماء بها. ووسط القلعة مدينة جميلة بها كل وسائل الحياة التي في المدن الكبيرة، وفيها أكثر من عشرين ألف محارب...

وقيل إن سلطانهم كان شريفاً وقد ردّهم عن الإسلام، وقال إني عفيتكم من الصلاة والصوم ودعاهم إلى أنّ مرجعهم لا يكون إلا إليه، واسمه أبو سعيد، وحين يُسألون عن مذهبهم يقولون: إنّا أبو سعيديّون، وهم لا يصلُّون ولا يصومون، ولكنهم يقرُّون بمحمد المصطفى ﷺ وبرسالته. وقد قال لهم أبو سعيد: (إني أرجع إليكم يعني بعد الوفاة)[3] وقبره داخل المدينة، وقد بنوه قبراً جميلاً. وقد أوصى أبناءه قائلاً: يرعى الملك ويحافظ عليه ستة من أبنائي يحكمون الناس بالعدل والقسطاس، ولا يختلفون فيما بينهم حتى أعود... وكل غريب ينزل في هذه المدينة وله صناعة، يعطى ما يكفيه من المال حتى يشتري ما يلزم صناعته من عدد وآلات، ويردُّ إلى الحكام ما أخذ حين يشاء... وفي الحسا مطاحن مملوكة للسلطان، تطحن الحبوب للرعاية مجاناً. ويدفع فيها السلطان نفقات إصلاحها وأجور الطحّانين. وهؤلاء السلاطين الستّة يُسمُّون

---

(١) وصف ناصر خسرو، المسجد الحرام في أكثر من ثمان صفحات، من ص ١٢٦ إلى ص ١٣٤.

(٢) سفر نامه، ص ١٤٢.

(٣) المصدر السابق، ص ص ١٤٢ - ١٤٣.

السادات... وعلى باب قبر أبي سعيد حصان مهيّأ بعناية عليه طوق ولجام، يقف بالنوبة ليلاً ونهاراً، ويعنون بذلك أن أبا سعيد يركبه حين يرجع إلى الدنيا. ويقال إنه قال لأبنائه: حين أعود ولا تعرفونني، اضربوا رقبتي بسيفي، فإذا كنت أنا حييت في الحال...

وقد ذهب أحد هؤلاء السلاطين بجيش إلى مكة أيام خلفاء بغداد فاستولى عليها، وقتل من كان يطوف بالكعبة، وانتزع الحجر الأسود من مكانه ونقله إلى الحسا، وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب الناس إليه من أطراف العالم... ولقد لبث الحجر الأسود في الحسا سنين عديدة ولم يذهب إليها أحد، وأخيراً اشتُري منهم الحجر الأسود وأُعيد إلى مكانه[1].

وفي الحسا تُباع لحوم الحيوانات كلها، من قطط وكلاب وحمير وبقر وخراف وغيرها، وتوضع رأس الحيوان وجلده بقرب لحمه ليعرف المشتري ماذا يشتري. وهم يسمّنون الكلاب هناك كما تُلعف الخراف، حتى لا تستطيع الحركة من سمنها ثم يذبحونها ويبيعون لحمها.

جـ - ابن جُبير

لعل ابن جبير (أبو الحسن محمد بن جبير الكناني البلنسي) من أبرز الرحّالة المسلمين الذين سجّلوا أخبار رحلتهم ومشاهداتهم بدقة، ويكاد يجمع الباحثون على أن الأسلوب الذي كتب به وصف رحلته من أفضل الأساليب التي كُتبت به الرحلات العربية القديمة، ويذكر كراتشكوفسكي أن رحلة ابن جبير بلغت ذروة الأدب الجغرافي العربي من الناحية الفنية لحيويّة الأسلوب وسهولة التعبير[2]. وعلّل ذلك بأنه هو وأبوه ينتميان إلى طبقة الكتّاب والأدباء من رجال الدواوين المثقّفين. ولقد وُلد ابن جبير سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م في

(١) سفر نامة، المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ١٠١.

بلنسية. وعمل كاتباً لحاكم غرناطة، واشتهر بتفوّقه في الكتابة النثرية والشعر، وله ديوان شعر، وقد توفي بالإسكندرية في شعبان سنة ٦١٤هـ.

ويذكر أن سبب رحلته الأولى، أن أبا سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطه، استدعاه ليكتب له كتاباً، وهو على شرابه، فمدَّ إليه بكأس، فأظهر الانقباض، وقال: يا سيدي، ما شربتها قط! فقال: والله لتشربنّ منها سبعاً، فلما رأى العزيمة، شرب سبع أكؤس. فملأ له السيد الكأس من دنانير سبع مرّات، وصبَّ ذلك في حجره، فحمل الدنانير إلى منزله، وأضمر أن يجعل كفّارة شربه الحجّ بتلك الدنانير.

وقد زار ابن جبير في هذه الرحلة مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية، ووصف المدن التي مرّ بها في هذه الأقطار جميعاً، وعنى في جميع المدن التي وصفها بالمساجد وقبور الصحابة والمشهورين والمستشفيات والآثار المعروفة. وعنى في وصفه لمصر ببعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية، وفي بلاد العرب بالجانب الديني، وفي العراق بالوعظ، والوعاظ، وفي الشام بالنواحي السياسية والاقتصادية والحروب بين المسلمين والصليبيين[1].

وقد اقتبس كثير من الرحّالة من وصف ابن جبير، ومن هؤلاء: العبدري، وابن بطوطة، والمقريزي، والفاسي في كتابه «شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام»، والمقرّي في كتابه «نفح الطيب»، والشربيني في شرحه لمقامات الحريري.

بدأت رحلة ابن جبير الأولى يوم الإثنين ١٩شوال سنة ٥٧٨هـ (١١٨٣م) واستغرقت سنتين وثلاثة أشهر ونصفاً. وبدأت من غرناطة إلى سبته ثم الإسكندرية، القاهرة، منفلوط، أسيوط، أخميم، قنا، قوص، عيذاب، جدّة، مكة، المدينة، مارابنجد، الكوفة، الحلة، بغداد، بلاد الشام وصقلية. ووصل وطنه يوم الخميس ١٢محرم سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) وهذه الرحلة هي التي وصفها ابن جبير «برحلة ابن جبير» أو «رحلة الكناني» وتبدأ المخطوطة بعبارة

---

(١) حسين نصار (١٩٥٥) رحلة ابن جبير، مكتبة نصر، القاهرة، المقدمة، ص ج.

(تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار) وتنتهي بعبارة (كتاب اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك).

وعلى الرغم من أن ابن جبير كان يفتتح كلامه عن المدن المهمة بفقرات جيّدة تتحلى بالسجع والجناس، ويستعين كثيراً بالآيات القرآنية والأحاديث النبويّة وأحياناً بالشعر، إلا أن عباراته تأتي أحياناً بلا ترابط بينها، كما تأتي الضمائر غير مناسبة، وخاصة في المثنى الذي يعامله كالمؤنث في بعض المواضع. وينسى أحياناً بعض الأشياء فيضطرُّ إلى إلحاقها في غير موضعها، كما فعل في وصفه للمدن المصرية[١].

وقام ابن جبير برحلتين أُخريين لم يُدوّن أخبارهما. وقد عمل ابن جبير بالتدريس في الإسكندرية، وتوفي ودُفن بها سنة ٦١٤هـ (١٢١٧م).

ويعتقد بعض الباحثين أن مسجد سيدي جابر بالإسكندرية هو في الحقيقة ضريح لابن جبير، وقد حرّف العامة اسمه مع الزمن حتى صار إلى ما هو عليه الآن[٢].

---

(١) حسين نصار، المرجع السابق، المقدمة، ص هـ.

(٢) شوقي ضيف، الرحلات، القاهرة، سنة ١٩٥٦م، ص ٧١

نماذج من وصف ابن جبير لبعض

الأماكن التي زارها[1]

ذكر بعض أخبار الإسكندرية وآثارها

فأول ذلك حُسْنُ وضع البلد واتّساع مبانيه[2]، حتى إنّا ما شاهدنا بلداً أوسع مسالك منه ولا أعلى مبنى ولا أعتق ولا أحفل[3] منه، وأسواقه في نهاية من الاحتفال أيضاً. ومن العجب في وصفه أن بناءه تحت الأرض كبنائه فوقها وأعتق وأمتن، لأن الماء من النيل يخترق جميع ديارها وأزقّتها تحت الأرض، فتتّصل الآبار بعضها ببعض، ويَمُدّ بعضها بعضاً.

وعاينّا فيها أيضاً من سواري الرخام وألواحه كثرةً وعُلواً واتّساعاً وحُسناً ما لا يُتخيّل بالوهم، حتى إنك تلقى في بعض الممرّات بها سَوارٍ يغصُّ الجوُّ بها صعوداً، لا يُدْرَى ما معناها، ولا لِمَ كان أصلُ وضعها. وذُكر لنا أنه كان عليها في القديم مبانٍ للفلاسفة خاصة، ولأهل الرئاسة في ذلك الزمان، والله أعلم، ويشبه أن يكون ذلك للرَّصْد.

ومن أعظم ما شاهدناه من عجائبها المَنَار الذي قد وضعه الله عزّ وجلّ على يدي من سخّر لذلك آية للمتوسمين، وهداية للمسافرين، لولاه ما اهتدوا في البحر إلى برّ «الإسكندرية»، يظهر على أزيَد من سبعين ميلاً. ومبناه في غاية العتاقة والوثاقة طولاً وعرضاً، يزاحم الجوّ سمواً وارتفاعاً، يقصر عنه الوصف، وينحسر دونه الطَّرْف، الخَبَرُ عنه يضيق، والمشاهدة له تتّسع. ذَرَعْنا

---

(١) حسين نصار، مرجع سبق ذكره، ص ٨.
(٢) سك: أزقّته.
(٣) أحفل: أكثر زحاماً.

أحد جوانبه الأربعة فألفينا فيه نيّفاً وخمسين باعاً. ويُذْكَرُ أن في طوله أزيد من مئة وخمسين قامة. وأما داخله فمرأى هائل اتِّساع معارج ومداخل، وكثرةَ مساكن، حتى إن المتصرّف فيها والوالج في مسالكها ربما ضلَّ. وبالجملة لا يحصّلها القول، والله لا يخليه من دعوة الإسلام ويبقيه. وفي أعلاه مسجد موصوف بالبركة، يتبرّك الناس بالصلاة فيه، طلعنا إليه يوم الخميس الخامس لذي الحجّة المؤرَّخ، وصلَّينا في المسجد المبارك المذكور. وشاهدنا من شأن مبناه عجباً، لا يستوفيه وصف واصف.

ومن مناقب هذا البلد، ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سلطانه: المدارسُ والمَحَارس الموضوعة فيه[١] لأهل الطب والتعبُّد، يَفِدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه، ومدرِّساً يعلّمه الفن الذي يريد تعلّمه، وإجْراءً[٢] يقوم به في جميع أحواله. واتّسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين، حتى أمر بتعيين حمّامات يستحمُّون فيها متى احتاجوا إلى ذلك، ونصب لهم مارستاناً[٣] لعلاج مَنْ مرض منهم، ووكّل بهم أطباء يتفقّدون أحوالهم، وتحت أيديهم خدّام يأمرونهم بالنظر في مصالحهم التي يشيرون بها من علاج وغذاء. وقد رُتِّب أيضاً فيه أقوام برسم الزيارة للمرضى، الذين يتنزّهون[٤] عن الوصول للمارستان المذكور من الغرباء خاصة، ويُنْهُون إلى الأطباء أحوالهم، ليتكفّلوا بمعالجتهم.

ومن أشرف هذه المقاصد أيضاً أن السلطان عيَّنَ لأبناء السبيل من المغاربة خُبْزَتين لكل إنسان في كل يوم، بالغاً ما بلغوا، ونصب لتفريق ذلك كل يوم إنساناً أميناً من قِبَله. فقد ينتهي في اليوم إلى أَلْفَيْ خبزة أو أزيد، بحسب القلّة والكثرة، وهكذا دائماً ولهذا كله أوقاف من قِبَله حاشا ما عَيّنه من زكاة العَيْن لذلك. وأكّد على المُتولِّين لذلك متى نقصهم من الوظائف

---

(١) المحارس: جمع محرس، وهو مأوى مخصّص للدارسين والزهّاد والمسافرين والفقراء.

(٢) الإجراء: المرتّب.

(٣) المارستان: المستشفى، وهي كلمة فارسيّة الأصل.

(٤) يتنزّهون: يترفّعون.

المرسومة شيء، أن يرجعوا إلى صُلْبِ ماله. وأما أهلُ بلده ففي نهاية من الترفيه واتّساع الأحوال، لا يلزمهم وظيف[1] البتّة. ولا فائد للسلطان بهذا البلد سوى الأوقاف المُحبَّسة المعيَّنة من قِبَله لهذه الوجوه، وجزية اليهود والنصارى، وما يطرأ من زكاة العين خاصة[2]، وليس له منها سوى ثلاثة أثمانها، والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة.

وهذا السلطان الذي سنّ هذه السنن المحمودة، ورسم هذه الرسوم الكريمة على عدمها في المدّة البعيدة، هو صلاح الدين أبو المظفَّر يوسف ابن أيوب، وصل الله صلاحه وتوفيقه.

وفي يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول المذكور، وهو الثامن عشر من يوليه، ركبنا الجلبة للعبور إلى «جُدة». فأقمنا يومَنا ذلك بالمُرْسَى لركود الريح، ومغيب النَّواتية. فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء، أقلعنا على بركة الله عزّ وجلّ، وحسن عونه المأمول. فكانت مدة المقام «بعيذاب» حاشا يوم الاثنين المذكور، ثلاثة وعشرين يوماً، محتسَبة عند الله عزّ وجلّ، لشَظَف العيش، وسوء الحال، واختلال الصحّة، لعدم الأغذية الموافقة. وحسبُك من بلد كلُّ شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطشُ أشهى إلى النفس منه. فأقمنا بين هواء يُذيب الأجسام، وماءٍ يَشْغَل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظَلَم مَنْ غَنّى عن هذه البلدة بقوله: ماءٌ زُعاقٌ وجوٌّ كله لهَبُ.

فالحلول بها من أعظم المكاره التي حُفَّ بها السبيل إلى البيت العتيق، زاده الله تشريفاً وتكريما، وأعظمَ أجورَ الحجاج على ما يكابدونه، ولا سيما في تلك البلدة ويواصل ابن جبير قوله إن بعض الناس يزعمون أن سليمان بن داود على نبينا وعليه السلام كان اتّخذها سجناً للعفارتة[3]، أراح الله الحجاج منها

(١) الوظيفة: ما يقدّر للإنسان في اليوم أو الشهر أو السنة من طعام أو رزق أو نحوه، ولم أجد فيها الوظيف.

(٢) زكاة العين: التي تدفع من الشيء عينه لا نقوداً.

(٤) العفارتة: العفاريت. وفي هـ: الفراعنة.

بعمارة السبيل القاصدة[1] إلى بيته الحرام، وهي السبيل التي من مصر على «عَقَبَةِ أَيْلَة»، إلى المدينة المقدسة، وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يميناً، «وجبل الطُّور» المعظَّم يساراً، لكن للإفرنج بمقربة منها حصن مندوب[2]، يمنع الناس من سلوكه، والله ينصر دينه، ويعزّ كلمته بمنه.

فتمادى سيرنا في البحر، يوم الثلاثاء السادس والعشرين لربيع الأول المذكور، ويوم الأربعاء بعده بريح فاترة المَهَبّ. فلما كان العشاء الآخرة من ليلة الخميس - ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلِّقة من برّ الحجاز - لمَع برق من جهة البر المذكور، وهي جهة الشرق، ثم نشأ نَوْءٌ أظلم له الأفق، إلى أن كسا الآفاق كلها، وهبّت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه، راجعاً وراءه، وتمادى عُصوف الرياح، واشتدّت حُلْكة الظلمة وعمّت الآفاق، فلم نَدْرِ الجهة المقصودة منها إلى أن ظهر بعض النجوم فاستُدِل بها بعض الاستدلال، وحُطّ القِلْع إلى أسفل الدَّقَل، وهو الصَّاري. وأقمنا ليلتنا تلك في هول يؤذِن باليأس، وأرأنا بحرُ فرعون بعض أهواله الموصوفة، إلى أن أتى الله بالفرج مقترِنا مع الصباح. فهدأ قياد الريح، وأقشع الغيمُ، وأصحَت السماء، ولاحَ لنا برّ الحجاز على بُعد، لا نبصر منه إلا بعض جباله، وهي شرق من «جُدّة»، زعم ربّان المركب وهو الرّائس، أنّ بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبرّ «جُدّة» يومين، والله يسهّل لنا كل صعب، وييسّر لنا كل عسير، بعزّته وكرمه. فجرينا يومَنا ذلك - وهو يوم الخميس المذكور - بريح رُخاء طيبة، ثم أرسينا عشيةً في جزيرة صغيرة في البحر، على مقربة من البرّ المذكور، بعد أن لقينا شِعاباً كثيرة، يكثر فيها الماء ويَضْحَل علينا، فتحللنا أثناءها على حذر وتحفُّظ.

ذكر مدينة مَسِّينةَ من جزيرة صقلِّية، أعادها الله تعالى

هذه المدينة موسم تجار الكفّار، ومقصد جواري البحر من جميع الأقطار، كثيرة الأرفاق برخاء الأسعار، مظلمة الآفاق بالكفر لا يقرّ فيها المسلم

(١) القاصدة: المستقيمة التي يقصدها المسافرون.

(٢) المندوب: المطلوب، ولعله يريد أنه حصن ينتدب له شجعان المحاربين، للإغارة عليه.

قرار، مشحونة بعَبَدة الصلبان، تغصّ بقاطنيها، وتكاد تضيق ذَرْعاً بساكنيها، مملوءة نَتْناً ورجساً، موحشة لا توجد لغريب أنساً، أسواقها نافقة حَفيلَة، وأرزاقها واسعة بإرغاد العيش كفيلة، لا تزال بها ليلَك ونهارَك في أمان، وإن كنتَ غريب الوجه واليد واللسان، مُستنِدة إلى جبال قد انتظمت حَضيضها وخناديقها، والبحر يعترض أمامها في الجهة الجنوبية منها. ومُرْساها أعجب مراسي البلاد البحرية، لأن المراكب الكبار تدنو فيه من البرّ حتى تكاد تمسّه[1]، وتُنصَب منها إلى البرّ خشبة يُتصرَّف عليها، فالحمّال يصعد بحمله إليها، ولا يحتاج لزواريق في وَسْقها ولا في تفريغها، إلا ما كان مَرسِيًّا على البُعْد منها يسيرا. فتراها مصطفَّة مع البرّ كاصطفاف الجياد في مرابطها واصطبلاتها، وذلك لإفراط عمق البحر فيها. وهو زُقاق معترض بينها وبين الأرض الكبيرة، بمقدار ثلاثة أميال. ويقابلها منه بلدة تُعرف «بريّة»[2]، وهي عِمالة كبيرة. وهذه المدينة: مسينة، رأس جزيرة صقلية، وهي كثيرة المدن والعمائر والضياع، وتَسمِيتُها تطول. وطول هذه الجزيرة: صقلية، سبعة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام. وبها جبل البركان المذكور، وهو يأتزر بالسحب لإفراط سموّه، ويعتمّ بالثلج شتاء وصيفاً دائماً. وخصبُ هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس في سَعَة العمارة، وكثرة الخصب والرَّفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها، لكنها معمورة بعَبَدة الصلبان، يمشون في مناكبها، ويرتعون في أكنافها. والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسّنوا السّيرة في استعمالهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة في فصلين من العام يؤدّونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها، والله عزّ وجلّ يصلح أحوالهم، ويجعل العُقْبى الجميلة مآلهم، بمنه. وجبالها كلها بساتين مثمرة بالتفاح، والبندق، والإجّاص وغيرها من الفواكه.

---

(١) خ. تمسكه، وأصلحها فلايشر.

(٢) هي: Reggio.

الملك غليام والمسلمون في صقلية

وليس في مسينة هذه من المسلمين إلا نفر يسير من ذوي المِهَن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب. وأحسن مدنها قاعدة ملكها، والمسلمون يعرفونها بالمدينة، والنصارى يعرفونها ببَلاَرْمة. وفيها سُكنى الحَضَريِّين من المسلمين، ولهم فيها المساجد. والأسواق المختصّة بهم في الأرباض كثير. وسائر المسلمين بضياعها، وجميع قراها، وسائر مدنها كسَرْقُوسة وغيرها. لكن المدينة الكبيرة التي هي مسكن ملكها غليام أكبرها وأحفلها، وبعدها مسينة. وبالمدينة إن شاء الله يكون مقامنا، ومنها نؤمّل سفرنا إلى حيث يقضي الله عزّ وجلّ من بلاد المغرب إن شاء الله.

وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة، واستعمال المسلمين، واتخاذ الفتيان المَجابِيب. وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه، متمسّك بشريعة الإسلام. وهو كثير الثقة بالمسلمين، وساكنٌ إليهم في أحواله والمهم من أشغاله، حتى إن الناظر في مطبخته رجل من المسلمين. وله جملة من العبيد السُّود المسلمين، وعليهم قائد منهم. ووزراؤه وحُجّابُه الفتيان، وله منهم جملة كبيرة، هم أهل دولته، والمُرْتَسِمون بخاصته. وعليهم يلوح رونق مملكته، لأنهم متّسعون في الملابس الفاخرة، والمراكب الفارهة. وما منهم إلا من له الحاشية والخَوَل والأتباع. ولهذا الملك القصور المشيّدة، والبساتين الأنيقة، ولاسيما بحضرة ملكة المدينة المذكورة. وله بمسينة قصر أبيض كالحمامة، مطلٌّ على ساحل البحر. وهو كثير الاتّخاذ للفتيان والجواري. وليس في ملوك النصارى أترف في الملك، ولا أنعم، ولا أرفه منه، وهو يتشبّه في الانغماس في نعيم الملك، وترتيب قوانينه، ووضع أساليبه، وتقسيم مراتب رجاله، وتفخيم أُبّهة الملك، وإظهار زينته، بملوك المسلمين، وملكه عظيم جداً. وله الأطباء والمنجّمون، وهو كثير الاعتناء بهم، شديد الحرص عليهم، حتى إنه متى ذُكر له أن طبيباً أو مُنجّماً اجتاز ببلده، أمر بإمساكه، وأدرَّ له أرزاق معيشته، حتى يُسْلِيَهُ عن وطنه، والله يُعِيد المسلمين من الفتنة به، بمنه. وسِنُّه نحو الثلاثين سنة، كفى الله المسلمين عادِيَته وبسطته. ومن عجيب شأنه المتحدَّث به أنه

يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته - على ما أعْلَمَنا به أحدُ خَدَمته المختصين به -: «الحمدُ لله حقَّ حمده». وكانت علامة أبيه: «الحمدُ لله شكراً لأنْعُمِه».

وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلمات كلهن. ومن أعجب ما حدَّثنا به خَدِيمُه المذكور، وهو يحيى بن فتيان الطرّاز، وهو يطرّز بالذهب في طِراز الملك: أن الإفرنجية من النصرانيات تقع في قصره، فتعود مسلمة، تعيدها الجواري المذكورات مسلمة، وهنّ على تكتُّم من ملكهن في ذلك كله، ولهن في فعل الخير أمور عجيبة. وأُعْلِمنا أنه كان في هذه الجزيرة زلازل مُرْجِفة، ذُعِر لها هذا المُشْرِكْ. فكان يتطلّع في قصره، فلا يسمع إلا ذاكراً الله ولرسوله من نسائه وفتيانه. وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته، فكان يقول لهم: (ليذكرْ كل أحد منكم معبودَه، ومن يَدين به)، تسكيناً لهم.

وأما فتيانه الذين هم عيون دولته، وأهل عِمالته في ملكه، فهم مسلمون، ما منهم إلا من يصوم الأشهر تطوُّعاً وتأجُّراً، ويتصدَّق تقرُّباً إلى الله وتزلُّفاً، وَيفْتك الأسرى، ويربّي الأصاغر منهم ويزوّجهم، ويحسن إليهم، ويفعل الخير ما استطاع. وهذا كله صُنْع من الله عزّ وجلّ لمسلمي هذه الجزيرة، وسرٌّ من أسرار اعتناء الله عزّ وجلّ بهم.

د ـ ابن بطوطه

يُعدُّ ابن بطوطه، وهو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، وكنيته أبو عبد الله، ولقبه شمس الدين، أشهر الرحّالة المسلمين على الإطلاق.

وُلد ابن بطوطة في مدينة طنجة في السابع عشر من شهر رجب عام ٧٠٣هـ (٢٤فبراير سنة ١٣٠٤م)، وتشير نسبة (اللواتي) إلى أنه ينتمي إلى قبيلة لواته، وهي إحدى القبائل البربرية التي انتشرت بطونها على طول ساحل أفريقيا الشمالي من المغرب حتى مصر.

وكل ما يُعرف عن سنيّ حياة ابن بطوطه الأولى أنه نشأ في بسطة من العيش، ونال حظاً يسيراً من العلم في طنجة، وكان يميل إلى تعلُّم الفقه وفقاً

للمذهب المالكي الذي ساد شمالي أفريقيا آنذاك، وكان لابن بطوطه، شأن غيره من المثقفين شعرٌ جيّد مدح به بعض الذين أولوه رعايتهم[1].

ولم يكن يخطر ببال ابن بطوطه أن يهجر وطنه لمدة تزيد على ربع قرن قطع فيها أكثر من خمسة وسبعين ألف ميل، ويبدو أن الحافز الرئيسي الذي دفعه على الخروج هو أداء فريضة الحج فخرج ملبّياً داعي الله من مدينة طنجة وهو في سن الثانية والعشرين، ويوضح أن الغرض من خروجه من طنجة هو «أداء فريضة الحجّ» ما رواه ابن بطوطه بنفسه فهو يقول[2]:

(كان خروجي من طنجة مسقط رأسي، في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد، عام خمسة وعشرين وسبعمائة (منتصف يونيو سنة ١٣٢٥م) معتمداً حجّ بيت الله الحرام، وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته، وركب أكون في جملته، لباعث على النفس شديد العزائم، وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم[3]. فجزمت أمري على هجر الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور. وكان والداي بقيد الحياة، فتحمّلتُ لبُعدهما وصباً[4] ولقيت كما لقيا من الفراق نصباً، وسني يومئذٍ اثنتان وعشرون سنة).

وتميّز ابن بطوطه، كما يستشفّ من كلامه عن نفسه، بأنه كان حساساً رقيق العاطفة تقياً، معظّماً للأتقياء والصالحين، يزور قبورهم لتبرُّك بهم «لا يجيز الإسلام ذلك». ويروي كثيراً من كراماتهم وما يُنسب إليهم من أعمال الخير، كإقامة الزوايا وحبس الأوقاف الكثيرة عليها، وقد حجّ ابن بطوطة أربع مرات

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٤٢٢.
(٢) رحلة ابن بطوطه المسمّاة «تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، طبعة كتاب التحرير، سنة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، ص ١٧- ١٨.
(٣) الحيازم: جمع حيزوم، والحيزوم هو الصدر.
(٤) الوصب هو المرض.

وكان لا يفتأ يذكر أن ما متّع به في حياته من نعمة وجاه إنما كان لأنه حجّ أربع حجّات(1).

وقد قام ابن بطوطة برحلات ثلاث تمّت في الفترة ما بين سنة ٧٢٦هـ - ٧٥٠هـ / ١٣٢٥م - ١٣٥٤م حيث زار معظم البلاد التي كانت معروفة آنذاك.

واستمرّت رحلة ابن بطوطة الأولى أربعاً وعشرين سنة إذ إنه خرج من طنجه للبحر سنة ١٣٢٥م فمرَّ بساحل أفريقيا الشمالي ثم توجّه إلى عيذاب على البحر الأحمر، إلا أنه لم يتمكن من عبور البحر بسبب الحرب التي كانت مندلعة بين المماليك والبجاة، وعاد إلى الفسطاط ثم توجّه إلى بلاد الشام ومنها إلى الحجاز فحجّ حجّته الأولى، وخرج من مكة إلى بلاد العراق حيث زار مشاهد الشيعة وقبر علي بالنجف، ثم اتّجه إلى إيران فبلاد الأناضول، ثم إلى الكوفة فبغداد إلى مكة حيث حجّ حجّته الثانية، وأقام بمكة نحو سنتين حتى عوفي من مرض شديد، وفي مكة تعرّف ابن بطوطة على عدد من العلماء المقيمين بها حيث تناقش معهم في كثير من الأمور الدينية.

غادر ابن بطوطة مكة إلى جدّة ومنها عبر البحر الأحمر إلى الساحل الأفريقي ثم عاد منه إلى جنوبي الجزيرة العربية حتى الخليج العربي، فزار عمان والبحرين والاحساء، ثم زار مكة وحجّ حجّته الثالثة، وخرج من مكة مارًّا بخراسان وتركستان وأفغانستان، وتولّى القضاء لمدة خمس سنوات في «دلهي» على المذهب المالكي للسلطان محمد شاه بن طغلق، وخرج مع وفد إلى الصين ثم عاد إلى بلاد العرب عن طريق سومطره ومرَّ بجزيرة سرنديب وزار بلاد العجم، والعراق والشام ومنها اتجه إلى مكة حيث حجّ حجّته الرابعة، ثم عاد إلى وطنه ٧٥٠هـ (١٣٤٩م) حيث أقام بفاس.

أما الرحلة الثانية، فقد سافر فيها ابن بطوطة إلى بلاد الأندلس، وفي

---

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ١٠، نقلاً عن مقدمة مهذب رحلة ابن بطوطة.

طريقه إليها زار قبر أُمّه بطنجة، وقد أقام بغرناطة لفترة تعرّف فيها بمحمد بن جُزَي الكلبي الذي تولّى كتابة ما أملاه عليه الشيخ ابن بطوطه فيما بعد، ورجع ابن بطوطه إلى المغرب.

وفي الرحلة الثالثة خرج فيها ابن بطوطه في غرة المحرم سنة ٧٥٣هـ / ١٨ فبراير سنة ١٣٥٢م بعد أن كلّفه السلطان أبو عنان سلطان فاس بزيارة أواسط أفريقيا، وبدأ ابن بطوطه بزيارة سجلماسة، ثم تغازي وتمبكتو في مملكة مالي القوية واخترق هضبة «هكار» «الحجار» ثم عبر جبال أطلس في ظروف قاسية في فصل الشتاء، ووصل إلى مدينة فاس في نهاية سنة ٧٥٤هـ / ١٣٥٣م وظلّ بهذه المدينة أكثر من أربعة وعشرين عاماً حتى وافته المنيّة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م.

صياغة مذكرات ابن بطوطه عن رحلته:

حينما اتّصل ابن بطوطه بالسلطان أبي عنان المريني (٧٤٩هـ - ٧٥٩هـ / ١٣٤٨م - ١٣٥٨م) وجد رعايةً وترحيباً مما جعله يفضّل البقاء في حاشيته يحدّثهم بما رآه من عجائب في أسفاره، وقد أمر السلطان كاتبه محمد بن جزي الكلبي بكتابة ما يمليه عليه ابن بطوطه، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٦م، وأطلق عليها «تحفة النظّار، في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

ومن هذا يبدو لنا أن الفضل في ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطه يرجع إلى السلطان أبي عنان.

ومن تتبّع السمات العامة لكتاب وصف رحلة ابن بطوطه، نجد أنه يفتقر إلى التناسب والتنسيق، ويميل الأسلوب إلى السجع المتكلّف، وحشر الشعر دون ارتباط بالموضوع، وقد وردت جُمل كثيرة من كلام ابن جبير في وصف بلاد الشام والجزيرة العربية يُحتمل أن يكون ابن جزي الغرناطي هو الذي أضافها من عنده وليس ابن بطوطه؛ إذ إن ابن بطوطه كان صادقاً وصريحاً ولا يستحي من الاعتراف بالنسيان كأن ينسى اسم موضع أو اسم

شخص مثل ذلك القاضي الذي نزل عليه بالشام أو تلك المدينة التي مرَّ عليها في طريقه إلى تمبكتو[1].

ومن أمثلة ما جاء في وصف رحلة ابن بطوطه نقلاً عن ابن جبير، وصف عيون تنبع بالقار في العراق، حيث يقول ابن جبير: (وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتتقذّفه إلى جوانبها فيرسب قاراً)[2].

وجاء في رحلة ابن بطوطه: (وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء، يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه إلى جوانبها فيصير أيضاً قاراً)[3].

كما جاء في رحلة ابن بطوطه ما هو منقول عن العبدري من كتاب مستفاد الرحلة والاغتراب، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، ما جاء في وصف الطريق من بدر إلى مكة حيث يقول العبدري: (ورحلنا من بدر إلى الصحراء المعروفة بقاع (البزواء)، وهي برّية يضلُّ بها الدليل ويذهل عن خليله الخليل، سيرة ثلاث وفي منتهاها وادي رابع»[4].

وقد ساعد على النسيان أن أخبار الرحلة كُتبت بعد أكثر من ربع قرن، كما أنه كان يعتمد على المترجمين في معرفة أحوال البلاد التي يزورها ولا شك أن الترجمة قد تؤدي إلى كثير من الأخطاء.

القيمة العلمية لرحلات ابن بطوطة

لم يكن ابن بطوطه في رحلاته إلا وصّافاً لمشاهد رآها ولم يكن عالماً بل اعتمد اعتماداً رئيسياً على مشاهداته، وعلى ما بقي في ذاكرته وذلك في وصف رحلته، ومن هنا فقد وقع في بعض الأخطاء فيما يتعلق بالتواريخ التي حدّدها، وخصوصاً حينما وصف القسطنطينية وما سرده من حكايات عن

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٤٢٧.

(٢) رحلة ابن جبير (١٣٨٤هـ)، دار صادر، بيروت، ص ٢٠٩.

(٣) رحلة ابن بطوطة (د. ت) دائرة معارف الشعب، القاهرة، ص ١٥٧

(٤) العبدري، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص ٢٢.

الصين مما دفع بعض الباحثين إلى القول بأنه لم يزر الصين، ومن هؤلاء الباحثين المستشرق الفرنسي فيران Ferrand الذي وصل إلى نتيجة مفادها أن ابن بطوطه لم يزر الهند الصينية ولا الصين، بل لفّق روايته عنهما دون توفيق يُذكر من مصادر مختلفة[1].

وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته في فصل «في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها» أن ابن بطوطه ذكر قصصاً غريبة عن ملك الهند منها: (أن ملك الهند إذا خرج إلى السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر تُدفع لهم من عطائه، وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به، وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهور ترمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس إلى أن يدخل إيوانه فتناجي الناس بتكذيبه)[2].

ومما يؤخذ على ابن بطوطه أنه وصف الإمام ابن تيمية - رضي الله عنه - بما لا يليق، وكتب عنه تحت عنوان (حكاية الفقيه ذي اللوثة[3]). وحكى عنه أموراً كأنه رآه، لكنه في الحقيقة لم يرَ ابن تيمية لأن ابن تيمية كان في السجن حين وصل ابن بطوطه إلى دمشق.

ويختلف ابن بطوطه عن سائر الرحّالة الجغرافيين المسلمين في أنه لم يجمع مادته من الكتب، كما أنه لم يذهب إلى البلاد المختلفة بقصد الدراسة، وإنما ساح في البلاد تحت تأثير غريزة حب الاستطلاع، وما جمعه من معلومات كان وليد ملاحظاته الشخصية ومحادثاته، وقد حوى وصف الرحلة كثيراً من الطرائف والحكايات ووصف عجائب المخلوقات من حيوانات ونباتات.

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٤٢٩.

(٢) ابن خلدون، المقدّمة؛ المطبعة البهية المصرية، بمصر، بدون تاريخ طبع، ص ١٥٨.

(٣) أحمد العوامري بك، محمد جاد المولى، ١٩٣٩، مهذب رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥.

موقف المستشرقين من رحلة ابن بطوطه:

لم تعرف أوربا ابن بطوطه إلا في بداية القرن التاسع عشر حينما أشار إليه سيتزن Seetzen سنة ١٨٠٨م الذي قال متسائلاً: أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمن ما قضاه ابن بطوطه في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة وتحمّل من مشاقّ الأسفار ما تحمّله بصبر وثبات وشجاعة[١]!.

بل أي أمة أوربية كان يمكنها منذ خمسة قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية، وفيه من الاستقلال بالحكم والقدرة على الملاحظة، والدقّة في الكتابة، ما لهذا الرحّالة العظيم.

وأول من تناول ابن بطوطه بالبحث روزغارتن... Rosegarten الذي قدّم تحليلاً للرحلة مع مقتطفات مترجمة وتعليقات تحت عناوين «الرحلة الفارسية» و «الرحلة الملديفية» و «الرحلة الأفريقية». وقد قام القسّ الإنجليزي صموئيل لي Lee بجامعة كمبردج سنة ١٨٢٩م بترجمة قسم كبير من وصف الرحلة إلى اللغة الإنجليزية[٢].

وقد تمَّ العثور على أصل كتاب رحلة ابن بطوطه بعد أن فتح الفرنسيون الجزائر واستولوا على قسنطينة، ثم تمكّنت المكتبة الأهلية الفرنسية بباريس من العثور على مخطوطتين كاملتين، وثلاث مخطوطات بخطّ ابن جزي نفسه تمثّل أجزاء من وصف الرحلة، وتمكّن العلماء الفرنسيون من إخراج أول طبعة كاملة لوصف الرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية بقلم دفريمري وسانغنتي المستشرقَيْن الفرنسيين، وقد صدرت الترجمة في أربعة أجزاء.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ١٣، نقلاً عن أحمد العوامري، محمد أحمد جاد المولى، من مقدمة مهذب رحلة ابن بطوطة.

(٢) وقع Lee في كثير من الأخطاء حينما ترجم النص العربي إلى اللغة الإنجليزية، فعلى سبيل المثال، ترجم كلمة (عَنْبه) الصومالية إلى Grabes أي عِنَبْ، والكلمة الصومالية تعني «المانجو» التي ما زالت تُعرف في الصومال بهذا الاسم.

انظر Samuel Lee, The Travels of Ibn Batuta, Translated from the Arabic Manuscript Copies, Burt Franklin, New York, P. 56.

وأعدّ المستشرق الفرنسي رينان... Renan دراسة جيّدة عن ابن بطوطه اعتمد عليها معظم الدارسين فيما بعد..

وقد سخر بعض الباحثين الغربيين مما ذكره ابن بطوطة، ومن أمثال هؤلاء الباحث المعروف يول... Yule الذي علّق على ما قاله ابن بطوطة عن بلاد طوالسي الغامضة بقوله:

(يجب البحث عن تلك البلاد في الخرائط البحرية التي ضمّمتها صفحات أطالس القبطان الطيّب الذكر جليفر)[1].

مقتطفات من وصف رحلة ابن بطوطة

الأمصار وعجائب الأسفار:

كرامات بعض مشايخ الإسكندرية:

ومنهم الإمام العالِم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج من كبار الزهّاد، وأفراد العباد لقيته أيام مقامي بالإسكندرية، وأقمت في ضيافته ثلاثاً.

ذكر كرامة له:

دخلت عليه يوماً، فقال لي: أراك تحب السيحة والجولان في البلاد فقلت له: نعم إني أحب ذلك. ولم يكن حينئذٍ خطر بخاطري التوغّل في البلاد القاصية من الهند والصين، فقال: لا بدّ لك - إن شاء الله - من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين. فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام. فعجبت من قوله، وألقى في روعي التوجُّه إلى تلك البلاد. ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه. ولما ودّعته زوّدني دراهم لم تزل عندي محوطة، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها، إلى أن سلبها مني كفّار الهنود فيما سلبوه في البحر.

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٤٢٩.

ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من أفراد الرجال، وهو تلميذ أبي العباس المرسي، وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليّة والمقامات العالية[1].

كرامة لأبي الحسن الشاذلي:

أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي: أن أبا الحسن كان يحجّ في كل سنة، ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج، ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير إلى بلده. فلما كان في بعض السنين - وهي آخر سنة خرج فيها - قال لخادمه: استصحب فأساً وقفّة وحنوطاً[2] وما يجهّز به الميت.

فقال له الخادم: ولماذا يا سيدي؟ فقال له في حميثرا سوف ترى - وحميثرا في صعيد مصر في صحراء عيذاب، وبها عين ماء زعاق[3]، وهي كثيرة الضباع -. فلما بلغا حميثرا، اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلّى ركعتين، وقبضه الله عزّ وجلّ في آخر سجدة من صلاته، ودُفن هناك. وقد زرت قبره رضي الله عنه.

وقد وصف ابن بطوطة مصر بأنها أُم البلاد[4].

ذكر الكعبة المعظّمة الشريفة، زادها الله تعظيماً وتكريماً[5]:

والكعبة ماثلة في وسط المسجد، وهي بنية مربّعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعاً، وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الحجر الأسود أربعة وخمسون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها

---

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ٢٤.
(٢) الحنوط: طِيْبٌ يُخلطُ للميت خاصة.
(٣) الزعاق: الماء المرّ الغليظ الذي لا يُطاق شربه.
(٤) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢.
(٥) المصدر السابق، ص ص ٩١، ٩٢.

من الركن اليماني إلى الركن الشامي. وعرض صفحتها التي من الركن العراقي إلى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبراً، وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي إلى الركن العراقي. وأما خارج الحجر فإنه مائة وعشرون شبراً، والطواف إنما هو خارج الحجر.

وبناؤها بالحجارة الصمّ السمر، قد ألصقت بأبدع الألصاق وأحكمه وأشدّه، فلا تغيّرها الأيام ولا تؤثّر فيها الأزمان.

وباب الكعبة المعظّمة في الصفح[1] الذي بين الحجر الأسود والركن العراقي، وبينه وبين الحجر الأسود عشرة أشبار. وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يُستجاب الدعاء.

وارتفاع الباب عن الأرض أحد عشر شبراً ونصف شبر، وسعته ثمانية أشبار، وطوله ثلاثة عشر شبراً وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار. وهو مصفّح بصفائح الفضة. بديع الصنعة، وعضادتاه وعتبته العليا مصفّحات بالفضّة. وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل.

ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة، ويفتح في يوم مولد رسول الله ﷺ تسليماً. ورسمهم في فتحه أن يضعوا كرسياً شبه المنبر له درج وقوائم خشب، لها أربع بكرات يجري الكرسي عليها، ويلصقونه إلى جدار الكعبة الشريفة، فيكون درجه الأعلى متّصلاً بالعتبة الكريمة، ثم يصعد كبير الشيبين [2] وبيده المفتاح الكريم ومعه السدنة، فيمسكون الستر المسبّل على باب الكعبة المسمى بالبرقع، بخلال ما يفتح رئيسهم الباب، فإذا فتحه قبّل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده، وسدّ الباب وأقام قدر ما يركع ركعتين.

ثم يدخل سائر الشيبين، ويسدُّون الباب أيضاً ويركعون، ثم يفتح الباب ويبادر الناس بالدخول.

---

(١) الصفح: الجهة.

(٢) الشيبيون: بنو شيبة بن عثمان الحجبي، بيدهم مفاتيح الكعبة ولهم سدانتها.

وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بأبصار خاشعة، وقلوب ضارعة، وأيدٍ مبسوطة إلى الله تعالى.

فإذا فتح كبّروا ونادوا: اللهمّ افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين.

وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك، وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج، بين كل عمود منها وبين الآخر أربع خطى. وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة، يقابل الأوسط منها نصف عرض الصفح الذي بين الركنين العراقي والشامي.

وستور الكعبة الشريفة من الحرير الأسود مكتوب فيها بالأبيض. وهي تتلألأ عليها نوراً وإشراقاً، وتكسو جميعها من الأعلى إلى الأرض.

ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة أن بابها يفتح والحرم غاصّ بأمم لا يحصيها إلا الله الذي خلقهم ورزقهم، فيدخلون أجمعين ولا تضيق عنهم.

ومن عجائبها أنها لا تخلو من طائف أبداً ليلاً ولا نهاراً ولم يذكر أحد أنه رآها قط دون طائف.

ومن عجائبها أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير، لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران. وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله، فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرّج عنها إلى إحدى الجهات ولم يعلها[١]. ويقال إنه لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض.. فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه.

فسبحان الذي خصّها بالتشريف والتكريم، وجعل لها المهابة والتعظيم.

مدينة مقدشو[٢]:

ثم سافرنا منها[٣] في البحر خمس عشرة ليلة، ووصلنا مقدشو، وهي

---

(١) كلامٌ فيه نظر.

(٢) مَقْدَشَوْ، بفتح الميم وإسكان القاف وفتح الدال والشين وإسكان الواو.

(٣) أي من زيلع.

مدينة متناهية في الكِبَر، وأهلها لهم جِمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم، ولهم أغنام كثيرة وهم تجّار أقوياء. وبها تُصنع الثياب المنسوبة إليها التي لا نظير لها، ومنها تُحمل إلى ديار مصر وغيرها[١].

ومن عادة أهل هذه المدينة أنه متى وصل مركب إلى المرسى تصعد الصنابق[٢] - وهي القوارب الصغار - إليه، ويكون في كل «صنبوق» جماعة من شبان أهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطّى فيه الطعام فيقدّمه لتاجر من تجّار المركب، ويقول: هذا نزيلي. وكذلك يفعل كل واحد منهم.

ولا ينزل التاجر من المركب إلا إلى دار نزيله من هؤلاء الشبان، إلا من كان كثير التردُّد إلى البلد وعرف أهله، فإنه ينزل حيث شاء، فإذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له. ومن اشترى منه ببخس أو باع منه بغير حضور نزيله، فذلك البيع مردود عندهم، ولهم منفعة في ذلك.

ولما صعد الشبان إلى المركب الذي كنت فيه، جاء إليّ بعضهم، فقال له أصحابي: ليس هذا بتاجر، إنما هو فقيه. فصاح بأصحابه وقال لهم: هذا نزيل القاضي.

وكان فيهم أحد أصحاب القاضي، فعرّفه بذلك، فأتى إلى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث إلى أحدهم، فنزلت أنا وأصحابي وسلّمت على القاضي وأصحابه، وقال لي: باسم الله تتوجّه للسلام على الشيخ.

فقلت: ومَن الشيخ؟

فقال: السلطان.

وعادتهم أن يقولوا للسلطان الشيخ[٣].

---

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٩.

(٢) لفظ غير عربي.

(٣) إستناداً على قول ابن بطوطة يمكن تفسير تسمية «مقدشيو» بأنها منحوتة من «مقعد شيوخ» أي مكان السلاطين، وليست «مقعد شاه» كما اقترح المؤرخ الصومالي الشريف عيدروس في كتابه «بغية الأمال في تاريخ الصومال».

فقلت له: إذا نزلت توجّهت إليه.

فقال: إن العادة إذا جاء الفقيه أو الشريف أو الرجل الصالح ألا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم إليه كما طلبوا.

ذكر سلطان مقدشو:

وسلطان مقدشو، كما ذكرناه، إنما يقولون له الشيخ، واسمه أبو بكر بن الشيخ عمر. وهو في الأصل من البرابرة، وكلامه بالمقدشي، ويعرف اللسان العربي. ومن عاداته أنه متى وصل مركب يصعد إليه صنبوق السلطان، فيسأل عن المركب من أين قدم؟ ومن صاحبه؟ ومن ربّانه (وهو الرئيس)؟ وما وسقه؟ ومن قدم فيه من التجار وغيرهم؟ فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحقّ أن ينزله عنده أنزله.

ولما وصلت مع القاضي المذكور (وهو يعرف بابن البرهان المصري الأصل) إلى دار السلطان، خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي، فقال: بلغ الأمانة، وعرف مولانا الشيخ أن الرجل قد وصل من أرض الحجاز، فبلغ.

ثم عاد وأُتي بطبق أوراق التانبول والفوفل، فأعطاني عشر أوراق مع قليل من الفوفل، وأعطى القاضي كذلك، وأعطى أصحابي وطلبة القاضي ما بقي من الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب عليّ وعلى القاضي وقال: إنّ مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة (وهي دار معدّة لضيافة الطلبة).

فأخذ القاضي بيدي وجئنا إلى تلك الدار، وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتّبة بما نحتاج إليه. ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال: مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدّمتم خير مقدّم.

ثم وضع الطعام فأكلنا. وطعامهم الأرزّ المطبوخ بالسمن، يجعلونه في صفحة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف (الكوشان) وهو الأدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب

ويجعلونه في صفحة، ويجعلون اللبن الرائب في صفحة، ويجعلون عليه الليمون المصبّر، وعناقيد الفلفل المصبّر المخلّل والمملوح، والزنجبيل الأخضر والعنبا[1]، وهي مثل التفاح ولكن لها نواة. وهي - إذا نضجت - شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة، وقبل نضجها حامضة كالليمون، ويصبّرونها في الخل. وهم إذا أكلوا لقمة من الأرزّ أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخلّلات.

والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة، وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها.

ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي، وأقمنا ثلاثة أيام يؤتي إلينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم، وتلك عادتهم.

فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة، جاء القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة. وكسوتهم فوطة خزّ يشدّها الإنسان في وسطه عوَض السراويل، فإنهم لا يعرفونها، ودراعة من المقطع المصري معلمة، وفرجية من القدسي مبطّنة، وعمامة مصرية معلمة. وأتوا لأصحابي بكسى تناسبهم.

وأتينا الجامع فصلّينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلّمت عليه مع القاضي فرحّب، وتكلّم بلسانهم مع القاضي، ثم قال باللسان العربي: قدّمت خير مقدم، وشرّفت بلادنا وآنستنا.

مدينة قيس[2]:

ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس، وتسمى أيضاً بسيراف، وهي على ساحل بحر الهند المتّصل ببحر اليمن وفارس، مدينة لها انفساح وسعة، طيبة البقعة، في دُورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والأشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها.

---

(١) العنبا هي المانجو، وهي كلمة غير عربية، وقد ترجمها Lee كما سبقت الإشارة إلى Grapes أي عنب، وهذا خطأ.

(٢) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٨٥- ١٨٦.

وهم عجم من الفرس أشراف، وفيهم طائفة من عرب بني سفاف، وهم الذين يغوصون على الجوهر.

ذكر مغاص الجوهر[1]:

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين، في خور راكد مثل الوادي العظيم، فإذا كان شهر إبريل وشهر مايو تأتي القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف، ويجعل الغوّاص على وجهه ـ كلما أراد أن يغوص ـ شيئاً يكسوه من عظم الغليم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضاً شكلاً شبه المقراض يشدّه على أنفه، ثم يربط حبلاً في وسطه ويغوص.

ويتفاوتون في الصبر في الماء: فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك. فإذا وصل إلى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الأحجار الصغار مثبّتاً في الرمل، فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدّة لذلك، ويجعلها في مخلاة منوطة بعنقه. فإذا ضاق نفَسُه حرّك الحبل فيحسّ به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه إلى القارب فتؤخذ منه المخلاة.

ويفتح الصدف، فيوجد في أجوافها قطع لحم تُقطَّع بحديدة، فإذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر، فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه، والباقي يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب، وأكثرهم يكون له الدَّين على الغوّاصين فيأخذ الجوهر من دَينه أو ما وجب له منه.

مدينة البحرين:

ثم سافرنا من سيراف إلى مدينة البحرين، وهي مدينة كبيرة حسنة، ذات بساتين وأشجار وأنهار، وماؤها قريب المؤنة، يحفر عليه بالأيدي فيوجد، وبها حدائق النخل والرمّان والأترج، ويزرع بها القطن.

---

(١) المقصود اللؤلؤ.

وهي شديدة الحر، كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها.

وكان فيما بينهم وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع، فلا يوصَل من عُمان إليها إلا في البحر.

وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمى أحدهما بكسير، وهو في غربها، ويسمى الأخر بعوير، وهو في شرقيها، وبهما ضُرب المثل فقيل: كسير وعوير، وكل غير خير.

ثم سافرنا إلى مدينة القطيف، وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة، يظهرون الرفض جهاراً لا يتّقون أحداً. ويقول مؤذنهم في آذانه بعد الشهادتين: أشهد أن عليًّا وليّ الله، ويزيد بعد الحيعلتين: حي على خير العمل. ويزيد بعد التكبير الأخير: محمد وعليّ خير البشر، من خالفهما فقد كفر.

مدينة هجر:

ثم سافرنا منها إلى مدينة هجر، وتسمى الآن بالحسا، وهي التي يُضرَب المثل بها فيقال: كجالب التمر إلى هجر. وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها، ومنه يعلفون دوابهم، وأهلها عرب، وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى.

مدينة اليمامة (حجر):

ثم سافرنا منها إلى مدينة اليمامة، وتسمى أيضاً بحجر، وهي مدينة حسنة خصبة، ذات أنهار وأشجار، يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة، وهي بلدهم قديماً وأميرهم طفيل بن غانم.

ثم سافرت منها في صحبة هذا الأمير برسم الحجّ، وذلك في سنة ثنتين وثلاثين[١].

---

(١) أي سنة ٧٣٢هـ.

ذكر الشجرة العجيبة الشأن التي بإزاء الجامع[1]:

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلا أنها ليّنة، وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صَلَّيتُ فيه ركعتين، واسم هذه الشجرة عندهم «درخت الشهادة».

وأخبرت هنالك أنه إذا كان الخريف من كل سنة تسقط هذه الشجرة ورقة واحدة، بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة، ويكون فيها مكتوباً بقلم القدرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها، وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفّار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجُعل نصفها في خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى.

وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جَدٌّ «كويل» الذي عمّر المسجد، فإنه كان يقرأ الخط العربي. فلما قرأها وفهم ما فيها، أسلمَ وحسُنَ إسلامُه، وحكايته عندهم متواترة.

وحدّثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى، وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها، فاقتُلعت ولم يُترَك لها أثر. ثم أنها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه. وهلك الكافر سريعاً.

---

(١) رحلة ابن بطوطة، مصدر سبق ذكره، ص ٣٧٥.

رابعاً: المعاجم الجغرافية

العرب أول من رتّب المعاجم الجغرافية، فهم في هذا المجال مبتكرون غير مقلّدين، ومبدعون غير مسبوقين. وكلمة المعجم ليست من وضع اللغويين وإنما أول من استخدمها على ما يبدو أبو يعلي أحمد بن المثني (٢١٠- ٣٠٧هـ) في كتابه «معجم الصحابة». وقد ذكر بطرس البستاني في «محيطه» ج ٢، ص ١٦٩، أن كلمة معجم اشتُقَّت من عجم الكتاب، أي نقطه، والهمزة للسلب، أي أزال عجمته وإبهامه بوضع النقط والحركات والإعراب.

تطوُّر المعاجم العربية ونظامها:

قبل أن نتعرّض لدراسة المعاجم الجغرافية ينبغي لنا أن نشير في عجالة تمهيدية إلى المعاجم اللغوية العربية لأن المعاجم الجغرافية امتداد للمعاجم اللغوية إلا أنها أولت أسماء الأماكن وتحديدها جلّ اهتمامها.

حينما انتشر الإسلام وعمّت دعوته دياراً فسيحة، خشي العرب على لغتهم، لغة القرآن، بسبب ظهور العجمة نتيجة اختلاط العرب بغيرهم. وبلغ اهتمام العرب بلغتهم ذروته في القرن الثاني الهجري حين أخذ بعض العلماء على عاتقهم تدوين مفردات اللغة. وارتحلوا في سبيل تحقيق هذا الهدف إلى البوادي حيث العربية الفصحى بمأمن من تيارات العجمة. ومن هؤلاء العلماء، الخليل بن أحمد الذي وضع فكرة المعجم العربي حوالي ١٧٥هـ. وكان الغرض من المعاجم العربية هو الحفاظ على ألفاظ اللغة وأساليبها وحمايتها من العجمة وصيانة رسمها الصحيح. وقد وضع الخليل «العين»[1] الذي حاول فيه حصر الألفاظ العربية على أساس تسعة وعشرين حرفاً، وعلى أساس بناء

(١) هناك آراء حول كتاب العين، إذ يرى بعض الباحثين أن الخليل لم يؤلف العين. وبعضهم يرى أنه صاحب الفكرة، ويرى فريق آخر أنه لم ينفرد بتأليفه، ولمزيد من التفاصيل يرجع إلى مقدمة كتاب العين، تحقيق عبد الله درويش، طبع المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٧١م.

الكلمة العربية بين الثنائي والخماسي. ورتّب الخليل بن أحمد كتاب «العين» على أساس مخارج الحروف إلى مجموعات صوتية، على النحو التالي: ع ح هـ غ خ - ق ك - ج ش ض - ص س ز - ط ت د - ظ ث ذ - ر ل ن - ف ب م - واي همزة.

إن ترتيب الخليل هذا اعتمد على أساس مخارج الحروف، فقدّم المجموعات الصوتية بحسب عمقها في الحلق، ثم تدرج حتى الحروف الشفهية، ثم حروف العلّة[1].

ولا شك أن البحث في كتاب العين يتطلّب أن يكون الباحث ذا حظ في المعرفة بالقواعد الصرفية والنحوية. وقد اتّبع طريقة الخليل بعض العلماء مثل ابن سيده في كتابه «المحكم» وابتكر ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ كتاب «التقفية»، والتقفية نظام أبجدي يبدأ بالحرف الأخير لمصدر الكلمة ثم الأحرف الأولى. وقد سار على هذا النظام «الجوهري» في كتابه «الصحاح» وابن منظور في «لسان العرب».

أهم المعاجم الجغرافية العربية

يُعدُّ البكري أول من اتّبع الترتيب الأبجدي الذي يبدأ بالحرفين الأولين من الكلمة، وذلك في معجمه (معجم ما استعجَم) والذي يُعدُّ أول معجم جغرافي خاصّ بأسماء المواضع. ولم يرتّب البكري معجمه وفق مخارج الحروف أو الأبنية والمصادر لأن اهتمامه كان مقصوراً على الأعلام الجغرافية.

---

(١) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تحقيق عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد سنة ١٩٧٦م، ص ٣٣.

١ ـ مُعجم ما استعجَم

كلمة عن البكري:

وُلد أبو عبيد عبد الله بن أبي مصعب عبد العزيز البكري في النصف الأول من القرن الخامس الهجري على الأرجح (بين ٤١٣- ٤٢٣هـ)[١] في «أَوْنَبه» التي كانت مقرّ أبيه، ثم انتقل إلى شَلْطِيش ثم إلى قرطبة. وهو من بيت يوصف بأنه بيت إمارة حيث تولّى البكريون إمارة جزيرة شلطيش Saltes وهي جزيرة تقع عند مصبّ نهو التنتو Tinto بعد التقائه بالأوديل Odiel وهي جزيرة صغيرة كان يسكنها نفرٌ من صيّادي الأسماك الذين يملّحون جزءاً من صيدهم ويصدّرونه إلى إشبيلية في بلاد الأندلس، وقد استمرّ حكم البكريين بشلطيش وما إليها إحدى وأربعين سنة هجرية. وقد تتلمذ أبو عبيد البكري على يد كبار العلماء في الأندلس في القرن الخامس الهجري مثل: أبو مروان بن حيّان، وأحمد بن عمر بن أنس العذري، وأبو عمر ابن عبد البر الحافظ[٢].

ولا تتوافر نصوص تعطينا فكرة تفصيلية عن حياة البكري التي أشار إليها حسين مؤنس بأنها صورة من مأساة العصر الذي عاش فيه، وقد صوّر البكري ذلك في بيتين من أشعاره[٣].

وما زال هذا الدهر يلحّن بالورى — فيرفع مجروراً ويخفض مبتدا
ومن لم يحط بالناس علماً فإنني — بلوتهم طراً مسوداً وسيدا

وقد أشار ابن أصيبعة بأن البكري كان موسوعياً في مادته العلمية فلم

---

(١) عبد الله يوسف الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، الكويت ١٩٧٤، رسالة ماجستير، ص ١٩.

(٢) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٦٧م، ص ١١٤.

(٣) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين، المرجع السابق، ص ١٠٩.

يقتصر على الأدب والجغرافيا، بل تعدّى ذلك إلى معرفة الأدوية... وقد ألّف كتاباً سمّاه «أعيان النباتات والشجيرات الأندلسية»[1] وقد ألّف البكري كتباً كثيرة في اللغة والأدب والجغرافيا والنبات نذكر من هذه الكتب: اشتقاق الأسماء، أعيان النباتات والشجيرات الأندلسية، معجم ما استعجم، المسالك والممالك. وكان البكري معنياً بكتبه يكتبها بالخط الجيد، ويجلّدها التجليد النفيس، وكان الملوك والرؤساء يتنافسون في اقتنائها، ويتهادونها في حياته[2].

وقد تضاربت الأقوال في السنة التي توفي فيها البكري بعضها يرى أنه توفي سنة ٤٨٧هـ وبعضها يرى أنه توفي سنة ٤٩٦هـ.

معجم البكري:

يخطىء من يظنّ أن «معجم ما استعجم» هو أول مؤلَّف عن البلدان، بل هناك كتب سابقة تناولت أسماء البلدان وضبطها، ولكن الجديد في معجم البكري أنه تناول تحديد المواضع والتعريف بها، وخصوصاً المواضع التي ورد ذكرها في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار، مما دفع بعض المستشرقين إلى القول بأنه ليس كتاباً في الجغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوي. وقد وصفه مصطفى السقا بأنه معجم لغوي جغرافي يصف جزيرة العرب، أخصّ مزاياه ضبط الأسماء[3].

والحق يُقال إن معجم البكري هو أول معجم جغرافي عربي، ويعدّه البعض مرحلة انتقالية بين اللغة والجغرافيا لأنه أول ما ألّف البكري في الجغرافيا. وهو معجم قليل الحشو والفضول، يقوم على الضبط وتصحيح الأسماء، ولذلك قلَّ تعرُّضه لكثير مما يتعرّض له الجغرافي المتخصص.

---

(١) عبد الله يوسف الغنيم، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢.

(٢) أبو عبيد، عبد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم، جـ ١، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، سنة ١٩٤٥ (المقدمة).

(٣) مصطفى السقا، مقدمة معحم ما استعجم، ص. د.

ولم يقتصر معجم ما استعجم على ذكر المواضع في الجزيرة العربية بل تناول ٤٤٢ موضعاً خارج الجزيرة العربية على النحو التالي:

٨٥ موضعاً في بلاد فارس وما وراء النهر، ١٥٢ موضعاً في العراق ١٦٨ موضعاً في مصر والشام، ٣٧موضعاً في الهند وبلاد الروم وأفريقيا وغيرها. وقد اعتمد البكري في معجمه على مصادر لغوية وأدبية من شعر وغيره، واعتمد على كتب الفقه والتاريخ كما اعتمد على الكتابات ذات الصبغة الجغرافية مثل كتاب «السكوني» الذي نقل عن عرام بن الأصبغ كما نقل عن الهمداني في أكثر من ثمانين موضعاً ذكر فيها كتاب الإكليل[١].

وأول من نشر معجم البكري المستشرق الألماني «وستنفلد ١٨٧٠ - ١٨٧٧م» في مجلّدين بجوتنجن بألمانيا، وقد وقع فيهما شيء من التحريف والتصحيف، وقد صدر بالقاهرة (١٩٤٥م - ١٩٥١م) في أربعة مجلدات قام بتحقيقها مصطفى السقا معتمداً على النسخ الموجودة في مكتبات مصر وطبعة وستنفلد[٢].

الأسباب التي دفعت البكري إلى وضع معجمه:

يذكر البكري أنه لما شاع التصحيف في أسماء المواضع بين الناس، ولما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس، أراد أن يفصح عنه بأن يذكر كل موضع، مبيّن البناء معجم الحروف حتى لا يُدرَك فيه لَبْس أو تحريف. ومن الأمثلة التي أوردها البكري في مقدمته عن الأسماء التي يحدث فيها تصحيف مادة ناعجة وباعجة، نخلة ونحلة وسَنَام وشِبامَ، وضرب أمثلة على ما وقع فيه الأصمعي وأبو عبيدة من تصحيف في أسماء المواضع. وقد ذكر معظم أصحاب المعاجم هذا الهدف وهو معالجة التصحيف كدافع لهم وكهدف في وضع معاجمهم. وذكر البكري أن معجمه ذكر فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار

---

(١) الغنيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧.

(٢) اعتمد السقا على ثلاث نسخ، اثنتين بدار الكتب، والثالثة نسخة بخزانة الأزهر.

والمياه والآبار والدارات منسوبة محدّدة ومبوّبة على حروف المعجم مقيّدة.

ومعجم البكري لا غنى عنه لكل من يدرسون تاريخ العرب القديم وجغرافية بلادهم وأشعارهم والأحاديث النبوية، لأنه اعتمد في تأليفه على ألوف من الأصول تُعتبر اليوم في حكم المفقودة إلى جانب كفاءة البكري اللغوية للقيام بالعمل العسير الذي اضطلع به[١].

ترتيب معجم البكري:

رتّب البكري معجمه وفق ترتيب حروف الهجاء العربية عند الأندلسيين. ويبدأ بالحرفين الأولين وإذا كان الحرف الثاني زائداً كألف فاضل، أهمله ولم ينظر إليه، واعتبر الحرف الثاني ما بعد الألف، ولا شك أن هذه طريقة تسبب للباحث في هذا المعجم مشقّة، فيضطرّ إلى تقليب صفحات المعجم التي تبدأ بحرف الكلمة التي يبحث عنها.

كما أن ترتيب الحروف عند الأندلسيين كان على هذا النحو:

أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ط، ظ، ك، ل، م، ن، ص، ض، ع، غ، ف، ق، س، ش، هـ، و، ي.

وبطبيعة الحال، يختلف هذا الترتيب عن الترتيب الذي يسود في البلاد العربية الشرقية. وعندما أصدر مصطفى السقا مجلداته الأربعة التي حقق فيها معجم ما استعجم، غيّر ترتيب البكري بحيث أصبح يتفق والأبجدية السائدة في الشرق. كما لم يقتصر في ترتيب المعجم على الحرفين الأولين، بل راعى في الترتيب بقية حروف الأسماء. ويبدو أن البكري هو أول من ابتكر الترتيب الأبجدي في المعاجم[٢]، ويدعم هذا الرأي تفصيل البكري وتفسيره لطريقة

---

(١) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٢) تذكر دائرة المعارف الإسلامية، نقلاً عن دائرة المعارف البريطانية، أن الهنود سبقوا إلى وضع معاجم ألفاظ للغة السنسكريتية مرتّبة ترتيباً أبجدياً، لكن هذا الرأي ليس له من دليل يؤيّده حتى الآن.

معجمه في مقدمته مما يشير إلى أن هذا النظام لم يكن معروفاً وإلا لما كانت هناك حاجة إلى التفصيل في شرح طريقة ترتيب معجمه. وجدير بالذكر أن أول معجم جغرافي بأوربا ظهر في القرن ١٦م، وهو معجم أورتليوس Ortelius. وقبل أن يتناول البكري ذكر المواضع المختلفة عرض دراسة لشبه الجزيرة العربية وأقسامها الجغرافية.

ويتألف معجم البكري من سبعمائة وأربعة وثمانين (٧٨٤) باباً وهو ما يجتمع من ضرب ثمانية وعشرين في مثلها، وتضمّنت هذه الأبواب ٣٥٩٠ مادة احتوت على ما يقرب من ٥٢٠٠ موضع[1].

وحينما نتتبّع منهج البكري في تحديد المواضع نجد أن أهم أغراضه هو المحافظة على النطق الصحيح، وذكر بناء الكلمة ووزنها، وذكر حروفها المهملة والمعجمة بواحدة أو أكثر من تحت أو من فوق، ويذكر اشتقاق الاسم إن عرف، وينسب كل قول إلى قائله، من اللغويين والأخباريين المشهورين.

ملاحظات على معجم البكري:

اعتمد البكري على النقل ولم يعتمد على الدراسة الميدانية، وقد ذكر في بعض مواضع من «معجمه» موضعاً ذكره ابن دريد ولم يحدّده. كما عمد أحياناً إلى نسبة بعض المواضع الواردة في الشعر إلى موطن قبيلة الشاعر.

وقد عدّد عبد الله الغنيم أمثلة من الهفوات التي وقع فيها البكري حينما تناول ظاهرات طبيعية وأسماء نباتات معروفة في جزيرة العرب، وعدّها أسماء مثل (الدحول)، وهي المغارات أو الحفر التي تنتج عن تسرُّب مياه الأمطار خلال الشقوق. قال البكري إنها ماء لبني العجلان، و(العنظوان)، وهو نبات معروف اعتبره البكري موضع في البادية، و(الدبا)، وهو صغار الجراد قبل أن يطير، ظنّه البكري اسماً لموضع. وقال موضع بظهر الحيرة معروف. ومع ما ذكره عبد الله الغنيم فقد تكون هناك أماكن اشتهرت بأسماء ظاهرات طبيعية وأسماء نباتات أيام البكري.

---

(١) الغنيم، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧.

ولجأ البكري أحياناً إلى نسبة بعض المواضع إلى أقاليم كبيرة كالحجاز أو نجد أو إلى قبيلة مما لا يفيد الجغرافيا كثيراً.

وذكر بعض القدماء أمثلة كثيرة من أخطاء البكري، ومن ذلك ما ذكره ابن دحية المتوفى ٦٢٣هـ من أن أبا الحكم علي بن محمد بن عبد الملك اللخمي قد استدرك على أبي عبيد البكري في معجم ما استعجم نحو أربعمائة موضع.

٢ ـ معجم البلدان

وضعه أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الجنس، الحموي البغدادي الدار، الملقّب بشهاب الدين. وتجمع الآراء على أن مولده كان عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م.

أُسِرَ من بلاده صغيراً، واشتراه تاجر من بغداد، ويُعرف بعسكر بن أبي نصر الحموي، وجعله في الكتاب حتى ينتفع به في حسابات تجارته، ويشير اسم ياقوت إلى أنه كان عبداً، لأن العادة قد جرت بتسمية الأرقّاء بأسماء الأحجار الكريمة، وقد حاول ياقوت أن يستبدل باسمه اسماً آخر مقارباً له في اللفظ، وهو يعقوب. لكن هذا الاسم الجديد لم يُكتَب له الذيوع[1]. وحينما كبُرَ ياقوت قرأ شيئاً من النحو واللغة، وسافر في التجارة إلى عمان والشام. وبسبب خلاف بينه وبني مولاه، اعتقه سنة ٥٩٦هـ، وكان ياقوت في إحدى رحلاته قد علم بوفاة سيّده واعتاقه له، فاشتغل بالنسخ بالأجرة، وقرأ كثيراً من كتب الخوارج حتى تعصّب على عليٍّ بن أبي طالب. وفي دمشق، في مناظرة له مع بعض من يتعصّب لعليّ، ذكر عليًّا بما لا يسوغ، فثار الناس عليه وكادوا يقتلونه، إلا أنه تمكن من الهرب إلى حلب، ثم خرج منها إلى الموصل فخراسان حيث أقام بها، ثم سافر إلى خوارزم، إلى أن أغار عليها جنكيزخان سنة ٦١٦هـ ففرّ إلى الموصل ومنها إلى حلب حيث مات بها سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م.

---

(١) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ٣٣٨.

وضع ياقوت معجم البلدان وقال في مقدّمته أما بعد، فهذا كتاب في أسماء البلدان، والجبال، والأودية، والقيعان، والقرى، والمحال، والأوطان، والبحار، والأنهار، والغدران، والأصنام،... رأيت التصدّي له واجباً، والانتداب له مع القدرة عليه فرضاً لازباً (لازماً).

يذكر ياقوت أن من أول البواعث لجمع معجمه أنه سُئل بمرو الشاهجان في سنة ٦١٥هـ عن حُباشه، اسم موضع جاء في الحديث النبوي، وهو سوق من أسواق العرب في الجاهلية فقلت: (أرى أن حباشه ـ بضمّ الحاء ـ قياساً على أصل هذه اللفظة في اللغة، لأن الحباشة الجماعة من الناس من قبائل شتى. فانبرى لي رجل من المحدثين وقال: إنما هو حَباشه ـ بفتح الحاء ـ وصمّم على ذلك وكابر وجاهر بالعناد من غير حجّة، فأردت قطع الاحتجاج بالنقل إذ لا معول في هذا على اشتقاق ولا عقل، فاستعصى كشفه في كتب غرائب الأحاديث ودواوين اللغات مع سعة الكتب التي كانت بمرو يومئذٍ. فلم أظفر إلا بعد انقضاء ذلك الشغب والمراء... فألقى في رُوعي افتقار العالم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطاً، ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً وإلى ضوء الصواب داعياً)[1].

وذكر ياقوت أن معظم الكتب تهمل ذكر أسماء البقاع وتحرّفها، مما دفعه إلى الكتابة في هذا الموضوع. والواقع أن معجم ياقوت فاق بكثير مجرّد ضبط أسماء وتصحيح الألفاظ حيث اشتمل على كثير من جوانب الفكر الجغرافي وفروعه، كما اشتمل على كثير من الإشارات الدينية والشواهد الشعرية التي يقرب عددها من الخمسة آلاف[2].

ما يراه ياقوت من اهمية معجمه:

يرى ياقوت أن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها أمل لا يستغنى عنه أولو البصائر.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٥٥، ص ١٠.

(٢) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ٣٣٥.

فالفقهاء والأمراء والأئمة في حاجة إلى معرفة الأماكن لأن من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين، ومعالم للصحابة والتابعين ومشاهد للأولياء والصالحين ومواطن غزوات سرايا سيّد المرسلين.

وحاجة أهل السِّيَر والأخبار والحديث والتواريخ والآثار إلى معرفة أسماء الأماكن حاجة عظيمة لأنه قلَّ أن تخلو من ذكرها صفحة بل سطر من كتبهم.

وأما أهل الحكمة والتفهيم والتطبيب والتنجيم، فلا تقتصر حاجتهم إلى معرفته عمّن قدّمناه فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها والمنجم للاطلاع بطوالعها، ولا يقضون لها وعليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها... وصارت حاجتهم إلى ضبطها ضرورية. ولذلك صنف كثير من القدماء كتباً سمُّوها جغرافيا ومعناها صورة الأرض، وألّف آخرون كتب أمزجة البلدان وأهوائها نحو جالينوس وقبله بقراط وغيرهما، وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم إليها، لأنها من ضوابط اللغوي ولوازمه وشواهد النحو ودعائمه، ويعتمد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها.

مصادر الحموي في كتابة معجمه:

اعتمد الحموي على كثير من تصنيفات المتقدمين في أسماء الأماكن سواء أكانت مدناً معمورة أم بلداناً مسكونة مشهورة أم كانت بوادي وقفارا، فالذين ذكروا العمران منهم القدماء والفلاسفة والحكماء أمثال أفلاطون وفيثاغورس وبطليموس، وغيرهم كثير من هذه الطبقة. وقد وقفت لهم منها على تصانيف عدّة جَهِلت أكثر الأماكن التي ذُكرت فيها وأُبهم علينا أمرها. وطبقة أخرى إسلاميون سلكوا قريباً من طريقه أولئك من ذكر البلاد والممالك وعيّنوا مسافة الطرق والمسالك وهم: ابن خرداذبه وأحمد بن واضح، والجيهاني، وابن الفقيه، وأبو زيد البلخي، وأبو إسحاق الاصطخري، وابن حَوقل، وأبو عبد الله البَشَّاري، والحسن بن محمد المهلَّبي، وابن عون البغدادي، وأبو عبيد البكري.

وأما الذين قصدوا ذكر الأماكن العربية والمنازل البدوية فطبقة أهل

الأدب، وهم: أبو سعيد الأصمعي، وأبو عبيد السكوني، والحسن بن أحمد الهمداني له كتاب جزيرة العرب، وأبو سعيد السيرافي، بلغني أن له كتاباً في جزيرة العرب، وأبو محمد الأسود الغُنْدِجاني له كتاب في مياه العرب.. وهشام محمد الكلبي له كتاب سمّاه اشتقاق البلدان.. وأبو عبيد البكري الأندلسي له كتاب سمّاه معجم ما استعجم من أسماء البقاع لم أره بعد البحث عنه، وأبو بكر محمد بن موسى الحازمي له كتاب «فيما ائتلف واختلف من أسماء البقاع».. ثم اطلع الحموي على مختصر اختصره الحافظ أبو موسى محمد بن عمر الأصفهاني من كتاب ألّفه أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الاسكندري «فيما ائتلف واختلف من أسماء البقاع» فوجده على حدّ قوله تأليف رجل ضابط أنفد في تحصيله عمراً، وأحسن فيه عيناً وأثراً، ووجدت الحازمي - رحمه الله - قد اختلسه وادعاه[1].

هذه أهم الكتب المدوّنة التي نقل عنها الحموي ثم نقل من دواوين العرب، والمحدثين وتواريخ أهل الأدب ومن أفواه الرواة وتفاريق الكتب وما شاهده في أسفاره وحصّله في تطوافه. وكثير من أسماء البقاع والأماكن مصحفة مغيّرة قد مسخها من نسخها وذلك في كتب العمران، وأما ما ذكر من أسماء الأماكن العربية والمنازل البدوية فإنها وإن وجدت لها أصول مضبوطة فإنها غير مرتّبة، ولشفاء العليل غير مسبّبة، لشدّة الاختصار وعدم الضبط والانتشار، لأن مقصدهم فيها تصحيح الألفاظ لا الإبانة عما عدا ذلك من الأغراض.

منهج الحموي في معجمه:

يقول الحموي فاستخرت الله تعالى وجمعت ما شتّتوه، وأضفت إليه ما أهملوه ورتّبته على حروف المعجم ووضعته وضع اللغة المحكم، وأبنت عن كل حرف من الاسم، وهل هو ساكن أو مفتوح أو مضموم أو مكسور. ثم أذكر اشتقاقه إن كان عربياً ومعناه أن أحطت به علماً إن كان عجمياً، وفي

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١١.

أي إقليم، ومن بناه وأي بلد من المشهورات يجاوره، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه، وبماذا اختص من الخصائص، وما ذكر فيه من العجائب؛ وبعض من دفن فيه من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين ونبدأ مما قيل فيه من الأشعار في الحنين إلى الأوطان الشاهدة على صحة ضبطه والإتقان، وفي أي زمان فتحه المسلمون وكيف ذلك.

على أنه ليس هذا الشرط بمطاوع لنا في جميع ما نورده ولا ممكن في قدرة أحد غيرنا، وإنما يجيء على هذه البلدان المشهورة والأمهات المعمور[1].

واستقصيت تلك الفوائد جلّها أو كلّها.. حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول، وتنفر عنها طباع من له محصول لبعدها عن العادات المألوفة وتنافرها عن المشاهدات المعروفة، وأنا مرتاب بها، نافر عنها، متبرىء إلى قارئها من صحتها لأنني كتبتها حرصاً على الفوائد، فأما من يروي ما سمع كما سمع فهو من الصادقين والعهدة على من رواه عنه[2].

رأي الحموي في معجمه:

يقول الحموي: وعلى ذلك فإنني أقول ولا أحتشم، وأدعو إلى النزال كل عَلَم في العلم ولا أنهزم، إن كتابي هذا أوحد في بابه، مؤمر على أضرابه، لا يقوم بإبراز مثله إلا من أُيِّدَ بالتوفيق، ورَكِب في طلب فوائده كل طريق، فغار تارة وأنجَدَ، وطوّح لأجله بنفسه فأبعد، وتفرّغ له في عصر الشبيبة وحرارته، وساعد العمر في امتداده وكفايته. ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مراراً فأبيت... ثم اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلقٍ سَوِي، فقطع أطرافه فتركه أشلّ اليدين، أبتر الرجلين، أعمى العينين، أصلَم الأذنين، أو كمن سلب امرأة حليّها فتركها عاطلاً[3].

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ص ١٢.

(٢) الحموي، المصدر السابق، ص ص ١٢- ١٣.

(٣) المصدر السابق، ص ص ١٣- ١٤.

أبواب المعجم وترتيبه:

جعل الحموي في مقدمة كتابه خمسة أبواب وجدها ضرورية حتى يتمّ بها فضل الكتاب:

الباب الأول: في ذكر صورة الأرض وهيئتها.

الباب الثاني: في ذكر الأقاليم السبعة واشتقاقها والاختلاف في كيفيتها.

الباب الثالث: في تفسير الألفاظ التي يتكرر ذكرها في المعجم، كالبريد والفرسخ والميل والكورة.

الباب الرابع: في بيان حكم الأرضين والأراضي المفتتحة في الإِسلام وحكم قسمة الفيىء والـخَراج فيما فُتح صلحاً أو عنوة.

الباب الخامس: في جُمَل من أخبار البلدان التي لا يختص ذكرها بموضوع دون موضوع. ثم قسّم المعجم إلى ٢٨ كتاباً على عدد حروف المعجم، ثم قسّم كتاب إلى ٢٨ باباً للحرف الثاني للأول.

والتزم ترتيب كل كلمة منه على أول حرف وثانيه وثالثه ورابعه، والغرض من هذا الترتيب تسهيل طريق الفائدة من غير مشقّة. ويحاول ياقوت تفسير كثير من الأسماء من حيث أصولها واشتقاقها، ويحدّد ياقوت أطوال وعروض الأماكن، ويتطرّق لنشأة الأماكن ودورها التاريخي وأسماء البارزين من أعلامها، ويتعرّض لعادات وأخلاق السكان والعجائب التي قد توجد في هذه الأماكن.

ويذكر كراتشكوفسكي أن فرين Frahn هو أول من كتب عن ياقوت من المستشرقين، ونقل عن معجمه القطعة المشهورة لابن فضلان[١]. وقد قام فستنفلد في الفترة ما بين عامي ١٨٦٦م - ١٨٧٣م بطبع المعجم في ستة أجزاء، فأدّى بذلك خدمة جليلة تُحمَد للمستشرقين، مما جذب كثيراً من الأنظار لدراسة ياقوت، فكُتبت عنه مقالات كثيرة ودراسات عديدة تناولت

(١) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ٣٣٦.

المادة الجغرافية التي جمعها ياقوت بحسب الأقطار والبلدان، وبحسب العصور المختلفة. وربما لم يتمتّع جغرافي عربي بمثل ما أفرد لياقوت الحموي من دراسات[1].

وقد توفي ياقوت الحموي ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م، وكان قد أوصى بوقف كتبه على أحد مساجد بغداد، وعهد بتنفيذ وصيّته لصديقه ابن الأثير المؤرخ الشهير.

٣ ـ تقويم البلدان لأبي الفداء

أبو الفداء، هو عماد الدين إسماعيل بن نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن أيوب، ويوصف بالسلطان الملك المؤيد. وهو كما يدلّ اسمه، ينتسب إلى أُسرة عريقة تولّت زمام الحكم في الشرق وهي أسرة الأيوبيين، إذ إن أبا الفداء هو ابن أخي صلاح الدين الأيوبي قاهر الصليبيين.

وُلد أبو الفداء في دمشق في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م. وقد اشتهر في الشرق باسم عماد الدين والملك السلطان المؤيد، أما في أوساط الاستشراق الأوربية فقد عُرف باسم أبي الفداء.

وقد اتّصف بالشجاعة والروح العسكرية، وقد نمت شخصيته الأدبية والثقافية جنباً إلى جنب مع تدريبه العسكري. ولقد اصطحبه أبوه في بعض معاركه العسكرية وهو لم يزل بعد صغيراً، إنه يذكر أن أباه اصطحبه وهو في الثانية عشرة لتطهير قلعة المرقب من الصليبيين، كما شارك وهو في السادسة عشرة من عمره، في إخراج الصليبيين من طرابلس، وقد ولّي الإمارة في حماة مرتين، كانت الثانية منها سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، حينما مكّنه من ذلك السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان مصر، على أن اشتراك أبي الفدا في الحروب ضد الصليبيين وإمارته لم يحولا دون اشتغاله بالتأليف في التاريخ والجغرافيا.

---

(١) كراتشكوفسكي، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٧.

وقد توفي أبو الفداء في ٧٣٢هـ (أكتوبر سنة ١٣٣١م)، ودُفن في مقبرة بناها بنفسه قبل وفاته بأربعة أعوام في مدينة حماة قرب المسجد المعروف «بمسجد الحيايا»[١] ولا تزال مقبرة أبي الفداء قائمة حتى أيامنا هذه[٢]. اشتغل أبو الفداء بكثير من العلوم والمعارف والأدب مثل الشعر، والطب، والنبات، والتاريخ والجغرافيا. ويمكن القول بأن «تقويم البلدان» هو حجر الزاوية في شهرة أبي الفداء العلمية.

تقويم البلدان:

إن تقويم البلدان من أوائل الكتب التي تُرجمت إلى لغات أجنبية، وقد أورد ذكره لأول مرة سنة ١٥٦١م المستشرق الفرنسي بوستل Postell[٣].

اختار أبو الفداء عنوان مصنّفه «تقويم البلدان» مقتبساً إياه من يحيى ابن جزله (توفي سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠م) الذي وضع كتاباً في الطب أسماه «تقويم الأبدان» وزّع الأمراض فيه على هيئة جداول. وانتهى أبو الفداء من وضع كتابه سنة ١٣٢١م. ذكر أبو الفداء أن أهم دافع له على تأليف مصنّفه تقويم البلدان، هو أنه لم يجد كتاباً موفياً في البلاد ونواحي الأرض، وتناول أبو الفداء الكتب السابقة وقسّمها من حيث خصائها ومسالبها إلى:

١ - كتب مطوّلة لم تضبط الأسماء ولم تذكر الأطوال ولا العروض، ومن هذه الكتب: كتاب ابن حوقل، وكتاب الشريف الإدريسي، وكتاب ابن خرداذبه. فكل هذه الكتب لم تتعرّض إلى تحقيق الأسماء.

٢ - كتب الزيجات والكتب المؤلفة في الأطوال والعروض لم تحقق الأسماء ولم تذكر صفات المدن.

(١) أي مسجد الأناعي، كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٣٩١.
(٢) عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، سنة ١٩٨٠، ص ٤٣١.
(٣) كراتشكوفسكي، جـ ١، مرجع سبق ذكره، ص ٣٩٦.

٣ ـ الكتب المؤلفة في تصحيح الأسماء وضبطها، مثل كتاب الأنساب للسمعاني، والمشترك لياقوت الحموي، وغيرها. وهذه الكتب اشتملت على ضبط الأسماء وتحقيقها، ولكنها لم تتعرّض إلى الأطوال والعروض[١].

ولما كانت الكتب المؤلفة في وصف البلاد لم تفِ بالغرض الذي يراه أبو الفداء، وهو ضبط الأسماء والعروض، حتى يعرف سمتها وموقعها ويعرف الشرقي منها والغربي والشمالي والجنوبي، كما أن جميع الكتب المؤلفة في هذا الفن لم تشتمل إلا على القليل وأهملت ذكر كثير من أسماء المدن وأحوال البلاد، وعلى سبيل المثال، فإن إقليم الصين مع عظمته وكثرة مدنه لم يذكر من أخباره إلا شيئ قليل نادر وهو مع ذلك غير محقق، وكذلك بلاد البلغار وبلاد الجركس وبلاد الروس وغيرها. ويرى أبو الفداء أن غالب كتب المسالك والممالك إنما حقّقت بلاد الإسلام، ومع ذلك لم تحصها عن آخرها.

وقد قام أبو الفداء بجمع ما تفرّق في كتب عديدة مثل: الأقاليم للاصطخري، وصورة الأرض لابن حوقل، ونزهة المشتاق للإدريسي، ومعجم البلدان لياقوت الحموي وغيرها. وإلى جانب اعتماد أبي الفداء على النقل من الكتب، اعتمد كذلك على قصص التجار والرحّالة. ولم يقم أبو الفداء برحلات كبيرة على الرغم من أنه كان معاصراً للرحّالة المشهور «ماركو بولو Marco Polo» (١٢٥٦ - ١٣٢٣م) ولم يزر غير الشام ومصر التي زارها مراراً، والجزيرة العربية وفلسطين وشرقي آسيا الصغرى وشمالي العراق[٢].

ويمكن تقسيم «تقويم البلدان» إلى قسمين غير متساويين، الأول منهما في الجغرافيا الفلكية، أو مقدمة في الكوزموغرافيا، وهذا القسم من الكتاب أقلّ طولاً من القسم الثاني.

---

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، طبعة باريس، سنة ١٨٤٠، ص ص ٢، ٣.
(٢) أعلام الجغرافيين العرب، مرجع سبق ذكره، ص ٤٣٢، كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ص ٣٩١، ٣٩٢.

واشتمل القسم الأول من الكتاب على ما يجب معرفته من ذكر الأرض والأقاليم السبعة والبحار، وذلك قبل ذكر البلاد في الجداول.

وقد أورد أبو الفداء بعض الأدلّة التي تثبت كروية الأرض منها: تقدّم طلوع الكواكب وتقدّم غروبها للمشرقين على طلوعها وغروبها للمغتربين.. وارتفاع القطب والكواكب الجنوبية وانحطاط الشمالية للواغلين في الجنوب. وأما تضاريسها التي تلزمها من جهة الجبال والأغوار، فإنه لا يخرجها عن أصل الاستدارة، ولا نسبة لها محسوسة إلى جملة الأرض، فإنه قد تبرهن في علم الهيئة أن جبلاً يرتفع نصف فرسخ يكون عند جملة الأرض كخمس سبع عرض شعيرة عند كرة قطرها ذراع.. وقد ذكر أبو الفداء أنه لو كان السير على جميع الأرض ممكناً، ثم فرض تفرق ثلاثة أشخاص من موضع بعينه فسار أحدهم نحو المغرب والثاني نحو المشرق، وأقام الثالث حتى دارَ السائران دوراً من الأرض، ورجع السائر في الغرب إليه من جهة الشرق والسائر في الشرق من جهة الغرب نقص من الأيام التي عدُّوها جميعاً للمغربي واحد وزاد للمشرقي(١).

ويتناول أبو الفداء في القسم الأول من الكتاب، خط الاستواء، وصفة المعمور بالإجمال، وتحقيق أمر المساحة، ثم يتطرّق إلى وحدات القياس من ذراع وميل وفرسخ، ويتحدّث بعد ذلك عن البحار والبحيرات والأنهار والجبال.

أما القسم الثاني من الكتاب، فهو ينقسم إلى ثمانية وعشرين قسماً على هيئة جداول، بدأ فيها بذكر جزيرة العرب ثم ديار مصر والمغرب، والسودان، وجزيرة الأندلس، وجزائر بحر الروم والمحيط الغربي، ثم تحدث عن الجانب الشمالي من الأرض (بلاد الفرنجة والترك)، ثم بلاد الشام فأرض الجزيرة والعراق، وخوزستان وبلاد فارس وكرمان وسجستان والسند والهند والصين، وذكر جزائر بحر المشرق وبلاد الروم وأرمينيا وأران وأذربيجان

---

(١) أبو الفداء، كتاب تقويم البلدان، مدينة باريس، سنة ١٨٤٠، ص ٣.

والعراق العجمي، والديلم وطبرستان وخراسان وزابلستان والغور وطخارستان وخوارزم وبلاد ما وراء النهر. ويختلف هذا الترتيب اختلافاً طفيفاً وفقاً للمخطوطات المختلفة، كما أن أبا الفداء كان يُدخِل التعديلات والإضافات باستمرار على كتابه تقويم البلدان.

ومن يتتبّع ترتيب أبي الفداء يشعر ببصمات واضحة تثبت أنه تأثر بالاصطخري وابن حوقل من حيث أنه أفرد تقسيمات كثيرة لبلاد فارس.

وترد المادة الجغرافية الجدولية مرتّبة على النحو التالي:

سطر العدد، الأسماء: أي اسم المدينة، أسماء المنقول عنهم (مصدر المعلومات)، ثم تحديد الطول بالدرج والدقائق، ويعتمد في التحديد على استخدام حروف الجُمَّل ثم تحديد العرض بالدرجة والدقائق، وذكر الإقليم الحقيقي (أي موضع المدينة من الأقاليم السبعة) ثم الإقليم العرفي (أي ما تعارف عليه الناس) ثم ضبط الأسماء بالحركات كأن يقول في «قفط» بكسر القاف وسكون الفاء، وفي الآخر طاء مهملة.

وبعد عرض المادة «الجدولية» يبدأ في ذكر الأوصاف والأخبار، ويهتمّ بصفة خاصة بتحديد الموقع الجغرافي العام، وبذلك يعطي الصورة الواضحة للموقع الجغرافي، فهو وإن كان قد تناول تحديد الموقع الفلكي في جدوله، فإنه لا ينسى أن يتناول في الأوصاف والأخبار العامة، الموقع الجغرافي بالنسبة للظواهر الجغرافية المهمة.

ومن طريقة العرض التي اتّبعها أبو الفداء في تقويم البلدان نخرج بالآتي:

١ ـ اعتمد أبو الفداء في تقسيمه على الأقاليم الجغرافية المتعارف عليها، أو المناطق الجغرافية، إلا أنه لم يهمل انتساب هذه المناطق الجغرافية إلى الأقاليم الفلكية السبعة، ولست مع كراتشكوفسكي في ادّعائه بأن أبا الفداء طرح جانباً التقسيم إلى أقاليم فلكية[١]. بل إن أبا الفداء يذكر الإقليم الفلكي تحت عنوان «الإقليم الحقيقي».

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٣٩٢.

٢ ـ رتّب أبو الفداء المادة الجغرافية ترتيباً جدولياً منظّماً، وإن كان يُعدُّ أوّل من اتّبع نمط ترتيب المادة الجغرافية في جداول، إلا أنه اقتبس هذه الفكرة من كتب الزيجات وكتاب تقويم الأبدان. وقد ذكر ذلك صراحة في مقدمة كتابه حيث يقول: (وحذَونا حَذوَ ابن جزله في كتابه تقويم الأبدان في الطب)[1].

٣ ـ اهتمّ أبو الفداء بالجغرافية الوصفية، وتناولها تحت عنوان: الأوصاف والأخبار العامة، إلا أنه لم يهمل الجغرافية الرياضية، واعتمد في ذلك على كتاب القانون للبيروني.

٤ ـ لم يسلم أبو الفداء من الأخطاء التي انتقد فيها سابقيه، إذ إنه اهتم كثيراً ببلاد الشام والبلاد المجاورة التي زارها حيث توافرت له مادة جغرافية وفيرة عن طريق الرحلات والمعايشة، أما الأقطار الأخرى مثل أوربا، وخصوصاً الشمالية والغربية، فلم يهتم بها أو لم تتوفّر له المادة العلمية أو الوصفية الكافية، ولم يذكر أبو الفداء عنها «إلا القليل النادر» وهي نفس العبارة التي وصف بها كتب المسالك والممالك.

٥ ـ وقع أبو الفداء في كثير من الأخطاء التي تسرّبت إليه عن طريق النقل، ومن ذلك أنه ينسب البيروني إلى مدينة هندية، كما أن ما ذكره عن الصين لا يسلم من الأخطاء والتناقض.

القيمة العلمية لكتاب تقويم البلدان:

إن كتاب تقويم البلدان، مختصر جامع لما تفرّق في الكتب الجغرافية التي اطّلع عليها أبو الفداء، وقد ذكر أبو الفداء ذلك بتواضع وصراحة وقال: من غير أن ندّعي الإحاطة بجميع البلاد أو بغالبها، فإن ذلك أمر لا مطمع في الإحاطة به[2].

---

(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢.

ويتميّز «تقويم البلدان» بالوضوح والاكتمال والإسهام الأصيل في تنظيم التبويب الجغرافي الجدولي. وهو من أول الكتب الجغرافية التي تُرجمت عن العربية إلى لغات أخرى، ونال شهرة واسعة في أوربا، وقال عنه رينو Reinaud المستشرق الفرنسي: (إن العصور الوسطى الأوربية لم تعرف كتاباً يمكن مقارنته به)[1].

٤ ـ معجم الروض المعطار في خبر الأقطار

كلمة عن مؤلف الروض المعطار:

هو محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري، يكنّى أبا عبد الله، وعُرف بابن عبد المنعم من أهل سبته. تميّز بالصدق وكان طيّب اللهجة، تامّ الرجولة، صالحاً عابداً، لم يستظهر أحد في زمانه من اللغة ما استظهره، وكان يسرد كتاب سيبويه بلفظه، اختبره الفاسيون في ذلك غير ما مرّة، واهتمّ بالعلوم العقلية مع الملازمة للسنة، وكان بارعاً في الشطرنج، يعرب أبداً كلامه ويزنه[2].

وقد تعلّم وأخذ عن الأستاذ ابن إسحق الغافقي، ولازمَ أبا القاسم ابن الشاط، وقد أهمل ابن الخطيب ذكر اشتغال محمد بن عبد المنعم الحميري بالجغرافيا لأن الناس كانوا لا يرون كتب الجغرافيا والفلسفة وغيرها من الأعمال التي تستحق الذكر بين أعمال العلماء[3].

وقد نسب المقرّي صاحب «نفح الطيب» الحميري إلى الأندلس، ويرجع ذلك إلى أن سبته كانت في بعض السنوات التي عاشها مؤلّف الروض المعطار جزءاً من الأندلس. وتوجد مسودّتان للروض المعطار تحملان نفس الاسم تقريباً

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٣٩٠.

(٢) الحميري، الروض المعطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥، المقدّمة، ص ب.

(٣) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين بالأندلس، مدريد، سنة ١٣٨٦هـ، ص ٥٣٢.

إحداهما ترجع إلى نهاية القرن التاسع الهجري (١٥م) والأخرى تؤكد وفاة الحميري كما ذكر حاجي خليفة سنة ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م وقد دفع ذلك المستشرق الفرنسي ليفي برونفسال Provencal إلى القول بأنه توجد مسودّتان للمعجم ترجعان إلى شخصين مختلفين من نفس الأسرة وتتلو إحداهما الأخرى من الناحية الزمنية[1].

كتاب الروض المعطار:

هو عبارة عن معجم جغرافي مرتّب على الحروف، ليسهّل على الطالب كشف اسم الموضع الذي يريده، وقد اقتصر على الأماكن ذات الشهرة، أو التي اتّصلت بقصة أو حكمة أو خبر طريف فهو على ذلك معجم جغرافي يصف الأقطار ويذكر ما وقع بها من أحداث.

وتميّز معجم الروض المعطار بترتيبه على حسب ترتيب الأبجدية المشرقية، وأشار الحميري في مقدمة «الروض المعطار» إلى أنّ معجمه موجز مختصر، وأنه فريد ومليح في فنّه، ولامَ نفسه على أنه اشتغل في وضع هذا المعجم فانصرف عن علوم الدين، ثم برّر اشتغاله في هذا المعجم بأمور منها أنه اقتدى بطائفة من أهل التحصيل. ويختم الحميري مقدمة معجمه بطلب المغفرة من الله، ويمكن استخلاص هذه المعاني من النص التالي الذي ذكره الحميري في مقدمة «الروض المعطار»: (وجعلت الإيجاز في هذا الكتاب قصدي، وحرصت على الاختصار جهدي، حتى جاء نسيج وحده مليحاً في فنّه، غريباً في معناه، مبهجاً للنفوس المتشوّقة، مذهباً للأفكار المؤرقة، مؤنساً لمن استولى عليه الأفراد ورغب عن معاشرة الناس، ومع هذا فقد لمتُ نفسي عن التشاغل بهذا الوضع الصادّ عن الاشتغال بما لا يغني عن أمر الآخرة، والمهم من العلم المزلف عند الله تعالى، وقلت هذا من شغل البطّالين[2] وشغل من لا يهمه وقته، ثم رأيت ذلك من قبيل ما قيل فيه (روحوا هذه النفوس) ومن جنس

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٤٤٧.

(٢) وردت في نسخة بروفنسال (من شأن).

تعليلها بالمباح المنشّط إلى ما هي به أعني، ثم هو مهيع سلكه الناس واعتنى به طائفة من العلماء، وقيّده جماعة من أهل التحصيل، فلا حرج من الاقتداء بهم، بل أقول أعوذ بالله من علم لا ينفع، وأستغفره وأسأله التجاوز عن الهفوات والصفح عن الاشتغال بما لا يفيد في الآخرة، فيا ربّ عفواً عن اقتراف ما لا رضى لك فيه، فأنت على كل شيء قدير).

مصادر الحميري:

وردت في المتن أسماء ١٤٠ كتاباً، وقد نقل الحميري في كثير من مواضع معجمه عن الإدريسي والبكري، وكتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، الذي لا يعرف مؤلفه، وعن كتاب البلدان لليعقوبي. وأحياناً لا يذكر الحميري المصدر الذي نقل عنه فيقول «قالوا»، ورغم تقليله من شأن كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، حيث لم يذكر إلا في صفحة واحدة[1]، إلا أنه اعتمد عليه اعتماداً كبيراً ونقل عنه الجزء المتعلق بالحديث عن اسبانيا بأكمله، وعموماً فكان اعتماده كبيراً على المصادر المغربية التي تعدّ المصدر الرئيسي لما في المعجم من معلومات جغرافية. أما المعلومات التاريخية، فلم يقتصر فيها على المصادر المغربية، بل اعتمد على كثير من المصادر مثل سيرة ابن اسحاق «ذكر في ١٣صفحة»، وتاريخ الطبري، وكتاب فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي البصري، ومروج الذهب، والتنبيه والإشراف، وأخبار الزمان، للمسعودي.

وقد اعتمد القلقشندي في كتابه صبح الأعشى على الروض المعطار، ويعدّ القلقشندي أول من اعتمد على الروض المعطار. ومما يدعو للدهشة أنه اعتمد على الروض المعطار فيما يتعلق بالبلاد الشامية وبلاد الجزيرة العربية ومصر، ولم يعتمد عليه مثل هذا الاعتماد عند ذكر بلاد المغرب، وربما يرجع ذلك إلى أن القلقشندي اعتقد بأن الحميري مشرقيّ من صنهاجه، مع أن نسبة الصنهاجي لا توجد في مخطوطات الروض المعطار. وقد يرجع اعتماد القلقشندي عليه لتوافر نسخ المخطوط، وسهولة الحصول عليها ولما فيها من

(١) ذكر في ص ٤٩ من طبعة، إحسان عباس.

الترتيب المعجمي الذي يسهّل الحصول على المعلومات الجغرافية عن البلاد بصورة لا تتيسّر في كتب الأقاليم.

أهم خصائص كتاب الروض المعطار:

١ ـ الاهتمام ببلاد الأندلس والمغرب بصفة خاصة ويتضح ذلك مما أورده ليفي بروفنسال حيث أحصى مواد حرف الألف فكانت على النحو التالي:

الأندلس ٣٤ مادة، المغرب ٣٢ مادة، جزيرة العرب والعراق ٣٣ مادة، الشام ١٧ مادة، مصر ٧ مواد.

٢ ـ رتّب معجم الروض المعطار ترتيباً أبجدياً وفق الأبجدية المشرقية.

٣ ـ لم يقتصر على المدن والأقطار بل تناول ذكر البحار والمحيطات.

٤ ـ أهمل في كثير من المواضع ذكر المراجع، ولم يصرّح بها، ويعدّ ذلك عيباً كبيراً في هذا المعجم حيث يعمد إلى استخدام عبارات عامة مثل (قالوا) كما في ص ١٦، وفي بعض الأخبار ، وفي خبر (قال بعضهم)، و (قيل) كما في ص ١٧.

٥ ـ قلّل الروض المعطار من شأن «نزهة المشتاق» حيث ذكر الحميري: ثم إني قسته (أي كتاب الروض المعطار) بالكتاب الأجاري (نزهة المشتاق) فوجدته أعظم فائدة وأكثر أخباراً وأوسع في فنون التواريخ وصنوف الأحداث مجالاً حتى في وصف البلاد[1]. وحينما نتتبّع الروض المعطار نجد أنه نقل أكثر من ثلث مادة «نزهة المشتاق»[2].

٦ ـ يرى الحميري أن وصف البلاد لا يكتمل إلا إذا أُضيف إليه سرد الأخبار والوقائع المختلفة أي اكتمال «ذكر الأقطار والجهات» مع الأخبار والوقائع. وقد انتقد الحميري كتاب الإدريسي لأنه لم يذكر الأحداث ولا يستكثر من التاريخ والأخبار.

---

(١) إحسان عباس، المصدر السابق، ص ١.

(٢) حسين مؤنس، مرجع سبق ذكره، ص ٥٣٨.

٧ ـ اشتمل المعجم على مواد علمية مختلفة حيث ورد ذكر زراعة الحبوب في ٨مواضع، والفواكه والأشجار في ٢٦ موضعاً، والكروم في ١٢ موضعاً، والزيتون في ١٢ موضعاً، وتحدّث عن الري وتربية النحل ومصائد الأسماك، وتحدّث عن التعدين ومواد البناء ودور الصناعة والصناعات البحرية، وتحدّث عن المدن وأصول أسمائها في ٩ مواضع، والمواقع الأثرية في ٢٣ موضعاً والأسوار القديمة والقلاع والقناطر والمساجد والكنائس والأسواق «٣١ سوقاً».

٨ ـ استشهد الحميري بكثير من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية الشريفة، واعتمد على كثير من الكتب الدينية مثل الصحيحين للبخاري ومسلم، وسِيَر ابن إسحق (ابن هشام) وإحياء علوم الدين للغزالي، والموطأ لمالك بن أنس وغيرها. ويؤكد ذلك إلى جانب ما ذكره الحميري في مقدمة «الروض المعطار» مدى تمسّك الحميري وحرصه على الدين الإسلامي حيث طلب المغفرة والصفح من الله عزّ وجلّ لأنه قد شغل نفسه عن العلوم المقرّبة إلى الله وهي العلوم الدينية واشتغل بتأليف كتاب الروض المعطار.

الفصل الرابع

خامسا: الخرائط في التراث الجغرافي الإسلامي

١ ـ الخريطة في جغرافية المسلمين حتى العصور الوسطى، تعريفها وأهميتها.

٢ ـ أطلس الإسلام.

٣ ـ الخرائط البحرية العربية.

٤ ـ أنواع الخرائط في التراث الجغرافي الإِسلامي.

٥ ـ سمات الخريطة العربية.

خامسا: الخرائط في التراث الجغرافي الإسلامي

١ . الخريطة في جغرافية المسلمين في العصور الوسطى، تعريفها وأهميتها:

استخدم العرب عدّة تعبيرات للدلالة على الخريطة، منها كلمة جغرافيا التي لم تكن في بداية استعمالها تعني أكثر من رسم خارطة للأرض. وورد في معجم لاتيني في القرن ١٣م عُرف بالفوكابوليستا Voccabulista لفظ (جعرافية) بالعين المعملة وتعني Mapa خريطة، و «جعرفية» وتعني خريطة الدنيا Mapa Mundi وقد سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن الألفاظ الأخرى التي استُخدمت للدلالة على الخريطة «الصورة» كما هي الحال عند ابن حوقل الذي عبّر عن كل خريطة في كتابه «صورة الأرض» باسم صورة، مثل قوله عن خريطة العالم: هذه صورة جميع الأرض[1]، وصورة ديار العرب أمام ص ٢٩، كما استخدمت تعبيرات أخرى مثل «رسم ولوح الترسيم». أما مصطلح خارطة وخريطة فحديث نسبياً ويرجعه بعض الباحثين إلى كلمة فرنسية Charte، وبعض الباحثين يرجعه إلى كلمة عربية، مَن خَرِتَ الأرض أي جال فيها، ومنها عالم خريت، أو جوّال، جاب مناطق كثيرة، وأحسن الصفات التي يوصف بها الدليل قولهم دليل خريت. واستخدم العرب كلمة «خريطة» (بمعنى الكيس)، وجاء في شعر أحد الأعراب للمأمون:

وأجـزتـنـي بـخـريـطـة مملـؤة ذهـباً وأخـرى بـاللـجين الـفـائـق

وقد أشار المؤرخون إلى عدد من الكتب التي بحثت في الخرائط، ومنها على سبيل المثال: كتاب رسالة الكندي في الصوَر، وكتاب تفسير صوَر كتاب السماء والعالم، لأبي جعفر الخازن أبي زيد البلخي.

---

(١) صورة الأرض، ابن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ١٦.

وقد عرف المسلمون طرُق رسم السطح الكروي على لوحة مستوية وأطلقوا على هذه الطريقة «التسطيح». ومما يجدر ذكره أن كرلو نلينو ذكر في كتابه علم الفلك أن الحديثين من الجغرافيين العرب قلّدوا اصطلاحات الإفرنج بغير ضرورة، ولجهلهم بعلوم العرب، تركوا الاصطلاح القديم الصحيح فسمُّوا «التسطيح» مسقطاً وإسقاطاً Projection[1].

إن دراسة الخرائط العربية ليست بالدراسة السهلة، بل تكتنفها صعوبات عديدة منها ضياع أعداد كبيرة منها، بحيث لم يبقَ لنا منها إلا الذكر والإشارة. ولا شك أن الغزوات الصليبية والمغولية التي تعرّضت لها الأقطار الإسلامية في الفترة ما بين القرنين الخامس الهجري حتى التاسع الهجري قد قضت على كثير من معالم هذا التراث وخزائن الكتب، وعلى سبيل المثال ما حدث لخزانة كتب بغداد سنة ٨٠٣هـ على يد المغول.

وهناك نقطة أخرى وهي: هل الخرائط التي تنسب إلى الجغرافيين المسلمين من رسمِهم أم أعدّها لهم أُناس آخرون؟ إن عمليات النسخ المختلفة التي كانت تتمُّ بها الكتب تشير إلى أن النساخ كانوا يغيِّرون ويحرِّفون في الخرائط بسبب عدم مقدرتهم من ناحية، أو إضافة ما يرونه من ناحية أخرى. وتبدو هذه الحقيقة واضحة إذا ما قارنّا بين عدد من النسخ لمخطوط واحد حيث نجد اختلافاً بين الخرائط بسبب اختلاف الناسخين كما هي الحال في النسخ الثلاث لكتاب «المسالك والممالك» للاصطخري[2]. إذ إن بين هذه النسخ اختلافاً نشأ عن اختلاف مقدرة الناسخين. أما الأصل الذي وضعه الاصطخري فقد أبلاه الزمن ومحا معالمه ولم تبقَ إلا هذه الرسوم المنقولة. ومهما كانت مهارة الناسخين، إلا أنه لا بدّ أن تظهر بعض الاختلافات التي يمكن الوصول إليها من مقارنة النسخ. وتنشأ هذه الاختلافات نتيجة أمور عديدة منها: اختلاف المهارة في النقل والدقّة واختلاف الأذواق، وإضافة بعض

---

(١) كرلو نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٧.

(٢) عقد هذه المقارنة محمد جابر عبد العال الحيني عند تحقيقه لكتاب المسالك والممالك للاصطخري.

الناسخين لما يكون قد جدّ من معلومات، وتصحيف بعض الأسماء لعدم وضوحها.

ومن الاختلافات التي ترى بين خرائط الاصطخري في ثلاث نسخ موجودة في دار الكتب المصرية تحت أرقام ١٩٩ (مخطوطة) ٢٥٦، ٢٥٧ جغرافية (مخطوطتان مصوّرتان). في صورة بلاد الشام، نجد اختلافاً في رسم الجبال الممتدة من آسيا الصغرى إلى الشام وذلك في مخطوطة رقم ١٩٩ وذلك إذا ما قورنت برقمَي ٢٥٦، ٢٥٧ كما أن الاصطخري لم يتعرّض لذكر نهر العاصي، ومع ذلك نجده في رقمَي ٢٥٦، ٢٥٧.

وفي صورة فارس هناك اختلاف في تعاريج الأنهار بين النسخ المختلفة، وفي صورة كرمان، وهناك اختلاف في عاصمة كرمان فهي السيرجان في ٢٥٦، ٢٥٧ وهذا الأصحّ، بينما هي كرمان في النسخة رقم ١٩٩ وهذا خطأ من الكاتب، الذي من المحتمل أنه لم يستطع أن يقرأ الكلمة التي في الصورة (الخريطة) التي ينقل عنها فكتبها كرمان لأنه ذكر إلى جوارها بروسير؛ وهي التي اتّخذت اسم كرمان فيما بعد، بعد زوال السيرجان[1].

وهناك اختلاف في تحديد مواضع بعض المدن كما هي الحال بالنسبة لمدينة الرور، في صورة بلاد السند، ومدينة بسطام في صورة الديلم، ومدينة سالوس في صوَر بحر الخزر.

ومن ناحية أخرى كانت بعض الخرائط تُرسَم منفصلة عن المتون مما يعرّضها للاتلاف والضياع. كما أن قسماً آخر من الخرائط ما زال محتاجاً إلى الدراسة والنشر حيث يحتفظ به في مكتبات العالم المختلفة.

وكانت للخرائط أهميتها الخاصة التي تزايدت باستمرار، إذ إنه نتيجة لاتّساع الدولة الإسلامية وازدياد النشاط التجاري صارت الخريطة أداة مهمة لتوضيح مسالك التجارة والطرق المختلفة، كما أصبحت الخريطة وسيلة ليتعرّف

---

(١) ابن إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٩٨- ٢٠١.

الحكام بها على مواقع المدن المختلفة، كما كانت ذات أهمية للمسلم لأنها توضح الطرق إلى بيت الله الحرام.

ومن أول الإشارات التي وردت عن الخرائط عند العرب تلك التي أوردها ابن الفقيه حيث قال: (بعث الحجاج بن يوسف إلى وفد الديلم فدعاهم إلى أن يسلِموا أو يقرُّوا بالجزية فأبوا، فأمر أن تصور له الديلم سهلها وجبالها وعقابها وغياضها، فصوّرت له، فدعا من قبله من الديلم فقال إن بلادكم قد صوّرت لي فرأيت فيها مطمعاً، فأقرُّوا لي بما دعوتكم إليه قبل أن أغزيكم الجنود فأضرب البلاد وأقتل المقاتلة وأسبي الذرية، فقالوا: أرِنا هذه الصورة التي أطمعتك فينا وفي بلادنا، فدعا بالصورة، فنظروا فيها فقالوا: قد صَدَقُوك عن بلادنا هذه صورتها، غير أنهم لم يصوّرا فرسانها الذين يمنعون هذه العقاب والجبال، وستعلم ذلك لو قد تكلفته، فأغزاهم الجنود وعليهم محمد بن الحجاج فلم يصنع شيئاً، وانصرفوا إلى قزوين فابتنى لأهلها مسجداً ونصبت لهم منبراً»[1].

ويذكر كذلك أن قتيبة غزا ملك بخارى سنة ٨٩هـ ولم يحقّق نصراً، فرجع إلى مرو وكتب إلى الحجاج بذلك فطلب منه الحجاج أن يصوّرها له، أي يرسم خريطة لها..

من ذلك يتّضح لنا أن الخريطة استخدمت كأداة في التخطيط للمعارك الحربية.

وقد استدعى تنظيم البريد في عهد الدولة الأموية إعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق التي يسلكها البريد[2].

وقد ورد ذكر تصوير البطائح في منطقة البصرة حيث عرض المهندسون صورتها على الخليفة المنصور لتقسيم الأراضي فاستحسنها[3].

---

(١) ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٢٨٣.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٦١.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٠٦.

وقد ذكر ابن النديم في الفهرست، أن الفلكي المشهور ثابت بن قره (توفي سنة ٢٨٨هـ / ٩٠١م) نسب لنفسه رسماً للأرض (صفة الدنيا) من صنع حراني آخر[١].

وحينما نُهبت خزينة الخليفة المستنصر الفاطمي، وُجدت خريطة كانت قد طُرِّزت على حرير (٣٥٣هـ / ٩٦٤م) للمعز لدين الله الفاطمي، وكان موضحاً عليها أسماء مختلف البلدان والجبال والبحار والأنهار والمدن والطرق، وطُرِّزت أسماؤها بالذهب والفضة، وقُدِّرت قيمتها بنحو اثنين وعشرين ألف دينار[٢].

وقد تمكّن البلخي سنة ٩٢١م من جمع المعلومات المناخية عن الأقطار المختلفة، وذلك عن طريق الرحّالة المسلمين في كتاب الأشكال، الذي يعدُّ أول أطلس مناخي[٣].

ولعل أشهر خرائط المسلمين، تلك الخريطة التي عُرفت باسم (الخريطة المأمونية) التي أسهم في رسمها مجموعة من العلماء[٤] (شكل ٩)، وقد قسّمت العالم إلى سبعة أقاليم، وفق خطوط الطول ودوائر العرض، وقد اعتمد مصمّمو هذه الخريطة المأمونية على الخرائط الإغريقية، وخصوصاً خريطة بطليموس، إلا أن الخريطة المأمونية اشتملت على إضافات جديدة وتصحيحات فيما يتعلق بوضع الجزيرة العربية والخليج العربي.

وذكر المسعودي أنه رأى هذه الخريطة التي صوّرت الأقاليم السبعة وفاقت الخرائط اليونانية لبطليموس ومارينوس، وهي خريطة ملوّنة.. وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون، اجتمع على صنعها عدد من حكماء أهل عصره، صوّر فيه العالم بأفلاكه ونجومه وبرّه وبحره وغامره ومساكن الأمم والمدن، وغير ذلك، وهي أحسن مما تقدّمها من جغرافية بطليموس ومارينوس

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، طبعة دي خويه، ص ٣٧١.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٣) Preston James, All Possible Worlds, New York, 1972, P. 65.

(٤) خطط المقريزي، جـ ٢، ص ٢٦٧- ٢٦٨.

وغيرها[1]. وكانت بعض الخرائط ترسم على القماش الثقيل المسمى بالديبقي وذلك بالأصباغ المشمعة[2].

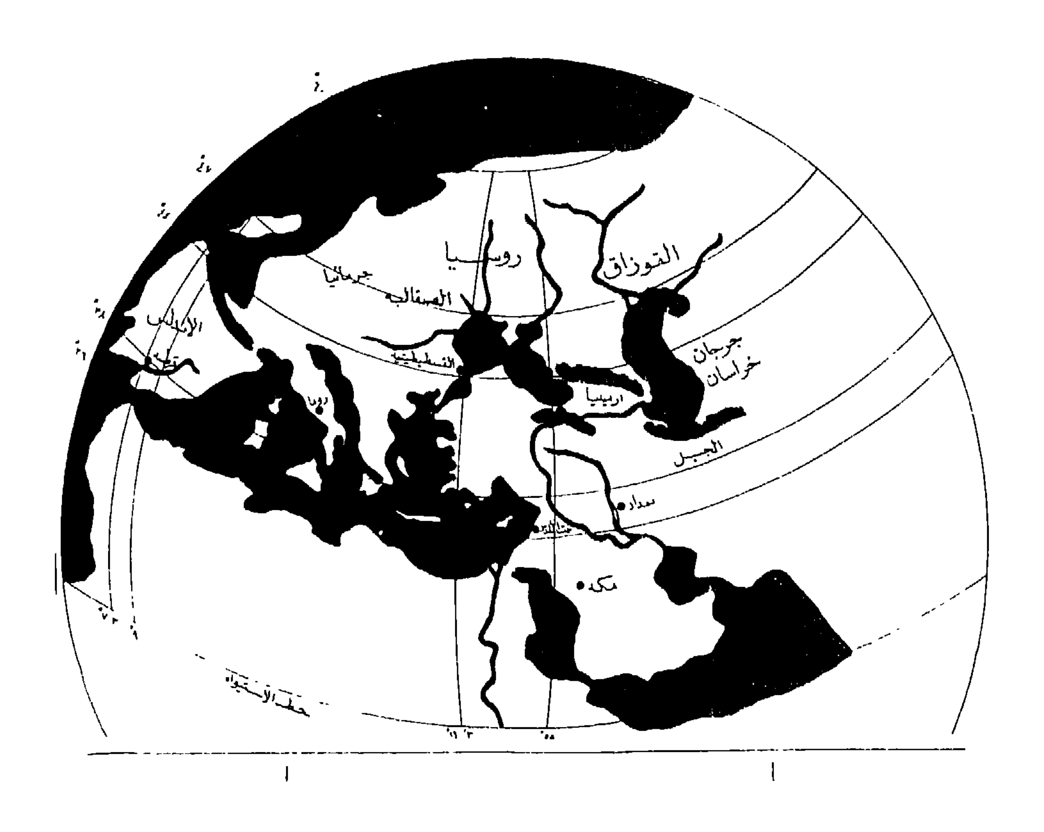
وجدير بالذكر أنه قد راجت في السنوات الأخيرة فكرة جريئة وخطيرة مفادها أن الخريطة التي تُنسب لبطليموس ليست إلا خريطة المأمون المشهورة باسم الصورة المأمونية، وقد روّج هذه الفكرة فؤاد سيزكين أستاذ تاريخ العلوم الطبيعية بجامعة فرانكفورت، وقد اعتمد في فكرته هذه على أن خرائط الرومان في العصور الوسطى التي تلت عصر بطليموس لا تحمل أي تأثير لخريطة بطليموس، وهم أقرب عهداً وصلة ببطليموس وخريطته، كما أن إحداثيات المدن التي تنسب لبطليموس لا تصلح لرسم خريطة، ويضيف إلى ذلك أن الخريطة التي تُنسب إلى بطليموس عليها ثمانية آلاف اسم، بينما لم يحدد في كتابه «جغرافيا» إلا موقع ٣٦٠ مدينة. إن هذه الشواهد التي استعان بها سيزكين لا تصمد أمام النصوص التي وردت بكتب التراث وتؤكد أن لبطليموس خريطة للعالم وهذه النصوص كثيرة، نكتفي منها بنص المسعودي بكتاب التنبيه والإشراف ص ٣٣، حيث يقول: (ورأيت هذه الأقاليم مصوّرة في غير كتاب بأنواع الأصباغ، وأحسن ما رأيت من ذلك كتاب جغرافيا لمارينوس، وتفسير جغرافيا قطع الأرض، وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون اجتمع على صنعتها عدّة من حكماء أهل عصره... وهي أحسن مما تقدّمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس) وكلمة هي، هنا تشير إلى خريطة المأمون أحسن مما تقدّمها من جغرافيا بطليموس، المقصود هنا خريطة بطليموس، وخريطة مارينوس لأن المسعودي أشار إلى خريطة مارينوس[3].

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٣٣.

(٢) الفهرست لابن النديم، ص ٢٨٥.

(٣) محمد محمود محمدين (١٩٨٨)، ردّ أمين على فؤاد سيزكين، مقال برسالة الجامعة (جامعة الملك سعود) العدد ٣٧٠، السبت ١٣شوال، سنة ١٤٠٨هـ، ص ٨.



شكل (٩)

الخريطة المأمونية

المرجع : أطلس خرائط اسلامية ، جامعة الامام محمد بن سعود

وقد تطرّق سهراب في كتابه عجائب الأقاليم السبعة إلى طرق إعداد صورة الأرض وتحديد المدن والظاهرات المختلفة عليها، وذكر أنه أطال النظر في كتب المتقدّمين والبحث عن جميع ما ذكروا فيها من صورة الأرض وكيفية هيئة المدن عليها، فوجد ذلك مطوّلاً في عدة من كتبهم فأحب أن يختصر من جميع كتبهم كتاباً يقرّب فهمه ويسهّل العمل لمن أراد صورة الأرض ووضع المعمورة عليها، واستخراج البحار والعيون والأنهار والجبال والأودية مع تصحيح ما ذكروا من المسالك المشهورة والطرق الغامضة والبقاع البوادي.. ثم بدأ بشرح الطريقة لعمل صورة الأرض فقال[1]:

«فإذا أردت أدام الله كرامتك أن تبدأ بعمل ذلك في بسيط مربّع، فليكن حسب ما أحببت، وكلما اتّسع كان أحسن وأبين، ويكون عرضه مثل نصف طوله وربعه تربيعاً صحيحاً لا زلل فيه»، ثم شرح بعد ذلك طريقة التقسيم بخطوط الطول ودوائر العرض وتحديد الأقاليم السبعة (شكل ١٠).

ولتحديد مواقع الظاهرات المختلفة من مدن وجبال وغيرها، يقول سهراب: ينبغي أن تُكوِّن آلة من أربع مثقلات من الرصاص يكون في كل واحدة منها نصف رطل واعملها على مثال اللوزة حادة الرأس ويكون لها بطن حتى تقع على الأرض على ذلك الاستواء ثم اتخذ لها خيطين من كتّان أو غيره، ويكون طول واحد منهما مثل طول الصورة، والآخر مثل عرضها، ثم شدّ في رأس كل واحد مثقلتين في رأس كل مثقلة. ولتحديد موقع المدينة نأخذ طول كل مدينة من الجدول الذي هي فيه، وعليه موضع الطول، فنضع رأس إحدى المثقلتين على ذلك العدد، ثم نأخذ أيضاً عرض هذه المدينة من الجدول الذي هي فيه ثم ننظر إلى تقاطع الخطين أين وقع فثمّ نقطة، تلك هي المدينة فارسمها هناك.

(١) سهراب، كتاب عجائب الأقاليم السبعة، تحقيق هانس فون مزيك، فينّا، سنة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٩م، ص ٣- ٦.

أفق الجنوب

خط الاستواء

الإقليم الأول

الإقليم الثاني

الإقليم الثالث

الإقليم الرابع

الإقليم الخامس

الإقليم السادس

الإقليم السابع

نهاية العمارة

أفق الشمال

مسطرة العرض

مسطرة الطول

نموذج سهراب الذي يوضح خطوط الطول والعرض

شكل (١٠)

٢ . أطلس الإسلام:

جمع المستشرق الألماني ميلر Konrad Miller ٢٧٥ خريطة نشرها في مجلد خاص أطلق عليه الخرائط العربية Mappae Arabicae ووصف هذه الخرائط بأنها أطلس الإسلام، واعتبر ميلر أن رائد الأطلس الإسلامي هو أبو زيد البلخي. ومن الذين تنسب خرائطهم إلى الأطلس الإسلامي، الاصطخري، الذي يزعم أنه أول من صوّر الأقاليم التي لم يذكرها أحد قبله، وابن حوقل.

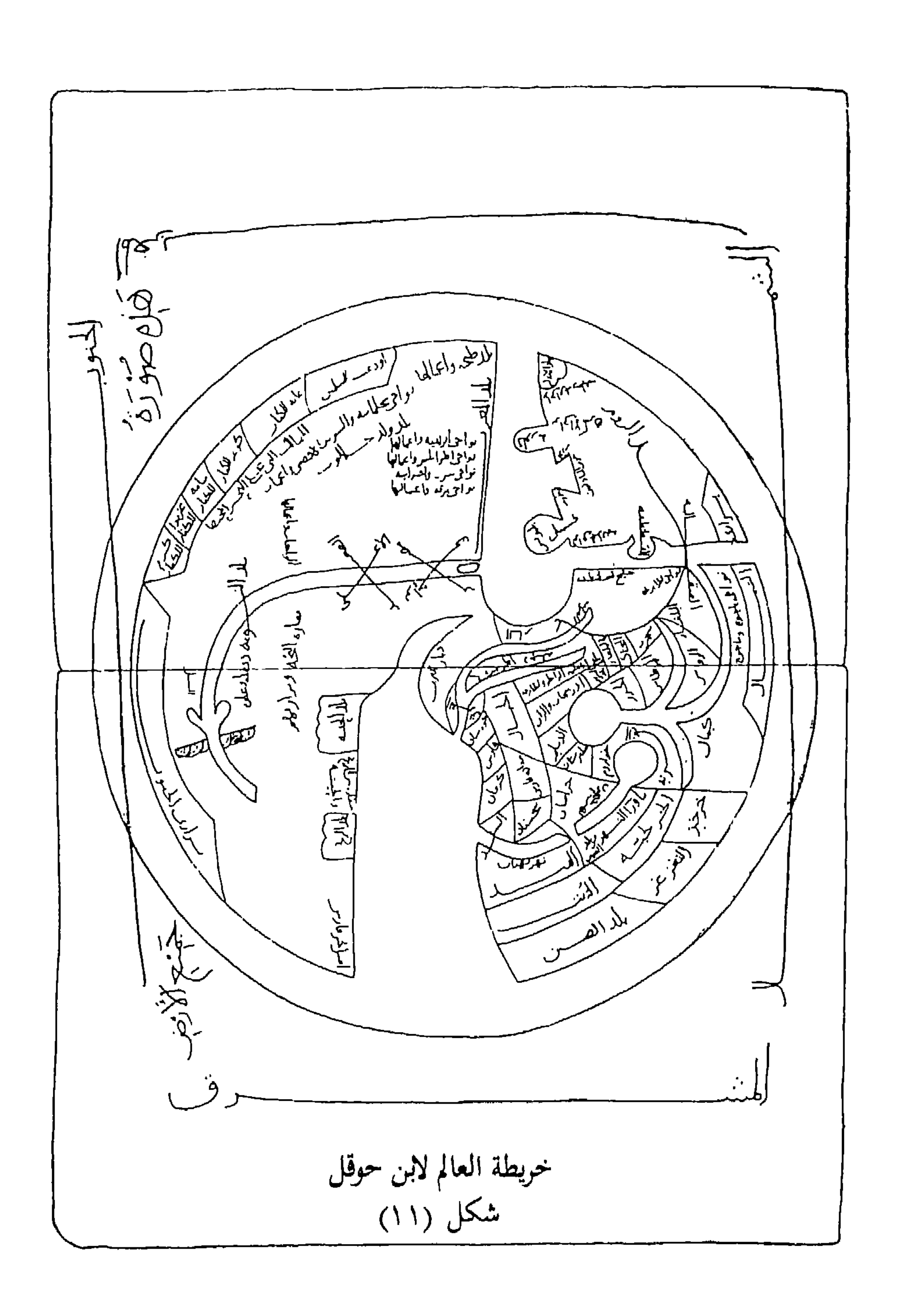
ويرى كثير من الباحثين أن الاصطخري وابن حوقل قد استعارا كثيراً من البلخي، ويؤكد ذلك تشابه بعض الموضوعات وطريقة المعالجة في الكتب الثلاثة.

وقد ذكر ميلر خرائطه التي عثر عليها وهي مقسّمة على النحو التالي[1]:

اسم الخريطة	عدد الخرائط	اسم الخريطة	عدد الخرائط
صورة الأرض	١١	كرمان	١٤
ديار العرب	١٢	السند	١٤
بحر فارس والصحراء العربية	١٥	أذربيجان	١٣
المغرب	١٢	الجبال	١٥
مصر	١٣	طبرستان	١٣
سوريا	١٠	بحر قزوين	١٤
بحر الروم (البحر المتوسط)	١٣	الصحراء	١٣
الجزيرة	١٣	سجستان	١٢
العراق	١٤	خراسان	١٤
خوزستان	١٤	ما وراء النهر	١٣
فارس	١٣	المجموع	٢٧٥

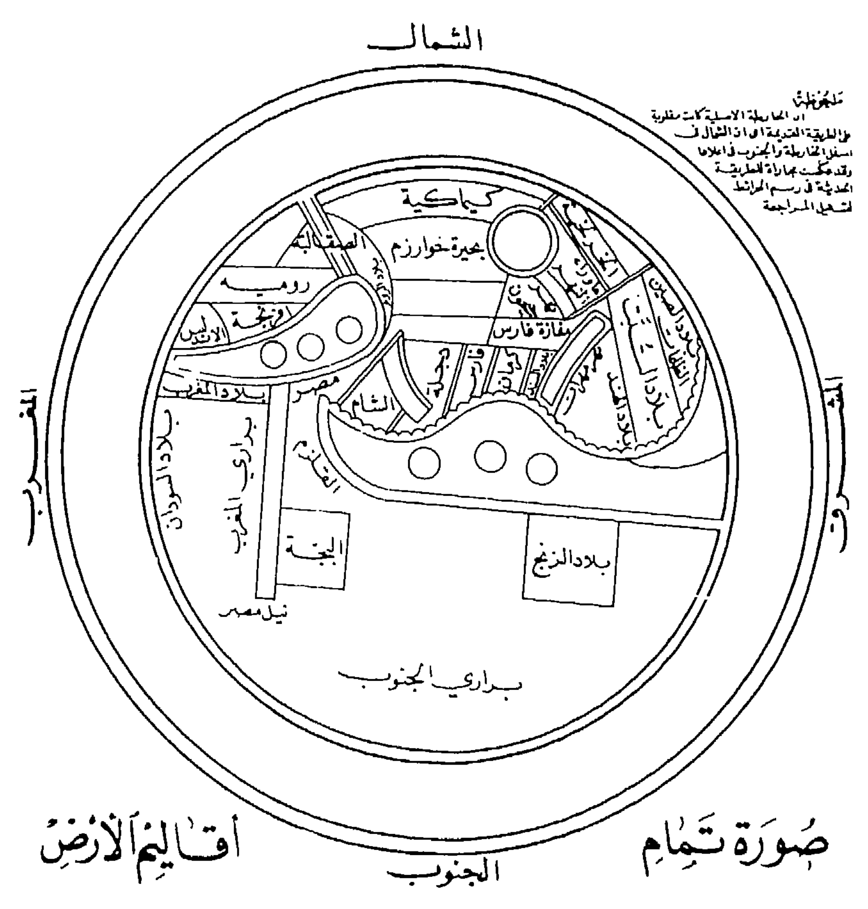
---

(١) فلاح أسود، دور العرب والمسلمين في رسم الخرائط، بحث قدّم إلى المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول سنة ١٩٧٩م بالرياض.



خريطة العالم لابن حوقل
شكل (١١)

خريطة العالم للاصطخري



شكل (١٢)

• عن أحمد سوسه

وقد وُصفت هذه الخرائط بالأطلس الإسلامي لأنها تحوي دائماً إحدى وعشرين خريطة وتسير في عرضها وفق نظام واحد يبدأ بخارطة العالم المستديرة (شكلا ١١، ١٢) تتبعها خرائط جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم، ثم أربع عشرة خارطة تمثّل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامي[١] والخرائط عموماً عبارة عن خريطة للعالم على هيئة دائرة، وثلاث خرائط للبحار، ثم سبع عشرة خريطة لمختلف الأقطار الإسلامية تفاوتت فيها التفصيلات من خريطة إلى أخرى.

ويؤكد كراتشوكوفسكي الرأي القائل بأن هذا الأطلس إيراني الأصل، ويستند إلى أن كل مقاطعة إيرانية لها خريطة مستقلة، وبياناتها تفصيلية. ويرى كراتشكوفسكي أن خرائط هذا الأطلس قد وُضعت في الأصل من أجل الإمبراطورية الساسانية القديمة، ولم تمسّها يد التعديل والتحوير إلا قليلاً لتتّفق مع حاجة المسلمين في القرن العاشر[٢].

ويمكن الردّ على ادّعاء كراتشكوفسكي وأتباع رأيه، بأن البلخي والاصطخري، وهما من أصحاب مدرسة الأطلس الإسلامي، من بلاد فارس، مما قد أتاح لهما كثيراً من المعلومات والحقائق الجغرافية عن بلاد الفرس، وقد تأثّر مَن جاء بعدهم بهذا الاتجاه.

ومن الملاحظات المهمة التي تميّز خرائط الأطلس الإسلامي أنها لا تُكوّن خريطة واحدة إذا ما جمعت، كما أنها ليست ذات مقياس رسم أو نسب واحدة، بل لوحظ أن خرائط المناطق الإيرانية ذات مقياس أكبر نسبياً بمعنى أن المناطق الأخرى لها عدد أقل من الخرائط رغم اتّساع مساحتها.

وإذا ما قورنت خرائط الأطلس الإسلامي بخرائط أوربا في ذلك العصر نلاحظ دقّة خرائط، ما عُرف بالأطلس الإسلامي، وخلوّها من صوَر الحيوانات والناس. كما أن خطوطها هندسية تتميّز بالاستقامة والانحناءات الهندسية المتناسقة.

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٢٠٦.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٢٠٧.

ويُعدُّ الإدريسي في نظر كثير من الباحثين بداية مرحلة جديدة في تطور الخرائط يمكن أن يعبّر عنها بمرحلة النماذج لأنه صنع نموذجاً للكرة الأرضية. ويقول في ذلك الإدريسي إن روجر الثاني لمّا اتّسعت أعمال مملكته وتزايدت هُمُم أهل دولته.. أحبّ أن يعرف كيفيات بلاده حقيقة.. ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً، وفي أي إقليم، وما يخصّها من البحار والخلجان الكائنة بها مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار في الأقاليم السبعة. فرجع إلى كثير من الكتب ولم تشفِ غليله، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن فباحثهم عليه.. فلم يجد عندهم علماً أكثر مما في الكتب المذكورة.. فلما رآهم على مثل هذه الحال بعث إلى سائر بلاده فأحضر العارفين بها المتجوّلين فيها سألهم عنها.. جمعاً وأفراداً، فما اتّفق فيه قولهم وصحّ في جمعه نقلهم أثبته وأبقاه، وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه، وأقام في ذلك نحواً من خمس عشرة سنة لا يخلي نفسه في كل وقت من النظر في هذا الفن. والكشف عنه والبحث عن حقيقته إلى أن تمّ له فيه ما يريده، ثم أراد أن يستعلم يقيناً صحة ما اتفق عليه القوم المشار إليهم في ذكر أطوال مسافات البلاد وعرضها، فأحضر إليه لوح الترسيم وأقبل يختبرها بمقياس من حديد شيئاً فشيئاً مع نظره في الكتب المتقدّم ذكرها وترجيحه بين أقوال مؤلفيها، وأمعن النظر في جميعها حتى وقف على الحقيقة فيها، فأمر عند ذلك أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم ضخمة الجسم في وزن أربعمائة رطل بالرومي في كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً، فلما كملت، أمر الفعَلَة أن ينقشوا فيها صوَر الأقاليم السبعة ببلادها وأقطارها وريفها وخلجانها وبحارها ومجاري مياهها ومواقع أنهارها وغامرها، وما بين كل بلد منها وبين غيرها من الطرقات المطروقة والأميال المحدودة والمسافات المشهودة والمراسي المعروفة على نص ما يخرج إليهم ممثلاً في لوح الترسيم ولا يغادروا منه شيئاً ويأتوا به على هيئته وشكله كما يرسم لهم فيه[1].

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ص ٢٨٠- ٢٨١.



خريطة العالم للإدريسي (٤٩٣ - ٥٦٠ هـ)

نقلاً عن: (أحمد سوسة)

شكل (١٣)

ويعتقد بأن الثوار حطّموا كرة الفضة ونهبوها عند اقتحامهم لقصر روجر في عهد خلفه سنة ١١٦٠م.

وقد اشتمل كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي يُعرف كذلك باسم آخر هو «كتاب رجار» أو «الكتاب الرجاري» على سبعين خريطة إلى جانب خريطة دائرية للعالم، وكان الإدريسي قد انتهى من تأليفه في يناير سنة ١١٥٤م، وقد قسّم الإدريسي كل إقليم من الأقاليم السبعة إلى عشرة أقسام رأسية أفردَ لكل منها خريطة. ومن أهم ما تتميز به هذه الخرائط، أنها لو ضمّت إلى بعضها لكوّنت خريطة مستطيلة للعالم، ولا يتسنّى ذلك لخرائط «الأطلس الإسلامي» الذي يطلق على مجموعة خرائط البلخي والاصطخري وابن حوقل.

وقد جمع ميلر خرائط الإدريسي السبعين وكوّن منها خريطة واحدة تمثّل العالم يصل طولها إلى مترين وعرضها متر واحد، وكتب أعلامها بالحروف اللاتينية ونشرها سنة ١٩٣١م، وقد حقّق المجمع العلمي العراقي هذه الخريطة وطبعها لأول مرة سنة ١٩٥١م. (شكل ١٣).

وأهمّ ما تتميّز به خرائط الإدريسي أن مجموعة الخرائط التي تمثّل شمالي إفريقيا وأسبانيا وصقلية ونواحي إيطالية خرائط جيدة وصحيحة، وأدقّ نسبياً من بقية الخرائط، ويرجع ذلك إلى أن بياناتها نتاج للملاحظات الشخصية أو الدراسة الحقلية.

٣ . الخرائط البحرية العربية:

تُعدُّ الثلاث ورقات التي تمثّل خريطة البحر المتوسط والمحفوظة في ميلانو بمتحف الأمبروزيانا Ambrosiana بإيطاليا، أقدم ما عُثر عليه من الخرائط البحرية العربية، ويعتقد كثير من الباحثين أنها ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي، ويستنتج من طريقة كتابتها وخطّها المغربي، أنها رُسمت في المغرب أو الجزائر في سبته أو بجاية، حيث كان الملاحون من مختلف الجنسيات

يتجمعون فيها بسبب الأهمية الملاحية لتلك المنطقة[1].

ويرى بعض الباحثين أن هذه الخريطة منقولة عن أصل مغربي أو على الأقل محاكاة وتقليد؛ لأن هذا النمط غريب عن العرب، ولأنه لم تظهر خرائط لسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي حيث ساد النشاط البحري عند العرب، على الرغم من ازدهار الكتابة في الجغرافية الملاحية. وإن كان المقدسي قد ذكر في كتابه «أحسن التقاسيم» أن رجلاً يدعى أبو علي بن حازم قد مسح الرمل بكفّه ورسم البحر عليه لا طيلسان ولا طير، وجعل له معارج متلسنة وشُعباً عدّة، ثم قال: هذه صفة هذا البحر لا صورة غيرها[2].

وذكر المقدسي أنه رأى المحيط الهندي ممثلاً على ورقة في خزانة أمير خراسان، وعلى كرباسة عند أبي القاسم بن الأنماطيّ بنيسابور، وفي خزانة عضد الدولة، وإذا كلُّ مثال يخالف الآخر... وقد ذكر أنه رأى مع الربابنة والأشاتمة دفاتر مسجّل بها مراسيه وأرياحه وجزائره يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها[3].

ومن الشواهد الأخرى التي يستند إليها القائلون بأن الخرائط البحرية ليست وليدة البيئة العربية أن الأبعاد المدوّنة عليها بالأميال مما يدفع بالقول إلى أنها إيطالية الأصل، كما أنها تشابه الخرائط الإيطالية المعاصرة لها من حيث طريقة الرسم وتخطيط السواحل، ولكنها تحمل الأسماء العربية.

وقد أدّى اهتمام العرب بالخرائط البحرية إلى ازدهار هذا النوع من الخرائط ابتداءً من منتصف القرن السادس عشر الميلادي حيث تخصّصت إحدى الأُسَر التونسية في هذا النوع من الخرائط، وهذه الأسرة هي أُسرة الشِرفي الصفاقسي التي عاش أفرادها ما بين القيروان والقاهرة، وقد أنجزت هذه الأسرة ما بين سنة ١٥٥١م وسنة ١٦٠١م أربعة نماذج لخريطة العالم اعتماداً

(١) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٤٥٥.
(٢) أحسن التقاسيم، ص ١١.
(٣) المصدر السابق، ص ١٠.

على خريطة الإدريسي. (شكل ١٤).

وقد توصّل المستشرق الإيطالي نلينو إلى أن رائد هذه الأُسرة في رسم الخرائط هو علي بن أحمد بن محمد الذي رسم في سنة ٩٥٨هـ / ١٥٥١م مصوّراً جغرافياً يضمّ ثماني ورقات تمثّل سواحل البحر المتوسط، وهذه الخرائط محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس[1].

ومن الخرائط البحرية الأخرى التي تُنسب لأُسرة الشرفي، تلك الموجودة في أكسفورد، والتي ترجع إلى سنة ٩٧٩هـ وتتمثّل هذه الخرائط في:

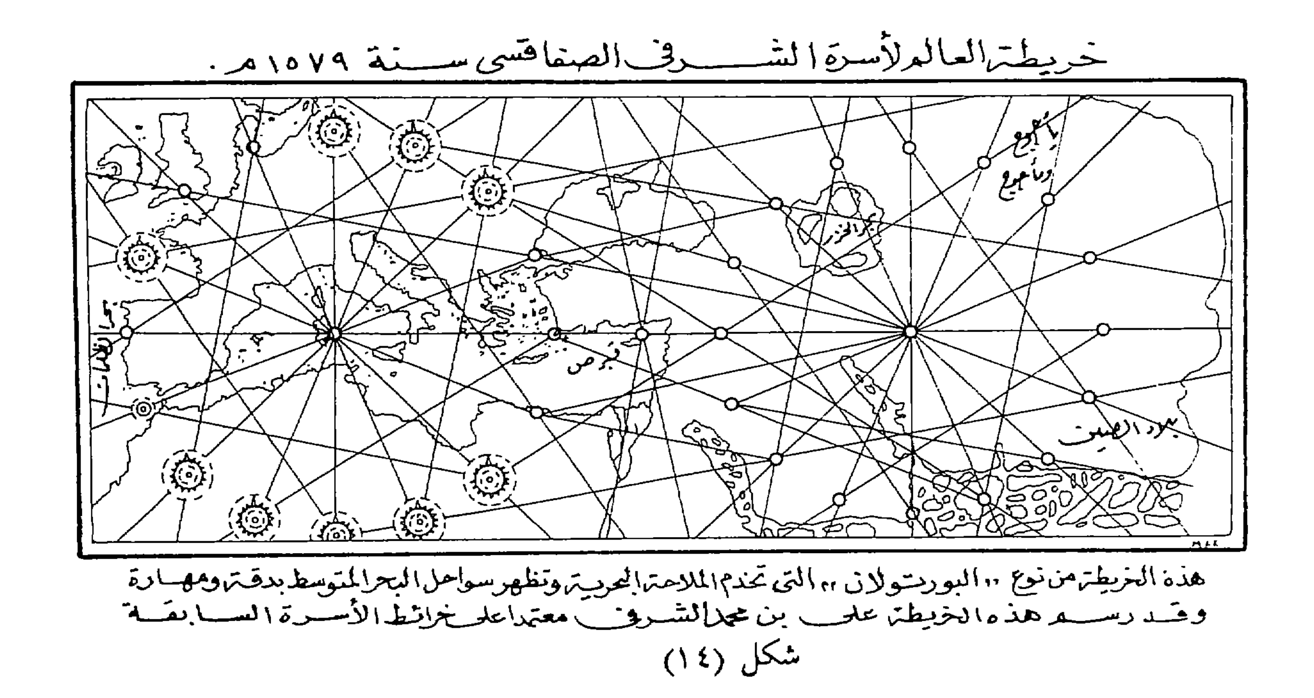
(أ) خريطة توضح الاتجاه إلى القبلة ومواضع البلدان بالنسبة للكعبة (شكل ١٥) ولا شكّ أن مثل هذه الخريطة توضح أثر التمسُّك بالدين الإسلامي.

(ب) خريطة للعالم يُعتقد بأنها متأثّرة بخريطتَي البيروني والإدريسي (شكل ١٦).

(جـ) خرائط للمناطق الساحلية للبحر المتوسط والمقابلة للساحل الأفريقي مثل سواحل أسبانيا، وجنوبي فرنسا وسواحل إيطاليا وجزر البليار وجزر سردينيا وكورسيكا.

(١) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، جـ ١، ص ٤٥٦.

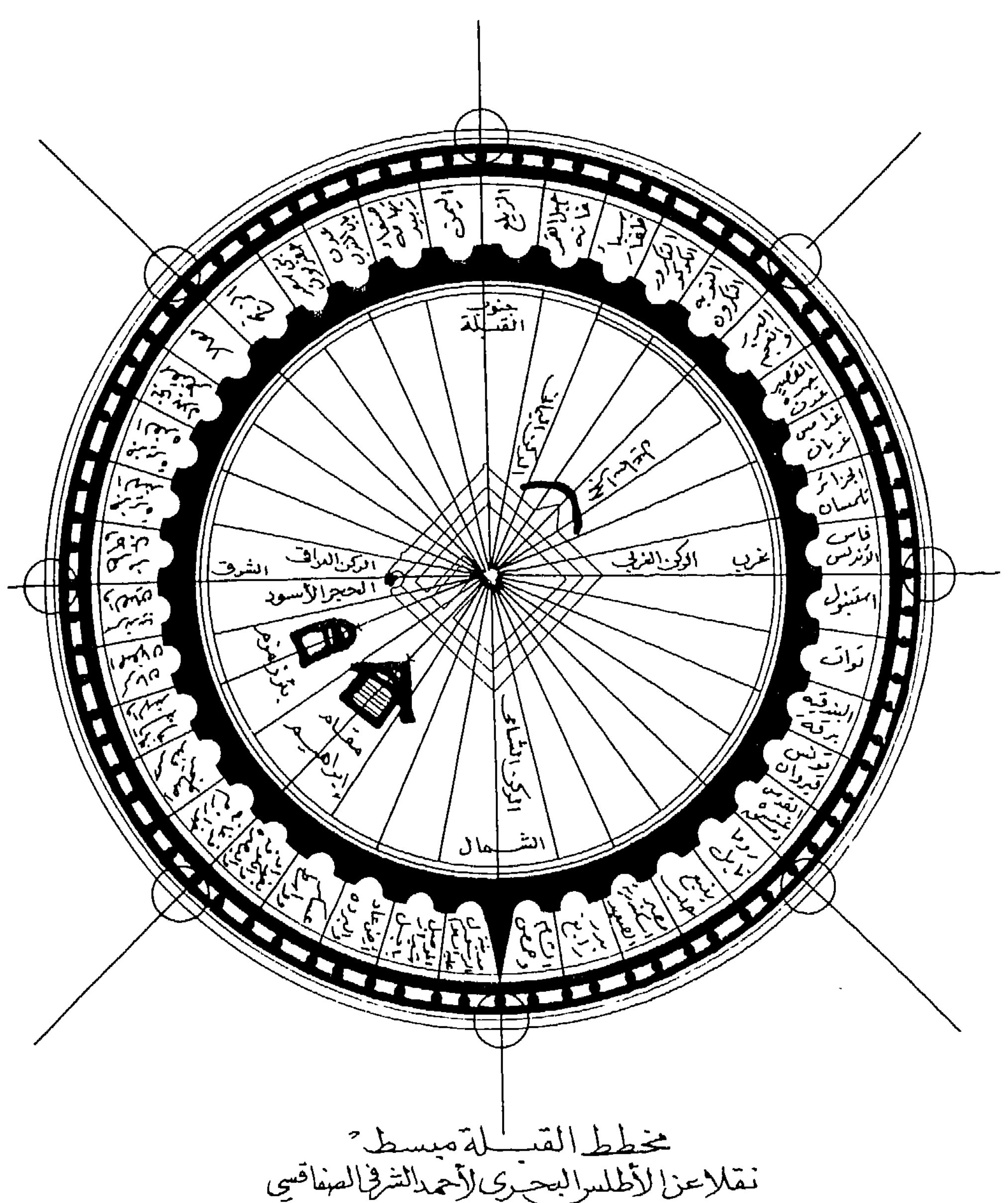
خريطة العالم لأسرة الشرفي الصفاقسي سنة ١٥٧٩ م.



هذه الخريطة من نوع " البورتولان " التي تخدم الملاحة البحرية وتظهر سواحل البحر المتوسط بدقة ومهارة وقد رسم هذه الخريطة علي بن محمد الشرفي معتمداً على خرائط الأسرة السابقة

شكل (١٤)

خريطة توضح إتجاهات القبلة
من البلدان المختلفة

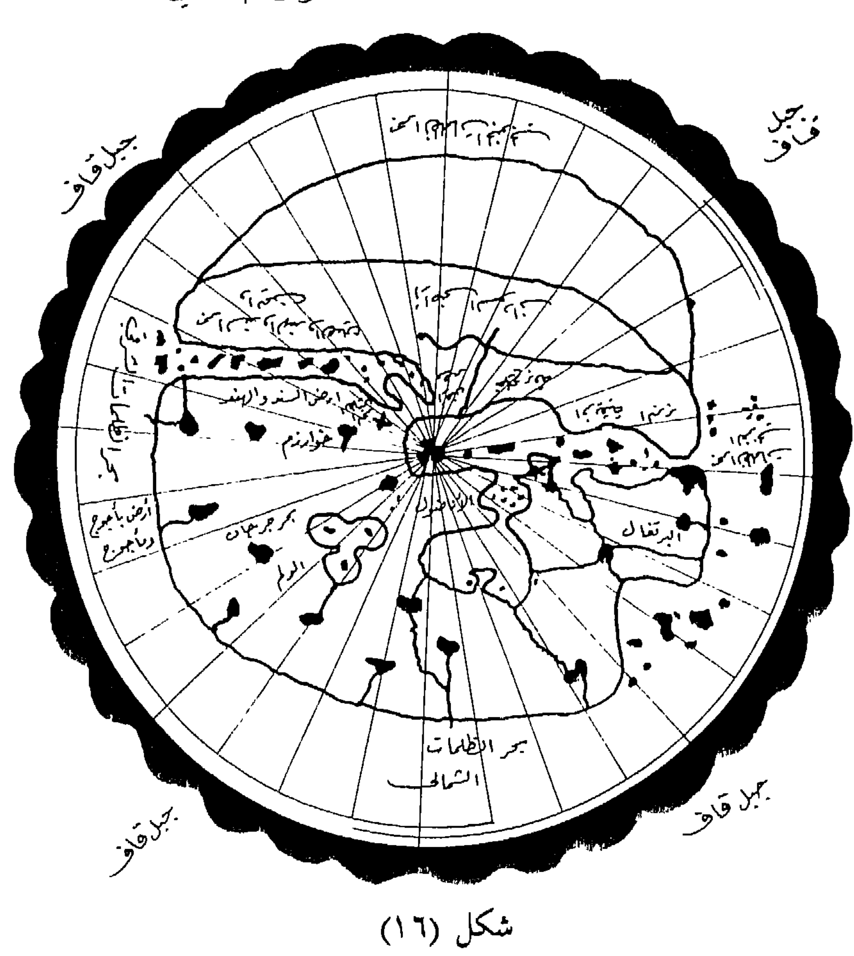


مخطط القبلة مبسط
نقلا عن الأطلس البحري لأحمد الشرفي الصفاقسي
(سنة ١٥٧١ - ١٥٧٢م)

شكل (١٥)

«خريطة الأرض» نقلا عن خريطة العالم

في الأطلس البحري لأحمد الشرقي الصفاقسي



شكل (١٦)

(د) سواحل البحر الأسود وبحر آزوف والسواحل الجنوبية لآسيا الصغرى والشام ومصر وبرقة.

(هـ) خريطة لأرخبيل اليونان وكريت.

(و) خريطة لساحل البحر المتوسط الجنوبي من برقة إلى تونس.

وقد ابتدأت مجموعة الخرائط بالتقويم الشمسي، وذكرت أسماء الشهور الرومانية والسريانية والعربية، مما يرجح الافتراض بأن صاحب هذه الخرائط كان يمرّ على مواني أوربا المسيحية ومواني الشام[1].

ويبدو أن هدف هذا الأطلس - الذي يمكن ضمّه إلى الخرائط «البور تولانو» - كان اقتصادياً للشواهد الآتية:

أ - الاهتمام بالتقويم الزراعي الذي يشير إلى أنسب المواعيد للزراعة والأعمال الزراعية لكل شهر.

ب - الاهتمام بالتقاويم المتّبعة في مواني البحر المتوسط يشير إلى الاهتمام بالنشاط التجاري الذي يرتبط بمواعيد معيّنة.

ج - لم يبرز هذا الأطلس التحصينات الساحلية ومواقع الثغور الحربية، مما يشير إلى أنه لم يهتم بالأهداف العسكرية.

ويرى كراتشكوفسكي أن التأثير الغربي الوحيد على هذا الأطلس هو استخدامه كلمة «طبلة» من Tabula أي اللوحة، وهي مأخوذة عن اللاتينية الدارجة.

ومن الخرائط البحرية الأخرى، خريطة محمد علي الشرفي الصفاقسي التي ترجع إلى بداية القرن الحادي عشر الهجري (١٦٠١م) وهي مرسومة على قطعة واحدة تمثّل جلد شاة قُطعت منه الأرجل، وهي نفس الطريقة التي كانت متّبعة في رسم الخرائط الفرنسية والإيطالية آنذاك[2].

وقد ذكر فاسكو داجاما أنه شاهد في سنة ١٤٩٧م سفناً عربية إلى

---

(١) كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص ٤٥٦.

(١) المصدر السابق، ص ٤٥٧.

الشمال من موزمبيق تحمل البوصلة وخارطات بحرية. ويذكر البوكرك Albuquerque القائد البرتغالي في مذكراته أن ملاّحاً مسلماً وقع في أسر البرتغاليين عند جزيرة سقطرى كان «ربّاناً» عظيماً ذا معرفة جيدة بهذا الساحل، وقد أعطاه مرشداً للطرق البحرية مُبَيّن عليه جميع مواني مملكة هرمز، وهو من وضع ربّان آخر يدعى عمر كان قد صحبه ذلك الربّان في البحر[1].

٤ . أنواع الخرائط في التراث الجغرافي الإسلامي:

يمكن أن تصنّف خرائط التراث الجغرافي الإسلامي إلى أصناف عديدة وفق أُسس مختلفة على النحو الآتي:

أ . وفق الألوان المستخدمة:

هناك خرائط ملوّنة كخرائط الخوارزمي والمقدسي والإدريسي، وقد اختلفت الألوان فيما بينها. وذكر الخوارزمي في كتابه صورة الأرض وصف الألوان المستخدمة في رسم الجبال، فكان بعضها باللون الأحمر أو الأحمر المُشبع، وبعضها باللون الأصفر أو الأصفر المُشبع، وبعضها باللون الأصفر أو البنّي أو الزيتي أو الحديدي.

وحدّد المقدسي الألوان المستخدمة في خرائطه على النحو التالي:

الطرق باللون الأحمر، الرمال باللون الأصفر، والبحار المالحة باللون الأخضر، والأنهار بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة[2].

وهنالك خرائط أخرى لم تُلوَّن وهي غالبية خرائط كتب التراث.

ب . وفق الخطوط المستخدمة:

مالت بعض الخرائط إلى استخدام الخطوط الهندسية من دوائر وأقراص

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ٢، ص ٥٦٣.

(٢) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

ومربّعات وخطوط مستقيمة مثل خرائط المقدسي (شكل ١٧) والاصطخري والبلخي، والتزمت بعض أنواع الخرائط خطوطاً ليست هندسية مثل خرائط المسعودي والبيروني والإدريسي (شكل ١٨).

جـ . وفق المساحة التي تمثّلها:

ساد نوعان من الخرائط، خريطة للعالم فيما عُرف بصورة الأرض، أو صورة الكل، وخرائط اقليمية لكل إقليم. ومما هو جدير بالذكر أن أقاليم فارس أكثر الأقاليم استئثاراً باهتمام الجغرافيين، وتتميّز خرائطها بكثرة بياناتها. وهناك رسوم تخطيطية لبعض المدن مثل تلك التي أوردها القزويني لمدينة قزوين (شكل ١٩). ومثل المسجد الحرام وتحديد القبلة للأقاليم المختلفة، كخارطة بلدان العالم بالنسبة للكعبة لابن الوردي (شكل ٢٠). ومن أنواع الخرائط التوضيحية الأخرى، تحديد الأقاليم السبعة على دائرة كما فعل البيروني (ص ١١٥) أو على مستطيل كما فعل سهراب (ص ٢١٥).

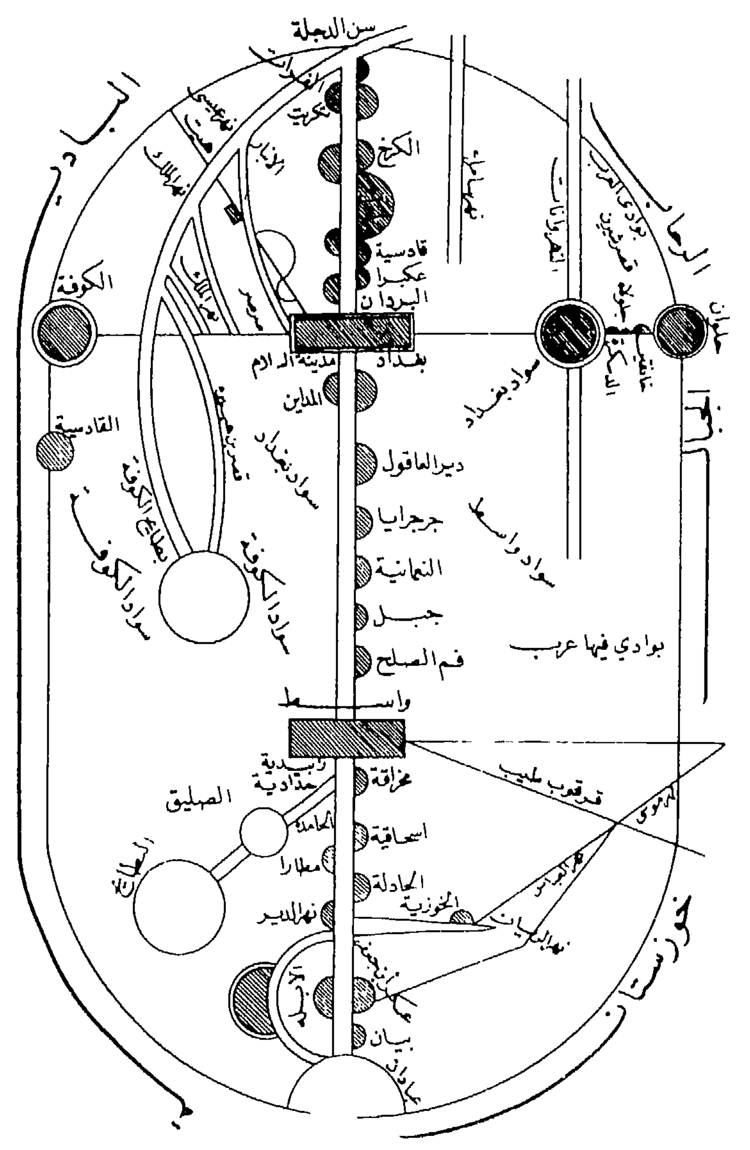
د . وفق الرموز المستخدمة:

لوحظ أن بعض الخرائط تمثّل المدن بمربعات صغيرة، وبعضها بأنصاف دوائر، كما فعل المقدسي، وبعضها بنقاط كما فعل الإدريسي، وبعضها مَثَّلَ الأنهار بخطَّين متوازيين مثل ابن حوقل والمقدسي، وبعضها مَثَّلَ الأنهار بخطّ واحد مثل الإدريسي والمسعودي.

هـ . وفق الأغراض التي رُسمت الخريطة لتوضيحها:

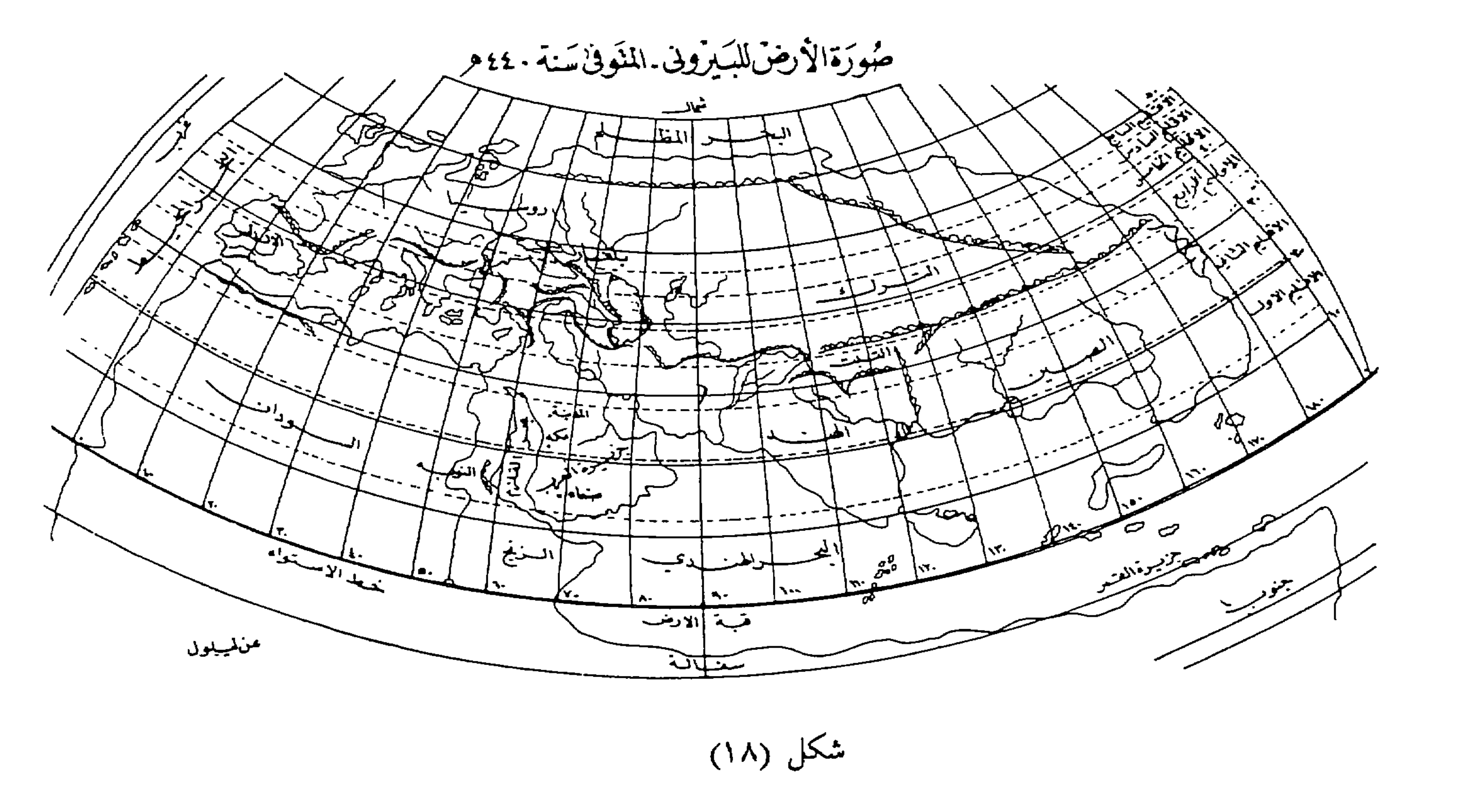
هناك خرائط بحرية مثل خرائط أُسرة الصفاقسي التونسية التي تمثّل سواحل البحر المتوسط وسواحل البحر الأسود وأرخبيل اليونان وكريت، وترجع

صورة العراق للمقدسي



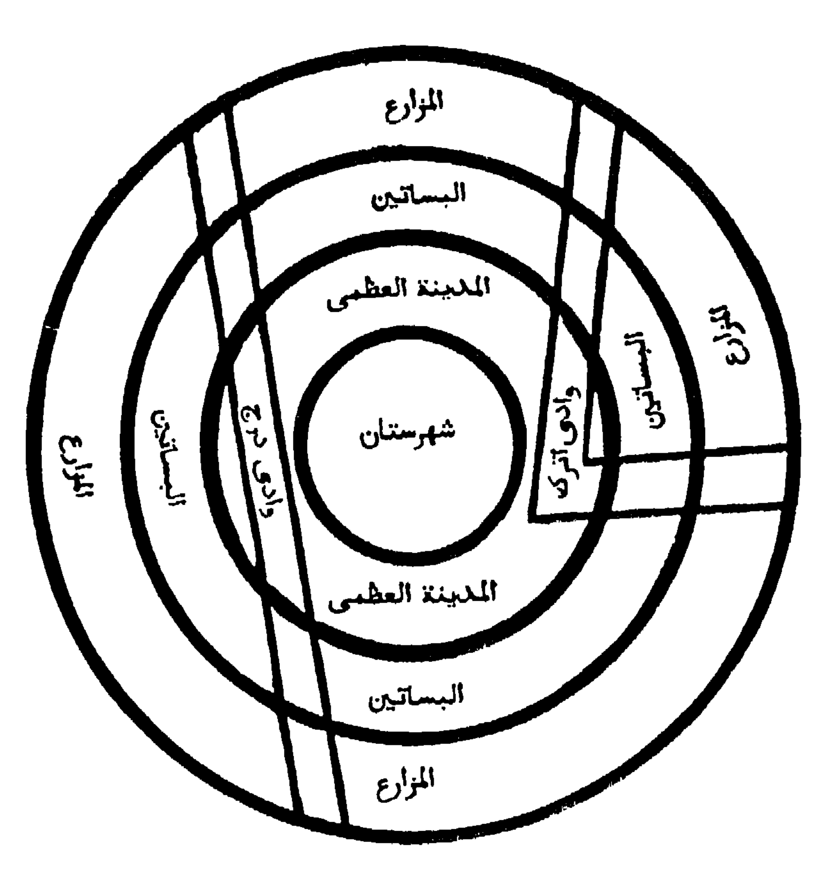
عن أحمد سوسة

شكل (١٧)


صورة الأرض للبيرونى ـ المتوفى سنة ٤٤٠ هـ
شمال
البحر المظلم
الترك
الصين
الهند
السودان
النوبة
القلزم
المدينة
مكة
صنعاء
الزنج
البحر الهندي
خط الاستواء
قبة الارض
سفالة
جزيرة القمر
جنوب
الاقليم الاول
الاقليم الثاني
الاقليم الرابع
الاقليم الخامس
الاقليم السادس
الاقليم السابع
١٠
٢٠
٣٠
٤٠
٥٠
٦٠
٧٠
٨٠
٩٠
١٠٠
١١٠
١٢٠
١٣٠
١٤٠
١٥٠
١٦٠
١٧٠
١٨٠

شكل (١٨)

مدينة قزوين للقزويني



شكل (١٩)

عن القزويني

هذه الخرائط إلى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي)، وهناك خرائط دينية توضح اتجاه القبلة وطرُق الحجّ، وخرائط تجارية توضح طرُق التجارة، ومن الخرائط ما يمكن أن توصف بأنها عسكرية أو حربية كتلك التي رُسمت للحجاج «خريطة الديلم»، وهناك خرائط تمثّل نطاقات استغلال الأرض حول المدن مثل خريطة مدينة قزوين للقزويني، والتي سبقت نموذج فون ثونن بستة قرون. (شكل ١٩).

٥ . سمات الخريطة العربية:

تميّزت الخرائط العربية بسمات خاصة، لعل أبرزها وضع الجنوب في أعلى الخريطة، وقد حار الباحثون في تعليل ذلك، ويرى مؤلف هذا الكتاب أنّ لوضع الجنوب في أعلى الخريطة مغزًى دينياً، ذلك أن جميع العواصم الإسلامية كانت شمالي مكة (المدينة - الكوفة - دمشق - بغداد - القاهرة)، ومعنى ذلك أن الخليفة كان يتّجه في صَلاته صوب الجنوب، صوب الكعبة، لذلك كان لا بدّ أن يوضع الاتجاه الجنوبي في أعلى الخريطة لأن الاتجاه الجنوبي يعني الاتجاه صوب القبلة، وهي أشرف بقعة يتجه إليها المسلمون. كما وأن في وضع الجنوب أعلى الخريطة مخالفة لغير المسلمين.

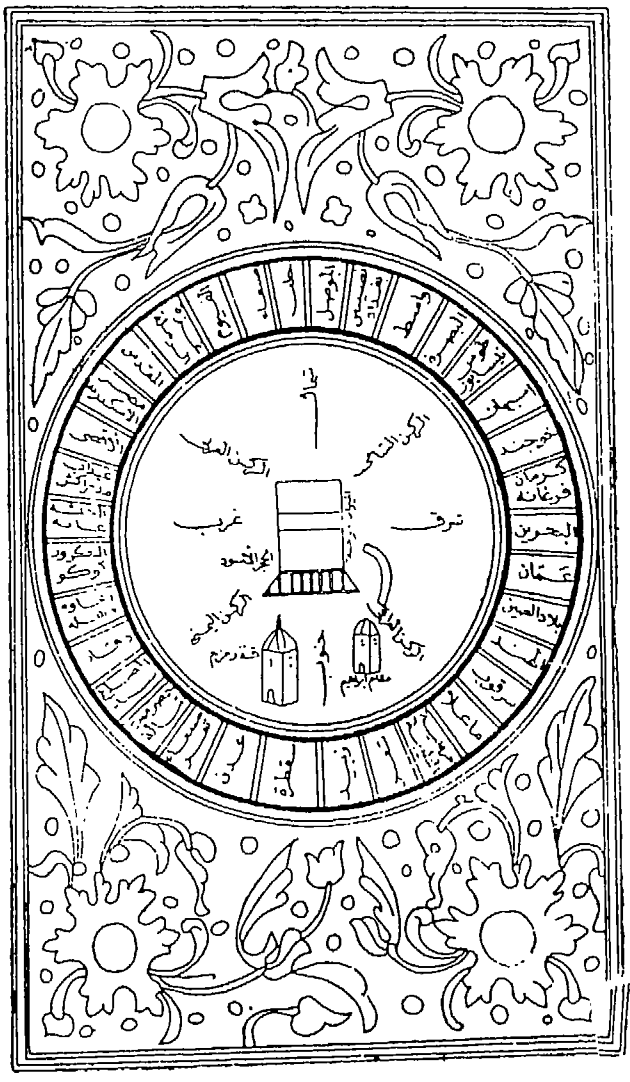
ولو نظرنا إلى خرائط الدولة الرومانية في العصر المسيحي نجد الشرق Orient في أعلى الخريطة لأن في الشرق بيت المقدس، وقد اشتهرت خرائطهم باسم T in O.

وما زالت كلمة Orientation التي تعني توجيه الخريطة، تشير إلى الأصل الذي اشتقّت منه وهو Orient يوم أن كان اتجاه الشرق يوضع في أعلى الخريطة حيث الأماكن المقدسة المسيحية (بيت المقدس الجليل).

ويعتقد العالِم الجغرافي الأستاذ الدكتور سليمان حزين أن وضع الجنوب في أعلى الخريطة الإسلامية هو تأثير صيني[1] إلا أن مؤلف هذا الكتاب يخالفه الرأي، ذلك أن أقدم خريطة صينية حجرية، ويرجع تاريخها إلى سنة

(١) رأي أدلى به في المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، الرياض، يناير ١٩٧٩م.

خريطة ابن الوردى توضح اتجاه القبلة لبلدان العالم



شكل (٢٠)

١١٣٧م، وهي محفورة على لوح حجري، تبيّن سور الصين العظيم وامتداده بالنسبة لهوانج هو (النهر الأصفر)، ومنها نستنتج أن الاتجاه الشمالي هو أعلى الخريطة (شكل ٢١). ويبدو أن الصينيين هم الذين تأثّروا بوضع الجنوب إلى أعلى الخريطة من العرب، ويؤكد ذلك وجود خريطة صينية للمستعمرات العربية ترجع في تاريخها إلى سنة ١٣٣١م أو ١٣٢٩م في عصر أُسرة يوان Yuan الحاكمة، وتبيّن هذه الخريطة حدود دولة الخاقان الأكبر، والدول الثلاث التي خضعت لحكم أُسرة جنكيزخان، وهذه الدول هي دولة جغتاي في آسيا الوسطى، ودولة أوزبك في سهوب القبجاق، ودولة أبي سعيد في إيران، وقد وردت أسماء القسطنطينية، ودمشق ومصر في الخريطة، وتختلف هذه الخريطة عن الخرائط الصينية القديمة من حيث أسماؤها الجغرافية، كما أن توجيه الخريطة من الجنوب إلى الشمال يتعارض مع الأسس التي رُسمت عليها خرائط الصين القديمة، وإن كان «فران» يرى أن الكارتوغرافيا الصينية كانت تلجأ في العادة إلى استعمال كلتا الطريقتين أي وضع الشمال أو الجنوب في أعلى الخريطة[1].

استخدام الألوان:

استخدم المسلمون الألوان في رسم خرائطهم، وقد ذكر المسعودي أنه رأى الخريطة المأمونية ووصفها بأنها فاقت الخرائط الإغريقية، وأنها خريطة ملونة.

وذكر المقدسي.. وذكرنا قصباتها، ورتّبنا مدنها وأجنادها بعدما مثّلناها ورسمنا حدودها وخططها، وحرّرنا طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها المالحة بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلى الأفهام ويقف عليه الخاص والعام. واستخدم الإدريسي الألوان في رسم خرائطه[2].

---

(١) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٣٩٩.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

عدم استخدام مقياس رسم:

يلاحظ على الخرائط العربية في العصور الوسطى أنها لم تراعِ مقياس رسم ثابت في معظم الخرائط، إذ إن بعض أجزاء الخريطة الواحدة ترسم تفصيلية وبمقياس رسم أكبر من بعض أجزائها الأخرى، ويتحكّم في ذلك ما يتوافر لدى الجغرافيين من بيانات. ومن الملاحظات الأخرى أن المسافات بين المواقع والمدن المختلفة تكون على أبعاد متساوية في الخريطة، بينما تتفاوت هذه الأبعاد وفقاً لما جاء بالنص، ومن أمثلة ذلك (صورة العراق للأصطخري) (شكل ٢٢) ومعظم خرائط المقدسي لأنّ كل ما كان يهتمُّ به الجغرافيون هو ترتيب تتابع المدن أو المواقع على الطرق دون مراعاة طول المسافات بين هذه المدن أو المواقع.

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن خرائط ما يُعرَف بالأطلس الاسلامي تتميّز باهتمامها بالمقاطعات الإيرانية وإبراز تفصيلاتها، وبأنها رسمت بمقياس رسم أكبر من مقياس رسم بقية الخرائط الأخرى «إن جاز لنا أن نستخدم مصطلح مقياس الرسم» وقد أدّى ذلك إلى عدم تجانس خرائط هذا الأطلس بحيث لا تكون خريطة واحدة إذا ما جمعت على عكس خرائط الادريسي التي يمكن أن تكون خريطة واحدة للعالم إذا ما ضمّت هذه الخرائط بعضها إلى البعض الآخر[1].

الخطوط الهندسية ورموز الخريطة:

تتميّز معظم خرائط التراث العربي في العصور الوسطى بأنها ذات خطوط هندسية، فالأنهار تُمثَّل بخطَّين متوازيين، المسافة بينهما ثابتة كما هي الحال في خرائط الاصطخري والبلخي والمقدسي والجيهاني (شكل ٢٣). كما أن المدن تُمثّل عادة بدوائر كما في خرائط الاصطخري والبلخي والمقدسي، وإذا كانت هذه المدن مواني نهرية أو بحرية رُسِمت على هيئة نصف دائرة.

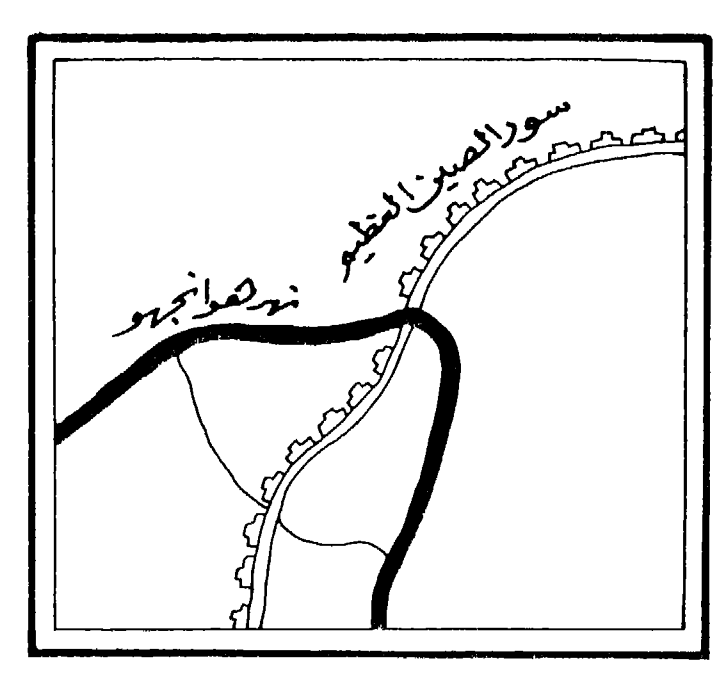
---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص ٩.

ومن أمثلة ذلك صورة ديار العرب للمقدسي، وصورة العراق للاصطخري، وأحياناً يرمز للمدن بمربعات أو مستطيلات كما هي الحال في صورة ديار العرب للبلخي، وقد رمز المقدسي للمدن الهامة في خرائطه بمستطيلات (مدينتا بغداد وواسط (شكل ١٧) ومكة وصنعاء في صورة (ديار العرب).

ويرمز للطرق عادة بخطوط مستقيمة كما هي الحال في معظم خرائط التراث.

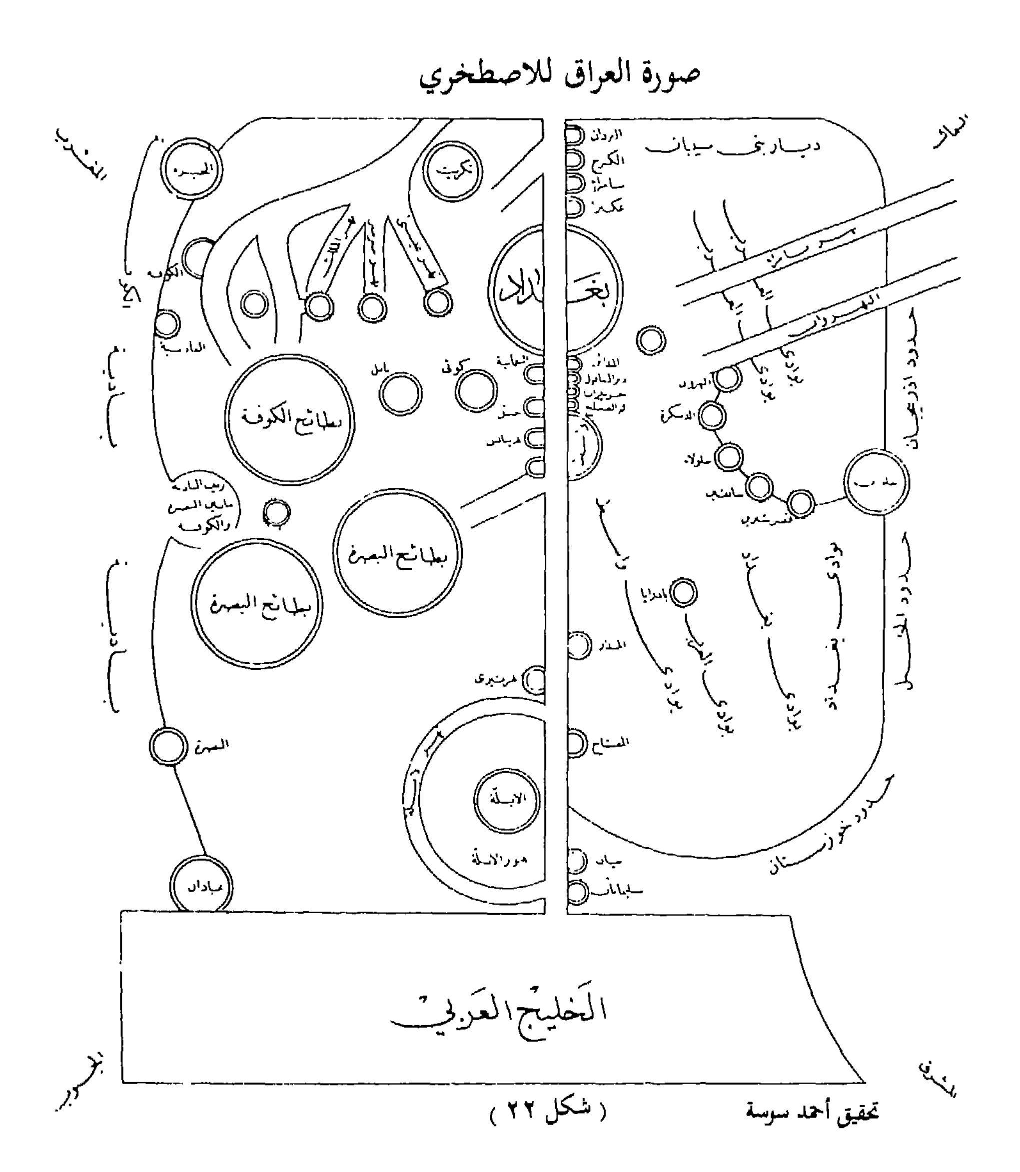
وتتميّز الخرائط العربية بعدم احتوائها على صوَر الحيوانات والملائكة كما كان الحال سائداً بالنسبة للخرائط الأوربية في العصور الوسطى.



اقدم خريطة صينية محفورة على
لوح حجري

شكل (٢١)

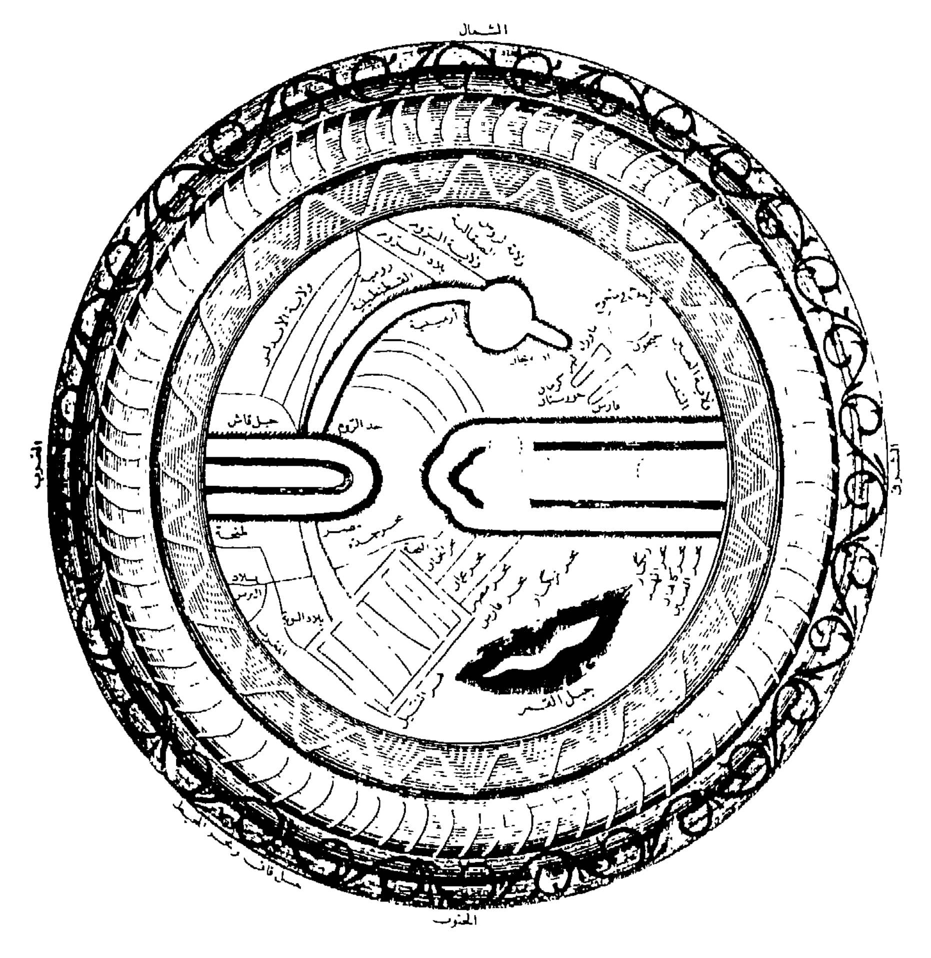
شكل (٢٢)



صورة العراق للاصطخري

(شكل ٢٢)

الكرة الأرضية للجيهاني



شكل (٢٣)

عن أحمد سوسة

الفصل الخامس

تصنيف المادة الجغرافية في كتب التراث

أولاً ـ الجغرافيا الطبيعية:

١ ـ بعض الإِشارات الجغرافية ذات الصبغة التضاريسية والجيمورفولوجية.

٢ ـ الجغرافيا المناخية.

٣ ـ الجغرافيا الحيوية «نموذج من آراء إخوان الصفاء في الجغرافيا الحيوية».

٤ ـ جغرافية البحار والمحيطات.

تصنيف المادة الجغرافية في كتب التراث

اتّصف الفكر الجغرافي في كتب التراث بالشمولية حيث تضمّنت هذه الكتب كثيراً من المعلومات الجغرافية المختلفة التي يمكن أن تصنّف، وفق ما هو سائد الآن إلى فروع جغرافية عديدة، وليست عملية التصنيف هذه تكلفاً أو مماحكة، وإنما يستند هذا التصنيف إلى خصائص مجال كل فرع من فروع الجغرافيا المعاصرة. ولقد وصف الجغرافيون المسلمون والرحّالة صفات الأقطار ومعالمها المختلفة، ولم يتركوا صفة بشرية أو طبيعية إلا وذكروها، لكنهم صاغوا المادة الجغرافية دون ما تصنيف أو تبويب كما هو متعارف عليه الآن، لذلك فإن هذا الفصل سوف يكتفي ببعض النماذج من فروع الجغرافيا المتنوعة، إذ إن الهدف هو الإشارة وليست الإحاطة بكل ما جاء في كتب التراث. وسنبدأ في معالجة تصنيف المادة الجغرافية بفروع الجغرافيا الطبيعية ثم نتبعها بفروع الجغرافيا البشرية.

أولاً: الجغرافيا الطبيعية في كتب التراث:

١ ـ بعض الإشارات الجغرافية ذات الصبغة التضاريسية والجيمورفولوجية في كتابات الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى

لم تنل الجوانب الجغرافية الطبيعية من الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى اهتماماً كبيراً مثل الاهتمام الذي حظيت به الجوانب البشرية. وكانت كتابة الجغرافيين المسلمين في بداية أمرها (الخوارزمي، صورة الأرض، وسهراب عجائب الأقاليم السبعة) تهتم بذكر أسماء الجبال والظاهرات الجغرافية الطبيعية وتحديد أطوالها وعروضها في جداول فقط، كما عنى ابن حوقل إلى حدٍّ ما في كتابه صورة الأرض[1]، بذكر الظاهرات الجغرافية الطبيعية من سهول وجبال وصحار، وذلك خلال معالجته للأقاليم الإسلامية. وقد قسّم المقدسي

(١) يُشار إلى هذا الكتاب أحياناً بإسم «كتاب المسالك والممالك».

تضاريس الشام إلى محاور طولية عبّر عنها على النحو التالي: ووضع هذا الإِقليم ظريف هو أربعة صفوف.

الصف الأول: يلي بحر الروم، وهو السهل، رمال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل[1].

الصف الثاني: الجبل مشجّر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيه من البلدان جبريل وإيليا ونابلس واللجون.. وقدس والبقاع وإنطاكية.

الصف الثالث: الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع ونيل، ويقع فيه البلدان. تبوك وأريحا وبيسان وطبرية وبانياس.

الصف الرابع: سيف البادية، وهي جبال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار، يقع فيه من البلدان مآب وعمان.. ودمشق وحمص وتدمر وحلب[2].

وقد حاول البيروني تفسير العلاقة بين اليابس والماء في كتاب «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» فقال:

«ينتقل البحر إلى البر، والبر إلى البحر في أزمنة، إن كانت قبل كون الناس في العالم فغير معلومة، وإن كانت بعده فغير محفوظة، لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد، وخاصة الأشياء الكائنة جزءاً بعد جزء بحيث لا تفطن لها. فهذه بادية العرب وقد كانت بحراً، فانكبس حتى إنّ آثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار والحياض بها، فإنها تبدي أطباقاً من تراب ورمال ورضراض، ثم فيها من الخزف والزجاج والعِظام ما يمتنع أن يحمل على دفن قاصد إياها هناك، بل تخرج أحجاراً إذا كُسِرت كانت مشتملة على أصداف وودع، وما يسمى آذان السمك[3]. إما باقية فيها على حالها، وإما بالية قد تلاشت وبقي مكانها خلاء فتشكّل بشكلها»[4].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، سنة ١٢٨٩هـ، ص ١٨٦.

(٢) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٦.

(٣) تُعرف هذه البقايا بالحفريات أو الأحافير.

(٤) علي أحمد الشحات، أبو الريحان البيروني، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨.

وهكذا نجد أن البيروني يشير إلى «الحفريات» وهي البقايا العضوية المختلفة، أو طوابعها، ويتّخذ منها دليلاً للاسترشاد بأن هناك مناطق برية كانت تشغلها البحار في الماضي. كما يشير البيروني في دقة إلى دراسة تكوين الطبقات لأن لهذه الطبقات دلالات يمكن الاستفادة منها كتعاقب طبقات التراب والرمل ووجود الأصداف البحرية في مناطق تبعد عن البحر كثيراً.

وقد توصل البيروني إلى أن التطورات والتحولات التي تحدث في سطح الأرض تستغرق دهوراً طويلة تحت ضغط البرد أو الحرّ، الأمر الذي لا نعرف وصفه أو قدَره.. فإننا نشاهد الماء والهواء حتى في أيامنا هذه يشغلان وقتاً طويلاً في إتمام عملهما. أما التطورات التي طرأت في العصور التاريخية فقد درست وسجلت في الصحائف.

ونجح البيروني في تفسير طريقة تكوين سهل هندستان، حين أشار بأنه كان في الأصل قاع بحر تراكمت عليه رواسب الطمي حتى أحالته سهلاً، ويقول البيروني في ذلك: «وأرض الهند من تلك البراري يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور (المحيط الهندي الآن) ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ، وإليها مصابُّ مياهها، بل لو تفكّرت عند المشاهدة فيها وفي أحجارها المدملكة الموجودة إلى حيث يبلغ الحجم عظيمة بالقرب من الجبال وشدّة جريان مياه الأنهار، وأصغر عند التباعد، وفتور الجري، ورمالاً عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر، لم تكد تصوّر أرضهم إلا بحراً في القديم قد انكبس بحمولات السيول[1].. وتشير هذه الآراء التي عرضها البيروني إلى أثر الإرسابات النهرية وأنها بمرور الوقت قادرة على تحويل المناطق البحرية إلى أرض يابسة.

وأوضح المسعودي أنه ليست مواضع الأرض الرطبة أبداً رطبة، ولا مواضع الأرض اليابسة أبداً يابسة، لكنها تتغيّر وتستحيل لصبّ الأنهار

---

(١) أبو الريحان البيروني، كتاب البيروني في تحقيق ما للهند من مقولة في العقل أو مرذولة، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، سنة ١٩٥٨م، ص ١٥٧.

إليها وانقطاعها عنها، ولهذه العلّة يستحيل موضع البحر وموضع البر، فليس موضع البر أبداً براً، ولا موضع البحر أبداً بحراً، بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً ويكون بحراً حيث كان مرة براً، وعلّة ذلك الأنهار وبدؤها وجريها **فإن لمواضع الأنهار شباباً وهرماً، وحياةً وموتاً ونشئاً ونشوراً، كما يكون ذلك في الحيوان والنبات، غير أن الشباب والكِبَر في الحيوان والنبات لا يكون جزءاً بعد جزء، لكنها تشبُّ وتكبر أجزاؤها كلها معاً، وكذلك تهرم وتموت في وقت واحد**[١].

وفي القرن الرابع الهجري ظهرت جماعة المفكرين التي اتخذت لنفسها لقب «إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء» وقامت بنشر إحدى وخمسين رسالة، أُشير في الرسالة الخامسة منها إلى العلوم التعليمية في الجغرافيا، ولا تخلو بقية الرسائل من إشارات ذات مغزى جغرافي. وقد أشارت الرسالة الخامسة إلى أثر التجوية في تفتُّت الصخور، إذ ذكرت الرسالة أن الجبال من شدّة إشراق الشمس والقمر والكواكب عليها بطول الأزمان والدهور تنشف رطوبتها. وتزداد جفافاً ويبساً، وتنقطع وتتكسر، وتصير أحجاراً وصخوراً أو حصى ورمالاً... ثم إن الأمطار والسيول تحطّ تلك الصخور والرمال إلى بطون الأودية والأنهار وتحمل ذلك شدّة جريانها إلى البحار.. وأن البحار لشدّة أمواجها وشدّة اضطرابها وفورانها، تبسط تلك الرمال والطين والحصى في قعرها سافاً على ساف بطول الزمان في قعور البحار جبالاً وتلالاً، كما تتلبّد من هبوب الرياح ادعاص الرمال في البراري والقفار[٢].

إن ما ذكره إخوان الصفاء يوضح لنا الدورة التحاتية وكيف تبدأ بعوامل التجوبة التي تؤثر في تفكيك الصخور وتفتيتها، ثم تنقل هذه المفتتات

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، بيروت، سنة ١٩٦٥م، ص ١١٢. «لقد سبق المسعودي برأيه عن مراحل مجرى النهر، وليم موريس ديفز Davis بتسعة قرون» المؤلف.

(٢) رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء، المجلد الثاني، الرسالة الخامسة من الجسمانيات الطبيعيات، طبعة دار بيروت، سنة ١٩٥٧، ص ٩٣- ٩٤.

الصخرية بفعل المياه الجارية لترسب في البحار «فلا يزال ذلك.. حتى تصير مواضع البراري بحاراً ومواضع البحار يبساً وقفاراً».

إن موضع اختلاف العلاقة بين اليابس والماء تناولته كتابات كثير من الجغرافيين المسلمين، ووصلوا إلى ذلك عن طريق الملاحظة الدقيقة الواعية، ومن هؤلاء العلماء المسلمين الذين أوضحوا ذلك المسعودي إذ قال: «فليس موضع البر أبداً براً ولا موضع البحر أبداً بحراً»[1].

وقد تناول القزويني[2] في القرن السابع الهجري العلاقة بين اليابس والماء فقال: (وأما صيرورة الجبال سهولاً فإن الجبال من شدّة إشراق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها بطول الزمان تنشف رطوبتها وتزداد يبساً وجفافاً وتكسر، فتصير أحجاراً وصخوراً ورمالاً، ثم إن السيول تحملها إلى بطون الأنهار والأودية ثم تحملها بشدّة جريانها إلى البحار تنبسط في قعرها ساقاً بعد ساق بطول الزمان، ويتلبّد بعضها فوق بعض فيحصل في البحار جبال وتلال، كما يتلبّد من هبوب الرياح دعاص الرمل في البراري، وقد يصير البحر يبساً واليبس بحراً).

ويبدو أن القزويني قد نقل هذا الجزء نقلاً تاماً من الرسالة الخامسة لإخوان الصفاء ولم يغيّر إلا بضع كلمات بسيطة، ويتّضح ذلك حينما نقارن النصّين.

وناقش المسعودي أثر الرياح في التعرية فقال: (والهرمان العظيمان اللذان في الجانب الغربي من فسطاط مصر وهما من عجائب بنيان العالم.. مبنيّان بالحجر العظيم على الرياح الأربع كل ركن من أركانها يقابل ريحاً منها، فأعظمها فيها تأثيراً الجنوب وهي المَريس[3] بتشقيقها الركن المقابل لها منهما)[4].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ ١، ص ٨٠.

(٢) محمد محمود القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦، ص ٦٩ وما بعدها، ويبدو تأثره بآراء إخوان الصفاء.

(٣) رياح تهبّ من الجنوب نسبة إلى بلاد مريس وهي من أعلى الصعيد في بلاد النوبة.

(٤) المسعودي، التنبيه والإشراف، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

وتناول إخوان الصفاء تفسير الزلازل، فزعموا أنها نتيجة محاولة خروج الأهوية والأدخنة المحتبسة، ولقد تناقل كثير من الجغرافيين المسلمين هذا الرأي، ومن هؤلاء ابن سينا والقزويني وابن الوردي وغيرهم[١]. وعرَّف ابن سينا (٣٧١هـ - ٤٢٨هـ) الزلزلة فقال: الزلزلة حركة لجزء من أجزاء الأرض بسبب ما تحته، ولا محالة أن ذلك السبب يفرض له أن يتحرك ثم يحرّك ما فوقه، ويقول ابن سينا إن الدليل على أن أكثر أسباب الزلزلة هي الرياح المحتقنة، أن البلاد التي تكثر فيها الزلازل، إذا حُفرت فيها آبار وقنى كثيرة حتى كثرت مخالص الرياح والأبخرة قلَّت الزلازل بها[٢].

وتعرّض ابن سينا في كتابه «الشفاء، المعادن والآثار العلوية» لأنماط من الهزات الأرضية مثل: (الرعشية) وهي الزلازل الاختلاجية العرضية، و (الرجفية) وهي الزلازل الرأسية، و (السلمية) وهي التي تحرّك الأرض في حركتين رأسية وأفقية، وأطلق ابن سينا على الزلازل التي تحرّك الأرض في اتجاهين تسمية (القَطْقَطْ)[٣].

وجدير بالذكر، أن سراج الدين بن الوردي أورد ما تداوله بعض الجهلة من الناس أن تحت الأرض ثوراً، وإذا حرّك رأسه حدثت الزلازل، وللأسف يُعيد بعض المستشرقين، كدأبهم دائماً، ما أورده ابن الوردي وروَّجوه على أنه ما زال رأي أغلب المسلمين في أسباب الزلازل حتى الآن، يحرّك الثور رأسه فتتحرّك الأرض[٤].

---

(١) محمد محمود محمدين (١٤٠٨هـ) الزلازل والبراكين في جزيرة العرب وتراثهم، مجلة الدارة، العدد الأول، السنة ١٤، ص ص ٤١- ٦٠.

(٢) عبد الحليم منتصر (١٩٧٣م)، تاريخ العلم ودور العرب في تقدمه، دار المعارف، القاهرة، ص ٤٥.

(٣) ابن سينا (١٩٦٥م) الشفاء، المعادن والآثار العلوية، تحقيق عبد الحليم منتصر وآخرون، ص ص ١٧- ٢١.

(٤) Billye W. Brown, (1974) Earthquakes, Addiso, Wesley Publishing Comp., P. 15.

ولقد تصدّى شيخ الإِسلام أحمد بن تيمية لخرافة الثور وفنّدها، يرى ابن تيمية أن الزلازل من الآيات التي يخوّف الله بها عباده، كما يخوّفهم بالكسوف وغيره من الآيات، والحوادث لها أسباب وحِكَم، ومن أسباب الزلازل: انضغاط البخار في جوف الأرض، كما ينضغط الريح والماء في المكان الضيّق، فإذا انضغط طلب مخرجاً، فيشقّ ويزلزل ما قرُب منه من الأرض، وأما قول بعض الناس: إن الثور يحرّك رأسه فيحرّك الأرض فهذا جهل، وإن نُقِلَ عن بعض الناس، وبطلانه ظاهر، فإنه لو كان كذلك لكانت الأرض كلها تزلزل وليس الأمر كذلك والله أعلم[1].

لقد عزا كثير من علماء المسلمين حدوث الزلازل إلى أسباب تتعلق بجوف الأرض، ومن هؤلاء القزويني الذي يرجع الزلازل إلى محاولة خروج المواد المنصهرة من جوف الأرض، ولا شك أن هذا النمط من الزلازل يسبق الثوَران البركاني في كثير من الأحيان. ويبدو كذلك أن القزويني قد تأثر بما كتبه إخوان الصفاء عن الزلازل[2]. وتناولت كتابة القزويني محاولات لتفسير نشأة الجبال فقال:

(وأما سبب ارتفاعها وشموخها فجاز أن يكون بسبب زلزلة فيها خسف فتنخفض بعض الأرض وترتفع بعضها، ثم المرتفع يصير حجراً.. وجاز أن يكون بسبب الرياح فتنقل التراب من مكان إلى مكان فتحدث تلال ووهاد)[3].

وبيّن القزويني أهميّة تضرُّس سطح الأرض فقال: (لو لم تكن الجبال لكان وجه الأرض مستديراً أملس، فكان مياه البحار تغطيها من جميع جهاتها وتحيط بها إحاطة كرة الهواء بالماء)[4].

إن ما ذكره القزويني يشير إلى الإِدراك بأن أعماق البحار تستطيع أن تستوعب قمم الجبال، وأن البحار تشغل مساحات كبيرة من سطح كوكب الأرض.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمة (١٣٩٨هـ) جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد النجدي الحنبلي، جـ ٤، ص ٢٦٤.

(٢) راجع الرسالة الخامسة من رسائل إخوان الصفاء، ص ٩٧، المجلد الثاني من طبعة بيروت.

(٣) القزويني، المصدر السابق، ص ٩٦.

(٤) القزويني، المصدر السابق، ص ٩٧.

وأشار القزويني إلى نشأة الأنهار فقال: (إذا وقعت الأمطار والثلوج على الجبال تنصبُّ إلى المغارات وتبقى مخزونة فيها في الشتاء، فإذا كان في أسفل الجبال منافذ، ينزل الماء من الأوشال بتلك المنازل فتحصل منها الجداول وينضمّ بعضها إلى بعض فيحدث منها أنهار وأودية، فإذا كانت الخزانات في أعلى الجبال فيستمرُّ جريانها أبداً لأن مياهها تنصبُّ إلى سفح الجبال ولا تنقطع مادتها لوصول مددها من الأمطار، وإن كانت الخزانات في أسفل الجبال فتجري منها الأنهار عند وصول مددها، ثم ينقطع عند انقطاع المدد وتبقى المياه فيها واقفة كما ترى في الأودية التي تجري في بعض الأيام ثم تنقطع لانقطاع مادتها)(١). وقد اهتمّ القزويني بتوضيح منابع الأنهار في خريطة العالم التي رسمها (شكل ٢٤).

مما ذكره القزويني، يتبيّن لنا أنه يرجع منابع الأنهار إلى ذوبان الجليد، أو الأمطار، أو ما يتسرّب من الماء منهما، وأن الأنهار تبدأ من روافد صغيرة هي الجداول التي ينضمُّ بعضها إلى بعض فتكوّن الأنهار. ويميّز القزويني بين الأنهار التي تكون منابعها بأعلى الجبال وبين تلك التي تنبع من عند سفوح الجبال، وأوضح أن الأنهار الأولى تتميز باستمرار جريان الماء فيها، أما الثانية التي تنبع من خزانات بأسافل الجبال لا تتميز باستمرار جريان الماء فيها إلا إذا استمرّ وصول المدد.

وتناول أبو علي بن سينا أغلفة الأرض فذكر أنها مكوّنة من هواء وماء وصخر (ثلاث طبقات: طبقة تميل إلى محوضة الأرضية وتغشاها طبقة مختلطة من الأرضية والمائية هي طين. وطبقة منكشفة عن الماء جفّف وجهها الشمس وهو البرّ والجبل. وما ليس بمنكشف فقد ساح عليه البحر). ثم يقول: (والهواء أيضاً فهو طبقات: طبقة بخارية وطبقة هواء صرف وطبقة دخانية، وذلك لأن البخار وإن صعد في الهواء صعوداً فإنه إنما يصعد إلى حدٍّ ما، وأما الدخان فيجاوزه ويعلوه لأنه أخفُّ حركة وأقوى نفوذاً لشدّة الحرارة فيه، وأعني

---

(١) القزويني، المصدر السابق، ص ١٠٨.

بالبخار ما يتصاعد من الرطب من حيث هو رطب، وأعني بالدخان ما يتصعّد عن اليابس من حيث هو يابس[1].

وأشار ابن الوردي إلى أغلفة الأرض فقال:[2]

والذي عليه الجمهور أن الأرض مستديرة كالكرة، وأن السماء محيطة بها من كل جانب كإحاطة البيضة بالمحّة، فالصفرة بمنزلة الأرض، وبياضها بمنزلة الماء، وجلدها بمنزلة السماء، غير أن خلقها ليس فيه استطالة كاستطالة البيضة، بل هي مستديرة كاستدارة الكرة المستديرة المستوية الخرط. حتى قال مهندسوهم: لو حفر في الوهم وجه الأرض لأدى إلى الوجه الآخر، ولو ثقب مثلاً بأرض الأندلس لنفذ الثقب بأرض الصين.

---

(١) عبد الأمير محمد أمين الورد، ابراهيم جواد الفضلي، الأصول العربية لعلم الأراضة (الجيولوجيا) أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، ص ٣٦١.

(٢) سراج الدين أبي خفص عمر بن الوردي (٦٨٩هـ - ٧٤٩هـ)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، طبعة مصطفى الحلبي، بدون تاريخ، طبع ص ١١.

خريطة العالم للقزويني



شكل (٢٤)

تحقيق أحمد سوسة

٢ ـ الجغرافيا المناخية

اهتمّ العرب قبل الإسلام بملاحظة الظاهرات المناخية المختلفة من رياح وسحب وأمطار، لارتباط حياتهم ارتباطاً وثيقاً بالمطر، والمطر يرتبط بدوره بالسحب والرياح. وقد ذكرت كتب فقه اللغة، أن للسحاب عند العرب مائة وخمسين اسماً[١] وللمطر أربعة وثمانين اسماً وفقاً لموسمه وشدّته واستمراره. واهتمّ العرب بالأنواء وربطوا بينها وبين سقوط الأمطار، حتى إنهم كانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا. وكأن المطر من فعل الكواكب، ومعنى النوء سقوط النجم في المغرب مع الفجر، وسقوط كل نجم يكون في ثلاثة عشر يوماً، خلا الجبهة، فإن لها أربعة عشر يوماً، فيكون سقوط الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة، وكانت العرب تقول: لا بدّ لكل كوكب من مطر أو ريح أو برد أو حر، فينسبون ذلك إلى النجم، وإذا مضت مدة النوء، ولم يكن فيها مطر قيل: خوى نجم كذا[٢]. وقد عدَّ الإسلام الاستسقاء بالأنواء من أمور الجاهلية[٣]. وحينما اتّصل المسلمون بالثقافة الإغريقية أخذوا عنهم بعض الآراء مثل تأثير زاوية ميل الشمس، وأثر ذلك في حرارة المكان.

إن من يتتبّع الإشارات ذات الصبغة المناخية عند الجغرافيين المسلمين يجدها قليلة، لكن بعضها يدعو للإعجاب، وعلى سبيل المثال، اتخذ الاصطخري المناخ أساساً في تقسيم بلاد فارس فهي عنده قسمان: فارس الشمالية أو «الصرود» وفيها أماكن يبلغ من شدّة البرد فيها، ألا ينبت عندهم

---

(١) انظر ملحق رقم ٢ الخاص بالمصطلحات الجغرافية في كتب التراث بآخر الكتاب.

(٢) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، كتاب الأنواء، طبعة حيدر آباد الدكن بالهند، سنة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦، ص ص ٦- ٧.

(٣) قال ﷺ: «إن الله عزّ وجلّ يقول ما أنعمت على عبادي نعمة إلا أصبحت طائفةٌ منهم بها كافرين، يقولون: مطرنا بنوء كذا كذا؛ فأما من آمن بي وحمدني على سقياي، فذلك الذي آمن بي وكفر بالكواكب» (البخاري، كتاب الأذان).

شيء من الفواكه، وفارس الجنوبية أو «الجروم» وبها ما يبلغ من شدّة الحرّ في الصيف ألا يبيت عندهم شيء من الطيور[١].

ويشير ابن خرداذبة في كتابه «المسالك والممالك» إلى بعض الأحوال المناخية حيث يقول: «وفي بلاد الروم على بحر الخزر بلاد تدعى المستطلة المطر، بها دائم الشتاء والصيف لا يقدر أهلها على دراس زرعهم وتذريتها، وإنما يجمعونها في البيوت في السنبل فيخرجون منها بقدر حاجتهم فيفركونه بالأيدي... وأهل الحجاز واليمن يمطرون الصيف كله ويخصبون في الشتاء، فمطر صنعاء وما والاها حزيران وتموز وآب وبعض أيلول من الزوال إلى المغرب يلقي الرجل الرجلَ نصف النهار فيقول: عجّل قبل الغيث، لأنه لا بدّ من المطر في هذه الأيام[٢].

ومن الجدير بالذكر أنه كان لأجدادنا العرب علامات يسترشدون بها في التوقعات المناخية، أو ما يُعرَف (بالتنبؤ بالطقس)، ومن ذلك أنهم قالوا: إذا رأيت الهواء عند طلوع الشمس صافياً، دلّ على صحو، وإن رأيت عند غروبها سحاباً فيه حمرة، دلَّ على تأخُّر المطر، وإن رأيت عند غروبها وطلوعها سحاباً متقطعاً، دلَّ على تأخُّر المطر، وإن طلعت الشمس حمراء، دلّ على صحو، وإن رأيت مع طلوعها سحاباً أسود، دلّ على مطر. وإن رأيت حول القمر دارات حمراء وسوداء وصفراء، دلّ على شدّة البرد[٣].

ومن طرق العرب الخاصة التي يتوقّعون بها سقوط المطر، أنه إذا لمعت سبعون برقة، انتقلوا إلى جهة البرق ولم يبعثوا، رائداً لثقتهم بالمطر، وإذا كان البرق عندهم وليفاً وثقوا بالمطر. - والوليف الذي يلمع لمعتين -[٤].

---

(١) محمد محمود الصياد «منهج المسلمين في البحث الجغرافي» بحث قدّم إلى المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، الرياض سنة ١٩٧٩م.

(٢) ابن خرداذبه، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٦.

(٣) الحسن بن البهلول (أواسط القرن الرابع الهجري)، كتاب الدلائل، تحقيق يوسف حبيبي، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظمة العربية، للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، سنة ١٤٠٨، ص ٦٦.

(٤) عبد الله بن قتيبة الدينوري (١٣٧٥هـ) كتاب الأنواء، حيدرآباد، ص ٧٧.

وكان للعرب كذلك محاولاتهم في الإسقاط الصناعي للمطر فيما يُعرف بـ (المطر الصناعي)، إذ إنهم كانوا يعمدون إلى جمع بعض الأبقار ويعلّقون أحطاب السَلَع والعشر في ذيولها وعراقيبها، ويصعدون بتلك الأبقار إلى جبل وعر ويشعلون فيها النار ويضجّون بالدعاء، وكانوا يرون ذلك سبباً يُتوصَّل به إلى نزول الغيث.

وقد وصف أُميّة بن أبي الصلت نار الاستمطار فقال:

ويسوقون باقر السهل للطود مهازيل خشية أن تبورا
عاقدين النيران في شكر الأذناب عمداً، كيما تهيج البحورا

ومما لا يخفى على الباحثين أن حُبيبات الكربون الدقيقة المتصاعدة في الدخان توفّر نويات لتكثيف بخار الماء، وهذه النظرية هي أساس ما يسمى بالمطر الصناعي[1].

وقد اهتمّ المقدسي في مصنّفه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» بالأحوال المناخية وذلك في الخلاصة التي كان يتبع بها دراسته عن كل إقليم، والتي اختار «جُمَل شؤون الإقليم» عنواناً لها. وعلى سبيل المثال: حينما تناول جمَل شؤون اقليم جزيرة العرب قال: «وهو إقليم شديد الحرّ إلا السروات، فإن هواءها معتدل»[2].

كذلك يبدأ كلامه عن جُمل شؤون إقليم العراق بقوله: (هواء هذا الإقليم مختلف فبغداد وواسط وما دخل في هذا الصقع بلد رقيق الهواء سريع الانقلاب ربما توهّج في الصيف وآذى، ثم انقلب سريعاً[3]) ويسير المقدسي على هذا المنوال في ذكر جمل شؤون كل إقليم.

ويُعدُّ المسعودي من أبرز الجغرافيين المسلمين الذين تنبّهوا إلى أن هناك

---

(١) محمد محمود محمدين: (١٤١٠هـ) النمط الكمي والزماني لأمطار الرياض، حلقة الدراسات الصحراوية المملكة العربية السعودية ص. ص ٢٢٩ - ٢٣٥.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.

(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٢٥.

عوامل مختلفة تؤثر في المناخ. وتناول المسعودي هذه العوامل تحت عنوان: «أصناف اختلاف البلدان» ورأى أنها أربعة: أولها النواحي، والثاني الارتفاع والانخفاض، والثالث مجاورة الجبال والبحار لها، والرابع طبيعة تربة الأرض، وذلك أن ارتفاعها يجعلها أبرد، وانخفاضها يجعلها أسخن على ما قدّمنا، وأما اختلافها لمجاورة البحار لها فمتى كان البحر من البلد في ناحية الجنوب، كان ذلك البلد أسخن وأرطب، وإن كان البلد في ناحية الشمال كان ذلك البلد أبرد وأيبس، وأما اختلافها بحسب طبيعة تربتها، فمتى كانت تربة الأرض صخرية جعلت ذلك البلد أبرد وأجفّ، وإن كانت تربة البلد خصبة جعلته أسخن وأجفّ، وإن كانت طينيّة جعلته أبرد وأرطب[1].

يتّضح لنا مما ذكره المسعودي أنه توصل إلى أثر كل من الموقع الذي عبّر عنه بكلمة «النواحي»، والارتفاع والانخفاض عن سطح البحر في المناخ، حيث لاحظ أن درجة الحرارة تقلّ كلما ارتفعنا عن سطح البحر. وأشار كذلك إلى أثر طبيعة سطح التربة في المناخ.

وتناول المسعودي كذلك الرياح المختلفة ومسمياتها وهي: رياح الصبا، وهي القبول كذلك، وتهبُّ من مطلع الشمس، والدبور التي تهبُّ من المغرب من دبر من استقبل المشرق، فلذلك سمّيت الدبور، والشمال التي تهبُّ من شمالك إذا استقبلت المشرق، والجنوب التي تهبُّ عن يمينك إذا استقبلت المشرق[2] وقد ذكرت العرب ذلك في أشعارها: قال العذري، وهو يومئذٍ مسجون بالمدينة:

ألا ليت الرياح مسخرات بحاجتنا تباكر أو تؤوب
فتخبرنا الشمال إذا أتتنا وتخبر أهلنا عنا الجنوب

وأشار إخوان الصفاء إلى طبقات للجوّ وعبّروا عنها بسمك الهواء حيث قالوا: (واعلم يا أخي بأن سمك الهواء ينفصل بثلاث طبائع متباينات، إحداها

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٦.
(٢) المسعودي، المصدر السابق، ص ١٦.
(راجع ملحق مصطلحات التراث الجغرافية «ملحق رقم ٢»).

مما يلي سطح الأرض، والأخرى هي الوسط بينهما، وذلك أن الهواء الذي يلي فلك القمر هو نار سموم في غاية الحرارة، يسمى الأثير، والذي في الوسط بارد في غاية البرودة يسمى الزمهرير، والذي يلي سطح الأرض معتدل المزاج في موضع دون موضع، يسمى النسيم)[١].

وبيَّن إخوان الصفاء أن الريح هي عبارة عن حركة الهواء بقولهم: (واعلم أن الريح ليست شيئاً سوى تموُّج الهواء بحركته إلى الجهات الستّ، كما أن أمواج البحر ليست شيئاً سوى حركة الماء وتدافع أجزائه)[٢].

واعلم أن الرياح كثيرة التصاريف في الجهات الست، ولكن جملتها أربعة عشر نوعاً، والمعروف منها عند جمهور الناس أربع، وهي: الصبا والدبور والجنوب والشمال. وذلك أن الهواء إذا تموّج من المشرق إلى المغرب، يسمى ذلك التموُّج ريح الصبا، وإذا تموّج من الجنوب إلى الشمال يسمى التيمن. وإذا تموّج من المغرب إلى الشرق يسمى دبوراً، وإذا تموّج من الشمال إلى الجنوب يسمى الجربياء. فإذا ما كان تدافعه إلى ما بين هذه الجهات فيسمى النكباء، وهذه ثمانية أنواع. وأما التي تهبّ من أسفل إلى فوق، فمنها تكون الزوابع، وهما ريحان تلتقيان وتصعدان.. وأما التي تهبّ من فوق إلى أسفل فمنها الريح الصرصر التي أهلكت عاداً.

ويتبع إخوان الصفاء بعد ذلك مناقشة ما يُعرف بالتساقط حيث يتتبّعون بخار الماء وصُوَر تكاثفه من أمطار وندى وجليد وضباب وطل وبرد، ويذكرون بأن موادها البخارات الصاعدة، حيث يقولون:

(واعلم يا أخي أنه إذا ارتفعت البخارات في الهواء، وتدافع الهواء في الجهات، ويكون تدافعه إلى جهة أكثر من جهة... وتتداخل أجزاء البخارين[٣]

---

(١) إخوان الصفاء، الرسالة الخامسة، ص ٦٥، من طبعة دار بيروت.

(٢) إخوان الصفاء، المصدر السابق، ص ٧١.

(٣) يميّز إخوان الصفاء بين نوعين من البخار، نوع من البخار رطب، ونوع من البراري والقفار، دخان يابس. وذكر أبو علي المرزوقي أن الشمس إذا مرّت على الأرض رفعت منها بخارين، بخاراً رطباً هو مادة الأمطار والأنداء، وبخاراً يابساً هو مادة الرياح كلها، وإنما يختلف هذان البخاران لاختلاف مواضعها التي ثارا منها، كتاب الأزمنة والأمكنة، جـ ٢، ص ٨٤.

بعضها في بعض، حتى يسخن ويكون منها سحاب مؤلف متراكم، كلما ارتفع السحاب بردت أجزاء البخارين وانضمت أجزاء البخار الرطب بعضها إلى بعض، وصار ما كان دخاناً يابساً ريحاً، وما كان بخاراً رطباً ماءً وأنداء.. ثم تلتئم تلك الأجزاء المائية بعضها إلى بعض وتصير قطراً برداً، وتثقل فتهوى راجعة من العلو إلى السفل فتسمى حينئذٍ مطراً. فإذا كان صعود ذلك البخار الرطب بالليل، والهواء شديد البرد، منع أن تصعد البخارات في الهواء بل جمّدها أولاً فأولاً، وقرّبها من درجة الأرض فيصير من ذلك ندى وصقيع وطل. وإن ارتفعت تلك البخارات في الهواء قليلاً وعرض لها البرد صارت سحاباً رقيقاً، وإن كان البرد مفرطاً جمد القطر في حلل الغيم فكان من ذلك الجليد أو الثلج[1].

وتعرّض إخوان الصفاء بعد ذلك لظاهرة البرق والرعد، وتوصّلوا إلى أنهما تحدثان معاً وقالوا:

(وأما البروق والرعود فإنهما يحدثان في وقت واحد، ولكن البرق يسبق إلى الأبصار قبل الصوت إلى المسامع، لأن أحدهما روحاني الصورة وهو الضوء والآخر جسماني وهو الصوت)[2].

وفسّر إخوان الصفاء ظاهرة قوس قزح على النحو التالي: (وأما قوس قزح فإنه يحدث في سمك كرة النسيم عند ترطيب الهواء مشبعاً، ولا يكون وضعه إلا منتصباً قائماً، وحدبته إلى فوق مما يلي سطح كرة الزمهرير، وطرفاه إلى أسفل مما يلي وجه الأرض، ولا يكاد يحدث إلا في طرفي النهار في الجهة المقابلة لموضع الشمس مشرقاً أو مغرباً[3]). ولقد قيل إن قوس قزح سمّي بذلك لتلوّنه. وكان ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ يكره أن يسميه قوس قزح ويسمّيه قوس الله، ويقول قُزَح اسم الشيطان[4].

---

(١) إخوان الصفاء، الرسالة الخامسة، ص ٧٣ـ ٧٤.

(٢) إخوان الصفاء، المصدر السابق، ص ٧٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٧.

(٤) شهاب الدين النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م، السفر الأول، ص ٢٣.

وتناول القزويني بعض الجوانب المناخية التي تناولت السحب والأمطار حيث يقول:

(وليتأمل السحاب الكثيف المظلم كيف اجتمع في جوّ صافٍ لا كدورة فيه، وكيف حمل الماء وتسخير الرياح فإنها تتلاعب به وتسوقه إلى المواضع التي أرادها الله فترسم وجه الأرض وترسله قطرات متفاضلة لا تدرك قطرة منها قطرة ليصيب وجه الأرض برفق، فلو صبّه صبًّا لأفسد الزرع بخدشه وجه الأرض ويرسلها مقداراً كافياً لا كثيراً زائداً على الحاجة فيعفن النبات، ولا قليلاً ناقصاً عن الحاجة فلا يتمّ به النموّ كما قال تعالى: «وأنزلنا من السماء ماء بقدر» ثم إلى اختلاف الرياح فإن منها ما يسوق السحب، ومنها ما ينشرها، ومنها ما يجمعها، ومنها ما يعصرها، ومنها ما يلقّح الأشجار، ومنها ما يربّي الزرع والثمار ومنها ما يجفّفها)[1].

وتناول القزويني صُوَر التكاثف المختلفة من مطر وسحاب وثلج، إلا أنه اعتمد في هذا الموضوع اعتماداً كلياً على ما ذكره إخوان الصفاء[2].

وذكر القزويني أسباب هبوب الرياح فقال: «وأمّا كيفية حدوثها فإن الأدخنة التي تصعد من الأرض من تأثير الشمس وغيرها إذا وصلت إلى الطبقة الباردة، إما أن ينكسر حرّها وإما أن تبقى على حرارتها، فإن انكسر حرّها تكاثفت وقصدت النزول فيموج بها الهواء فيحدث الريح، وإن بقيت على حرارتها تصاعدت إلى كرة النار المتحركة بحركة الفلك فتردّها الحركة الدورية إلى أسفل فيموج بها الهواء فيحدث الريح[3].

وناقش القزويني ظاهرة البرق وحدوث الصواعق فقال، وربما يشتعل ناراً لشدّة المحاكة فيحدث منه البرق إن كان لطيفاً، والصاعقة إن كان غليظاً كثيراً فتحرق كل شيء أصابته.

---

(١) القزويني، عجائب المخلوقات، المصدر السابق، ص ٤.

(٢) يمكن مقارنة ما كتبه القزويني تحت «فصل في السحاب والمطر وما يتعلق بهما»، ص ٦١، بما كتبه إخوان الصفاء في هذا الموضوع.

(٣) القزويني، المصدر السابق، ص ٦٢.

واعلم أن الرعد والبرق يحدثان معاً، لكن يرى البرق قبل أن يسمع الرعد[1] وذلك لأن الرؤية تحدث بمراعاة البصر، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ وذلك يتوقف على تموُّج الهواء وذهاب النظر أسرع من وصول الصوت[2].

وقد روى أبو الفرج الجوزي بإسناده، أن الريح تنقسم إلى قسمين: رحمة وعذاب، وينقسم كل قسم إلى أربعة أقسام، ولكل قسم اسم، فأسماء أقسام قسم الرحمة: المبشرات، والنُشر، والمرسلات، والرُخاء. وأسماء أقسام قسم العذاب: العاصف والقاصف (وهما في البحر)، والعقيم والصرصر (وهما في البر) وقد جاءت هذه الأسماء في القرآن الكريم[3].

وتناول ابن خلدون في مقدمته الشهيرة تفسير بعض الظاهرات المناخية وارتباط الحرارة بميل أشعة الشمس، وأوضح أن الشمس تتعامد على خط الاستواء مرتين، ولذا يشتدّ الحر عند المسامتة، لأن ضوء الشمس سبّب الحر والتسخين، ويقول ابن خلدون: (ثم أن المسامتة في خط الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان، وإذا مالت فغير بعيد، ولا يكاد الحرّ يعتدل في آخر ميلها عند رأس السرطان والجدي... ثم إذا مال رأس السرطان عن سمت الرؤوس في عرض خمس وعشرين وما بعده نزلت الشمس عن المسامتة فيصير الحرّ إلى الاعتدال أو يميل عنه ميلاً قليلاً... إلى أن يفرط البرد من شدّته لقلّة الضوء)[4].

ثم تناول ابن خلدون أثر المناخ في صفات الإنسان ومزاجه، ويمكن أن يعدّ ابن خلدون أحد أنصار المدرسة البيئية والحتمية، وذلك من خلال آرائه التي عرضها عن تأثير المناخ في سكان الأقاليم المختلفة كما فعل المسعودي حين قال:

---

(١) تصل سرعة الضوء إلى ٣٠٠ ألف كم / ثانية، وسرعة الصوت في الهواء ٣٤٠ متراً/ثانية.

(٢) القزويني، المصدر السابق، ص ٦٤.

(٣) النويري، مصدر سبق ذكره، جـ ١، ص ٩٥.

(٤) شاكر خصباك، في الجغرافيا العربية، نقلاً عن مقدمة ابن خلدون، طبعة المكتبة التجارية الكبرى في القاهرة، ص ٥٠ - ٥١.

(وأما أهل الربع الشمالي، وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغلين في الشمال كالصقالبة والأفرنجة ومن جاورهم من الأمم، فإن سلطان الشمس ضعُفَ عندهم لبُعدهم عنها، فغلب على نواحيهم البرودة والرطوبة وتواترت الثلوج عندهم والجليد.. وإبيضّت ألوانهم ورقّت جلودهم وغلُظت لحومهم.

وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحابش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مسامتة الشمس، فإنهم بخلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلّة الرطوبة فاسودّت ألوانهم واحمرّت أعينهم وتوحّشت نفوسهم.. وتفلفلت شعورهم)[1].

٣ ـ الجغرافيا الحيوية

تضمنت كتابات الجغرافيين المسلمين كثيراً من الحقائق عن النباتات والحيوانات وربطت بينها وبين ظروف البيئة. وبعض هذه الحقائق منقول عن التراث الاغريقي، وبعضها ملاحظات أصيلة عن البيئة الإسلامية.

ومن أبرز الذين كتبوا عن النباتات، أبو حنيفة الدينوري الذي يُعدُّ شيخ النبّاتين العرب على الإطلاق، وهو من علماء القرن الثالث الهجري. وقد رتّب الدينوري أسماء النبات على حروف المعجم ووصف أجزاء النباتات المختلفة واستعمالاتها. ويقول الدينوري عن «الأراك»، واحدته «أراكة» أفضل ما استيك بفرعه وعرقه، وأطيب ما رعته الماشية... ومنابت الآراك بطون الأودية وربما نبت بعض الآراك في الجبل.

أما ابن البيطار فهو من أبرز علماء الأعشاب، وُلد في أواخر القرن السادس الهجري في مالقه، ولما بلغ العشرين قام بجولة واسعة في شمالي أفريقيا لدراسة النباتات، وزار سوريا وتركيا.

ويُعدُّ الجاحظ من أشهر الذين كتبوا عن الحيوانات. والجاحظ هو

---

(١) المسعودي، التنبيه والاشراف، مصدر سبق ذكره، ص ٢٢ـ ٢٣.

أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني، لُقّب بالجاحظ لجحوظ عينيه. وُلد بالبصرة سنة ١٥٩هـ. عاش من بيع الخبز والسمك، وقيل لم يقع في يده كتاب قط إلا استوفى قراءته، ومات سنة ٢٥٥هـ وعلى صدره كتاب. وبلغت مؤلفات الجاحظ أكثر من ٣٥٠ كتاباً من أشهرها «البيان والتبين» والبخلاء، وكتاب الحيوان ويقع في سبعة أجزاء.

تعرّض الجاحظ لأقسام الكائنات فقال:

إن العالم بما فيه من الأجسام على ثلاثة أنحاء: متّفق، ومختلف، ومتضادّ، وكلها في جملة القول جماد ونام.

ثم قسّم النامي قسمين: حيوان ونبات، والحيوان على أربعة أقسام: شيء يمشي، وشيء يطير، وشيء يسبح، وشيء ينساح.

ويلاحظ أن الجاحظ لا يتّخذ له معياراً محدداً واضحاً في تقسيم الطير، فقد أخرج النعامة من الطير، وهي طائر يبيض وله ريش ومنقار، وإن كانت لا تطير لثقل في جسمها، بينما أدخل حيواناً ثديياً هو الخفّاش في الطير وليس له ريش ولا منقار، بل له شعر وأسنان، ويلِد كبقيّة الثديات.

وكان الجاحظ شغوفاً بالتجريب، فقد كان يضع صنوف الحيوان من عقارب وحيّات وجعلان في قوارير من زجاج ليرى كيف تصطرع[1]. وقد أشار الجاحظ إلى كثير من ملاحظاته العلمية ومشاهداته، ويذكر المستشرق شارل بِلاًّ Ch. Pellat إلى التجارب التي أنجزها الجاحظ على الحيوانات أمثال تأثير الخمر عليها، وزعم الجاحظ أنه لم يجد في جميع الحيوانات أملح سكراً من الظبي[2].

---

(١) حسين فرج زين الدين، رمسيس لطفي، دراسات في علم الحيوان، دار الفكر العربي، بدون تاريخ، ص ٤٢٢.

(٢) الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، سنة ١٩٦٥م، جـ ٢، ص ٢٣٠، عبد الحليم منتصر في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأدبية، القاهرة، سنة ١٩٧٠م، ص ص ٢٤٧- ٢٤٨.

ولاحظ الجاحظ العلاقة بين البيئة وبين قلّة أو كثرة البيض عند الدجاج فيذكر: «وسألت عن السبب الذي صار له الدجاج إذا أكثرن قلَّ بيضهنَّ وفراخهنَّ، فزعموا أنها في طباع النخل، فإذا زحمت، بل إذا مسّ طرف سعف الأخرى وجاورتها ضيّقت عليها الهواء لذلك فتدانيها - أي الدجاج - وتضاغطها وأنفاس أبدانها وأنفاسها يحدث لها فساداً»[1].

ومن الذين اهتمُّوا بدراسة الحيوانات «الدميري» وهو كمال الدين أبو البقاء بن محمد بن موسى بن عيسى الدميري المصري، وُلد بالقاهرة سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م) وتوفي بالقاهرة سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م).

وكتابه «حياة الحيوان الكبرى» أوفى الكتب التي كُتبت عن المملكة الحيوانية في القرن التاسع الهجري، وذكر الدميري أنه جمعه من ٥٦٠ كتاباً و ١٩٩ ديواناً من دواوين شعراء العرب. وتناول الدميري في هذا الكتاب الحيوانات المختلفة بأسمائها وصفاتها وخصائصها، وما ورد عن كل حيوان من أحكام الحلال والحرام. وقد رتّب الكتاب على حروف المعجم ليسهل البحث فيه، ويبدو من مقدمة كتاب حياة الحيوان أن الباعث له هو رغبة الدميري في تصحيح معلومات خاطئة عن الحيوان شاعت في أذهان الناس ورسخت.

ويضمُّ كتاب الحيوان ١٠٦٦ مادة تتّصل بالتاريخ الطبيعي للحيوان، إلا أن كثيراً من الحيوانات ما يحمل أكثر من اسم يتكرّر ذكره عند إيراد كل اسم من أسمائه حسب ترتيبه الهجائي. والكتاب يحتوي على وصف ٧٣١ حيواناً[2].

ونظراً لأهمية كتاب الحيوان فقد وضعت له مختصرات كثيرة.

ولقد اعتنى الدميري بالكلام عن بيئة الحيوان وطباعه وغذائه، وذكر الحيوانات التي تنشط في الليل والتي تنشط في النهار، وتأثير ذلك على أبصارها، وكذلك الحيوانات التي تعيش في الصحاري أو في الأراضي المنزرعة أو الصخرية أو في الجبال أو في الماء.

---

(١) كتاب الحيوان، المصدر السابق، جـ ٢، ص ٣٣٥.

(٢) حسين فرج زين، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦.

وتتبّع الدميري ظاهرة التكامل بين الحيوانات، ففي مادة الضب يقول إن بينه وبين العقارب مودّة، فلذلك يؤويها في جحره لتلسع المتحرّش به إذا أدخل يده ثم أورد قول الشاعر:

وأخدع من ضب إذا جاء حارس   أعدّ له عند الذبابة عقرباً

وقد أشار (القزويني) إلى أن الزروع والأشجار لا تنبت إلا في المواضع التي تطلع عليها الشمس، وكذلك لا ينبت تحت النخيل والأشجار العظيمة التي لها ظلال واسعة شيء من الزروع لأنها تمنع شعاع الشمس عما تحتها(١).

وهكذا نجد أن القزويني توصل إلى معرفة أثر الشمس في نمو النباتات وهذه ملاحظة علمية صحيحة. وميّز القزويني النبات بأنه متوسط بين المعادن والحيوان بمعنى خارج عن نقصان الجمادية الصرفة التي للمعادن، وغير واصل إلى كامل الحسّ والحركة اللتين اختصّا بهما الحيوان، لكنه يشارك الحيوان في بعض الأمور لأن الباري تعالى يخلق لكل شيء من الآلات ما يحتاج إليها في بقاء ذاته ونوعه.. ثم تحدّث عن الشجر وعرفه بأنه كل ما له ساق من النبات، وتحدّث عن بعض أنواع الأشجار مثل الأبنوس والآس وغيرها.

والقسم الثاني من النبات، النجوم والنجم كل نبت ليس له ساق صلب مرتفع مثل الحشائش البرية(٢).

وتطرّق القزويني للحيوانات فقال:

(أما الحيوان ففي المرتبة الثالثة من الكائنات وأبعد المولدات عن الأمهات لأن المرتبة الأولى للمعادن وهي الباقية على الجمادية لقربها من البسائط، والمرتبة الثانية فإنها متوسطة بين المعادن والحيوان بحصول النشوء والنموّ وفوات الحسّ والحركة... ولما كانت الحيوانات بعضها عدوّ لبعض اقتضت الحكمة الإلهية لكل حيوان آلة يحفظ بها نفسه من عدوّه. منها ما يدفع العدوّ بالقوّة والمقاومة كالفيل والأسد والجاموس، ومنها ما يسلم من عدوّه بالفرار فأعطى

---

(١) القزويني، المصدر السابق، ص ١٧.

(٢) القزويني، المصدر السابق، ص ١٤٥.

آلة الفرار كالظباء والأرانب والطيور. ومنها ما يحفظ نفسه بسلاح كالقنفذ والسلحفاة، ومنها ما يحفظ نفسه بحصن كالفأر والحيّة والهوام. وتقتضي الحكمة الإلهية أن الله تعالى خلق لكل حيوان من الأعضاء ما يتوقف عليه بقاء ذاته ونوعه لا زائداً ولا ناقصاً، ولذلك اختلفت أشكالها وأعضاؤها وتنوّعت أنواعها بأنواع كثيرة)[١].

نموذج من آراء إخوان الصفاء في الجغرافيا الحيوية:

تعريف بإخوان الصفاء:

«إخوان الصفاء» اسم اتّخذته جماعة من المفكرين الذين حاولوا مزج الدين بالفلسفة، وقد اتّخذوا هذا الاسم إشارة إلى إحدى حكايات «كليلة ودمنة»[٢]. وقد تألفت هذه الجماعة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكان موطنها الذي نشأت فيه وتكوّنت البصرة، وكان لها فرع ببغداد.

ولا يعرف عدد أفراد هذه الجماعة لأنهم كانوا يستترون في اجتماعاتهم ولم يُعرف منهم سوى خمسة، منهم: أبو محمد سليمان محمد بن مقسر البستي المعروف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، ثم أبو أحمد المهرجاني وأبو الحسن العوفي ثم زيد بن رفاعة[٣].

وقال أبو حيّان التوحيدي: (كانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة.. فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله. وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دُنّست بالجهالات، واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حامية للحكمة الاعتقادية والمصلحة

(١) القزويني، المصدر السابق، ص ١٨٠.
(٢) كراتشكوفسكي، جـ ١، ص ٢٢٦.
(٣) رسائل إخوان الصفاء، ص ٥.

الاجتهادية. وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة الاجتهادية اليونانية، والشريعة العربية فقد حصل الكمال).

ويعتقد بأن هذه الجماعة كانت قريبة من فرقة الاسماعيلية وتنتصر لمذهبهم. ويقول المستشرق دي بور: (إن آراء أخوان الصفاء ظهرت في جملتها من جديد عند فِرَق كثيرة في العالم الإسلامي: كالباطنية، والاسماعيلية، والحشّاشين والدروز، وقد أفلحت الحكمة اليونانية في أن تستوطن الشرق، وذلك عن طريق اخوان الصفاء[1]).

وقد صاغ إخوان الصفاء آراءهم التي حاولت التقريب بين الفلسفة والدين في إحدى وخمسين رسالة لم تنسب إلى أحد منهم، وذلك في بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ومن يتتبّع هذه الرسائل يجد أنها تعتمد أساساً على الفلسفة اليونانية، وتتأثر إلى حد كبير بالديانات الإيرانية وبالتنجيم، والمغزى الذي يخرج به من يدرس هذه الرسائل هو أن كل ما يحدث على الأرض في رأي إخوان الصفاء إنما يخضع لحركات النجوم.

وينقسم إخوان الصفاء إلى أربع مراتب ترتبط بالسن:

١ ـ مرتبة الذين تخطُّوا الخامسة عشرة ويطلقون عليهم الأبرار والرحماء.

٢ ـ مرتبة الذين أتمُّوا الثلاثين ويُعرَفون باسم الرؤساء ذوي السياسات ويسمّونهم الإخوان الأخيار والفضلاء.

٣ ـ مرتبة الذين أتمُّوا الأربعين مرتبة الملوك ذوي السلطان ويسمُّونهم الإخوان الفضلاء الكرام.

٤ ـ الذين أتمُّوا الخمسين وهي المرتبة العليا ويشاهدون الحق عياناً ويقفون على أحوال الآخرة.

وحاول إخوان الصفاء استمالة الأشخاص ذوي المناصب والمال والجاه

(١) دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص ١١٣، ترجمة عبد الهادي أبو ريده.

إلى مذهبهم، وكانوا يميلون إلى السكينة وانتظار الوقت الملائم للثورة والعصيان فهم بذلك من أهل الدعوات الباطنية ولهم قرابة بالقرامطة أو الإسماعيلية.

وكان العصر الذي عاش فيه إخوان الصفاء تربة صالحة لبذر الأفكار السياسية بسبب ضعف الدولة العباسية التي تقاسمتها الحركات الانفصالية المختلفة في المشرق والمغرب، وقد حاول إخوان الصفاء توفيق الفلسفة اليونانية وظاهر الشريعة الإسلامية كما أوَّلوا الآيات والأحاديث وفق ما يناسب عقائدهم، كما أنهم لا يعادون مذهباً أو ديناً ويقولون: ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ويجمع العلوم جميعها، ونادوا بصحة الأديان كلها مما دمغهم بصفة الإلحاد من جانب رجال الإسلام الذين لم يطمأنوا إلى الرمزية التي لجأ إليها إخوان الصفاء الذين استشهدوا بآراء من العقيدة المسيحية والديانات الفارسية القديمة.

إلى ماذا تهدف حركة إخوان الصفاء:

يعتقد كثير من الباحثين أن جماعة إخوان الصفاء كانت تهدف إلى غاية سياسية ترمي إلى قلب السلطان والدِّين معاً بحيث يتعايش الناس جميعاً في سلام فهم لا يتعصّبون لمذهب أو لدين فدعوتهم بذلك دعوة عالمية حاولت مزج الإسلام بغيره من الديانات أو الفلسفات، وكان إخوان الصفاء لا يسمحون للغرباء بالاستماع إلى أحاديثهم أو حضور جلساتهم.

ويذكر فريق آخر من الباحثين هذا الرأي مستنداً إلى أن إخوان الصفاء قد تحلُّوا بالزهد في الدنيا والمحبة والأمانة والصدق والوفاء.

نظرة تحليلية لرسائل إخوان الصفاء:

تنقسم رسائل إخوان الصفاء إلى أربعة أقسام منها رياضية تعليمية، ومنها جسمانية طبيعية، ومنها نفسانية عقلية، ومنها ناموسية إلهية. وتضمّ الأقسام الأربعة إحدى وخمسين رسالة، ورسالة أخرى جامعة فيكون مجموع الرسائل اثنتين وخمسين رسالة.

وقد صيغت رسائل إخوان الصفاء في أسلوب سهل. واعتمد إخوان

الصفاء على مصادر متنوعة هي كتب الحكماء من الرياضيات والطبيعيات، والمصدر الثاني الكتب المقدسة، والمصدر الثالث الكتب الطبيعية وهي صوَر أشكال الموجودات وأقسام البروج وحركات الكواكب وفنون الكائنات من الحيوان والنبات والمعادن.

وخصّص إخوان الصفاء للرياضة والمنطق أربع عشرة رسالة. أما العلوم الطبيعية فقد احتوتها سبع عشرة رسالة، وكان نصيب الميتافيزيقيا وعلم النفس عشر رسائل، وظفر التصوُّف والتنجيم والسحر بإحدى عشرة رسالة.

الفكر الجغرافي عند إخوان الصفاء:

اهتمّ إخوان الصفاء بالجغرافيا فأفردوا لها رسالة خاصة هي الرسالة الرابعة في القسم الرياضي. وقد تناولت هذه الرسالة صفة الأقاليم وما في الربع المسكون من الأرض، وذكر وقوف الأرض في وسط الهواء وسببه، وصفة الأقاليم السبعة وفصل في خواص الأقاليم.

ويذكر إخوان الصفاء: (وفي كل مدينة أمم من الناس مختلفة ألسنتهم وألوانهم وطباعهم وآدابهم ومذاهبهم وأعمالهم وصنائعهم وعاداتهم، لا يشبه بعضهم بعضاً، وهكذا حكم حيواناتها ومعادنها مختلفة الشكل والطعم واللون والرائحة، وسبب ذلك اختلاف أهوية البلاد وتربة البقاع وعذوبة المياه وملوحتها، وكل هذا الاختلاف بحسب طوالع البروج ودرجاتها على آفاق تلك البلاد بحسب ممرّات الكواكب على مسامتات تلك البقاع ومطارح شعاعتها من الآفاق على تلك المواضع)[١].

وحاول إخوان الصفاء تبرير اهتمامهم بالتنجيم فذكروا فصلاً في «المنجم لا يدعى علم الغيب فيما يخبر به من الكائنات» وعلّلوا ذلك بقولهم: علم الغيب هو أن يعلم ما يكون بلا استدلال ولا علل ولا سبب من الأسباب، وهو لا يعلمه أحد من الخلق إلا الله، عزّ وجلّ.

---

(١) إخوان الصفاء، جـ ١، ص ١٧٩- ١٨٠.

ثم قسّموا معلومات الإنسان إلى ثلاثة أنواع: منها ما قد كان وانقضى ومضى مع الزمان، ومنها ما هو كائن موجود في الوقت الحاضر، ومنها ما سيكون في المستقبل، وللإنسان إلى هذه الأنواع الثلاثة من المعلومات ثلاثة طرُق: أحدها السماع والأخبار لما كان ومضى، والآخر هو الإحساس لما هو حاضر موجود، والثالث الاستدلال على ما هو كائن في المستقبل، وهذا الطريق الثالث ألطف الطرقات وأدقّها وهو ينقسم إلى عدّة أنواع، فمنها بالنجوم، ومنها بالزجر والفال والكهانة، ومنها بالفكر والرويّة والاعتبار، ومنها بتأويل المنامات، ومنها بالخواطر والوحي والإلهام وهذا أجلّها وأشرفها.

الجغرافيا الحيوية عند إخوان الصفاء:

تناولت كتابات إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء في الرسالة السابعة (أجناس النبات) أنواع النبات من جهة المكان أي التوزيع الجغرافي، ثم تناولت اختلاف النبات من جهة الزمان وخصائص النباتات المختلفة، وهي أدقّ ما كتبه الجغرافيون المسلمون في الجغرافية النباتية.

لقد ذكر إخوان الصفاء في بداية دراستهم للنباتات، تعريف النبات على النحو التالي: (واعلم يا أخي أن النباتات هي كل جسم يخرج من الأرض ويتغذّى وينمو، فمنها ما هي أشجار وتُغرس قصباتها أو عروقها، ومنها ما هي زروع تُبذر حبوبها أو بذورها أو قضبانها.. إن الشجر هو كل نبت يقوم على ساقه منتصباً أصله مرتفعاً في الهواء ويدورعليه الحول ولا يجفّ، وأما النجم فهو كل نبت لا يقوم أصله على ساقه مرتفعاً في الهواء بل يمتد على وجه الأرض أو يتعلق بالشجر ويرتقي معه في الهواء»[1].

وصنّف إخوان الصفاء النباتات وفق أُسس مختلفة، فمنها ما يقوم على أصول ويرتفع في الهواء، ويتفرّع في الجهات كشجرة التين والتوت.. ومنها

---

(١) إخوان الصفاء، مرجع سبق ذكره، الرسالة السابعة من الجسمانيات الطبيعية، ص ١٥٨. ١٥٩.

ما يرتفع في الهواء منتصباً مفرداً مثل شجر النخيل والصفصاف، ومنها ما تنزل عروقه في الأرض كالأوتاد منتصبة.. ومنها ما ينعطف ويتعوّج ويتعرّض ويلتف.. ومنها ما يجاور بعضه بعضاً في منابته ويزدحم.. ومنها ما ينفرد ولا ينبت تحتها معها غيرها.

وقد تناول إخوان الصفاء توزيع النباتات توزيعاً جغرافياً حيث يقولون: (واعلم يا أخي بأن من النباتات ما ينبت في البراري والقفار، ومنه ما ينبت على رؤوس الجبال، ومنه ما ينبت على شطوط الأنهار وسواحل البحار، ومنه ما ينبت في الآجام والغياض)[1].

ويربط إخوان الصفاء بين المناخ والتربة والنبات الطبيعي بقولهم:

ومن النبات ما لا ينبت إلا في البلدان الدفيئة، ومنه ما لا ينبت إلا في البلدان الباردة، ومنه ما لا ينبت إلا في التربة الطينية، ومنه ما لا ينبت إلا في الرمال وبين الحصى والحجارة والصخور والأرض اليابسة، ومنه ما لا ينبت إلا في الأراضي السبخة المشورجة[2].

وذكر إخوان الصفاء كثيراً من المعلومات والحقائق التي يمكن أن تصنّف على أنها جغرافيا حيوانية، وقد عرف إخوان الصفاء الحيوان بأنه جسم متحرّك حسّاس يتغذّى وينمو ويحسّ ويتحرّك حركة مكان[3].

وصنّف إخوان الصفاء الحيوانات على أساس مراتبها، فمنها ما هو في أشرف المراتب مما يلي رتبة الإنسانية وهي الحيوانات ذات الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم، ومنها ما هي في أو دون مرتبة مما يلي النبات، وهي كل الحيوانات التي ليس لها إلا حاسة اللمس فقط مثل الأصداف والديدان.

وقسّموا الحيوانات كذلك وفق حركتها، فمنها ما يتدحرج، ومنها

---

(١) إخوان الصفاء، المصدر السابق، ص ١٦٠.

(٢) المصدر السابق، ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨٤.

ما يزحف، ومنها ما ينساب كالحيّة، ومنها ما يدبّ كالعقارب، ومنها ما يعدو كالفأر، ومنها ما يطير كالذباب والبقّ[1].

كما قسّم إخوان الصفاء الحيوانات وفق مناطق وجودها إلى أربعة أقسام: (سكان الهواء، وهي أكثر أنواع الطيور والحشرات، سكان الماء وهو كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف ونحو ذلك، وسكان البرّ وهي البهائم والأنعام والسباع، ومنها سكان التراب وهي الهوام)[2].

وتحدّث إخوان الصفاء عن تصانيف الطيور المختلفة وفق أُسس متنوعة مثل الحجم، وسرعة الطيران، وعدد بيضها. وأنواع غذائها وخصائصها المختلفة.

وتحدّثوا عن الحمام الهادي الذي يعرف سمت البلد المقصود بالنظر في وجه الهواء إلى جريان الأنهار وميل الأودية.

٤ ـ جغرافية البحار والمحيطات

وصل العرب بفتوحاتهم حتى حدود الصين شرقاً، وجنوب فرنسا غرباً وقد استدعى هذا الامتداد العظيم الاهتمام بالطرق البرية والبحرية، ونشط نتيجة لذلك «علم تقويم البلدان»، والاهتمام بالتأليف في «المسالك والممالك» وازدهرت العلوم الفلكية والرياضية عند العرب، وقاموا بعمل «الزيجات» وهي جداول فلكية دقيقة، كما أنهم أدخلوا تحسينات كبيرة على آلات الملاحة ورصد النجوم.

ويعزي إليهم استخدام (بيت الإبرة) البوصلة البحرية في الأغراض الملاحية. كما أنهم استعانوا (بالاسطرلاب) وهي آلة لرصد النجوم، وأضافوا إليها تحسينات جوهرية، وكان لهاتين الآلتين (البوصلة) و (الاسطرلاب) الفضل الأكبر فيما تمّ بعد ذلك من كشوف جغرافية بحرية كبيرة.

---

(١) إخوان الصفاء، المصدر السابق، ص ١٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٦.

كتابات العرب عن البحار:

لا يكاد يخلو كتاب من كتب العرب التي تناولت ذكر البلدان أو الأقاليم من تناول البحار. ومن أمثلة ذلك كتاب «صورة الأرض» لأبي جعفر محمد ابن موسى الخوارزمي في القرن الثالث الهجري «التاسع الميلادي» حيث تناول البحار على كرة الأرض المعمورة وقسّمها إلى:

البحر المغربي الخارج، والشمالي الخارج، بحر مصر، بحر الشام ولزقة، كلها متصلة بعضها ببعض. بحر القلزم وبحر الأخضر، وبحر السند، وبحر الهند، وبحر الصين، وبحر البصرة، بعضها متصل ببعض وهو البحر الكبير.

ويبدو من تناول الخوارزمي لهذه البحار أنه قسّم البحر المتوسط حسب البلاد التي تطلّ عليه. بحيث يسمى الجزء الواقع أمام كل قطر أو بلد باسمه، وكذلك أطلق أسماء متعددة على أجزاء من المحيط الهندي.

وقد اهتمّ العرب بدراسة المسطحات المائية وتوزيعها. وتميّزت كتابات العرب عن البحرين المتوسط والأحمر، وسواحل المحيط الهندي بالدقّة إلى حدٍّ ما، إذا ما قورنت بالمعلومات الواردة عن بحر الظلمات والبحر الأسود. والمتتبع لكتابات العرب عن البحار، يجد فيها بعض ما ورد في كتابات اليونانيين. وقد ساعد على ازدياد معلومات العرب عن البحار والمحيطات اتساع مجال نشاطهم التجاري، وامتداد رقعة العالم الاسلامي والتقاء المسلمين في مواسم الحج.

ومن الذين كتبوا عن البحار، كذلك «ابن رسته» وذلك في كتابه «الأعلاق النفيسة» حيث قسّم البحار المعروفة إلى خمسة بحار عظيمة هي: بحر الهند وفارس والصين (المحيط الهندي) وبحر الروم وأفريقيا الشمالية (البحر المتوسط) وبحر أوقيانوس (المحيط الأطلسي) الذي هو بحر المغرب، وبحر بُنطس (البحر الأسود) والبحر الخامس هو بحر طبرستان وجُرجان (بحر قزوين). وقد تحدّث ابن رسته عن المناطق التي تطلّ عليها البحار وأطوالها وعرضها وما بها من جزر وخلجان.

وذكر الاصطخري بحرين هما: بحر فارس وبحر الروم، وأشار إلى أن بحر الروم يبدأ من بحر الزقاق حتى مدخل البحر الأسود.

أما المقدسي فقد ذكر البحار والأنهار فقال[1]: اعلمْ أنّا لم نرَ في الإسلام إلا بحرين، أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان، فإذا بلغ مملكة الإسلام دار على جزيرة العرب، ويقصد بذلك المحيط الهندي وما تفرّع عنه خلجان. ثم يتناول البحر المتوسط فيقول: والبحر الآخر خروجه من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس، ويخرج من المحيط عريضاً ثم ينخرط ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام، وسمعت بعض مشايخ المغرب يفسّر هذه الآية: رب المشرقين ورب المغربين قال: المغربان هذان الوجهان من البحر مغرب الصيف عن يمينه ومغرب الشتاء عن يساره[2].

ويذكر المقدسي أبعاد هذه البحار وما فيها من جزر هامة، ومواضع الخطر، ويتناول المدّ والجزر مع ما قيل في محاولة تفسير هذه الظاهرة.

وتناول المسعودي في كتابه أخبار الزمان توزيع البحار وما فيها من كائنات حيّة، وذكر أن عمق البحار يختلف من بحر إلى آخر (فمنه ما لا يلحق قعره ومنه ما يكون سبعة آلاف باع وأكثر وأقلّ... ويذكر أن بحر الصين ضيّق فيه مغايص اللؤلؤ، ويقال إن فيه اثنى عشر ألف جزيرة)[3].

وتناول البيروني ذكر البحار ووصل إلى أن المحيط الأطلسي والهندي متّصلان حيث قال: فالمعمورة إذن في ربع من أرباع الأرض، ويطيف به بحر يسمى في جهة المغرب والمشرق محيطاً. ويسمي اليونان ما يلي المغرب منه وهو ناحيتهم أوقيانوس (شكل ٢٥) وأما من جهة الجنوب فإن العمارة تنتهي إلى ساحل البحر المتصل بالمحيط في الجانبين.

وتناول القزويني أحوال البحار العجيبة[4]، والبحر المحيط والبحار التي

---

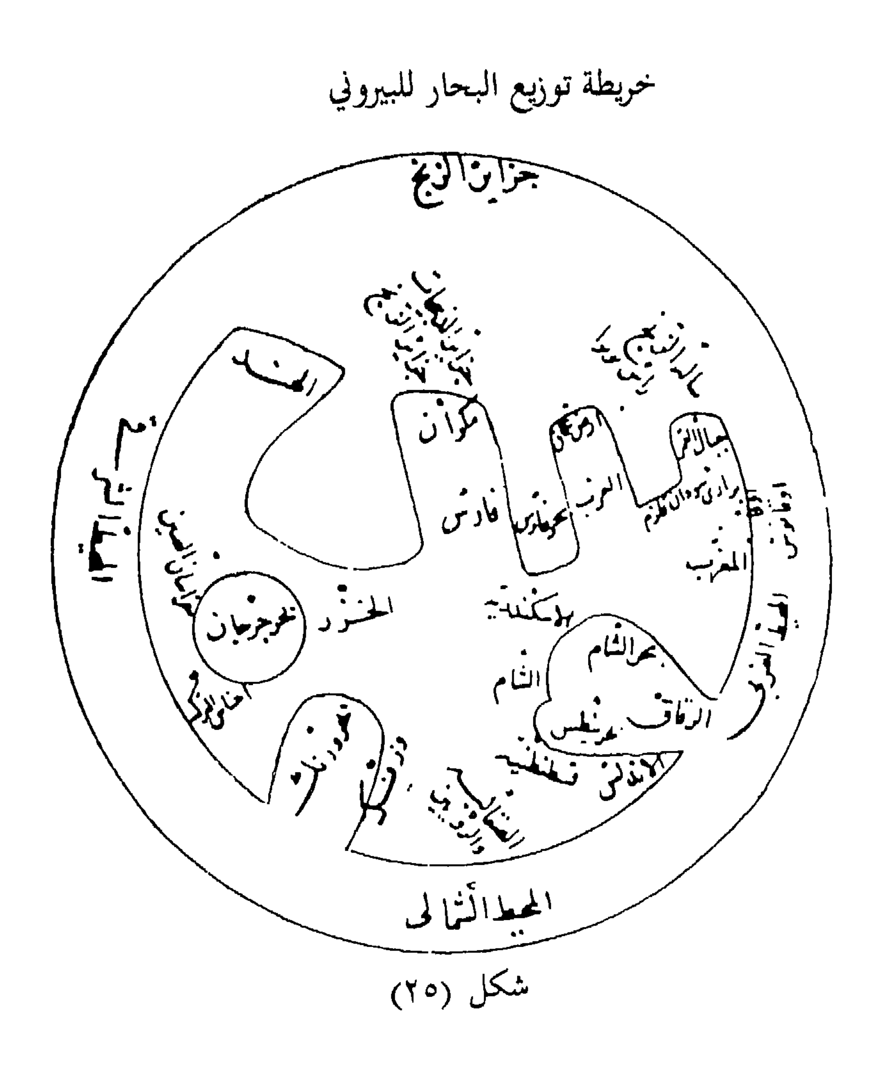
(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٠.

(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٠ وما بعدها.

(٣) المسعودي، أخبار الزمان، بيروت، سنة ١٩٦٦م، ط ٢، ص ٤٢.

(٤) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصدر سبق ذكره، ص ٦٨.

خريطة توزيع البحار للبيروني



شكل (٢٥)

المصدر : البيروني كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم

تتفرّع عنه. ومما ذكره: أن أهل التجربة زعموا أن كل بقعة بينها وبين البحر لا يكون أكثر من أربعين يوماً وإلا فإنها لا تصلح لسكن الحيوان لأن المطر لا ينزل بها.

المجالات التي تناولتها كتابات المسلمين عن البحار:

تناولت كتابات المسلمين ذكر البحار من زوايا مختلفة نعرض بعضها على النحو التالي:

أ . التوزيع الجغرافي للبحار:

أفرد معظم الجغرافيين المسلمين أبواباً من كتاباتهم تناولوا فيها أسماء البحار المختلفة وحدّدوا مواقعها والأمصار التي تقع عليها.

ويقول المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» في نهاية القرن العاشر الميلادي: إنّا لم نرَ في الإسلام إلا بحرين أحدهما يخرج من نحو مشارق الشتاء بين بلد الصين وبلد السودان (يشير ذلك إلى حركة الشمس الظاهرية نحو الجنوب في فصل الشتاء).. والبحر الآخر خروجه من أقصى المغرب بين السوس الأقصى والأندلس، يخرج من المحيط عريضاً ثم يعود فيعظم إلى تخوم الشام.

وقد تحدّث المسعودي في الجزء الأول من كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» في القرن الرابع الهجري، عن البحر المتوسط فقال:

(أما بحر الروم وطرسوس... طوله خمسة آلاف ميل وعرضه مختلف، فمنه ثمانمائة ميل ومنه سبعمائة ميل ومنه ستمائة ميل وأقلّ من ذلك على حسب مضايقه... مبدأ هذا البحر من خليج هرقل يخرج جارياً من بحر أوقيانوس وأضيق موقع من هذا الخليج ساحل طنجة من بلاد المغرب بين ساحل الأندلس، وهذا الموضع المعروف بنيطاء (مضيق جبل طارق)).

ومن المدهش حقاً أن يدرك العرب أن توزيع اليابس والماء ليس مستقراً بل يتغيّر على مرّ الدهور، فالمسعودي في مروجه يقول:.. فليس موضع البر أبداً

براً ولا موضع البحر أبداً بحراً، بل قد يكون براً حيث كان مرة بحراً، ويكون بحراً حيث كان مرة براً.

وقد أدرك العرب كذلك اتّساع المسطحات المائية وعظُم حجمها بالنسبة لتضاريس الأرض، وعرفوا أن الأرض لو كانت ذات مستوى واحد دون وجود معالم تضاريسية لغطّتها المياه، ويقول في ذلك ياقوت الحموي: (لولا هذا التضريس لأحاط بها الماء من جميع الجوانب وغمرها حتى لم يكن يظهر منها شيء).

وتناول أبو الفداء توزيع اليابس والماء فذكر: (والقدر المكشوف من الأرض هو بالتقريب ربعها، أما ثلاثة أرباع الأرض الباقية فمغمور بالبحار)[1].

وتناول الدمشقي المتوفى في القرن الثامن الهجري ذكر البحار فقال: (إن الماء المحيط بالأرض هو جرم بسيط مشف.. طبعه أن يكون بارداً رطباً متحركاً إلى المكان الذي يكون تحت كرة الهواء وفوق الأرض، وهو البحر المحيط الذي منه مدد سائر البحار ولا يعرف له ساحل. وله أسماء في الجهات سمّاه بها اليونان، ومن قبلهم فاسمه في الجهة المغربية أوقيانوس والبحر الأخضر، وفي جهة جنوب الأرض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد، وفي جهة محض الجنوب البحر الأحمر، وفي الشمال والغرب بحر الظلمة وبحر ورنك والمحيط الشمالي في شمال الأندلس اللبلابة وبحر قادس، وذلك كله بحر واحد وماء متصل محيط بكرة الأرض مالح، وسائر البحار التي بوجه الأرض غيره فإنها خلجان منه متصلة به فائضة عنه.

وأما في صورته العامة، فإنها أعني البحار، مستديرة باستدارة الكرة وهيئتها.. في التدوير والإنكفاف.. ولذلك الراكب في البحر إذا توغل فيه غابت عنه الأرض، وإذا ما استشرف على السواحل فأول ما يظهر له رؤوس الجبال العالية.

وأما ما هي صورته العامة، فالماء فلك مماس لمقعر فلك الهواء، ولذلك

---

(١) أبو الفداء، تقديم البلدان، ص ١٨.

أن راكبه حيث كان من ظهره كان على ذروة محدبة وكانت جهات البحر المحيط به من كل ناحية منحطة عنه غائبة أطرافها لانحطاطها، وكلما وصل الراكب إلى نقطة واستوى عليها كانت هي الذروة)[1].

وهكذا نجد أن الدمشقي قد استعان بملاحظاته لإثبات كروية الأرض، كما أنه أشار إلى ما نسميه الآن بأغلفة الأرض حيث يلتقي الغلاف الغازي والغلاف المائي.

ب . دراسة حركة مياه البحار:

اهتمّ الملاحون المسلمون بدراسة حركة مياه البحار من حيث الأمواج والمدّ والجزر، وذكروا المواسم الملاحية المختلفة، وعلى سبيل المثال:

ذكر ابن الفقيه في كتابه (مختصر البلدان) مواسم الإبحار في بحار العالم المعروفة آنذاك.

ويقول المقدسي في أحسن التقاسيم: (ولهذا البحر الصيني زيادات في وسط الشهر وأطرافه، وفي كل يوم وليلة مرتين.. وقد اختلف الناس في سببه فقال قوم، ملك يغمس فيه إصبعه كل يوم فيمدّ، فإذا رفع إصبعه جزر. أما المسعودي فقد ذكر في «مروج الذهب»: المد مضي الماء في فيحته وسيحته وسنن جريته، والجزر رجوع الماء على ضد سنن مضيه وانكشاف ما مضى عليه في هيجه، وذلك كبحر الحبش الذي هو الصيني والهندي.

أما عن سبب هذه الظاهرة فيقول:

(قد تنازع الناس في علّة المدّ والجزر، فمنهم من ذهب إلى أن ذلك من القمر لأنه مجانس للماء) وهكذا أشار المسعودي إلى صلة القمر بظاهرة المدّ والجزر[2].

---

(١) الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٢٧- ١٢٨.

(٢) المسعودي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.

وتناول القزويني ظاهرة المدّ والجزر فقال: (إن القمر إذا صار في أُفق من آفاق البحر أخذ ماؤه في المدّ قليلاً من القمر. ولا يزال كذلك إلى أن يصير القمر في وسط سماء ذلك الموضع، إذا صار هناك انتهى المدّ منتهاه، فإذا انحطّ القمر من وسط سمائه جزر الماء ولا يزال كذلك راجعاً إلى أن يبلغ القمر مغربه، فعند ذلك ينتهي الجزر منتهاه، فإذا زال القمر من مغرب ذلك الموضع ابتدأ المد مرة ثانية إلا أنه أضعف من الأولى فيكون في كل يوم وليلة بمقدار مسير القمر في ذلك البحر. مدّان وجَزران)[1].

وهكذا عرض لنا القزويني تفسيراً صحيحاً لارتباط ظاهرة المدّ والجزر بالقمر.

ولنا رأي فيما تناوله الجغرافيون القدماء بشأن التنين، ونرى أنه عبارة عن «الترنادو» تلك الزوابع المدمرة.

وقد ذكر المسعودي في مروجه: وقد اختلف الناس في التنين، فمنهم من رأى أنه ريح سوداء تكون في قعر البحر فتظهر إلى النسيم وهو الخلو فتلحق السحب كالزوبعة فإذا أثارت من الأرض واستدارت وأثارت معها الغبار ثم استطالت في الهواء ذاهبة الصعداء توهّم الناس أنها حيّات سود، ومنهم من رأى أنها دواب تتكوّن في قعر البحر فتعظم وتؤذي دواب البحر فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بينها وأنها على صورة الحيّة السوداء لها بريق وبصيص لا تمرُّ بمدينة إلا أتت على ما يقدر عليه من بناء عظيم.

جـ . خصائص مياه البحر:

أشار كثير من الجغرافيين المسلمين إلى ملوحة مياه البحر، وحاول تعليل ذلك. ومن الذين تناولوا هذا الموضوع، شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي حيث يقول: (إنه أجاج لمصالح العالم، جعله الله مغيضاً للأنهار، ومعبراً للسيول والأمطار، ومركباً لرفاق البحار، ومضرباً لمصالح الأمصار.. زعم قوم

---

(١) القزويني، عجائب المخلوقات مرجع سبق ذكره، ص ١٢.

أن أصل الماء العذوبة واللطافة، وإنما لطول مكثه جذبت الأرض ما فيه[1] من العذوبة لملوحتها، وجذبت الشمس ما فيه من اللطافة بحرارتها فاستحال إلى الغلظ والملوحة. ولولا الحكمة الإلهية اقتضت طبخه بمخالطة الأرض المحرقة لأنتن وأجنَّ وأفسد ما يكون فيه من الحيوان، بل إن الله سبحانه وتعالى خلق البحر ملحاً أجاجاً كما أخبر في كتابه العزيز (وهذا ملح أجاج) على ما هي به من الوصف وصلاحاً لجوهر الهواء وحفظاً لنظام أبدان الحيوان وتعديلاً لأمزجتها، ولو كانت حلوة مع طول الزمان والدهر لفسدت وأسنت وفسد بفسادها جوهر الهواء وأنواع المتولدات الثلاث[2].

من الفقرات السابقة يتضح لنا أن الدمشقي أشار إلى أن مصدر ملوحة مياه البحار يرجع إلى كثرة البخر، وإذابة الأملاح من الأرض مما يؤدي إلى زيادة كثافة الماء (فاستحال إلى الغلظ) ويشير إلى أن الماء المالح لا يفسد ولا ينتن بطول الزمن.

وقد أشار ابن الوردي المتوفى في القرن الثامن الهجري إلى نفس الحقائق التي أشار إليها الدمشقي حيث يقول:

والحكمة في كون ماء البحر ملحاً أجاجاً لا يذاق ولا يساغ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان، وعلى ممرّ الأحقاب والأحيان، فيهلك من نتنه العالم الأرضي ولو كان عذباً لكان كذلك.. ثم يحاول تفسير ذلك بقوله:

واختلفوا أيضاً في ملوحة البحر فزعم قوم أنه لما طال مكثه وألحّت الشمس عليه بالاحراق صار مراً واجتذب الهواء ما لطف من أجزائه فهو بقية ما صنعته الأرض من الرطوبة فغلظ لذلك[3].

---

(١) في الأصل (فيها).

(٢) الدمشقي، المصدر السابق، ص ١٢٩.

(٣) سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، طبعة الحلبي، بدون تاريخ، ص ١٢.

د . دراسة الحيوانات البحرية:

لاحظ الجغرافيون المسلمون الذين اهتموا بملاحظة البحار أن هناك مواسم تكثر فيها الأسماك، وأن الأسماك والحيوانات البحرية تتباين من بحر إلى آخر. وقد ذكر الدمشقي في كتابه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) مجموعات أسماك المياه العذبة وناقش وسائل صيد «القرموط النيلي» الذي أشار إليه باسم أسماك «التنين».

وقد ذكر المسعودي في «مروجه» عن البحر الحبشي: وفيه السمك المعروف بالفال (المقصود هو الحوت) طول السمكة نحو من أربعمائة ذراع. يهزّ البحر.. وينفخ الصعداء بالماء فيذهب الماء بالجوّ أكثر من ممرّ السهم والمراكب تفزع منه في الليل والنهار.

وذكر الدمشقي: أن ببحر اليمن القرش ويسمى سبع البحر، أخضر اللون بزرقة، خشن البشرة، حتى إن رقبته وظهره شبيه بالمبرد يتخذ منه الناس جلوداً لقبضات السيوف، وله خرطوم عظيم أقصر من ذراع، وبدنه أطول ما يطول أربعة أذرع وخرطومه شبيه المنشار)[1].

وهناك حيوان مستدير الشكل كهيئة البطيخة الخضراء في التدوير ولونه أصفر منقّط بسواد وخضرته كلون الضفدع الترابي ولا يبيّن لهذا الحيوان رأس ولا ذنب، فإذا وقع في شبكة الصياد وألقاه إلى الأرض انتفخ بما في أقطاره حتى يكون أضعاف ما كان المقدار، ثم ينتفخ ثم يضمر ثم ينتفخ إلى أن يموت أو يرجع إلى الماء، ولا يؤكل لحم هذا الحيوان لسمية فيه.

هـ . الملاحة البحرية:

اقتصرت الملاحة في العصور القديمة عند العرب على الملاحة الساحلية، ونتيجة اتصالهم بالفرس أخذوا عنهم وردة الرياح، والمرشدات البحرية (الرهنامجات) المختلفة التي أتاحت لهم السيطرة على الملاحة في المحيط الهندي

---

(١) الدمشقي، المصدر السابق، ص ١٦٤.

ومنافسة الفرس[١].

ولقد نبغ السيرافيون والعمانيون في الملاحة البحرية ووصلت سفنهم إلى شرقي أفريقيا وجنوبي آسيا، وجزر الهند الشرقية. واستعار العرب من الفرس كثيراً من مصطلحات الملاحة البحرية مثل (ناخذا أو نأخوذة وناخذاه) وتعني سيّد السفينة، واشتيام، وجمعها أشاتمه، وتعني قائد السفينة.

وقد ذكر المقدسي أن المعلومات التي عرفها نتيجة سفره إلى سواحل جزيرة العرب من القلزم إلى عبادان تخالف الآثار المدوّنة والتي كان يستخدمها بعض الملاحين.

كما أن المسعودي ذكر أن معلومات ربابنة سيراف وعمان عن المحيط الهندي تخالف نظريات الفلاسفة.

ولعل أبرز ملاحي العرب عموماً، وهو أحمد بن ماجد الذي وُلد في النصف الأول من القرن التاسع الهجري في جلفار على الساحل الغربي لخليج عمان[٢]، وقد ترك ابن ماجد من الآثار المكتوبة والتي عثر عليها نحو الأربعين، كتبها ما بين ١٤٦٢- ١٤٩٥م وقد صاغ معظم أعماله شعراً[٣].

وتُعتبر مؤلفات ابن ماجد أهم ما كتب على الإطلاق في العصور الوسطى في مجال الجغرافيا الملاحية، ويصل عدد مؤلفات ابن ماجد التي عُثر عليها إلى أربعين ومعظمها على هيئة أراجيز. ومن أهم مؤلفاته في هذا المجال كتاب: الفوائد في أصول علم البحر والقواعد. وقد تضمن هذا الكتاب اثنتى عشرة فائدة تتناول الجانبين العلمي والنظري لفن الملاحة وخصوصاً في البحر الأحمر والخليج العربي والمحيط الهندي.

---

(١) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جـ ٢، ص ٥٦٨.

(٢) يعتقد فران Ferrand أنه وُلد فيما بين سنتي ١٤٣٢- ١٤٣٧م.

(٣) طه الفرا، ابن ماجد وإسهاماته في جغرافية البحار، مجلة كلية التربية، جامعة الرياض (دراسات)، نوفمبر سنة ١٩٧٨م، ص ٢٠٣.

ابن ماجد وقضية إرشاد فاسكودا جاما إلى الهند:

شهد القرن الخامس عشر الميلادي تنافساً بحرياً كبيراً بين أسبانيا والبرتغال، وهما أقوى دولتين آنذاك، ولقد تمكن فاسكوداجاما البرتغالي من الدوران حول طرف أفريقيا الجنوبي والوصول إلى مالندي (جنوبي درجة عرض ٣° ج) في اليوم الخامس عشر من مارس سنة ١٤٩٨م حيث تعرّف هناك بربّان مسلم من «كجرات»[١] يدعى المعلم كاناكا Malemo Canaqua وفي بعض الروايات كانا Cana[٢]، ودلّه على طريق الهند فوصل في اليوم الرابع والعشرين من أبريل إلى ميناء قاليقوت على ساحل ملبار، وفي رواية أخرى أنه أبحر من مالندي يوم ٢٤ / أبريل واستمرّ ٢٢ يوماً حتى وصل إلى قاليقوت[٣].

ومعظم الباحثين يعتمدون في تتبّع أخبار هذه الرحلة على ما كتبه لوبيز دي كاستندا Lopez de Castenheda ودي باروس De Barros[٤]، لأن دا جاما لم يترك مذكرات بخط يده. ومن المعلوم أن زلزالاً أصاب البرتغال بأضرار جسيمة سنة ١٧٥٥م ودمّر أرشيف المستعمرات مما نجم عنه فقدان كثير من الوثائق الأصلية التي تتعلق بهذه الرحلة، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى اختلاف الروايات بشأن رحلة فاسكودا جاما وبشأن من أرشده إلى طريق الهند.

والواقع أن ما ذكر من أسماء سواء أكانت «المعلم كاناكا أو كانا» ليست إلا ألقاباً. فقد ثبت أن كلمة «كاناكا» محرّفة عن اللفظ السنسكريتي Ganika ويُقصد بها «الحاسب» أو المنجّم»[٥].

أما القول بأن ابن ماجد هو الذي أرشد فاسكودا جاما إلى الهند فإن

---

(١) كجرات Gujarat في شمالي غربي الدكن، جنوبي مدار السرطان مباشرة عند إلتقائه بدرجة طول ٧٠ درجة شرقاً.

(٢) كراتشكوفسكي، جـ ٢، ص ٥٦٩.

(٣) أنور عبد العليم، ابن ماجد الملاح، الإسكندرية، سنة ١٩٦٦م، ص ٤٨.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٨٤٨

(٥) كراتشكوفسكي، المرجع السابق، ص ٥٧٠.

منشأه يرتبط بوجود اسمه في مخطوطة عربية تشير إلى أنه هو الذي أرشد فاسكودا جاما إلى الهند، وقام بوصف هذه المخطوطة المستشرق الفرنسي دي ساسي De Sacy سنة ١٧٩٤م، وقد عُثر على مخطوطة أخرى في البرتغال نُشرت سنة ١٨٩٢م[١] وقد نبّه المستشرق الفرنسي «فران» سنة ١٩٢٢م بأن ابن ماجد المذكور في مخطوطة البرق اليماني لقطب الدين النهروالي هو نفسه ابن ماجد الملاّح، ويرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى سنة ١٥٧٧م وقد جاء فيها:

(وقع في أول القرن العاشر من الحوادث والفوادح والنوادر، دخول الفرتقال (البرتغال) اللعين من طائفة الإفرنج الملاعين إلى ديار «الهند».. فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلّهم شخص ماهر، يقال له (أحمد ابن ماجد) صاحبه كبير (الفرنج) وكان يُقال له (إلى ملندي) وعاشره في السكر، فعلّمه الطريق في حال سكره وقال لهم: لا تقرّبوا الساحل من ذلك المكان وتوغّلوا في البحر ثم عودوا، فلا تنالكم الأمواج، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم فيكثروا في بحر الهند)[٢].

ولو افترضنا صحة ما ذكره قطب الدين النهروالي فإننا لا نجد فيه ما يشير صراحة إلى أن ابن ماجد قد رافق البرتغاليين في رحلتهم، إذ أن كل ما جاء في النص أنه دلّهم على الطريق وقال لا تقرّبوا الساحل من ذلك المكان. ويتعارض ذلك مع ما أجمعت عليه روايات البرتغاليين كلها من أن «المعلم كاناكا» المسلم قد رافق البرتغاليين من مالندي إلى قاليقوت.

والواقع أن الافتراض بأن أحمد بن ماجد هو الذي أرشد فاسكودا جاما يثير عدّة تساؤلات ترجّح أن ابن ماجد لم يرشد دا جاما إلى طريق الهند.

---

(١) G. R. Tibbets, Arab Navigation in the Indian Occean Before the Comming of the Portuguese, London, 1971, P. 9.

(٢) قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي (سنة ١٥١١م - ١٥٨٢م)، البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات دار اليمامة، الطبعة الأولى، سنة ١٩٦٧؛ ص ص ١٨- ١٩.

ولنبدأ باستعراض هذه التساؤلات على النحو التالي:

التساؤل الأول:

كان ابن ماجد معتزاً بنفسه ويميل إلى الفخر، وأطلق على نفسه خلال أراجيزه وسطور مخطوطاته كثيراً من الألقاب مثل: حاج الحرمين الشريفين، ناظم القبلتين، رابع الليوث الثلاثة، أسد البحر الزخار، خلف الليوث، المعلم العربي، شهاب الدنيا والدِّين. ولكننا لا نجد من بين هذه الألقاب «المعلم كاناكا» أو «كانا» كما وردت في الكتابات البرتغالية التي تناولت هذه القضية.

ومن ناحية أخرى فإننا لا نجد أياً من الألقاب المختلفة التي كان ابن ماجد يميل إلى تسمية نفسه بها وذلك في كتابات البرتغاليين المتعددة على الرغم من أن هذه الرحلة قد استمرّت على أرجح الأقوال اثنين وعشرين يوماً، وليس من المعقول ألا يذكر ابن ماجد اسماً أو لقباً من ألقابه خلال هذه الفترة. والقول بأن كلمة «معلم» عربية وتشير إلى ملاّح عربي فهذا شيء لا يمكن الأخذ به لأن الكلمة متداولة في كل المحيط الهندي آنذاك وحتى الملايو[1].

التساؤل الثاني:

أشارت معظم كتابات البرتغاليين إلى أن من أرشد دا جاما بحار مسلم من «كجرات»، وبالبحث عن هذا الموضع نجد أنه يقع في الأجزاء الساحلية الغربية من شمالي هضبة الدكن وينطبق بذلك موطن الملاّح المسلم مع لقب كاناكا الذي كان يستخدم في ملبار وفي لغة التاميل على سواحل الهند الغربية، فهناك تطابق إذن بين موطن الملاّح المسلم واللقب المشار إليه به. ألا يؤكد ذلك صدق الرواية البرتغالية من أن من أرشدهم مسلم من «كجرات»!

---

(١) Arab Navigation, OP. Cit, P. 10.

التساؤل الثالث:

يقول ابن ماجد: (ينبغي أنك إذا ركبت البحر أن تلزم الطهارة والقراءة والدعاء. فإنك في السفينة ضيف من أضياف الباري عزّ وجلّ فلا تغفل عن ذكره، فإنه شديد العقاب وإنه لغفور رحيم.. وانه (بتسكين النون وكسر الهاء) جميع ركاب البحر عن كثرة الكلام والمزاح في البحر، فإن المزاح، أعوذ بالله، ما ينتج منه إلا الشرّ والبغض والعداوات)[1]. هذا هو رأي ابن ماجد فيمن يركب السفينة، أن يلزم الطهارة، ولا يغفل عن ذكر الله وينهي الركاب عن كثرة الكلام والمزاح. ولا يتّفق هذا الذي ذكره ابن ماجد وما يؤمن به من مبادىء مع رواية قطب الدين النهروالي بشأن «السكر» وإن كان بعض الباحثين يَرون أن موضوع السكر كذب وبهتان ذلك أنه عزَّ على المسلمين أن يقود ملاّح مسلم سفينة للفرنجة إلى الهند ليقضي على نفوذ العرب الملاحي في المحيط الهندي. ويرى فران أن قضية «السكر» قصة مخترعة أريد بها تبرير عملية إرشاد فاسكودا جاما التي اعتبرت خيانة[2].

ويقول كراتشكوفسكي[3]، يجب أن نطرح من هذا المتن «البرق اليماني» الحكاية الخاصة «بسكر» الربان المسلم، إذ من الواضح أن المؤلف أراد بها على ما يبدو إيجاد تبرير لموافقة ذلك الملاح على أن يرشد سفينة الفرنجة.

وأياً كان مصدر قصة «السكر» فإنها تشهد بعدم الأمانة العلمية وعدم التدقيق والتمحيص، فإن كان قطب الدين النهروالي هو الذي نسج هذه القصة فإن ذلك يدين أمانته العلمية ويسقطه من قائمة المؤرخين الذين يمكن الاعتماد على رواياتهم، وإن كان قطب الدين النهروالي قد نقل هذه القصة عن غيره فكان من الواجب عليه كمؤرخ أن يتحرى مدى صدقها ويبدي رأيه

---

(١) كتاب الفوائد في علم البحر والقواعد، تأليف شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي، تحقيق إبراهيم خوري، وعزّة حسن، دمشق، سنة ١٣٩٠م، ص ٢٤٦.

(٢) Arab Navigation, OP. Cit, P. 10.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جـ ٢، المرجع السابق، ص ٥٧١.

فيها. وقد ورد ذكر وصول الفرنجة إلى الهند في قصائد ابن ماجد بصورة تستنكر أعمالهم إلا أن شوموفسكي Shumovsky يظن أن ابن ماجد يلوم نفسه لإرشاد داجاما[1].

التساؤل الرابع:

لماذا لم يرد اسم ابن ماجد صراحة إلا في مخطوطة البرق اليماني في الفتح العثماني وذلك بعد وصول البرتغاليين إلى الهند بنحو ثمانين عاماً تقريباً[2]، بينما هناك مؤلفات أقرب في تاريخ تأليفها لحادثة وصول داجاما إلى الهند، ومع ذلك لم يرد فيها ذكر ابن ماجد. ومن أمثلة ذلك، المصنفات الخمسة التي تبقّت لنا عن سليمان المهري والتي كتبها نثراً وهي محفوظة بأجمعها في مكتبة المخطوطات بباريس تحت رقم ٢٤٥٩[3]، وأكبر هذه المصنّفات هو «العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية» الذي يرجع تأليفه إلى عام ٩١٧هـ - ١٥١١م أي بعد وصول البرتغاليين إلى الهند، بثلاث عشرة سنة فقط، ومعنى ذلك أن المؤلف عاصر وصول البرتغاليين إلى الهند، ومع ذلك لا نجد أية إشارة يرد بها ذكر إرشاد ابن ماجد لفاسكودا جاما إلى الهند.

ومن الأمثلة الأخرى، المصنّف الذي وضعه أمير البحر التركي (سيد علي ريس) في الجغرافيا الملاحية وأطلق عليه «الأوقيانوغرافية Oceanography وذلك بعد خمسين عاماً فقط من وصول البرتغاليين إلى الهند، وقبل «البرق اليماني» بنحو ثلاثين سنة تقريباً. وحينما نتصفّح هذا المصنّف نجد أن المؤلف لم يشر فيه إلى قصة إرشاد ابن ماجد لفاسكو دا جاما، على الرغم من أن هذا الأميرال التركي يذكر في مقدمة كتابه عدداً من مصنفات ابن ماجد مثل كتاب الفوائد، والحاوية، ويقول عن ابن ماجد في موضع آخر من كتابه:

---

(١) Arab Navigation, OP. Cit. 10.

(٢) وصل البرتغاليون إلى الهند في سنة ١٤٩٨م، وكتب قطب الدين النهروالي متنه «البرق اليماني»، سنة ١٥٧٧م.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، جـ ٢، المرجع السابق، ص ٥٧٨.

(هذا أفضل ربابنة الشاطىء الهندي الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مقدرةً ونزاهةً تغمّده الله برحمته[1]). ومن الجدير بالذكر أنه لو أن (سيدي على) قد سمع من ربابنة المحيط الهندي أو بحر فارس أية إشارة لقصة ابن ماجد ودا جاما لما كتمها أو تردّد في ذكرها، لا سيما وأنه قضى نحو سنة في المحيط الهندي والخليج العربي حيث يقول في مقدمة كتابه:

(وفي عام ١٥٥٤م أقمت خمسة شهور في مدينة البصرة حيث بدأت الرياح الموسمية ثم أقلعت للهند، ودامت هذه الرحلة ثمانية شهور، ولم أدع فيها فرصة تمرّ دون أن أشغل نفسي في الحديث بأمور الملاحة مع نوتية الساحل»[2]. فلو أن أحمد بن ماجد هو الذي أرشد دا جاما إلى الهند لذاع هذا الخبر وتردّد بين نوتية ساحل المحيط الهندي، ويدفعنا هذا الأمر إلى التساؤل من أين استقى قطب الدين النهروالي خبر إرشاد ابن ماجد لفاسكودا جاما؟.

التساؤل الخامس:

حينما نتتبّع المادة العلمية في «البرق اليماني» نجد بعض الأخطاء التاريخية، وعلى سبيل المثال، ما ذكره بشأن جوا Goa فهو يقول: وبنوا في «كوة» من بلاد الدكن قلعة يسمونها «كوتا» ثم أخذوا «هرموز» وتقوّوا هناك، وصارت الإمدادات تترادف عليهم[3]. ومن المعروف أن البوكرك فتح هرمز سنة ١٥٠٧م أي قبل بناء «جوا»[4] وليس بعد بنائها كما ذكر قطب الدين النهروالي.

ولا شك أن وجود بعض الأخطاء العلمية في مصدر ما يقلّل إلى حدٍّ ما من قيمته ويسيغ لنا التساؤل: لماذا لا يكون قد أخطأ كذلك بشأن قصة

---

(١) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص ٦٢.

(٢) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص ٦٣.

(٣) قطب الدين النهروالي، المرجع السابق، ص ١٩.

(٤) جوا البرتغالية.

ابن ماجد ودا جاما، لا سيما وأن الأمر يتعلق بالبرتغاليين الذين أخطأ في سرد أحداثهم.

إنني أضع هذه التساؤلات أمام الباحثين والمحققين حتى يعيدوا النظر فيما ورد على لسان قطب الدين النهروالي.

إن أحمد بن ماجد أعظم عملاق للجغرافيا الملاحية في القرن الخامس عشر بلا أدنى شك، وأفضل من كتب في جغرافية البحار في القرون الوسطى، وموضوع إرشاده لفاسكو دا جاما أو عدم إرشاده لا يقلّل من شهرته ولا ينقص من قدره، إذ إنه كان بوسع أي ملاح مغمور أن يرشد فاسكو دا جاما إلى طريق الهند لأن الطريق من مالندي إلى الهند كان معروفاً وميسوراً لملاّحي المحيط الهندي.

وعلى ضوء التساؤلات السابقة يتراءى لي احتمال لا أستبعده، وهو أن قطب الدين النهروالي الذي يُنسب إلى مدينة نهرواله، غربي إقليم «كجرات» حيث وُلد أبوه وعاشت عائلته مئات السنين ـ ألصق تهمة[1] إرشاد دا جاما بالملاّح العربي أحمد بن ماجد النجدي حتى يبرىء منها أبناء «كجرات» أقاربه وأهله، إذ إن جميع الروايات البرتغالية أجمعت على أن الذي أرشد دا جاما مسلم من «كجرات» أي من نفس إقليم النهروالي. إن قطب الدين النهروالي قد انفرد بذكر قصة إرشاد ابن ماجد لفاسكو دا جاما للسبب الذي ذكرته، وربما لأسباب أخرى قد تكشف عنها مثابرة الباحثين وجهودهم.

---

(١) رأى كثير من المؤرخين أن إرشاد فاسكودا جاما إلى طريق الهند خيانة، وأنه من سخريات التاريخ أن ملاّحاً عربياً كبيراً ساعد على القضاء على الملاحة العربية في المحيط الهندي، إذ لم يستطع العرب إجلاء البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الأوربية من هذه المنطقة التي سيطروا عليها لبضعة قرون، وتحكّموا في طرقها الملاحية، إلا منذ عشرات قليلة من السنين.

الفصل السادس

ثانياً: الجغرافية البشرية في كتب التراث

١ ـ الجغرافيا الاجتماعية.

٢ ـ جغرافية المدن في كتب التراث الجغرافي الإِسلامي.

نماذج من دراسة المدن في كتب التراث.

٣ ـ الجغرافيا اللغوية.

٤ ـ الجغرافيا الدينية.

٥ ـ الجغرافيا الطبية.

ثانياً ـ الجغرافية البشرية في كتب التراث

حوت كتب التراث الإسلامي على اختلاف أنواعها معلومات جغرافية متنوعة، يمكن أن تصنّف إلى شتى الفروع الجغرافية المتعارف عليها الآن.

ولقد أولى الجغرافيون المسلمون النواحي البشرية اهتماماً كبيراً يفوق اهتمامهم بالظروف الطبيعية. ومن بين هؤلاء المقدسي الذي تناول ذكر الأقاليم الإسلامية من حيث اختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم (جغرافيا لغوية)... ومكاييلهم وأوزانهم ونقودهم وصروفهم، وما يحمل عندهم وإليهم (جغرافيا تجارية)... وشرابهم وثمارهم ومياههم (جغرافيا زراعية)... وصفة طعامهم وشرابهم... ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم (جغرافيا اجتماعية)... وتناول كذلك المذاهب والقراءات (جغرافيا دينية)[1]... ولو تتبّعنا كل كتابات الجغرافيين المسلمين لوجدناها مليئة بالجوانب الجغرافية البشرية التي يمكن أن تُصنّف إلى فروع الجغرافيا البشرية المختلفة. ولعلّ أبرز جوانب اهتمام الجغرافيا الإسلامية تركّز على الطرق أو المسالك لأهميتها في ربط أجزاء مملكة الإسلام ولأداء الحجّ وخدمة التجارة.

وليس الغرض من تناول هذا الموضوع (الجغرافيا البشرية) في كتب التراث، هو الإحاطة بكل ما جاء في كتب التراث وتصنيفه إلى فروع الجغرافيا البشرية، ولكن الهدف هو الاستعانة ببعض الأمثلة والإشارات التي تؤكد سبق أجدادنا الجغرافيين المسلمين في معالجة كثير من جوانب الجغرافيا البشرية. وفيما يلي نماذج من الكتابات الجغرافية الواردة في كتب التراث مصّنفة وفق فروع الجغرافيا البشرية المعاصرة المختلفة.

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم (ص ١- ٢) بتصرف في ترتيب الجُمَل.

١ ـ الجغرافيا الاجتماعية

تناولت كتب التراث ذكر كثير من المعلومات عن عادات الشعوب وتقاليدهم وأزيائهم ومساكنهم، وأثر المناخ والأهوية في أمزجة هذه الشعوب، وغير ذلك من المعلومات التي يمكن أن تصنّف إلى ما يسمى حالياً بالجغرافيا الاجتماعية أو الجغرافيا الأدبية، كما سمّاها رفاعة الطهطاوي.

ويُعدُّ ابن خلدون أبرز الذين كتبوا في الجغرافيا الاجتماعية من الجغرافيين المسلمين، وذلك في العصور الوسطى. يقول ابن خلدون:

(إن الاجتماع الإنساني ضروري، أي أن الإنسان مدني بطبعه، أي لا بدّ له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران)[1]. ويعلّل ذلك بأن للإنسان متطلبات كثيرة إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من ذلك الغذاء.. ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ. وكل واحد من الثلاثة يحتاج إلى مواعين وآلات لا تتمّ إلا بصناعات متعددة من حدّاد ونجار وفاخوري وهكذا. وتحدّث ابن خلدون عن تأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم، وذكر أنه لما كان الجانبان من الشمال والجنوب متضادّين من الحرّ والبرد وجب أن تتدرّج الكيفية، من كليهما إلى الوسط فيكون معتدلاً، فالإقليم الرابع أعدل العمران، والثاني والسادس بعيدان عن الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير.

ويقول إن الأقاليم الثلاثة المتوسطة (من الثالث إلى الخامس) مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأدياناً حتى النبؤات، فإنما توجد في الأكثر فيها، ولم نقف على خبر بعثة في الأقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الأنبياء والرسل يختص بهم أكمل نوع في خلقهم

(١) ابن خلدون، المقدمة، طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر، بدون تاريخ طبع، ص ٤١.

وأخلاقهم[1].. وأهل هذه الأقاليم (المتوسطة) على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم.. ويبعدون عن الانحراف في عامة أحوالهم. أما الأقاليم البعيدة عن الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم من الطين والقصب وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخصفونها عليهم أو الجلود وأكثرهم عرايا من اللباس.. وفواكه بلادهم غريبة التكوين مائلة إلى الانحراف[2].. وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم.. حتى لينقل عن الكثير من السودان أهل الإقليم الأول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون العشب، وأنهم متوحشون غير مستأنسين، يأكل بعضهم بعضاً، وكذا الصقالبة، والسبب في ذلك أنهم لبُعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم ويبعدون عن الإنسانية بمقدار ذلك..

ورأى ابن خلدون أن الهواء يؤثر في أخلاق البشر وذلك أن من خلق السودان على العموم الخفّة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص موصفين بالحمق.

وقد أشار ابن رسته الذي توفي قبل أن يولد ابن خلدون بأكثر من أربعة قرون، إلى أن كل المواضع والبلدان تختلف حالاتها وحالات أهلها، وما يحدث فيها على قدر قُرب الشمس منها أو بُعدها عنها وبيان ذلك الترك، فإنهم من أجل بعدهم عن مدار الشمس عند صعودها وهبوطها كثرت الثلوج فيهم وغلبت الرطوبة والبرودة على أرضهم، فاسترخت لذلك أجساد أهليها وغلظت وصارت شعورهم سبطة وألوانهم بيضاً وحمراً، وغلب على طباعهم البرد، وذلك لبرد أهويتهم، فإن المزاج البارد يولد لحماً كثيراً.. ومن أخلاق أهل هذه الناحية الجفاء وقطيعة الرحم وقلّة اليقين[3].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٨٣.

(٣) ابن رسته، الأعلاق النفيسة، انظر ملحق الجغرافيين في نهاية الكتاب، طبعة ليدن، سنة ١٨٩١، ص ص ١٠١- ١٠٢.

وأما السودان والحبش فإن الشمس تكون على سمت رؤوسهم فتسخن أهويتهم وتحرقهم وتكثر الحرارة واليبس فيهم، فلهذه العلّة صارت ألوانهم سوداً وشعورهم وأبدانهم يابسة نحيفة، وطباعهم حارة وكذلك دوابهم وأشجارهم.. وذكر ابن رسته أن المناطق التي يكون موضعهم معتدلاً ليس فيه حرّ شديد ولا برد شديد تكون ألوانهم وأبدانهم وطبائعهم وعقولهم وأخلاقهم حسنة وقد كثُرَ فيهم العلم والذكاء.. ومحاسن الأخلاق وهي أرض العلماء والنبيين.

وتناول ابن خلدون الفرق بين البدو والحضر وذكر أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران، وأن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه، وأن الحضر هم المعتنون بحاجات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم[1]. كما أوضح أن أهل البدو أقرب للخير من أهل الحضر لأن نفوسهم على الفطرة الأولى، كما أن البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر.

وقد صنّف ابن الفقيه الهمذاني سكان البلاد المختلفة وفق صفات صاغها على النحو التالي:

(أهل الهند ممتزجون لأن بلادهم مزاج الشمال والجنوب، ولذلك حسنت أخلاقهم وأجسامهم ووجوههم واعتدلت... وأهل مصر أهل غفلة وقلّة فطنة، والبربر الفطنة فيهم فاشية وليس فيهم كبر ولا مكر، وأهل الروم أهل صلف وتكلّف، وأهل الشام أهل غفلة وسلامة، وأهل الحجاز أهل معازف ولهو ومداعبة وتأنيث، وأهل العراق أهل فطنة وغدر، وأهل الهند أهل غفلة ولين وشجاعة، وأهل الصين أهل طلب وخفّة وجبن وحذق بالصناعات، وأهل اليمن أهل غفلة ولين وخفّة، وأهل خراسان أهل غفلة وبخل وحرص وشجاعة)[2].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ١٢٢.

(٢) ابن الفقيه الهمذاني (انظر ملحق الجغرافيين المسلمين في نهاية الكتاب) مختصر البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٢.

وتحدّث الإصطخري عن سكان الأقاليم المختلفة، وعلى سبيل المثال ذكر عن سكان خوزستان (عربستان) وزيّهم زيّ أهل العراق في الملابس من القمص والطيالسة والعمائم، وفي أضعافهم من يلبس الإزر والميازر، والغالب على أخلاقهم سوء الخلق، والمنافسة فيما بينهم في اليسير من الأمور وشدّة الإمساك، والغالب على خلقهم صفرة اللون والنحافة وخفّة اللحى والضخامة، وهذه صفة الجروم (البلاد الحارة)[1].

٢ ـ جغرافية المدن في كتب التراث

مقدمة:

اهتمت كتب التراث الجغرافية بدراسة المدن اهتماماً كبيراً، وقد تنوّع هذا الاهتمام واتخذ أساليب مختلفة.

ولا عجب في ذلك، فلقد شجع الإسلام بناء المدن فزاد عددها في ظله زيادة كبيرة في الأقاليم الإسلامية، إذ إن الإسلام قد أضاف ما يقرب من ٤٥٠ مدينة في بضعة قرون محدودة، وقد أشار الباحث اليهودي غويتاين Goitein إلى أن ما أحدثه الإسلام من مظاهر التمدين يُعدُّ ثورة في تاريخ التمدين العالمي، كما أشارت المستشرقة لابيدوس إلى أن الدول الإسلامية دفعت حركة التمدُّن دفعات قوية إلى الأمام بما اتبعته من سياسات تنموية نشيطة شملت النشاطين الزراعي والتجاري، كما ساعدت الظروف الإدارية والسياسية المناسبة على نموّ المدن واتّساع حركة التمدُّن الإسلامية[2].

ومما هو جدير بالذكر أن الجامع يمثّل نواة المدينة الإسلامية، ففيه يلتقي المسلمون في صلواتهم، ولذلك اقتربت المنازل منه. والإسلام يدعو إلى تقارب المسلمين وينتقد تباعدهم وتبعثر ديارهم، ومن هنا القول السائر.

---

(١) أبو إسحق إبراهيم محمد الفارسي الاصطخري، المسالك والممالك، القاهرة، سنة ١٣٨١هـ، ص ٦٣.

(٢) شاكر مصطفى (١٩٨٨م) المدن الاسلامية، جـ ١، الكويت، ص ص ١٦ ـ ١٨

«ساكنو الكفور ساكنو القبور».

ويصف كثير من الباحثين الإسلام بأنه دين مديني وأن المدينة ضرورة إسلامية[1].

ومما يجب التنويه به أن المسلمين لم يكتفوا بإنشاء المدن بل أدخلوا تغييرات عديدة على المدن القديمة في الأقطار المفتوحة حيث أقاموا المساجد والأسواق التي كثيراً ما كانت تقترب من المساجد. وذكر كثير من الجغرافيين المسلمين ومنهم القزويني، أن سبب نشأة المدن أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده كسائر الحيوانات، بل يضطر إلى الاجتماع بغيره حتى يحصل الهيئة الاجتماعية التي يتوقف عليها المطعم والملبس...

ثم عند حصول الهيئة الاجتماعية لو اجتمعوا في صحراء لتأذّوا بالحرّ والبرد والمطر والريح، ولو تستّروا بالخيام لم يأمنوا مكر اللصوص والعدوّ، ولو اقتصروا على الحيطان والأبواب، كما ترى في القرى التي لا سور لها لم يأمنوا صولة ذي البأس، فألهمهم الله تعالى اتخاذ السور والخندق، فحدثت المدن والأمصار والقرى والديار.

وتتناول هذه الدراسة تعريف المدينة والأساليب المختلفة التي اتّبعتها كتب التراث في دراسة المدن. ومن هذه الأساليب ما انفرد به المسلمون وتميّزوا به ولا سيما في مجال الاهتمام بأسماء المدن. إن هذه الدراسات ليست استقصاء لدراسة المدن في كتب التراث وإنما هي بمثابة محاولة للتعريف ببعض جوانب هذا الموضوع الحيوي ليبرز أن الاهتمام بدراسة المدن اتجاه جغرافي إسلامي أصيل، وتهدف إلى فتح نافذة واسعة يطلّ منها الباحثون على تراثهم للاستعانة بما قد يفيدهم في أبحاثهم المعاصرة.

---

(١) A. H. Hourani, The Islamic City, Bruno Cassirer Oxford and University of Pennsylvania Press, 1970, P. 12.

أ ـ تعريف المدينة:

تجمع معاجم اللغة العربية على أن لفظ المدينة مشتقّ من مَدَن، بالمكان يمدُن مُدوناً، أي أقام به[1]. والمدينة على وزن فعيلة (الحصن يبني في أصْطُمَّة الأرض) والمدينة الأمة، والنسبة إلى المدينة «مديني» وإلى مدينة الرسول عليه السلام (مَدَني)[2]. ويقال إن المدينة من دان إذا طاع، فالميم زائدة، لأن السلطان يسكن المدينة فتُقام له طاعة فيها، والمدينة أبيات مجتمعة كثيرة تجاوزت حدّ القرى كثرةً وعمارةً، ولم تبلغ حدّ الأمصار[3]. من العرض السابق يتّضح لنا أن المدينة لها ثلاث معانٍ: الإقامة، والحصن، ومكان السلطة الحاكمة. ويرى بعض الباحثين أن كلمة «المدينة» ليست عربية، وإنما هي آرامية أو سريانية تُطلق على المكان الذي يكون فيه القضاء، لأن كلمة «دين» تدلّ على العدالة[4] وقد استدلّ بعض الباحثين على «المدينة» بالمنبر، والمقصود بالمنبر هنا، المسجد الجامع الذي تُقام فيه صلاة الجمعة، وقد ذكر المقدسي أنه كانت ببلاد ما وراء النهر قرى كبيرة لا يعوزها من رسوم المدن وآلاتها إلا الجامع[5]، واستُخدم اسم «المدائن» للدلالة على المدن الكبيرة، وقد ذكر ياقوت الحموي ثلاثة مواضع عُرِفت بالمدائن[6].

وتكرّر ذكر المدينة في القرآن الكريم أربع عشرة مرة، أربع منها يُراد بها

---

(١) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس، جـ ٩، طبعة المطبعة الخيرية المنشأة بجمالية مصر، سنة ١٣٠٦هـ، ص ٣٤٢، ولسان العرب، لابن منظور، دار صادر بيروت، سنة ١٩٥٦م، جـ ١٣، ص ٤٠٢، ودائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، مكتبة دار البيان، بغداد، سنة ١٩٦٧م، جـ ٨، ص ٥٢٨.

(٢) تاج العروس، المصدر السابق، جـ ٩، ص ٣٤٢.

(٣) نور الدين علي بن أحمد المصري السمهودي، وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، القاهرة، سنة ١٣٧٤، جـ ١، ص ٢٢.

(٤) معهد الإنماء العربي في بيروت، الفكر العربي، العدد التاسع والعشرون، طه الوالي، المدينة في الإسلام، أكتوبر ـ نوفمبر سنة ١٩٨٢، ص ص ١١٠- ١١٢.

(٥) المصدر السابق، ص ١١٣.

(٦) ياقوت الحموي، المشترك وضعاً والمفترق صقعاً، تحقيق فستنفلد، غوتنغن، سنة ١٨٤٦م، ص ٣٨٨.

المدينة المنوّرة، وأربع يُراد بها منف[1]، وذكرت المدائن ثلاث مرات[2]. أما القرية فقد ذُكرت في القرآن سبعاً وثلاثين مرة، وتكرّر ذكر القرى ثماني عشرة مرة، وجاء ذكر القريتين مرة واحدة، وقُصِد بها مكة والطائف[3].

وورد إسم المدينة والمدائن في الأحاديث النبوية الشريفة ثماني عشرة مرة[4]. وجاء ذكر القرية وقرى في أكثر من ستين حديثاً[5].

وجدير بالذكر أن مصطلح قرية يقع على المدن وغيرها، والقرية لفظ يماني الأصل أُطلق أساساً على كل مكان اتّصلت أبنيته[6]. وتطوّر المعنى فيما بعد بحيث أصبح مفهوم القرية يدلّ على ما هو أصغر من المدينة، والقرية لا يكون لها أسوار، فإذا أحاطها سور تصبح مدينة. وعُرِفت مدن الشام بالأجناد، فالجند تعني المدينة والجمع أجناد[7].

أما المصر فقد أُطلق على المدينة وعلى الكورة التي يُقسم فيها الفيىء والصدقات وتقام فيها الحدود[8].

وقد ذكر المقدسي أن المصر عند الفقهاء كل بلد جامع يُقام فيه الحدود ويحلّه أمير ويقوم بنفقته ويجمع رستاقه، والمصر عند العوام، كل بلد جليل

---

(١) طه الوالي، المدينة في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٠٨- ١١١.

(٢) محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون سنة طبع، ص ص دد - ٦٦٣.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ص ٥٤٣- ٥٤٤.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، أ. ي. ونسنك، ي. ب. منسنج، جـ ٦، مطبعة بريل في ليدن، سنة ١٩٦٥م، ص ص ١٨٢.

(٥) المصدر السابق، جـ ٥، ص ص ٣٧٤- ٣٧٦.

(٦) حسين يوسف موسى، عبد الفتاح الصعيدي، الإفصاح في فقه اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط ٢، جـ ١، ص ٥٥٢ (بدون سنة طبع)، جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٦٨، جـ ١، ص ص ٨- ١١.

(٧) حسين يوسف موسى، المرجع السابق، ص ص ٥٥٢- ٥٥٣.

(٨) الإفصاح في فقه اللغة، مرجع سبق ذكره، جـ ١، ص ص ٥٥٢- ٥٥٣.

مثل الموصل والرملة[1].

ب ـ أساليب دراسة المدن في كتب التراث

اختلفت أساليب دراسة المدن في التراث، وتباينت ما بين كتاب وآخر. ويمكن تلخيص أهم اتجاهاتها على النحو التالي:

ب ١ ـ الزيجات أو قوائم تحديد أطوال المدن وعروضها:

يُعدُّ محمد بن موسى الخوارزمي رائد هذا الاتجاه حيث تناول تحديد درجات الطول والعرض لخمسمائة وتسع وثلاثين مدينة وزّعها على الأقاليم السبعة وما خلفها[2]. وكان الإقليم الرابع أوفر الأقاليم حظاً في كثرة المدن حيث ضمّ مائة وستاً وأربعين مدينة، أما الإقليم السابع فقد كان أقلّ الأقاليم نصيباً من المدن. إذ بلغ نصيبه من المدن أربعاً وعشرين مدينة. ووفقاً لتحديد مواقع المدن عند الخوارزمي تقع مدن عدن وصنعاء وحضرموت في الإقليم الأول، ومكة المكرّمة وجدّة والطائف واليمامة في الإقليم الثاني. أما المدينة المنوّرة وهجر، فتقعان في الإقليم الثالث.

ومن الجدير بالذكر أن سهراب في كتابه عجائب الأقاليم السبعة قد سار على نفس النهج الذي سار عليه الخوارزمي، وان اختلف عدد المدن بين الكاتبين.

وقد وزّع المقريزي المدن على الأقاليم السبعة، وذكر أن عدد المدن والحصون أحد وعشرون ألفاً وستمائة مدينة وحصن. يتركز في الإقليم السادس ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمان مدن، وهو بذلك أكثر الأقاليم حظاً من حيث كثرة عدد المدن.

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ابريل، سنة ١٩٠٦م، ص ٤٧.

(٢) أبو جعفر بن موسى الخوارزمي، كتاب صورة الأرض، طبعة فينا، سنة ١٣٤٥هـ (١٩٢٦) تحقيق هانس فون مزيك، ص ص ٣- ٣٧.

وأقل الأقاليم مدناً الإقليم الثاني حيث يوجد ألفان وسبعمائة وثلاث عشرة مدينة وقرية[1].

ب ٢ ـ الاهتمام بأسماء المدن:

أولت المعاجم الجغرافية اهتماماً خاصاً بضبط أسماء المدن والبلدان والبحار وغيرها من الظاهرات الجغرافية. ويذكر البكري صاحب أول معجم جغرافي رُتّب وفق ترتيب حروف الهجاء العربية، أنه لما شاع التصحيف في أسماء المواضع بين الناس ولما رأى أن ذلك قد استعجم على الناس أراد أن يفصح عنه بأن يذكر كل موضع مبيّن البناء معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف[2]. واشتمل معجم البكري على ما يقرب من ٥٢٠٠ موضع (٨٢٪ منها بالجزيرة العربية). وتشمل هذه المواضع المنازل والديار والقرى والمدن والأمصار والمياه والآبار وغيرها. ومعجم البكري لا غنى عنه لكل من يدرسون الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية أو تاريخ العرب القديم. وقد تناول البكري تحديد المواضع وضبط نطقها.

ويعدّه بعض الباحثين مرحلة انتقالية بين اللغة والجغرافيا، ووصفه بعض المستشرقين بأنه ليس كتاباً في الجغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوي[3].

أما معجم البلدان لياقوت الحموي، فإن من أول البواعث التي دعت لجمعه أن ياقوت سُئِل بمرو الشاهجان سنة ٦١٥هـ عن اسم سوق «حُبَاشه» فقال أرى أن حُبَاشه بضمّ الحاء، فانبرى له رجل من المحدثين وقال إنما هو حَبَاشه بفتح الحاء، وصمّم على ذلك وكابر... فألقى في روعي افتقار العالم

---

(١) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي، المتوفي سنة ٨٤٥هـ، الخطط المقريزية، طبعة بالأوفست، مكتبة المثنى ببغداد، جـ ١، بدون سنة طبع، ص ١٠.

(٢) أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة، سنة ١٩٤٥م، جـ ١، ص ١.

(٣) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٦٧، ص ص ١١٤- ١٣٠.

إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً وبالإتقان وتصحيح الألفاظ بالتقييد مخطوطاً ليكون في مثل هذه الظلمة هادياً وإلى ضوء الصواب داعياً[١].

وذكر ياقوت أن معظم الكتب تهمل ذكر أسماء البقاع وتحرّفها، مما دفعه إلى الكتابة في هذا الموضوع.

ولم يقتصر ياقوت الحموي على مجرّد ضبط أسماء المدن أو البلاد بالحروف كأن يقول ساكن أو مفتوح أو مضموم، بل يذكر اشتقاق الاسم إن كان عربياً ومعناه إن أحاط به علماً. وعلى سبيل المثال يذكر ياقوت أن مكة سميت مكة لأنها تمك الجبارين أي تذهب نخوتهم[٢]، ثم يوضح موقعها بالنسبة للأقاليم ومن بناه، وأي بلد من المشهورات يجاوره، وكم المسافة بينه وبين ما يقاربه وبماذا اختصّ من الخصائص، وما ذكر فيه من العجائب، وبعض من دفن فيه من الأعيان والصالحين والصحابة والتابعين... وفي أي زمان فتحه المسلمون وكيف تمّ ذلك. ويستطرد ياقوت بأن هذه الأمور ليست ميسورة له في جميع ما يورده ولا ممكن في قدرة أحد غيره، وإنما يجيء على هذه البلدان المشهورة والأمهات المعمورة[٣].

وقد انتقد أبو الفداء في معجمه «تقويم البلدان» الكتب السابقة التي تناولت أسماء البلدان ونواحي الأرض، ولم تتعرّض إلى تحقيق الأسماء[٤].

وقد تناول أبو الفداء دراسة المدن من حيث ضبطها بالحروف كأن يقول: مكة بالميم المفتوحة والكاف المفتوحة المشدّدة وفي آخرها هاء. ويتناول تحديد الطول والعرض بالدرج والدقائق، والإقليم الحقيقي الذي تقع فيه بالنسبة للأقاليم السبعة، والإقليم العرفي (من تهامة وقيل من الحجاز) ثم يتحدّث عن

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة دار صادر، بيروت، سنة ١٩٥٥م، جـ ١، ص ١٠.

(٢) المصدر السابق، مادة مكة، جـ ٥، ص ١٨١.

(٣) الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، جـ ١، ص ١٢.

(٤) السلطان المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الملك الأفضل نور الدين علي بن جمال الدين محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة، كتاب تقويم البلدان، تحقيق رينو وماك كوكين ديسلان، باريس، سنة ١٨٤٠م، ص ١، ٢.

الأوصاف والأخبار العامة على النحو التالي: «ومكة في وادٍ بين جبال غير ذي زرع وبها الكعبة في وسط المسجد الحرام، ولشهرة ذلك تركنا وصفه، ويقال لبطن مكة، بكة بالباء الموحدة المفتوحة، جاء في صحاح الجوهري وسمّى بطن مكة ببكة لازدحام الناس فيه، لأنه من بَكّه، أي زحمه، ويحيط بها سور، وبالحرم بئر زمزم، وهي البئر المشهورة تجاه باب الكعبة وعليها قبة مبنية[1].

واتجه بعض المؤلفين اتجاهاً خاصاً بالنسبة لأسماء المدن المتشابهة التي يشكل على الناس أمرها فحاول حصرها وتحديدها، ومن هؤلاء المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم» حيث جمعها تحت عنوان «ذكر الأسامي واختلافها». وذكر أن في الإسلام بلداناً وكوراً وقرى تتّفق أسماؤها وتتباين مواضعها ويشكل على الناس أمرها.. فرأينا أن نقدّم هذا الباب ونفرده لها، ونذكر أيضاً الأسامي التي يختلف فيها أهل الإقليم، فإن ذلك يفيد من دخلها لا محالة[2].

وقد وضع ياقوت الحموي كتاباً في أسماء المواضع المتشابهة، وذلك في القرن السابع الهجري، أي بعد وفاة المقدسي بثلاثة قرون، وأطلق عليه «كتاب المشترك وضعاً والمفترق صقعاً» وقد اعتمد على معجمه في استخلاص الأسماء المتشابهة والتي تفترق مكاناً ومحلاً. ويورد ياقوت تحت باب «أَبْرَق» سبعة وعشرين موضعاً، وتحت باب «بِرَاق» خمسة عشر موضعاً، وتحت باب الجَوْف عشرة مواضع[3].

واهتمّ فريق من المؤلفين المسلمين بحصر الأسماء المتعددة لكل مدينة كما فعل المقدسي حيث قال:

«ومن المدن ما لها أكثر من اسم نحو مكة وبكة، المدينة يثرب طيبة طابه جابرة مسكينة محبورة يَنْدَر الدار دار الهجرة»[4].

---

(١) كتاب تقويم البلدان، المصدر السابق، ص ص ٨٦- ٨٧.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٤- ٣٠.

(٣) ياقوت بن عبد الله الحموي، المُشترِك وَضْعاً والمُفترِق صُقْعاً، غوتنغن، سنة ١٨٤٦، تحقيق فستنفلد، ص ص ٨- ١٠، ٤٠، ١١٣.

(٤) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٠ .

وأولى السمهودي في كتابه «وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى» أسماء المدينة وضبطها اهتماماً كبيراً حيث جمع أربعة وتسعين اسماً للمدينة المنوّرة[١].

إن من يتتبّع تلك الأسماء التي جمعها السمهودي يجد أن معظمها صفات ذات دلالات خاصة مثل «البَحِيرة» من الاستبحار والسعة لكونها في متّسع من الأرض، وحرم رسول الله، ودار السُّنة، ودار الهجرة، وذات الحرار ـ لكثرة الحرار بها ـ، وذات النخيل. وكان عليه الصلاة والسلام لا يذكر كلمة «يثرب» أبداً، كما كان يؤكد على أصحابه اجتناب هذا الاسم، وروى أحمد ابن حنبل وأبو يعلي حديثاً جاء فيه: «من سمى المدينة يثرب، فليستغفر الله ثلاثاً»[٢]. وقد جمع القاضي بن الضياء الحنفي اثنين وثلاثين اسماً وصفة لمكة في ستة أبيات من الشعر[٣].

وحاولت كتب التراث في كثير من المواضع تفسير الأسماء ودلالتها، ومن أمثلة ذلك ابن الفقيه الهمداني، حيث يقول: سُمِّيت بكة لأنها تبك أعناق الجبابرة، وقالوا سُمِّيت بكة لأن الأقدام تبك بعضها بعضاً، أي تزدحم. وسمي البيت العتيق لأنه أعتق من الجبابرة[٤]. وحاول ياقوت الحموي في معجمه تفسير كثير من أسماء المدن كما أشرنا من قبل.

وتناولت بعض كتب التراث الجغرافي دراسة تطوُّر أسماء المدن، ومن أمثلة ذلك المقدسي حين تصدّى لدراسة مدينة سامرا، فقال: (كانت عجيبة حسنة حتى سميت سرور من رأى، ثم اختصر فقيل سُرْمرَى) ثم أصبح الاسم

---

(١) نور الدين علي بن أحمد المصري السمهودي، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، سنة ١٣٧٤ (١٩٥٥م) ص ص ٨- ٢٧.

(٢) طه الولي، مرجع سبق ذكره، ص ١١٢.

(٣) إسماعيل حافظ، مجلة الدارة، المملكة العربية السعودية، محرم سنة ١٣٩٩هـ، ص ص ١٣٩- ١٥٦.

(٤) أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ .

سامرا[1].

ب ٣ ـ شروط مواضع المدن:

قام المسلمون ببناء كثير من المدن في المناطق التي فتحوها، وكانوا يكرهون أن يفصل بينهم وبينها ماء، ومن أمثلة تلك المدن، البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها. وحينما قرر المسلمون بناء البصرة اختاروا موقعها بحيث تكون إلى الغرب من النهر، كما اختير موقع الكوفة إلى الغرب من نهر الفرات. وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول لقادة جيوشه: «لا تجعلوا بيني وبينكم ماء، متى شئت آتيكم ركبت ناقتي فأتيتكم». ولعلّ إنشاء مدينة الفسطاط واختيار موقعها على الضفة الشرقية لنهر النيل يوضح هذه الفلسفة الاستراتيجية[2].

وتناول ابن الفقيه الهمداني المقارنة بين موضع المدن، وأثر ذلك على الأحوال الصحية لأهلها فقال: (كل مدينة موضوعة في جهة الشرق فهي أشدّ اعتدالاً وأقلّ أسقاماً لأن الشمس تصفّي تلك المياه التي تجري فيها. والمدن الموضوعة بإزاء المغرب يكثر أمراض أهلها لأن مياههم كدرة متغيّرة وهواءهم غليظ... والمدن الموضوعة على جهة الجنوب تكون مياهها حارة كدرة متغيّرة مالحة، فمن ذلك تسخن في الصيف وتبرد في الشتاء، وأبدان أهلها تكون رطبة ليّنة لما يتحلّب إلى البدن من الرطوبات من رؤوسهم... والمدن الموضوعة جهة الشمال وعلى إزائه مياهها يابسة رطبة ثقيلة النضج وأهلها أقوياء أشدّاء عروض الصدور دِقاق السوق[3]).

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٢.

(٢) محمد محمود محمدين، خريطة العالم الإسلامي من القرن الأول الهجري حتى القرن الخامس عشر الهجري، دراسات، مجلة كلية التربية، جامعة الملك سعود، م ٤، سنة ١٩٨٢م، ص ص ١٩٣- ٢٣٢.

(٣) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، مصدر سبق ذكره، ص ١٥١.

ويذكر ابن الفقيه أن فسطوس في كتاب الفلاحة أوضح أن أصلح مواضع البنيان أن يكون على تل... وأحقّ ما جعلت إليه الأبواب والأفنية والكوا المشرق أو استقبال الصبا، فإن في ذلك صلاح الأبدان لسرعة طلوع الشمس وضوءها عليهم. ويستطرد ابن الفقيه مؤيداً ما ذكره فسطوس ويقول: (إن أصحّ البلاد ما كان على الجبال والأماكن التي تواجه مهبّ الصبا، وما كان في قعور وأغوار ومواجهة بريح الجنوب، وأن تكون الدور شرقية والبساتين غربية، وقالوا لتكن دوركم شرقية وضياعكم غربية. وقال ابن كلده جميع خصال الدار أن تكون على طريق نافذ وماؤها يخرج وليس عليها متشرف وحدودها لها، وتكون بين الماء والسوق، ويصلح فناؤها لحط الرحال، وبلّ الطين، وموقف الدواب. وإن كان لها بابان فذاك أمثل، وتكون نقي الجوار لأن الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق[1]).

وقال يحيى بن خالد: دار الرجل دنياه، فينبغي للرجل أن يتنوّق في دهليزه فإنه وجه الدار ومنزل الضيف ومجلس الصديق إلى أن يؤذن له، ومستراح الخدم وموضع المعلم ومنتهى حدٌ المستأذن. وقال آخر سَعةُ الدار تزيدُ في عقل الرجل كما أن ضِيقَها ينقص من عقله[2].

وعالج القزويني في كتابه آثار البلاد أُسس اختيار مواضع المدن فقال: (ثم إن الملوك الماضية لما أرادوا بناء المدن أخذوا آراء الحكماء في ذلك، فالحكماء اختاروا أفضل ناحية في البلاد، وأفضل مكان في الناحية، وأعلى منزل في المكان من السواحل والجبال ومهبّ الشمال، لأنها تفيد صحة أبدان أهلها وحسن أمزجتها، واحترزوا من الآجام والجزائر وأعماق الأرض، فإنها تورث كرباً وهرماً. واتخذوا للمدن سوراً حصيناً مانعاً، وللصور أبواباً عدّة حتى لا يتزاحم الناس بالدخول والخروج، بل يدخل ويخرج من أقرب باب

---

(١) ابن الفقيه الهمداني، نفس المصدر السابق، ص ص ١٥٢- ١٥٣.

(٢) توضيح ذلك أن الرجل إذا كان ضيق السكن فدخل عليه داخل فيضيق عقله مخافة أن يبدو منه عورة أو عثرة لعدم وجود أماكن كافية، أما إذا كان واسع المسكن فلا يحدث له أي اضطراب أو خجل ويكون هادىء التفكير.

إليه، واتخذوا لها قُهَندزاً لمكان ملك المدينة والنادي لاجتماع الناس فيه، وفي البلاد الإسلامية المساجد والجوامع والأسواق والخانات والحمامات ومراكض الخيل، ومعاطن الإبل، ومرابض الغنم[1].

ويُعدُّ ابن خلدون أبرز من درس مواضع المدن وذلك في أحد فصول كتابه تحت عنوان (فيما تجب مراعاته في أوضاع المدن، وما يحدث إذا غُفِل عن المراعاة)[2]. ويقول ابن خلدون: (اعلم أن المدن قرار تتخذه الأمم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه، فتؤثر الدعة والسكون وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار، ولما كان ذلك القرار والمأوى، وجب أن يراعي فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وجلب المنافع وتسهيل المرافق لها فأما، الحماية من المضار، فيراعى لها أن يُدار على منازلها جميعاً سياج الأسوار وأن يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة، إما على هضبة متوعرة من الجبل أما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها. ومما يراعى في ذلك للحماية من الآفات السماوية طيب الهواء للسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكداً خبيثاً أو مجاوراً للمياه الفاسدة أو منافع متعفّنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورتها فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة وهذا مشاهد. والمدن التي لم يراع فيها طيب الهواء كثيرة الأمراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد الجريد بأفريقيا.

وأما جلب المنافع والمرافق للبلد، فيراعى فيه أمور منها الماء، بأن يكون البلد على نهر أو بإزائها عيون عذبة... فإن وجود الماء قريباً من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة... ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المراعي لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لا بدّ له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب ولا بدّ لها من

---

(١) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سبق ذكره ص ٨.

(٢) مقدمة ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤٧.

المرعى، فإذا كان قريباً طيباً كان ذلك أرفق بحالهم لما يعانون من المشقة في بعده، ومما يراعى أيضاً المزارع فإن الزروع هي الأقوات، فإذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذه وأقرب في تحصيله، ومن ذلك الشجر للحطب والبناء... والخشب أيضاً ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل فيه الخشب من ضرورياتهم، وقد يراعى أيضاً قربها من البحر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد النائية، إلا أن ذلك ليس بمثابة الأول[1]).

ويناقش ابن خلدون بعض أسباب خراب المدن فيذكر: (سبب خراب المدن قلّة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن... وانظر لمّا اختطّوا الكوفة والبصرة والقيروان، كيف لم يراعوا في اختطاطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن، فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن ولم تكن لها مادة تمدّ عمرانها من بعدهم. فقد كانت مواطنها غير طبيعية للقرار، ولم تكن في وسط الأمم فيعمرها الناس[2]).

ب ٤ ـ أنماط المدن:

ميّزت كتب التراث بين أنماط عديدة من المدن حسب مراتبها وأحجامها وأشكالها ووظائفها.

يذكر المقدسي مراتب المدن على النحو التالي: (إنّا جعلنا الأمصار كالملوك والقصبات[3]، كالحجاب والمدن، كالجند والقرى كالرجالة. وقد اختُلف في الأمصار فقالت الفقهاء: المصر كل بلد جامع يقام فيه الحدود ويحلّه أمير ويقوم بنفقته... والمصر عند أهل اللغة كل ما حجز بين جهتين مثل البصرة والرقة، حينما أسس المسلمون الكوفة والبصرة قال عمر بن الخطاب: «لا تجعلوا البحر فيما بيني وبينكم، مصرّوها. أي صيّروها مصراً بين البحر

(١) مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٣٤٨.
(٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ص ٣٥٩.
(٣) القصبة يُراد بها البناء الذي يكون داخل الحصن، وأُطلق الاسم على المدينة، وعلى عواصم الأقاليم.

وبيني: أي حداً[1]، والمصر عند العوام كل بلد جليل مثل الموصل والرملة. أما نحن فجعلنا المصر كل بلد حلّه السلطان الأعظم، وجمعت إليه الدواوين، وقلّدت إليه الأعمال، وأُضيف إليه مدن الإقليم مثل دمشق).

وقد جعل المقدسي أمصار مملكة الإسلام أربعة وتسعين مصراً منها: مكة ـ بغداد ـ الموصل ـ دمشق ـ الفسطاط ـ القيروان[2].

وحينما تناول المقدسي الجزيرة العربية ذكر أن قصبتها مكّة، وأن بها ثلاث عشرة مدينة من أمهات المدن هي: يثرب ـ ينبع ـ قُرْح ـ خَيْبر ـ المَرْة ـ الحَوْراء ـ جُدَّة ـ الطائف ـ الجار ـ السُّقْيَا ـ العَونْيد ـ الجُحفة ـ العُشَيرة.

ثم ذكر أسماء اثنتى عشرة مدينة دون المدن السابقة حجماً وأهميةً هي: بدر ـ خُلَيص ـ أمج ـ الحِجْر ـ بَدَا ـ يعقوب ـ السُّوارقيه ـ الفُرْع ـ السَّيْرة ـ جَبْلة ـ معهَايَع ـ حاذة[3].

ورتّب الاصطخري مدن فارس وفق الترتيب التالي: أكبر مدن فارس شيراز، ثم تليها في الكِبَر فسا، ثم تليها سيراف، وتلي سيراف في الكِبَر أرجّان، وتلي ذلك توّج وسابور واصطخر[4].

وقسّم ابن خلدون المدن إلى مدن صغيرة ومدن متوسطة ومدن مستبحرة في العمارة أو مستبحرة العمران. ويميّز المدن المستبحرة العمران بما يوجد فيها من الصُنَّاع مثل الزجّاج والصائغ والدهّان والطبّاخ، ولا توجد الحمّامات كذلك إلا في الأمصار المستحضرة المستبحرة العمران[5].

أما المدن المتوسطة أو الصغيرة فلا يكون بها مثل الصنّاع السابقين وإنما يكون بها الخيّاط والحدّاد والنجّار وأمثالها.

---

(١) طه الولي، مرجع سبق ذكره، ص ١١٥.

(٢) أحسن التقاسيم، المصدر السابق، ص ص ٤٧- ٤٨.

(٣) المصدر السابق، ص ص ٦٨- ٦٩.

(٤) الاصطخري، مسالك الممالك، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨.

(٥) مقدمة ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص ص ٣٧٦- ٣٧٧.

وهناك مدن يمكن أن نطلق عليها المدن «الموؤدة أو المجهضة» وهي تلك المدن التي لم تكتمل، بدأت في الظهور ثم سرعان ما اختفت، وقد أغفل الجغرافيون ذكر كثير منها، وذكر المؤرخون بعضاً منها مثل مدينة (الجابية) التي بدأت معسكراً للجيش ثم اضمحلّت لأن دمشق القريبة منها ابتلعتها، ومن أمثلة تلك المدن كذلك، قنسرين التي لم تستطع أن تحلّ محلّ حلب القريبة منها فهُجرت هذه المدينة واضمحلّ شأنها[1].

وربط ابن خلدون بين أسعار السلع وبين حجم المدينة فقال: (إذا استبحر المصر وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه، وقلّت أسعار الكمالي... وإذا قلّ ساكن المصر وضعُف عمرانه كان الأمر بالعكس)[2]. واستخدم القزويني في كتابه «آثار البلاد وأخبار العِباد» عدّة تعبيرات للدلالة على أحجام المدن وأهميتها مثل: قرية، وبليدة، ومدينة عظيمة، وأشار إلى بغداد بأنها أم الدنيا وسيّدة البلاد[3]. وقسّم الاصطخري المدن على أساس شدّة حرارتها أو برودتها إلى مدن حارة، وهي الجروم مثل أرجان وجنابه وكران وسيراف، ومدن باردة المناخ، وهي الصرود، مثل اصطخر والرون وأبرقوه. ومدن وسطية أو معتدلة المناخ على الحدود بين الصرود والجروم، مثل فسا وجور وشيراز[4]. وصنّفت كتب التراث المدن على أساس وظائفها، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الاصطخري من أن مدينة القطائع بناها أحمد بن طولون لسكنى جنده[5]، وكذلك كانت مدينة شيراز معسكراً للمسلمين[6]. ويشير المقدسي إلى الطائف بأنها مصيف إذا تأذّى ملوك مكة بالحرّ خرجوا إليها[7].

---

(١) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ١٣٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٦٣.

(٣) القزويني، آثار البلاد، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٣، ص ٣٨٥، ص ٤٦٨.

(٤) الاصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٣٦- ١٣٧.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤٨.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٥.

(٧) المقدسي، أحسن التقاسيم مصدر سبق ذكره، ص ٧٩.

ووصف القزويني كثيراً من المدن بوظائفها مثل مدينة (مَنْدل)، وهي مدينة بأرض الهند يكثر فيها العود حتى يقال للعود المندل[1]. وجور مدينة نزهة بأرض فارس[2] وسيرجان قصبة كرمان كثيرة العلم[3]. وسَمْهر قرية بالحبشة بها صناعة الرّماح السمهرية[4]. وتبريز مدينة حصينة قصبة أذربيجان... وبقربها حمّامات كثيرة عجيبة النفع يقصدها المرضى والزمني ينتفعون بها[5].

وهناك مجموعة من المدن العسكرية عُرفت بأسماء أربعة هي:

الثغور: والثغر كل جوبة أو عورة منفتحة، والثغر الفم، والثغر ما يلي دار الحرب.. وموضع المخافة من خروج البلدان، وهو الحدّ الفاصل بين بلاد المسلمين والكفّار[6]. والثغور هي ما أقامه المسلمون من مدن حصينة على الحدود البرية أو البحرية لمملكة الإسلام، وهي بمثابة الدرع الواقية أو منطلق الإغارة على الأعداء، وعُرفت الثغور بإسم «المسالح» أي المدن المسلحة. ويرجع المؤرخون تاريخ إنشائها إلى عصر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكانت تُعرف «بالفروج»، وعُرفت الثغور المصرية باسم «المواحيز»[7].

الرباطات: هي مدن عسكرية اشتقّ اسمها من مرابطة الخيل، ولقد أنشأ العرب ألف مدينة عُرِف كل منها باسم الرباط، بمعدل رباط واحد كل ستة كيلو مترات[8].

العواصم: أول من وضع نظام العواصم هارون الرشيد، الخليفة العباسي، والعاصمة هي مركز السلطة والادارة، واشتقاق الاسم يعني الحامي والمانع، والعواصم تعصم أرض المسلمين من عدوان الأعداء.

---

(١) القزويني، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨١.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٥.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٣٩.

(٦) طه الولي، مرجع سبق ذكره، ص ١٢٠.

(٧) نفس المرجع السابق، ص ص ١٢١- ١٢٥.

(٨) المرجع السابق، ص ١٢٨.

العسكر: عُرفت المدن التي خصّصت لإقامة الجيش باسم العسكر، مثل عسكر الرملة وعسكر الزيتون في فلسطين، وعسكر مصر وغيرها، والعسكر من العسكرة ومعناها الشدّة.

وميّزت كتب التراث أحياناً بين المدن على أساس سكانهامن عرب أو عجم، أو على أساس المذاهب والديانة مثل كتاب مسالك الممالك للأصطخري، وكتاب أحسن التقاسيم للمقدسي، الذي يذكر أن مدينة بيت المقدس غلب عليها النصارى واليهود[1].

وذكر المقدسي في القرن الرابع الهجري أن مدينة جدّة قد غلب عليها الفرس، ولهم بها قصور عجيبة[2]، وأشار المقدسي كذلك إلى أن هجر للقرامطة وعلى الأحقاف أمير منهم[3].

المدينة الفاضلة والمدينة غير الفاضلة:

يذهب الفارابي إلى تقسيم المدن إلى مدينة فاضلة، ومدينة غير فاضلة. والمدينة الفاضلة يتّصف أهلها بالنظام والعلم والفضيلة وبالخضوع لمبدأ تقسيم العمل.

أما المدينة غير الفاضلة فقد قسّمها إلى خمسة أنواع: المدينة الجاهلة، والمدينة الفاسقة، والمدينة الضالّة (لا تتبع العقيدة الصحيحة) ومدينة النوابت (سكانها أشبه بالبهائم يعيشون على أطراف المدن كالمتوحشين، وهي تشابه الأحياء العشوائية الحالية) والمدينة المتبدّلة التي دبّ الفساد في آراء أهلها.

ويقسم الفارابي المدينة الجاهلة إلى سبعة أنماط هي: مدينة الخسة، ويسعى أهلها للذّة المحسوسة، ومدينة التغلب، ويسعى أهلها للسيطرة على جيرانهم بالعدوان، ومدينة النذالة، ويجمع أهلها الثروة ولا ينفقون شيئاً،

(١) أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٧.

(٢) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٤.

ومدينة الكرامة، أهلها مغرمون بالكِبَر والعظمة، ومدينة البدالة، ويجمع أهلها الثروة لذاتها، ومدينة الضرورة، لا يقوم أهلها إلا بالضروريات فقط.

ولا شك أن هذه الآراء توضح مدى تأثّر الفارابي بأفلاطون وجمهوريته، على الرغم من محاولته التوفيق بين هذا النمط الفلسفي ومسلّمات العقيدة الإسلامية[1].

ب ٥ ـ تركيب المدن وتخطيطها:

اهتمّت كتب التراث بتركيب المدن، واختلف هذا الاهتمام من كتاب إلى آخر، وعلى سبيل المثال، يذكر المقدسي بعض خصائص تخطيط المدن مثل جدّة يقول: «بها قصور عجيبة وأزقتها مستقيمة ووضعها حسن»[2]. وميّزت كتب التراث بين الرُّبض (بالراء المضمومة المشددة) وهو أساس المدينة، والرَّبض (بالراء المفتوحة المشددة) وهو ما حول المدينة[3].

وتناول الاصطخري المدينة المنوّرة فذكر أنها أقلّ من نصف مكة... وعليها سور، والمسجد في نحو من وسطها، وقبر النبي ﷺ في شرقيه قريباً من القبلة... ومصلى رسول الله الذي كان يصلي فيه الأعياد في غربي المدينة داخل الباب... وقباء خارج المدينة على نحو ميلين إلى ما يلي القبلة، وهي مجمّع بيوت للأنصار تشبه القرية[4].

وأوضح القزويني نطاقات مدينة قزوين فذكر أنها مدينة كبيرة عامرة واسعة الرقعة، كثيرة البساتين والأشجار، نزهة النواحي والأقطار، بُنيت على وضع حسن لم يبنَ شيء من المدن قبلها. وهي مدينتان: إحداهما في وسط الأخرى، والمدينة الصغرى تسمى شهرستان، لها سور وأبواب، والمدينة الكبيرة

---

(١) شاكر مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص ص ١٤٨- ١٤٩.

(٢) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٧٩.

(٣) المخصص ، ابن سيده، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، بدون سنة طبع، المجلد الأول، الجزء الخامس، ص ١٢٤.

(٤) الاصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ١٨.

محيطة بها، ولها أيضاً سور وأبواب، والكروم والبساتين محيطة بالمدينة العظمى من جميع الجوانب، والمزارع محيطة بالبساتين، ولها واديان: أحدهما وادي درج والآخر وادي أترك (شكل ١٩)[١].

وعلى الرغم من أن المدينة الإسلامية كانت تلتزم نهجاً محدداً في تخطيطها يعتمد على منظومة ثلاثية هي: المسجد الجامع، ودار الإمارة، والسوق الكبير، فإن كثيراً من المستشرقين قد وصف المدينة الإسلامية بالفوضى بسبب العفوية التي حكمت بناءها ومن أمثال هؤلاء: ميخائيل روجرز.

لقد حرصت معظم المدن الإسلامية على الاقتداء بمدينة الرسول ﷺ في تخطيطها من حيث توسّط الجامع ووجود دار الإمارة والأسواق بجانب الجامع، وهذا تقليد إسلامي لتسهيل اتصال السكان فيما بينهم في العبادة، وتسهيل اتصالهم بالحاكم وبالأسواق التي تعتمد عليها معيشتهم.

والبصرة هي أولى المدن الإسلامية التي تمّ بناؤها بعد مدينة النبي ﷺ، ولهذا فقد اقتدت تخطيطياً بها، لذا نجد توسّط الجامع ووجود دار الإمارة والأسواق.

وتتوزّع خطط المدينة بين مجموعات القبائل لتسهيل توزيع العطاء من جهة، وسرعة التجهيز للجهاد من جهة أخرى، إضافة إلى ضرورة انسجام سكان المدينة بعضهم مع بعض، فمع مرور السنين تتآلف هذه الأشتات القبليّة ليصبح الانتساب إلى المدينة شائعاً، فمنذ القرن الثاني الهجري شاع القول بأن هذا بصري وكوفي أكثر من القول بأن فلاناً أزدي أو كناني[٢].

وقد أولى الجغرافيون المسلمون تخطيط المدن اهتماماً كبيراً، فها هو البلاذري في كتابه فتوح البلدان يتابع تطوّر مراحل بناء البصرة من حيث اختيار موقع تضرب فيه الخيام والقباب، ثم بناء مساكن بالقصب، بما في ذلك مسجد جامع ودار إمارة، وكانوا إذا خرجوا للفتح نزعوا هذا القصب وحزموه وصفوه حتى إذا رجعوا أعادوا بناءه، والمرحلة الثالثة استخدام الطين واللّبن

---

(١) القزويني، آثار البلاد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٤.

(٢) شاكر مصطفى، المرجع السابق، ص ٣٤٨.

والأخشاب في البناء، والمرحلة الرابعة جعل لكل قبيلة خطة، ثم أمر الناس بالبناء وغرس النخل لأول مرة، والمرحلة الخامسة زيادة مساحة المسجد(١).

وتحدّث الحسن بن محمد الوزّان (ليون الافريقي) في كتابه وصف أفريقيا عن تخطيط كثير من المدن، منها مدينة مكناس حيث يقول: إنها مدينة كبيرة بنتها قبيلة تحمل نفس الاسم، وهي تقع في سهل بديع للغاية، وتضم قرابة ستة آلاف أُسرة، وتقوم حولها على مسافة ثلاثة أميال مزارع أشجار عديدة تعطي ثماراً ممتازة... والمدينة في داخلها جميلة التنظيم والتنسيق، وتكثر فيها المساجد الجميلة، كما تضمّ ثلاثة معاهد للطلبة وعشرة حمّامات كبيرة للغاية، ويعقد السوق خارج المدينة قرب الأسوار في كل أيام الاثنين... ولها أسوار جيدة... وتقع كل الطواحين خارج المدينة على مسافة ميلين تقريبا(٢).

وجاء في تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي في القرن الخامس الهجري ما يشتمل على وصف بغداد وتخطيطها، وذكر أن أبا جعفر بنى المدينة مدوّرة، لأن المدوّرة لها معانٍ سوى المربّعة، وذلك أن المربّعة إذا كان الملك في وسطها كان بعضها أقرب إليه من بعض، والمدوّر من حيث قُسّم كان مستوياً لا يزيد هذا على هذا ولا هذا على هذا، وبنى لها أربعة أبواب؛ وعمل عليها الخنادق، وعمل لها سورين وفصيلتين بين كل بابين فصيلان، والسور الداخل أطول من الخارج.

وأبواب بغداد الأربعة هي: باب الكوفة إذا جاء أحد من الحجاز دخل منه، وإذا جاء أحد من المغرب دخل من باب الشام، وإذا جاء أحد من الأهواز والبصرة وواسط واليمامة والبحرين دخل من باب البصرة، وإذا جاء الجائي من المشرق دخل من باب خراسان، وجعل - يعني المنصور - كل باب مقابلاً للقصر، وبنى على كل باب قبّة، وجعل بين كل بابين ثمانية وعشرين

---

(١) شاكر مصطفى، مرجع سبق ذكره، ص ص ٣٤٩- ٣٥٨.

(٢) الحسن بن محمد الوزّان (ليون الافريقي)، وصف افريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميده، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود، المملكة العربية السعودية، الرياض، سنة ١٣٩٩هـ، ص ص ٢١٩- ٢٢١.

برجاً، إلا بين باب البصرة وباب الكوفة فإنه يزيد واحداً. وقطر المدينة من باب خراسان إلى باب الكوفة ألفا ذراع ومائتا ذراع، ومن باب البصرة إلى باب الشام ألفا ذراع ومائتا ذراع، وسمك ارتفاع هذا السور الداخل، وهو سور المدينة، في السماء خمسة وثلاثون ذراعاً[1].

وقد حاول ابن دقماق في نهاية القرن الثامن الهجري وبداية القرن التاسع الهجري أن يصف الأمصار العشرة الكبرى في العالم الإسلامي، مع الاهتمام الكبير بمدن مصر، وبيان فضلها على بقية المدن، وذلك في كتابه الذي أطلق عليه اسم «كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ويتناول الكتاب في سردٍ جافٍ معالم المدينة المتنوعة، وقد بدأ بالكلام عن الفسطاط وذِكر أحياءها وأسواقها وبرَكِها ومساجدها ومعاهدها وغير ذلك[2]. ويعتقد كراتشكوفسكي أن ابن دقماق المصري لم يتمكن إلا من تدوين جزأين فقط من العشرة التي كان ينوي كتابتها، وهذان الجزءان يعالجان الكلام عن القاهرة والإسكندرية[3]. ويعدّ المقريزي، وهو تلميذ ابن دقماق، من أفضل الجغرافيين الذين اهتموا بنمط «الخطط» التي أراد أن يلخّص فيها ما بديار مصر من الآثار الباقية عن الأمم الماضية والقرون الخالية، وما بقي بفسطاط مصر... ويذكر ما بمدينة القاهرة من آثار القصور الزاهرة وما اشتملت عليه من الخطط والأصقاع، وحوَتهُ من المباني البديعة الأوضاع. وتناول المقريزي ذكر مدائن أرض مصر، واهتمّ بالفسطاط والقطائع، والقاهرة التي ذكر مسالكها وشوارعها وسورها وأبوابها[4].

---

(١) الحافظ أبو بكر بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٣٤٩هـ/١٩٣١م، المجلد الأول، ص ص ٦٦- ٧٢.

(٢) إبراهيم بن محمد أيدمر العلائي الشهير بابن دقماق، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، بدون سنة طبع، ص ص ٢- ١٢٠.

(٣) كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي مرجع سبق ذكره، ج ٢، ص ٤٧٢.

(٤) تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة أوفست، مكتبة المثنى، بغداد، بدون سنة طبع، ص ص ٢٨٥- ٣٤٨.

ج ـ نماذج من دراسة المدن في كتب التراث[1]:

استأثرت مدن شبه الجزيرة العربية باهتمام كتب التراث، وقد بدأ بدراستها غالبية الجغرافيين المسلمين، وعلى سبيل المثال يذكر المقدسي: (إنما بدأنا بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر دين الإِسلام)[2].

ويقول الاصطخري: (ففصلت بلاد الإِسلام عشرين إقليماً، وابتدأت بديار العرب، فجعلتها إقليماً لأن فيها الكعبة ومكة وأم القرى، وهي واسطة هذه الأقاليم)[3].

وعموماً، نجد أن مدينتي (مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة) هما أكثر المدن التي تناولتها كتب التراث. وقد خصّص بعضهم كتباً منفردة لهما مثل السمهودي في كتابه (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى) وأبو الوليد الأزرقي الذي كتب (أخبار مكة). ولعلّ سبب الاهتمام بهاتين المدينتين يرجع إلى ما لهما من دور بارز في تاريخ الإِسلام والحضارة الإِسلامية.

وتناول الاصطخري دراسة مكة والمدينة على النحو التالي: (نبتدىء من مدن ديار العرب بمكة ـ شرّفها الله ـ وهي مدينة فيما بين شعاب الجبال).

وطول مكة من المَعَلاة إلى المسفلة نحو ميلين، وهو من حد الجنوب إلى الشمال، ومن أسفل جياد إلى ظهر قعيقعان نحو الثلثين من هذا، وأبنيتها حجارة، والمسجد في نحو الوسط منها والكعبة في وسط المسجد... وأرض البيت مرتفعة عن الأرض... ودار الندوة من المسجد الحرام في غربيه، وهي خلف دار الإمارة مشرعة إلى المسجد... والصفا مكان مرتفع من جبل أبي قبيس وبينها وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف على الصفا، كان بحذاء الحجر الأسود، والمسعى ما بين الصفا والمروة، والمروة حجر من جبل قعيقعان، ومن وقف عليه كان بحذاء الركن

---

(١) هذه مقتطفات من بعض كتب التراث لمن لا تتاح له فرصة الاطلاع على كتب التراث ذاتها وقد نقلناها بما فيها من أمور لا يقبلها العقل.

(٢) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٦٦.

(٣) الاصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ٣.

العراقي... وأبو قبيس هو الجبل المشرف على الكعبة من شرقيها، وقعيقعان هو الجبل الذي عن غربي الكعبة، وأبو قبيس أعلى وأكبر منه ويقال إن حجارة البيت من قعيقعان[1].

وأما المدينة، فهي أقل من نصف مكة، وهي في حرة، سبخة الأرض، ولها نخيل كثير ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار يستقون منها العبيد، وعليها سور، والمسجد في نحو من وسطها، وقبر النبي ﷺ من المسجد في شرقيه قريباً من القبلة وهو الجدار الشرقي من المسجد، وهو بيت مرتفع ليس بينه وبين سقف المسجد إلا فرجة، وهو مسدود لا باب له وفيه قبر الرسول ﷺ وقبر أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - والمنبر الذي كان يخطب عليه رسول الله غشي بمنبر آخر، والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر، ومصلى رسول الله الذي كان يصلي فيه الأعياد في غربي المدينة داخل الباب... وقباء خارج المدينة على نحو ميلين إلى ما يلي القبلة، وهو مجمع بيوت للأنصار يشبه القرية. وأحد جبل في شمالي المدينة وهو أقرب الجبال إليها على مقدار فرسخين، وبقربها مزارع فيها ضياع لأهل المدينة توازي العقيق فيما بينها وبين الفرع[2].

وقد تناول القزويني دراسة مكة بالتفصيل فقال:[3]

«هي البلد الأمين الذي شرّفه الله تعالى وعظّمه وخصّه بالقَسَم وبدعاء الخليل، عليه السلام: «ربِّ اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات». واجعله مثابة للناس، وأمناً للخائف، وقبلة للعباد، ومنشأ لرسول الله ﷺ، وعن رسول الله عليه السلام: من صبرَ على حرّ مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة عام، وتقرّبت منه الجنّة مائتي عام، إنها لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد كان بعدي، وما حلت لي إلا ساعة من نهار، ثم هي حرام

---

(١) الاصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ١٥.

(٢) الاصطخري، مصدر سبق ذكره، ص ١٨، ويتفق ما كتبه الاصطخري مع ما كتبه كل من ابن حوقل والمقدسي إلى حدٍّ كبير في وصف هاتين المدينتين الشريفتين.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص ص ١١٢- ١١٧.

لا يعضد شجرها ولا يحتش خلاها ولا يلتقط ضالتها إلا لمنشد.

وعن ابن عباس: ما أعلم على الأرض مدينة يرفع فيها للحسنة مائة إلا مكة، ويكتب لمن صلى ركعة مائة ركعة إلا مكة، ويكتب لمن نظر إلى بعض بنيانها عبادة الدهر إلا مكة ويكتب لمن يتصدّق بدرهم ألف درهم إلا مكة.

وهي مدينة في وادٍ والجبال مشرفة عليها من جوانبها وبناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضاً. وهي طبقات مبيضة نظيفة حارة في الصيف جداً، إلا أن ليلها طيّب، وعرضها سعة الوادي، وماؤها من السماء ليس بها نهر ولا بئر يشرب ماؤها، وليس بجميع مكة شجر مثمر، فإذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار ومزارع ونخيل، وميرتها تحمل إليها من غيرها بدعاء الخليل، عليه السلام: ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع، إلى قوله من الثمرات.

وأما الحرم فله حدود مضروبة بالمنار قديمة، بيّنها الخليل، عليه السلام، وحده عشرة أميال في مسيرة يوم، وما زالت قريش تعرفها في الجاهلية والإسلام. فلما بعث رسول الله ﷺ، أقرّ قريشاً على ما عرفوه، فما كان دور المنار لا يحل صيده ولا يختلي حشيشه ولا يقطع شجره ولا ينفر طيره ولا يترك الكافر فيه. ومن عجيب خواص الحرم أن الذئب يتبع الظبي فإذا دخل الحرم كفّ عنه.

وأما المسجد الحرام فأول من بناه عمر بن الخطاب في ولايته، والناس ضيّقوا على الكعبة وألصقوا دُورهم بها فقال عمر: إن الكعبة بيت الله ولا بدّ لها من فناء، فاشترى تلك الدور وزادها فيه واتخذ للمسجد جداراً نحو القامة، ثم زاد عثمان فيه، ثم زاد عبد الله بن الزبير في إتقانه وجعل فيها عمُداً من الرخام وزاد في أبوابه وحسنه. ثم زاد عبد الملك بن مروان في ارتفاع حيطانها وحمل السواري إليها من مصر في الماء إلى جدّة، ومن جدّة إلى مكة على العَجَل وأمر الحجاج فكساها الديباج، ثم الوليد بن عبد الملك زاد في حليّ البيت لما فتح بلاد الأندلس فوجد بطليطلة مائدة سليمان ـ عليه السلام ـ كانت من ذهب ولها أطواق من الياقوت والزبرجد، فضرب منها

حلي الكعبة والميزاب، وقد زاد المنصور وابنه المهدي في إتقان المسجد وتحسين هيئته، والآن (القرن السابع الهجري) طول المسجد الحرام ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعاً، وعرضه ثلاثمائة ذراع وخمس عشرة ذراعاً، وجميع أعمدة المسجد أربعمائة وأربعة وثلاثون عموداً، وأما الكعبة ـ زادها الله شرفاً ـ فإنها بيت الله الحرام، إن أول ما خلق الله تعالى في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها، فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأُم القرى. قال وهب: لما أهبط آدم ـ عليه السلام ـ من الجنّة حزن واشتدّ بكاؤه، فعزّاه الله بخيمة من خيامها وجعلها موضع الكعبة، وكانت ياقوتة حمراء، وقيل درّة مجوّفة من جواهر الجنّة، ثم رُفعت بموت آدم ـ عليه السلام ـ فجعل بنوه مكانها بيتاً من حجارة فهُدم بالطوفان، وبقي على ذلك الحال ألفي سنة حتى أمر الله تعالى خليله ببنائه، فجاءت السكينة كأنها سحابة فيها رأس يتكلم فبنى الخليل وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ على ما ظلّلته.

وأما صفة الكعبة، فإنها في وسط المسجد، مربّعة الشكل، بابها مرتفع على الأرض قدر قامة، عليه مصراعان ملبّسان بصفائح الفضّة طُليت بالذهب، وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر، وعرضها ثلاثة وعشرون ذراعاً وشبر. وذرع دور الحجر خمسة وعشرون ذراعاً وارتفاع الكعبة سبعة وعشرون ذراعاً.

والحجر من جهة الشام يصبّ فيه الميزاب، وقد أُلبست حيطان الحجر مع أرضه بالرخام، وحول البيت شاذروان مجصّص ارتفاعه ذراع في عرض مثله، وقايةً للبيت من السيول. والباب في وجهها الشرقي على قدر قامة من الأرض طوله ستة أذرع وعشر أصابع، وعرضه ثلاثة أذرع وثماني عشرة إصبعاً. والحجر الأسود على رأس صخرتين، وقد نُحت من الصخر مقدار ما دخل فيه الحجر، والحجر الأسود حالك على الركن الشرقي عند الباب في الزاوية، وهو مقدار رأس إنسان، وذكر بعض المكّيين حديثاً عن مشايخهم أنهم نظروا إلى الحجر الأسود عند عمارة ابن الزبير البيت، فقدّروا طوله ثلاثة أذرع، وهو ناصع البياض، إلا وجهه الظاهر؛ وارتفاع الحجر من

الأرض ذراعان وثلث ذراع، وما بين الحجر والباب الملتزم (سمّي بذلك لالتزامه الدعاء)، كانت العرب فِي الجاهلية تتحالف هناك، فمن دعا على ظالم هناك أو حلف، إنما عجّلت عقوبته، وداخل البيت في الحائط الغربي الجزعة، على ستة أذرع من قاع البيت، وهي سوداء مخطّطة ببياض طولها اثنا عشر في مثل ذلك، وحولها طوق من ذهب عرضه ثلاث أصابع، ذكر أن النبي ﷺ جعلها على حاجبه الأيمن.

والميزاب متوسط على جدار الكعبة بارز عنه قدر أربعة أذرع، وسعته وارتفاع حيطانه كل واحد ثماني أصابع وباطنه صفائح الذهب. والبيت مستّر بالديباج ظاهره وباطنه، ويُجدَّد لباسه كل سنة عند الموسم. فإذا كثرت الكسوة خفّف عنه وأخذها سدنة البيت، وهم بنو شيبة، وهذه صفة الكعبة والمسجد الحرام حولها، ومكة حول المسجد والحرم حول مكة والأرض حول الحرم.

وعن علي ـ رضي الله عنه ـ: أن الله تعالى قال للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها؟ فغضب عليهم وأعرض عنهم. فطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت اليوم يسترضونه، يقولون: لبّيك اللّهمّ لبّيك، ربنا معذرة إليك، نستغفرك ونتوب إليك، فرضي عنهم وقال: ابنوا في الأرض بيتاً يطوف به عبادي، مَن غضبتُ عليه أرضى عنه كما رضيت عنكم.

وأما خصائص البيت وعجائبه فإن أبرهة بن الصباح قصده وأراد هدمه فأهلكه الله تعالى بطير أبابيل، وذكر أن أساف بن عمرو ونائلة بنت سهيل زنيا في الكعبة، فمسخهما الله تعالى حجرين نصبَ أحدهما على الصفا والآخر على المروة ليعتبر بهما الناس، فلما طال مكثهما وعُبدت الأصنام عُبدا معاً إلى أن كسرهما رسول الله فيما كسّر من الأصنام.

ومن عجائب البيت أن لا يسقط عليه حمام إلا إذا كان عليلاً، وإذا حاذى الكعبة عَرَقة من طير تفرّقت فرقتين ولم يعلها طائر منها، وإذا أصاب

المطر أحد جوانبها يكون الخصب في تلك السنة في ذلك الجانب، فإذا عمّ المطر جميع الجوانب عمّ الخصب جميع الجوانب، ومن سنّة أهل مكة أن مَن علا الكعبة من عبيدهم يعتقونه، وفي مكة من الصلحاء من لم يدخل الكعبة تعظيماً لها.

وعن يزيد بن معاوية: أن الكعبة كانت على بناء الخليل عليه السلام، إلى أن بلغ النبي ﷺ خمساً وثلاثين سنة فجاءها سيل عظيم هدمها، فاستأنفوا عمارتها. وقريش ما وجدوا عندهم مالاً لعمارة الكعبة إلى أن رمى البحر بسفينة إلى جدّة فتحطمت فأخذوا خشبها واستعانوا به على عمارتها، فلما انتهوا إلى الركن اختصموا وأراد كل قوم أن يكونوا هم الذين يضعونه في موضعه، وتفاقم الأمر بينهم حتى تناصفوا على أن يجعلوا ذلك لأول طالع، فطلع عليهم النبي ﷺ، فاحتكموا إليه فقال: هلمّوا ثوباً، فأُتي به، فوضع الركن فيه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ففعلوا ذلك حتى إذا رفعوه إلى موضعه أخذ النبي ﷺ الحجر بيده ووضعه في الركن.

وعن عائشة قالت: سألت رسول الله عن الحجر أمن البيت هو؟ قال، نعم، قلت: فما بالهم لم يدخلوه في البيت؟ فقال ﷺ: إن قومك قصرت بهم النفقة. قلت: فما شأن بابه مرتفعاً؟ قال: فعلوا ذلك ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا، ولولا أن قومك حديثو عهد بالجاهلية، أخاف أن تنكر قلوبهم، لنظرتُ أني أدخل الحجر في البيت. فأدخل عبد الله بن الزبير عشرة من الصحابة حتى سمعوا منها ذلك، ثم هدم البيت وبناها على ما حكت عائشة، فلما قتل الحجاج ابن الزبير ردّها على ما كان وأخذ بقيّة الأحجار وسدّ بها الغربي ورصف الباقي في البيت، فهي الآن على بناء الحجاج.

وأما الحجر الأسود فجاء في الخبر أنه ياقوتة من يواقيت الجنّة، وأنه يبعث يوم القيامة، وله عينان ولسان يشهد لمن استلمه بحق وصدق.

روى أن عمر بن الخطاب قبّله وبكى حتى علا نشيجه، فالتفت فرأى علياً فقال: يا أبا الحسن هاهنا تسكب العبرات وأعلم أنه حجر لا يضرّ ولا ينفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّله ما قبّلته! فقال علي: بل هو

يضرّ وينفع يا عمر لأن الله تعالى لمّا أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً وألقمه هذا الحجر، فهو يشهد للمؤمن بالوفاء وعلى الكافر بالجحود، وذلك قول الناس عند الإسلام: اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاءً بعهدك.

قال عبد الله بن عباس: ليس في الأرض شيء من الجنة إلا الركن الأسود والمقام، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنّة، ولولا مسهما من أهل الشرك ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى. ولم يزل هذا الحجر محترماً في الجاهلية والإسلام يقبّلونه إلى أن دخلت القرامطة مكة سنة سبع عشرة وثلاثمائة عنوة، فنهبوها وقتلوا الحُجاج وأخذوا في سلب البيت وقلعوا الحجر الأسود وحملوه إلى الأحساء من أرض البحرين حتى توسط فيه الشريف أبو علي عمر بن يحيى العلوي بين الخليفة المطيع لله وبين القرامطة سنة خمس وثلاثين، فأخذوا مالاً عظيماً وردُّوه. فجاءوا به إلى الكوفة وعلّقوه على الأسطوانة السابعة من أساطين الجامع ثم حملوه على مكانه.

وحكى أن رجلاً من القرامطة قال لبعض علماء الكوفة، وقد رآه يقبّل الحجر ويتمسّح به: ما يؤمنكم أنَّا غيّبنا ذلك الحجر وجئنا بمثله؟ قال: إنَّ لنا فيه علامة وهي أنَّا إذا طرحناه في الماء يطفو، فجاءوا بماء وأُلقي به فطفا[1].

وأما المقام، فإنه الحجر الذي وقف عليه الخليل ـ عليه السلام ـ حين أذن في الناس بالحجّ. وذَرْع المقام ذراع، وهو مربّع سعة أعلاه أربع عشرة إصبعاً في مثلها، ومن أسفله مثل ذلك، وفي طرفيه طوق من ذهب، وما بين الطرفين بارز لا ذهب عليه طوله من نواحيه كلها تسع أصابع وعرضه عشر أصابع، وعرضه من نواحيه إحدى وعشرون إصبعاً والقدمان داخلتان في الحجر سبع أصابع وبين الحجر إصبعان ووسطه قد استدقّ من التمسُّح. وهو في حوض مربع حوله رصاص وعليه صندوق ساج وفي طرفه سلسلتان يقفل عليهما قفلان.

---

(١) القزويني، نفس المصدر السابق، ص ١١٨.

قال عبد الله بن شعيب بن شيبه: ذهبنا نرفع المقام في عهد المهدي فانثلم وهو حجر رخو فخشينا أن يتفتّت، فكتبنا إلى المهدي فبعث إلينا ألف دينار فصببناها في أسفله وأعلاه وهو الذي عليه اليوم.

وبها جبل أبي قبيس، وهو جبل مطلّ على مكة تزعم العوام أن من أكلَ عليه الرأس المشوي يأمن من وجع الرأس، وكثير من الناس يفعلون ذلك، والله أعلم بصحته.

وبها الصفا والمروة، وهما جبلان ببطحاء مكة قيل: إن الصفا اسم رجل والمروة اسم امرأة ارتكبت إثماً في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجراً فوضعا كل واحد على الجبل المسمى بإسمه لاعتبار الناس. وجاء في الحديث: أن الدابة التي هي من أشراط الساعة تخرج من الصفاء، وكان عبد الله بن عباس يضرب عصاه على الصفاء ويقول: إن الدابة لتسمع قرع عصاي هذا.

والواقف على الصفاء يكون بحذاء الحجر الأسود والمروة تقابل الصفاء. وبها جبل ثور أطحل، وهو جبل مبارك بقرب مكة يقصده الناس لزيارة الغار الذي كان فيه النبي ﷺ مع أبي بكر حين خرج من مكة مهاجراً، وقد ذكر الله في كتابه العزيز: إذ أخرجه الذين كفروا (الآية) يزوره الناس متبركين به.

وبها ثبير، وهو جبل عظيم بقرب منى يقصده الناس زائرين متبركين به لأنه أهبط عليه الكبش الذي جعله الله فداء لإسماعيل ـ عليه السلام ـ وكان قرنه معلّقاً على باب الكعبة إلى وقت الغرق قبل المبعث بخمس سنين. رآه كثير من الصحابة ثم ضاع بخراب الكعبة بالغرق. وتقول العرب: أشرق ثبير كيما تغير، إذا أرادوا استعجال الفجر.

وبها جبل حراء، وهو جبل مبارك على ثلاثة أميال من مكة يقصده الناس زائرين، وكان النبي ﷺ قبل أن يأتيه الوحي حبّب إليه الخلوة وكان يأتي غاراً فيه. وأتاه جبرائيل ـ عليه السلام ـ في ذلك الغار وذكر أن النبي ﷺ ارتقى ذروته ومعه نفر من أصحابه فتحرك فقال عليه السلام: اسكن حراء فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد.. فسكن.

وبها قدقد، وهو من الجبال التي لا يوصَل إلى ذروتها، وفيه معدن البرام يحمل إلى سائر بلاد الدنيا.

وبها بئر زمزم، وهي البئر المشهورة المباركة بقرب الكعبة: قال مجاهد: ماء زمزم إن شربت منه تريد شفاء، شفاك الله، وإن شربته لظمأ أرواك الله، وإن شربته لجوع أشبعك الله.

قال محمد بن أحمد الهمداني: كان ذرع زمزم من أعلاها إلى أسفلها أربعين ذراعاً وفي قعرها ثلاث عيون: عين حذاء الركن الأسود وأخرى حذاء أبي قبيس وقلَّ ماؤها في سنة ثلاث وعشرين ومائتين فحفروا فيها تسعة أذرع فزاد ماؤها ثم جاء الله تعالى بالأمطار والسيول في سنة خمس وعشرين ومائتين فكثر ماؤها وذرعها من رأسها إلى الجبل المنقور فيه إحدى عشرة ذراعاً وهو مطوي، والباقي وهو تسع وعشرون ذراعاً منقور في الحجر وذرع تدويرها إحدى عشرة ذراعاً وسعة فمها ثلاثة أذرع وثلثا ذراع، وعليها ميلان ساج مربعة فيها اثنتا عشرة بكرة يستقي عليها. وأول من عمل الرخام عليها وفرش به أرضها المنصور. وعلى زمزم قبّة مبنيّة في وسط الحرم عند باب الطواف تجاه باب الكعبة.

في الخبر: أن الخليل ـ عليه السلام ـ ترك إسماعيل وأمه عند الكعبة وكرّ راجعاً. قالت له هاجر: إلى من تكلنا؟ قال إلى الله. قالت: حسبنا الله فأقامت عند ولدها حتى نفذ ماؤها فأدركتها الحنة على ولدها فتركت إسماعيل بموضعه وارتقت إلى الصفاء تنظر هل ترى عيناً أو شخصاً. فلم ترَ شيئاً فدعت ربها واستسقته ثم نزلت حتى أتت المروة ففعلت مثل ذلك ثم سمعت صوت السباع فخشيت على ولدها فأسرعت نحو إسماعيل فوجدته يفحص الماء من عين قد انفجرت من تحت خدّه، وقيل بل من تحت عقبه. فلما رأت هاجر الماء يسري جعلت تحوطه بالتراب لئلا يسيل، قيل: لو لم تفعل ذلك لكان عيناً جارية قالوا. وتطاولت الأيام على ذلك حتى عفتها السيول والأمطار ولم يبقَ لها أثر.

وعن علي، كرّم الله وجهه: أن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر إذ أُمر بحفر زمزم. قال: وما زمزم؟ قالوا: لا تنزف ولا تهدم يسقي الحجيج

الأعظم عند نقره الغراب الأعصم. فغدا عبد المطلب ومعه الحارث ابنه، فوجد الغراب ينقر بين آساف ونائلة. فحفر هناك، فلما بدا الطي كبَّر فاستشركه قريش وقالوا: إنه بئر إسماعيل ولنا فيه حق، فتحاكموا إلى كاهنة بني سعد بأشراف الشام وساروا حتى إذا كانوا ببعض الطريق نفد ماؤهم وظمئوا وأيقنوا بالهلاك، فانفجرت من تحت خفّ عبد المطلب عين ماء فشربوا منها وعاشوا. وقالوا: قد والله قضى لك علينا لا نخاصمك فيها أبداً إنّ الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فانصرفوا، فحفر عبد المطلب زمزم فوجد فيها غزالين من ذهب وأسيافاً قلعية كانت جرهم دفنتها فيها وقت خروجهم من مكة فضرب الغزالين بباب الكعبة وأقام سقاية الحجّ بمكة، والله الموفق.

وينسب إلى مكة المهاجرون الذين أكثر الله تعالى عليهم من الثناء في كتابه المجيد، وخصّ بعضهم بمزيد فضيلة وهم المبشرة العشرة. ذكر أن رسول الله ﷺ قال: «إنهم في الجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح، رضوان الله عليهم أجمعين.»

وتحدّث **المقدسي** عن الطائف فذكر أنها مدينة صغيرة، شامية الهواء، باردة الماء، أكثر فواكه مكة منها موضع الرمان الكثير والزبيب والعنب الجيّد والفواكه الحسنة، وهي على ظهر جبل غزوان، ربما يجلّد بها الماء عامتها مدابغ، إذا تأذّى ملوك مكة بالحر خرجوا إليها. وتناول وصف جدّة فقال: «جدّة مدينة على البحر منه اشتقّ اسمها محصّنة عامرة آهلة، أهلها أهل تجارات ويسار خزانة مكة ومطرح اليمن ومصر، وبها جامع سري، غير أنهم في تعب من الماء مع أن فيها برَكاً كثيرة. ويحمل إليهم الماء من البعد، قد غلّب عليها الفرس، لهم بها قصور عجيبة وأزقّتها مستقيمة ووضعها حسن شديد الحر جداً»(١).

ووصف المقدسي ينبع بأنها كبيرة جليلة، حصينة الجدار، غزيرة الماء،

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٨٣.

أعمر من يثرب وأكثر نخيلاً، حسنة الحصن، حارة السوق ولها بابان[1].

وقد أسهب الهمداني في وصف مدينة **صنعاء** بصفة خاصة فقال: (هي أُمّ اليمن وقطبها لأنها في الوسط منها، ما بينها وبين عدن كما بينها وبين حد اليمن من أرض نجد والحجاز، وكان اسمها في الجاهلية أزال، ويسمّيها أهل الشام القصبة... ولهم صنائع في الأطعمة التي لا يلحق بها أطعمة بلد ولهم خط المصاحف الصنعاني المكسر والتحسين الذي لا يلحق به[2]. وتناول الهمداني بعد ذلك ذكر فقهائها وعلمائها وشعرائها.

وذكر الهمداني أن النسبة إلى صنعاء صنعاني، مثل بهراء بهراني، لأنهم رأوا النون أخفّ من الواو... وصنعاء أقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح هو الذي أسّسها، وقد جمعت أخبارها في القديم في كتاب (الإِكليل)[2].

ووصف القزويني **سبأ** فقال[3]:

مدينة كانت بينها وبين صنعاء ثلاثة أيام، بناها سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، كانت مدينة حصينة كثيرة الأهل، طيّبة الهواء، عذبة الماء، كثيرة الأشجار، لذيذة الثمار، كثيرة أنواع الحيوان وهي التي ذكرها الله تعالى: «لقد كان لسبأ في مسكنهم آية، جنّتان عن يمين وشمال، كُلُوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة وربّ غفور» ما كان يوجد بها ذباب ولا بعوض ولا شيء من الهوام كالحية والعقرب ونحوهما.

وقد اجتمعت في ذلك الموضع مياه كثيرة من السيول فيمشي بين جبلين ويضيع بين الصحاري، وبين الجبلين مقدار فرسخين، فلما كان زمان بلقيس الملكة، بنَت بين الجبلين سداً بالصخر والقار، وترك الماء العظيم خارج السد. وجعلت في السد مثاغب أعلى وأوسط وأسفل ليأخذوا من الماء كل

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، مصدر سبق ذكره، ص ص ٨١- ٨٢.

(٢) الهمداني، المصدر السابق نفسه، ص ٨٢، وحتى الآن تُعرف صنعاء باسم مدينة سام بن نوح ـ عليه السلام ـ.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢- ١٢١.

ما احتاجوا إليه، فجفّت داخل السد ودام سقيها فعمّرها الناس وبنوا وغرسوا وزرعوا، فصارت أحسن بلاد الله تعالى وأكثرها خيراً. كما قال الله تعالى: «جنّتان عن يمين وشمال». وكان أهلها أخوة وبنو عم، بنو حمير وبنو كهلان. فبعث الله تعالى إليهم ثلاثة عشر نبياً فكذّبوهم، فسلّط الله تعالى الجرذ على سدّهم.

منها عمران بن عامر كانت سيادة اليمن لولد حمير ولولد كهلان، وكان كبيرهم عمران بن عامر، وكان جوّاداً عاقلاً وله ولأقربائه من الحدائق ما لم يكن لأحد من ولد قحطان.

وكانت عندهم كاهنة اسمها طريفة قالت لعمران: والظلمة والضياء والارض والسماء ليقبلن إليكم الماء كالبحر إذا طما. فيدع أرضكم خلاء يسفى عليها الصبا فقالوا لها: فجعتنا بأموالنا فبيّني مقالتك! فقالت: انطلقوا إلى رأس الوادي لتروا الجرذ العادي يجرّ كل صخرة صيخاد بأنياب حِداد وأظافر شِداد، فانطلق عمران في نفر من قومه حتى أشرفوا على السد فإذا هم بجرذ أحمر فيقلع الحجر الذي لا يستقلّه رجال ويدفعه بمخاليب رجليه إلى ما يلي البحر ليفتح السد.

فلما رأى عمران ذلك علِمَ صدْقَ قول الكاهنة فقال لأهله: اكتموا هذا القول من بني عمّكم بني حمير لعلّنا نبيع حدائقنا منهم ونرحل عن هذه الأرض، ثم قال لابن أخيه حارثة: إذا كان الغد واجتمع الناس أقول لك قولاً خالفني، وإذا شتمتك ردّها عليّ وإذا ضربتك فاضربني مثله. فقال: يا عم كيف ذلك؟ فقال عمران: لا تخالف فإن مصلحتنا في هذا.

فلما كان الغد واجتمع عند عمران أشراف قومه وعظماء حمير ووجوه رعيته، أمر حارثة أمراً فعصا، فضربه بمخصرة كانت بيده، فوثب حارثة عليه ولطمه فأظهر عمران الغضب وأمر بقتل ابن أخيه، فوقع في حقّة الشفاعات. فلما أمسك عن قتله حلف أن لا يقيم في أرض امتهن بها. وقال وجوه قومه: ولا نقيم بعدك يوماً، فعرضوا ضياعهم على البيع واشتراها بنو حمير بأعلى الأثمان، فارتحل عن أرض اليمن فجاء السيل بعد رحيلهم بمدة يسيرة وخرّبت

البلاد كما قال تعالى: ﴿ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ﴾ (سورة سبأ - ١٦) فتفرّقوا في البلاد، ويُضرَب بهم المثل فيقال: تفرّقوا أيادي سبأ.

وكانوا ثمانية أبطن: ستة تيامنوا، وهم كندة والأشعريون والأزد ومذحج وأنمار وحمير. وأربعة تشاءموا: وهم عارمة وجذام ولخم وغسان. وكانت هذه الواقعة بين مبعث عيسى ونبيّنا صلى الله عليهما وسلّم.

ووصف القزويني **قزوين** بأنها مدينة كبيرة مشهورة عامرة في فضاء من الأرض طيّبة التربة واسعة الرقعة كثيرة البساتين والأشجار نزهة النواحي والأقطار. بنيت على وضع حسن لم يُبنَ على شيء من المدن مثلها. وهي مدينتان: إحداهما في وسط الأخرى، والمدينة الصغرى تسمى شهرستان، لها سور وأبواب، والمدينة الكبيرة محيطة بها، ولها أيضاً سور وأبواب، والكروم والبساتين محيطة بالمدينة العظمى من جميع الجوانب، والمزارع محيطة بالبساتين ولها واديان: أحدهما وادي درج والآخر وادي أترك. انظر (شكل ١٩) قال ابن الفقيه: أول من استحدث قزوين شابور ذو الاكتاف، وبناء شابور في زماننا هذا يسمى شهرستان. فلما اجتاز الرشيد بأرض الجبال قاصداً خراسان اعترضه أهل قزوين. وأخبروه بمكانهم من أرض الديلم. فسار إلى قزوين وبنى سور المدينة وجامعها سنة أربع وخمسين ومائتين. وأول من فتحها، البراء بن عازب الأنصاري، وقد وقع النفير وقت كان الرشيد بها. فرأى أهلها أغلقوا حوانيتهم وأخذو أسلحتهم وخرجوا إلى وجه العدو مسرعين. فأشفق عليهم وبنى لهم السور وحطّ عنهم خراجهم جاعلاً إياه عشرة آلاف دينار في كل سنة، وقد ورد في فضائل قزوين أحاديث كثيرة تتضمّن الحثّ على المقام بها لكونها ثغراً. منها ما رواه علي بن أبي طالب - عليه السلام - عن رسول الله ﷺ: عليكم بالاسكندرية أو بقزوين فإنهما ستُفتحان على يد أُمّتي. وأنهما بابان من أبواب الجنّة، مَن رابط فيهما أو في إحداهما ليلة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه. وعن سعيد بن المسيب مرفوعاً عن رسول الله ﷺ: سادات الشهداء شهداء قزوين. وأمثال هذه كثيرة.

وبين قزوين وبين الديلم جبل كان ملوك الفرس يجعلون عليه رابطة إذا لم يكن بينهم هدنة، وذلك الجبل هو الحاجز بين القزاونة والإسماعيلية أحد جانبيه لهؤلاء والجانب الآخر لهؤلاء.

وبها مواضع يرجى فيها إجابة الدعاء، منها مسجد شالكان ومسجد شهر ستانك ومسجد دهك ومسجد باب المشبك الملصق بالسور، فإنها مواضع يأتيها الأبدال، ومن عجائب مقصورة الجامع التي بناها الأمير الزاهد خمار تاش، مولى عماد الدولة صاحب قزوين، فإن قبتها في غاية الارتفاع على شكل بطيخ، ليس مثلها في بلاد الإسلام ولا في بلاد الكفر أكبر منها ولا أحسن عمارة. وحكى أن الصنّاع لما رفعوا قواعدها وأرادوا انضمام رأسها عجزوا عن ذلك لفرط سعتها وعمقها فلم يكن شيء من الأجذاع والسلاليم يفي بها، فوقفت العمارة حتى مرّ بها صبي وقال: لو ملؤوها تبناً يمكنهم إتمامها، فتعجّب الصنّاع من حذقه، وقالوا: لا طريق إلا ما ذكره الصبي. فملؤوها تبناً وتمّموها.

ومن عجائبها مقابر اليهود. فإنها فضاء واسع ليس بها آثار القبور، فإذا وجعت بطون دوابهم قادوها إليها وذهبوا بها في تلك الفضاء يمنة ويسرة، فإنه يزول وجعها.

ومن عجائبها سوق الخيل بموضع يسمى رستق الشعير. ذكروا أنّ كل فرس يُحمل إليه للبيع، فإن كان به حران يظهر في الحال.

ومن عجائبها مقبرة باب المشبك، فإنها مقبرة شريفة بها قبور العلماء والشهداء والصلحاء والزهّاد، يأتيها الناس ليلة الجمعة فيرون بها أنوار عجيبة تصعد من القبور وتترك فيها. وهذا أمر ظاهر يراه كل من يمشي إليها صالحاً أو طالحاً. ولقد رأيت في بعض الليالي عَجَباً، وهو أنه قد طلع من بعض القبور كرة قَدَر إبريق وصعدت نحو الهواء أكثر من غلوة سهم وأضاءت الجوانب من نورها، ورآها غيري خلق كثير شرعوا في التكبير والتهليل. وما كانت على لون النار بل كانت على لون القمر ضارباً على الخضرة ثم عادت إلى مكانها.

ومن المدن الأخرى التي ذكرها القزويني مدينة **قم** ، وهي مدينة بأرض

الجبال بين ساوة وأصفهان، وهي كبيرة طيبة خصبة، مصرت في زمن الحجاج ابن يوسف سنة ثلاث وثمانين. أهلها شيعة، غالية جداً، والآن أكثرها خراب. ومياههم من الآبار أكثرها ملح. فإذا أرادوا حفرها وسّعوا في حفرها وبنوا من قعرها بالأحجار إلى شفيرها، فإذا جاء الشتاء أجروا ماء واديهم ومياه الأمطار إليها، فإذا استقوا بالصيف كان عذباً طيباً.

وبها بساتين كثيرة على السواقي، وفيها الفستق والبندق. وبها ملاحة طلمسها بليناس في صخرة ليدوم جريان مائها. ولا ينقطع ما لم يخطر عليه، وماء هذه العين ينعقد ملحاً ويأخذه كل مجتاز.

وأخبرني بعض الفقهاء أن بقرب قم، معدن ملح، مَن أخذ منه الملح ولم يترك هناك ثمنه يعرج حماره الذي عليه ذلك الملح. وبها معدن الذهب والفضة أخفوه عن الناس حتى لا يشتغلوا به ويتركوا الزراعة والفلاحة. وبها طلسم لدفع الحيّات والعقارب. وكان أهل قم يلقون منها ضرراً عظيماً، فانحازت إلى جبل هناك، فإلى الآن لا يقدر أحد أن يجتاز بذلك الجبل من كثرة الحيّات والعقارب.

ومن عجائبها، أن العود لا يكون له في هواء قم أثر كثير ولو كان من أزكى العود. وبها وادٍ كثير الفهود. وحكى أنه أتاهم في بعض الأوقات والٍ سنى وقال لهم: بلغني أنكم لشدّة بغضكم صحابة رسول الله ﷺ لا تسمّون أولادكم بأسمائهم. فإن لم تأتوني منكم بمن اسمه عمر أو كنيته أبو بكر لأفعلنّ بكم... فداروا في جميع المدينة وفتّشوا، ثم أتوا بواحد أحول أقرع كريه اللقاء معوجّ الأعضاء، وكان أبوه غريباً ساكن قم، فكنّاه أبا بكر، فلما رآه الوالي غضب وشتمهم وقال: إنكم إنما كنّيتموه بأبي بكر لأنه أسمج خلق الله منظراً، وهذا دليل على بغضكم لصحابة رسول الله. فقال بعض الظرفاء منهم: أيها الأمير، اصنع ما شئت، فإنّ تربة قم وهواءها لا يأتي بصورة أبي بكر أحسن من هذا، فضحك الوالي وعفا عنهم. ولقاضيها قال الصاحب ابن عباد:

أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم وكان القاضي يقول: أنا معزول السجع

٣ . الجغرافيا اللغوية

اهتمّ الجغرافيون المسلمون باللغة اهتماماً كبيراً ووصفوا اللهجات المختلفة للغات التي كانت تسود العالم الإسلامي، إلا أن اهتمامهم باللغة العربية فاق اهتمامهم باللغات الأخرى. لأن اللغة العربية هي لغة القرآن ولغة العرب. وبهم سُمِّيت، فأخذت تسميتها من اسمهم، ومدلول لفظة العرب بين أكثر الباحثين هو البداوة، ثم توسّع المدلول حتى شمل كل سكان الجزيرة العربية من بدو وحضر، فأهل المدر عرب وأهل الوبر عرب كذلك، وعرف أهل البوادي بالأعراب[١].

ولقد اهتمت كتب التراث باللغة العربية لأنها لغة الوحي. ومنذ منتصف القرن الأول للهجرة غدا اللحن ظاهرة ملموسة، وعلّل الزبيدي ذلك بدخول الناس في دين الله أفواجاً، فاجتمعت في رحاب الإسلام الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة، ففشا الفساد في العربية، فعظم الاشفاق من فشو ذلك وغلبته، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سبّبوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه وتثقيفها لمن زاغت عنه[٢].

وحينما شرع اللغويون في جمع العربية تتبّعوا القبائل المختلفة ووصفوا لغاتها. وقد تمكن اللغويون من جمع المترادفات المختلفة، وهي الألفاظ التي يُراد بها معنى واحد، فجمعوا للأسد ٥٠٠ اسم، وللحيّة ٢٠٠ اسم، وللحجر ٧٠ اسماً، وللكلب ٧٠ اسماً، وللبعير ١٠٠٠ اسم، وللناقة ٢٥٥ اسماً، وللبئر ٨٨ اسماً[٣]. وللفيروزأبادي صاحب القاموس كتاب عن المترادفات أسماه «الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف». وقد ذهب بعض اللغويين إلى أن لكل اسم معنى مختلفاً عن الآخر. وأنّ كثرة الألفاظ للمعنى الواحد هي صفات لا أسماء، ولكننا نستطيع أن نضيف أسباباً أخرى للترادف، وهي أن العرب كانوا قبائل عديدة لكل منها لسانها ولهجاتها. وقد أشار ابن النديم في الفهرست إلى عدد من

---

(١) جواد على المفصل في تاريخ العرب، جـ ١، ص ٥٤١.

(٢) الزبيدي، طبقات النحويين، ص ١- ٢.

(٣) السيوطي المزهر (٤٠٧/١)، الصاحبي، ص ٤٠- ٤٤.

المؤلفات التي تناولت اللغة مثل: «كتاب اللغات» ليونس بن حبيب سنة ١٨٣هـ وكتاب آخر للأصمعي سنة ٢١٣هـ يحمل نفس العنوان.

وقد تتبعت كتب التراث لهجات القبائل المختلفة وقارنتها مثل كتاب المزهر والصاحبي. وذكرت هذه الكتب أن قبائل بني أسد وربيعة ومضر يجعلون بعد كاف الخطاب في المؤنث شيناً فيقولون عليش، ومنش بدلاً من عليك ومنك. وذكر السيوطي أن ربيعة ومضر تميل للكسكسة، أي يجعلون سيناً بعد الكاف في خطاب المذكر. وجاء في تاج العروس أن «الوتم» في لغة اليمن، وهي جعل الكاف شيناً مطلقاً مثل «لبيش اللهم لبيش» في لبيك اللهم لبيك، وأطلق كذلك على هذه الظاهرة الشنشنة. وتميل هذيل إلى «الفخفخة» وهي جعل الحاء عيناً. وقيل إن الاستنطاء يوجد في لغة اليمن مثل قول أنطي بدل أعطي.

ويذكر المقدسي[1] أن أهل جزيرة العرب لغتهم العربية إلا بصحار، فإن نداهم وكلامهم بالفارسية وأكثر أهل عدن وجدة فرس، إلا أن اللغة هي العربية. وبطرف الحميري قبيلة من العرب لا يفهم كلامهم، وأهل عدن يقولون لرجليه رجلينه، وليديه يدينه وقس عليه، ويجعلون الجيم كافاً، فيقولون لرجب ركب ولرجل ركل. ويضيف المقدسي أن جميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة، إلا أن أصحّ لغة بها هذيل، ثم النجدين ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف، فإن لسانهم وحش[2].

ويصف المقدسي لغات العراق فيقول: لغاتهم مختلفة، أصحّها الكوفية لقربهم من البادية وبُعدهم عن النبط، ثم هي بعد ذلك حسنة فاسدة بخاصة بغداد، وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل[3].

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٨.

ويتناول المقدسي اللغة في مصر فيقول: لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة، وذمتهم يتحدثون بالقبطية[١].

وحينما تحدث المقدسي عن جُمَل شؤون إقليم خراسان، ذكر أن ألسنتهم مختلفة، أما لسان نيسابور فصحيح مفهوم، غير أنهم يكسرون أوائل الكاف ويزيدون الياء، مثل بيكو وبيشو، ويزيدون السين بلا فائدة مثل بخردستي... وبكفستي... وأهل طوس ونسا أحسن لساناً. وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ويجهرون فيه. ولسان بست أحسن، ولا بأس بلسان المرويين، غير أنه فيه تحاملاً وطولاً ومداً في أواخر الكلم. ولسان بلخ أحسن الألسن، إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح ولسان هراة وحش.. وسمعت بعض أصحاب المعداني يقول: أمر بعض ملوك خراسان وزيره أن يجمع رجالاً من خمس كور خراسان التي هي الأصول، فلما حضروا تكلم السجستاني. فقال الوزير: هذا لسان يصلح للقتال، ثم فاتح النيسابوري فقال: هذا لسان للتقاضي، ثم تكلم المرزوي فقال:وهذا لسان يصلح للوزارة، ثم تكلم البلخي فقال: وهذا لسان يصلح للرسالة. فلما تكلّم الهروي فقال: وهذا لسان يصلح للكنيف[٢].

وقد تطرّق المقدسي كذلك للغات الديلم فقال: (ولسان قومس وجرجان متقاربان يستعملون الهاء، يقولون: هاده وهاكن وله حلاوة، ولسان طبرستان مقارب له إلا أن فيه عجلة، ولسان الديلم مخالف منغلق، والجيل يستعملون الخاء. ولسان الخزر شديد الانغلاق»[٣]).

وقد تناول الهمداني في كتابه (صفة جزيرة العرب) لغات أهل هذه الجزيرة فقال: (أهل الشحر والإسعاء ليسوا بفصحاء، مَهْرة غتم يشاكلون العجم، حضرموت ليسو بفصحاء، وربما كان فيهم الفصيح، وأفصحهم كنده

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٣.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٦٨.

وهمدان وبعض الصَّدف. سَرْوُ مَذْحج ومأرب وبَيْحان وحَريب فصحاء، ورَدِيٌّ اللغة منهم قليل. سَرْوُ حمير وجَعدة ليسوا بفصحاء وفي كلامهم شيء من التحمير. عدن لغتهم مولدة رَديَّة.. بنو مجيد وبنو واقد والأشعر لا بأس بلغتهم.. حقل قتاب فإلي ذَمَار الحميرية القحة المتعقدة.. خيوان فصحاء، وفيهم حميرية كثيرة إلى صعدة، وبلد سفيان بن أرحب فصحاء إلا في مثل قولهم أم رجل.. ويشركهم في إبدال الميم من اللام في الرجل والبعير.. بعض أهل تهامه، بنو حرب، أهل إمالة في جميع كلامهم، وبنو سعد أفصح، من ذمار إلى صنعاء متوسط وهو بلد ذي جُرة، صنعاء في أهلها بقايا من العربية المحضة ونبذ من كلام حمير، ومدينة صنعاء مختلفة اللغات واللهجات لكل بقعة منها لغة. شِبام أقيان والمصانع وتخلى حميرية محضة، خَوْلان صعدة نجديها فصحاء وأهل قدِّها وغورها غتم[١].

ثم الفصاحة من العرْض في وادعه فجنب قيام فُزبيد فبنى الحارث فما اتصل ببلد شاكر من نجران إلى أرض يام فأرض سنحان فأرض شهد وبني أسامة فعنز فخثعم فهلال فعامر بن ربيعة فسراة الحجر فَدَوْس فغامد فشَكر ففهم فثقيف فبنو على غير أن أسافل سروات هذه القبائل ما بين سراة خولان والطائف دون أعاليها في الفصاحة. وأما العروض ففيها الفصاحة ما خلا قراها، وكذلك الحجاز فنجد السفلى، فإلى الشام وإلى ديار مضر وديار ربيعة فيها الفصاحة إلا في قراها[٢].

وقد تناول ابن خلدون اللغة العربية وأسباب فسادها لكثرة المخالطين للعرب من العجم، فقال: إن لغة قريش هي أفصح اللغات العربية وأصرحها لبُعدهم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم. وأما من بعُد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وأياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس

---

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، الرياض، سنة ١٣٩٤هـ، (١٩٧٤م)، ص ص ٢٧٧- ٢٩٩.

(٢) الهمداني، المصدر السابق، ص ٢٧٩.

والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بُعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية...

وقد أشار ابن خلدون إلى أن اللغات إنما هي ترجمان عمّا في الضمائر.. والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر، وروابط وختام على المعاني ولا بدّ في اقتناص تلك المعاني من ألفاظها من معرفة دلالتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها[1].

٤ . الجغرافيا الدينية

أولى الجغرافيون المسلمون دراسة الأديان اهتماماً خاصاً، وساعدهم على ذلك أن شعوباً مختلفة اعتنقت الإسلام، كما أن رقعة العالم الإسلامي امتدّت امتداداً كبيراً وشملت أقطاراً وشعوباً مختلفة الأديان والمذاهب. ونتج عن احتكاك المسلمين بغيرهم، أن تولّدت رغبة قوية في نفوس علماء المسلمين دفعتهم إلى الاطّلاع على الأديان والمذاهب المنتشرة في بلاد الإسلام كاليهودية والمسيحية والمجوسية، لأن بعض رجال تلك الأديان حاول الكيد والدسّ للإسلام عن طريق بثّ الآراء الملحدة والعقائد الفاسدة، كما أن بعض من اعتنق الإسلام من بين أصحاب المذاهب المختلفة، لم يتخلَّ عن بعض معتقداته، بل ظلّ متمسّكاً بها عمداً أو دون قصد[2].

إن من يتتبّع الدراسات التي قام بها علماء المسلمين مثل المقدسي (البدء والتاريخ) الذي درس أديان الصين والهند واليهودية والنصرانية والصابئة، وابن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة، الذي تتبّع فيه الأديان في جزيرة العرب[3]، وغيرهما أمثال البيروني والاصطخري يدرك أن المسلمين قد رادوا مجال الجغرافيا الدينية قبل غيرهم. ولقد قال هاملتون جب: (المسلمون أول

(١) مصدر سبق ذكره، ص ص ٥١٢- ٥١٣.
(٢) طه الهاشمي (١٩٦٣)، تاريخ الأديان وفلسفتها، بيروت، ص ص ٢١ - ٣١.
(٣) ابن رسته (١٨٩١م) الأعلاق النفسية، طبعة ليدن، ص ص ٢١٧ - ٢٢١ .

من ألّف في مقارنات الأديان والنحل لأنهم كانوا واسعي الصدر تجاه العقائد الأخرى، وحاولوا أن يفهموها، ثم إنهم اعترفوا بما أتى قبل الإسلام من ديانات توحيدية. ويحظى ابن حزم في هذا المجال بالنصيب الأوفر[1].

إن الجغرافيا الدينية، فرع من فروع الجغرافيا البشرية، وتهتمّ الجغرافيا الدينية بدراسة توزيع الأديان جغرافياً، ومدى ارتباط الأديان بالظروف البيئية المختلفة والتفاعل معها.

ويُعدُّ القرآن الكريم أول مصادر التراث الإسلامي التي أشارت إلى الأديان، وإلى تطور هذا الشعور الفطري لدى الإنسان، ولقد صوّر القرآن الكريم هذا الشعور تصويراً بديعاً رائعاً في قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ حينما حاول الإجابة عن التساؤلات التي تخطر للإنسان عن خالق الكون. يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝٧٨ ﴾ سورة الأنعام، ٧٥ـ ٧٨.

لو تأمّلنا هذه الآيات لرأيناها توضح فطرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ السليمة التي راحت تتابع تدرُّج الأجرام السماوية، بدأت بالنجم الصغير ثم أعرض عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى القمر فالشمس، لكن اختفاء هذه الأجرام السماوية وراء الظلام وأفولها لم يرضَ نظرة إبراهيم ـ عليه السلام ـ[2].

ولقد تناول القرآن الكريم ذكر ديانات قديمة وذكر أتباعها، مثل اليهود والنصارى والصابئين، وتناولت آيات القرآن الكريم ذكر أصنام وأوثان العرب مثل: ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسراً، واللات، والعزى، ومناة، كل هذا

(١) أنور الجندي، مرجع سبق ذكره ، ص ٢٢ .

(٢) محمد عبد الله دراز (١٩٧٤) الدين، دار القلم، الكويت ص ص ٨٣ ـ ٨٤ .

أثارَ اهتمام المسلمين بدراسة ما يتعلق بتلك الديانات وأماكن وجودها، ويدخل ذلك في مجال الجغرافيا الدينية.

إن اهتمام الجغرافيين المسلمين بدراسة الجغرافيا أساساً يرتكز على أُسس دينية، ويمكن الوصول إلى هذه الحقيقة دون عناء، إذا ما تتبعنا المقدّمات التي كتبها الجغرافيون المسلمون لمصنّفاتهم، واهتمامهم بتحديد القبلة، وابتداءهم بدراسة ديار العرب أو جزيرة العرب لأن بها مكة.

كما اهتمّ الجغرافيون المسلمون بصفة خاصة بتتبُّع الحج والمراحل المختلفة والمسافات بين سائر الديار الإسلامية وبين مكة.

وقد قام بعض المسلمين برحلات للبحث عن الأماكن التي ورد ذكرها بالقرآن الكريم مثل الرحلات التي تمّت في عهد الخليفة الواثق في بداية القرن الثالث الهجري، حيث أمر محمد بن موسى بالاتجاه إلى عمورية ونيقيا لفحص كهف الرقيم، وكذلك رحلة سلام الترجمان لاستقصاء خبر يأجوج ومأجوج.

ويذكر ناصر خسرو أن من أسباب قيامه برحلاته هو رغبته وحماسه في رؤية الشجرة التي بايع المؤمنون تحتها النبي ﷺ.

كما أن ياقوتاً الحموي ألّف معجمه «معجم البلدان» بسبب ضبط كلمة «حُباشه» التي وردت في حديث النبي ﷺ ودار جدل حول ضبط حروف الحاء بالفتح أو بالضم، ولما لم يجد ياقوت ما يعينه على ذلك عزم على وضع معجمه.

الجغرافيون المسلمون وديانات العرب قبل الإسلام:

تحاشى الجغرافيون المسلمون في أول الأمر ذكر الأصنام والأوثان لقرب عهد أقوامهم بها، حتى لا يثيروا في نفوس العامة ما قد يكون عالقاً بها من حمية الجاهلية لا سيما وأن هدف الإسلام كان تطهير بلاد العرب من الشرك ومحو كل أثر لعبادات العرب القديمة من أوثان وأصنام وغيرها. ولعل ما قام به الخليفة (عمر بن الخطاب) من قطع الشجرة التي بايع النبي ﷺ أصحابه

(بيعة الرضوان) تحتها، يرجع أساساً إلى خوفه من زيادة تعظيم المسلمين لها مما جعله يخشى أن تصبح فتنة لهم على تمادي الزمان[1].

وحينما مرّت السنون، وبَعُدَ عهد الجاهلية ورسخ الإسلام في أفئدة أتباعه، لم يعد هناك مجال للخوف من الحنين إلى أصنام الجاهلية، لذلك بادرت مجموعة من الجغرافيين بجمع ما تبقّى من معلومات تتعلّق بالديانات القديمة. ولعلّ أبرز من رادَ هذا الميدان هشام الكلبي الذي بلغت تصانيفه ١٤١ كتاباً، كما أوردها ابن النديم في كتاب الفهرست، وأوسع هذه الكتب شهرة «كتاب الأصنام».

ويذكر الكلبي أن سبب الاتجاه إلى عبادة الأوثان والحجارة يرجع إلى أن نسل إسماعيل حينما تكاثروا بمكة نفوا مَن كان بها من العماليق، وضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والعداوات، وأخرج بعضهم بعضاً فتفسّحوا في البلاد لالتماس المعاش. وكان لا يخرج أحد من مكة إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وتعلّقاً بمكة وتبرُّكاً بها، فحيثما حلُّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة. وكان منهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسّكون بها من تعظيم البيت والطواف به، والحجّ والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة وإهداء البدن[2].

ويشير الكلبي إلى أن أول مَن غيّر دين إسماعيل ـ عليه السلام ـ هو عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة، إذ أنه نصّب الأوثان، وسيّب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحّر البحيرة وحمى الحامية. أحضر بعض الأصنام من الشام ونصبها حول الكعبة.

وأول من اتّخذ الأصنام من ولد إسماعيل هُذَيل، واتخذوا «سُوَاعا» في ينبع. واتّخذت كَلْب «وَدّا» بدومة الجندل. واتّخذت خَيْوان، على ليلتين من

---

(١) الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد السائب، كتاب الأصنام، تحقيق الأستاذ أحمد زكي، مصوّر عن طبعة دار الكتب، سنة ١٩٢٤م، ص ٢٢. (من تصدير الكتاب).

(٢) الكلبي، المصدر السابق، ص ٦.

مكة في طريق صنعاء«يَعُوق». واتّخذت مَذْحج وأهل جُرَش «يغوث». واتّخذت حِمْير «نَسْرا» ثم انتقلت حمير أيام تُبّع إلى اليهودية. وكان لحمير بيت بصنعاء يُقال له ريام، يعظّمونه ويذبحون عنده الذبائح[1].

هذه الأصنام الخمسة التي كان يعبدها قوم نوح، فلما صنع عمرو ابن لحي الأصنام دانت لها العرب وعبدوها، وكان أقدمها كلها مَنَاة على ساحل البحر من ناحية المُشَلل بِقُدَيد بين المدينة ومكة.

وكانت الأوس والخزرج، ومن ينزل المدينة ومكة وما قاربهما من المواضع يعظّمونه ويذبحون له ويهدون له ولا يحلقون رؤوسهم إلا عنده. ومناة هذه هي التي ذكرها الله عزّ وجلّ فقال: «ومَنَاةَ الثَالِثَةَ الأُخرى». وكانت لهذيل وخزاعة، وقد أمر النبي ﷺ علياً فهدمها في السنة الثامنة من الهجرة.

وكانت طيء لها صنم يدعى الفلس ثم اتخذوا اللات.

واللّاتَ بالطائف، وهي أحدث من مناة. وكانت صخرة مربعة[2] وظلّت اللات حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها.

ثم اتّخذوا العُزَّى، وهي أحدث من اللات ومناة وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقرّبون عندها بالذبح. وقد حمت لها قريش شِعْباً من وادي حُراض يقال له سُقَامٌ يضاهون به حرم الكعبة. وقال زيد بن عمرو بن نفيل وكان قد تأله في الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام[3].

تركتُ اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجَلْدُ الصبورَ
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صَنَمَي بني غَنْمٍ أزورُ
ولا هُبَلا أزور وكان رباً ... لنا في الدهر إذ حِلمِي صغيرُ

(١) الكلبي، المصدر السابق، ص ١١.
(٢) الكلبي، المصدر السابق، ص ١٦.
(٣) الكلبي، المصدر السابق، ص ص ٢١، ٢٢.

وظلت العُزىَّ تُعبَد حتى بعث الله نبيّه ﷺ فعابها وغيرها من الأصنام، ونهاهم عن عبادتها، ونزل القرآن فيها فاشتدّ ذلك على قريش، ومرض أبو أُحَيْحَةَ (وهو من بني أُميّة ابن عبد شمس مناف) مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه أبو لهب يعوده فوجده يبكي فقال: ما يبكيك يا أبا أُحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بدّ منه؟ قال: لا، ولكنني أخاف أن لا تُعبَد العُزى بعدي، قال أبو لهب: «والله ما عُبِدَت حياتَكَ لأجلك» ولا تترك عبادتها بعدك لموتك! فقال أبو أُحيحة: «الآن علمت أن لي خليفة» وأعجبه شدة نصبه في عبادتها.

وكانت قريش تخصّ العزى دون غيرها بالزيارة والهدية. وذلك فيما أظن لقربها منها، وكانت ثقيف تخصّ (اللات)، وكانت الأوس والخزرج تخصّ (مناة) كخاصة هؤلاء الآخرين.

وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها. وكان أعظمها عندهم (هبل) وكان من عقيق أحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى، وذلك حين أدركته قريش فجعلوا له يداً من ذهب، وكان يُعرف بهبل خزيمة لأن أول من نصبه خزيمة بن مُدرِكه بن الياس بن مضر، وكان في جوف الكعبة قدامه سبعة أقداح يحتكمون إليها في أمورهم.

وحينما دخل النبي ﷺ مكة والأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن بِسيةِ قوسه في عيونها ووجوهها ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا» ثم أمر بها فكفئت على وجوهها ثم أخرجت من المسجد فحُرقت، قال في ذلك راشد بن عبد الله السلمي[1].

قالت: هلم إلى الحديث فقلت لا ... يـأبـى الالـه عـلـيـك والإسـلام
أو مـا رأيـت مـحـمـداً وقـبـيـلـه ... بـالـفـتـح حين تُـكَـسَّـرُ الأصـنـامُ
لـرأيـت نـور الله أضـحـى سـاطـعـاً ... والـشـرِكَ يَـغْـشـى وَجـهَـه الإظـلامُ

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه، فإذا أراد

(١) الكلبي، المصدر السابق، ص ٣١.

أحدهم السفر كان آخر ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسّح به أيضاً.

ومن الجغرافيين المسلمين الذين تناولوا أديان العرب قبل الإسلام، أبو علي أحمد بن إسحق المعروف بابن رسته المتوفى حوالي عام ٣١٠هـ/٩٢٣م وذلك في كتابه «الأعلاق النفيسة».

تحدث ابن رسته عن أديان العرب في الجاهلية، فذكر أن النصرانية كانت في ربيعة وغسان وبعض قضاعه، وكانت اليهودية في حمير وبني كنانه وبني الحارث بن كعب وكنده. وكانت المجوسية في تميم، وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة[١].

ومن الطرائف التي ذكرها ابن رسته أن بني حنيفة كانوا قد اتخذوا في الجاهلية إلهاً من حيس فعبدوه دهراً طويلاً، وعندما أصابتهم مجاعة لم يسلم إلههم من شرّ هذه المجاعة فأكلوه، فقال رجل من تميم:

أكلت ربها حنيفة من جوع قديم بها ومن اعواز

وتتبّع ابن رسته الفِرَق الخارجة عن الإسلام ومنها:

الأباضية: ويُنسبون إلى عبد الله بن أباض، وهو من تميم.

الأزارقة: يُنسبون إلى نافع بن الأزرق.

السبائية: ويُنسبون إلى عبد الله بن سبأ أول من كفر من الرافضة وقال عليٌ رب العالمين.

الغرابية من الرافضة: ذكروا أن علياً كان أشبه بالنبي ﷺ من الغراب بالغراب، فغلط جبرائيل ـ عليه السلام ـ حين بعث إلى عليّ لشبته النبي ﷺ به.

وتحدث ابن رسته عن فرَق أخرى مثل الخشبية والكيسانية، والمغيرية، والمنصورية. والخطابية، والزيدية، ثم تحدث عن الشيعة والمرجية والقدرية.

---

(١) ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢١٧-٢٢١.

وقد تتبّع الاصطخري مناطق الجماعات المذهبية في جزيرة العرب حيث يشير إلى البحرين ومدينتها هجر، ويصفها بأنها ديار القرامطة[1]. ويذكر منطقة أخرى في غربي الجزيرة العربية ناحية يُنبُع بالقرب من جبل رضوى، حيث توجد ديار الحسنيين الشيعة وعدد بيوتهم، وهي من الشعر، حوالي سبعمائة بيت. وتنتشر الأباضية بقرب خيوان. وقد أشار الاصطخري إلى وجود جماعة من اليهود الخاصة المعروفة بالسامرة في مدينة نابلس بفلسطين، ووجود أقلية من النصارى في بيت لحم وحمص[2].

وتناول ابن حوقل ديار القرامطة وحدّدها بأنها تشمل البحرين، وأكبر مدنها وأعمالهاهجر، وهي ليست من الحجاز، وهي على شط بحر فارس ومقام القرامطة بها وهي دارهم[3].

أما بالنسبة للمقدسي فقد ذكرنا من قبل اهتمامه بالجانب الديني، حيث بدأ دراسته بجزيرة العرب، لأن بيت الله الحرام ومدينة النبي ـ عليه السلام ـ ويذكر المقدسي قبلة كل إقليم ويذكر المذاهب والذمة فيقول: (إن المذهب الذي يسود مكة وتهامة وصنعاء سنّة، وسواد صنعاء ونواحيها من سواد عمان شراة، وبقية الحجاز وأهل الرأي بعمان وهجر وصعدة شيعة)، ويبرز المقدسي مدى تأثير الخلافات المذهبية على العلاقات بين الجماعات ذات المذاهب المختلفة في المدينة الواحدة، ومن أمثلة ما ذكره: يقع بين الخياطين وهم شيعة، والجزارين وهم سنة بمكة، عصبيات وحروب وبين السنّة والشيعة بينبع.. وبين الجزارين والأعراب باليمامة، وقد بلغ من أمرهم أن اقتسموا الجامع ويقولون للغريب: كن من أيّنا شئت وإلا فاخرج[4].

---

(١) الاصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد، المسالك والممالك، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد، القاهرة، سنة ١٩٦١م، ص ٣٣.

(٢) حامد غنيم، جغرافيو القرن الرابع الهجري والخريطة الدينية والمذهبية لغربي آسيا الإسلامية، مجلة الدارة، الرياض، ديسمبر ١٩٧٩م، ص ٣٨- ٦٢.

(٣) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي، صورة الأرض، طبعة دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٣٨.

(٤) حامد غنيم، المرجع السابق، ص ٤٤- ٤٥.

وتطرّق إخوان الصفاء في رسائلهم للدِّين فقالوا: (إن معنى الدين في لغة العرب هو الطاعة من جماعة لرئيس واحد. ولما كانت الطاعة لا تتبيّن إلا بالأوامر والنواهي، والأمر والنهي لا يُعرفان إلا بالأحكام والحدود والشرائط في المعلومات، سُمّيت هذه كلها شريعة الدين وسنن أحكامه)[1].

وتحدّث إخوان الصفاء عن علل الاختلافات التي بين أهل الديانات النبوية فقالوا: (ثم اعلم أن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ لا يختلفون فيما يعتقدون من الدين سراً وعلانية، ولا في شيء منه البتة كما قال تعالى: «أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه».. أما الشرائع التي هي أوامر ونواهٍ وأحكام وحدود وسنن فهم فيها مختلفون كما قال تعالى: «ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً»[2]).

أما الاختلافات التي وقعت بين شريعة واحدة بعضهم مع بعض كالذي بين طوائف اليهود فيما بينهم، وبين طوائف النصارى، وكما بين المسلمين، كذلك فهي خمسة أنواع: منها اختلاف في ألفاظ التنزيل كالذي بين القرّاء، ومنها اختلاف في المعاني كالذي بين المفسّرين، ومنها اختلاف في أسرار الدين وحقائق معانيه الخفية كالذي بين المقلدين والمستبصرين، ومنها اختلاف في الأئمة الذين هم خلفاء الأنبياء كالذي بين الشيعة، ومنها اختلاف في أحكام الشريعة وسنن الدين كالذي بين الفقهاء.

وتناول ناصر خسرو بعض الجوانب الدينية في أخبار رحلته حيث يقول عند وصفه لمدينة الأحساء: (وقيل إن سلطانهم كان شريفاً وقد ردّهم عن الإسلام، وقال: إني عفيتكم من الصلاة والصوم ودعاهم إلى أن مرجعهم لا يكون إلا إليه واسمه أبو سعيد، وحين يُسألون عن مذهبهم يقولون: إنّا أبو سعيديون وهم لا يصلّون ولا يصومون، ولكنهم يقرّون بمحمد المصطفى ﷺ وبرسالته.. وقد ذهب أحد أبناء أبي سعيد إلى مكة أيام خلفاء بغداد فاستولى عليها، وقُتل من كان يطوف بالكعبة وانتزع الحجر الأسود من

---

(١) رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء، المجلد الثالث، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٦.
(٢) المصدر السابق، ص ص ٤٨٦- ٤٨٨.

مكانه، ونقله إلى الحساء، وقد زعموا أن هذا الحجر مغناطيس يجذب إليه الناس من أطراف العالم(١).

وتناول البيروني في كتابه تحقيق ما للهند، أديان الهند ومذاهبهم، وتحدّث كذلك عن معتقدات الهند فيما يتعلق بتناسخ الأرواح في الباب الخامس تحت عنوان (في حال الأرواح وتردّدها بالتناسخ في العالم).

يذكر البيروني: (كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين، والتثليث علامة النصرانية، والإسبات علامة اليهودية كذلك التناسخ علم النحلة الهندية(٢)).

وهم يعتقدون أن الأرواح غير مائتة ولا متغيّرة وإنما تتردّد في الأبدان على تغاير الإنسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التي عقباها موت البدن ثم العودة...

وفي رأيهم أن من استحق الاعتلاء والثواب فإنه يصير كأحد الملائكة...

وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام فإنه يصير حيواناً أو نباتاً يتردّد إلى أن يستحق ثواباً فينجو من الشدّة.

وقال بعض من قال عن التناسخ من المتكلمين: (إنه على أربع مراتب هي النسخ، وهو التوالد بين الناس لأنه ينسخ من شخص إلى آخر، وضدّه المسخ، ويخصّ الناس بأن يمسخوا قردة وخنازير وفيلة، والرسخ، كالنبات، ويدوم كالجبال، وضدّه الفسخ، وهو للثبات المقطوف والمذبوحات لأنها تتلاشى ولا تعقب»(٣)).

وتحدّث البيروني عن «السوفية» وقال هم الحكماء. فإن «سوف» باليونانية الحكمة، وبها سمّي «الفيلسوف» أي محبّ الحكمة. ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سُمُّوا باسمهم، ولم يعرف هذا اللقب

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامه، المصدر السابق، ص ١٤٢- ١٤٤.

(٢) البيروني، تحقيق ما للهند، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨.

(٣) البيروني، المصدر السابق نفسه، ص ٤٩.

بعضهم فنسبهم للتوكل وإلى «الصُفّة» وأنهم أصحابها في عصر النبي ﷺ، ثم صحف بعد ذلك فصيّر من صوف التيوس[1] ووصف أبو الفتح البستي ذلك في قوله: تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنّوه مشتقًّا من الصوف.

٥ ـ الجغرافيا الطبية

تعرّضت كتب التراث الجغرافية لذكر بعض المناطق وأمراضها، وكان العرب في جاهليتهم يعتمدون على التمائم والحجامة والكيّ، واستمرّت بعض هذه الوسائل العلاجية حتى ظهور الإسلام حتى لقد قيل «أول وآخر الطب الكيّ».

واهتمّ الإسلام بصحة الإنسان ونظافة بدنه وبيئته، قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ»[2].

وفي مجال النظافة قال ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[3].

وقال ﷺ: «خمس من الفطرة: الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر»[4].

ولقد خصّصت السنّة استخدام اليد اليسرى لبعض الأمور مثل الاستنجاء وغيرها، وأبعدت السنّة اليد اليمنى عن مجالات التلوُّث والأقذار وخصّتها بتناول الطعام وغيره من الأمور التي تتطلّب النظافة[5]. ونهى الإسلام عن التبوّل والتبرز في الماء وقرب موارده أو في المناطق الظليلة تحت الأشجار،

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢) محمود ناظم نسيمي، إبداع الرسول العربي في فن الصحة والطب الوقائي، أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب، دمشق، ص ٨٢٣.

(٣) صحيح البخاري، عن ابن عباس.

(٤) عن الإمام مسلم.

(٥) عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

وتلك مناطق يلجأ إليها الناس بسبب الحرّ الذي يسود بيئة شبه الجزيرة العربية.

ولقد صاغ رسول الله ﷺ قاعدة يمكن أن تُعدُّ أساس الحجر الصحي قال ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[1]. وشرح هذا الحديث أنه نهى أن يخرج أهل البلد التي يقع فيه مرض وبائي، ويمنع من هم خارجه من الدخول إليه، وفي ذلك سبق علمي، ويقول محمد محمود ناظم: (فقد يمتنع إنسان دخول بلدة انتشر فيها مرض وبائي كالكوليرا أو الطاعون مخافة أن يُصاب بذات المرض لأن فكرة العدوى معروفة قديماً... وكان تعليل حدوثها تابعاً لتأثير المناخ ولاختلاف الأخلاط والأمزجة لا الجراثيم ووسائط نقله وضعف مقاومة المستعدّ لأمراضها. ولكن لم يعرف قديماً أنه لا يجوز أن يخرج الإنسان السليم ظاهراً من تلك البلدة الموبوءة لأنه لم تكن الجراثيم عوامل الأمراض السارية معروفة، لا هي ولا مدة حضانة أمراضها، ولذا لم يكن معروفاً أن الخارج السليم ربما كان في دور الحضانة أو دور النقاهة أو كان ذا مناعة على ذلك الوباء، ولكنه من حملة جراثيمه أو من حملة الحشرات الناقلة لجراثيم ذلك الوباء كالبراغيث المصابة بجراثيم الطاعون والقمل الحاملة لجراثيم التيفوس»)[2].

وجدير بالذكر أن كثيراً من الجغرافيين قد اعتقد بأن هناك علاقة بين المناخ والأمراض وعبّروا عن ذلك «بأمزجة البلدان وأهوائها».

ويشير الحموي في مقدمة معجمه إلى أن الأطباء في حاجة إلى معرفة الجغرافيا وأن حاجتهم إليها ضرورية[3].

ويشير المقدسي إلى أهل بغداد بأنهم قليلو الأعمار[4]. ويصف المقدسي «الأهواز» فيقول: ضيّق منتن ذميم فيه أيضاً للمقيم بقّ وبراغيث وكرب عظيم في الليل دبس وفي النهار حرّ السموم[5].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه.

(٢) محمود ناظم، مرجع سبق ذكره، ص ٨٣٥.

(٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١.

(٤) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

(٥) نفس المصدر السابق، ص ٤١٠.

ويتحدّث المقدسي عن عين ماء بطبرية تغلي تعمّ أكثر حمّامات البلد... وفي هذا الكورة ماء مسخّن يسمّى الحَمَّة، حار من اغتسل فيه ثلاثة أيام ثم اغتسل في ماء آخر بارد (حمّام السونا) وبه جَرَب أو قروح أو ناسور أو أي علّة تكون، برأ بإذن الله... وبحيرة «صُوفَر» أُعجوبة يقلب فيها نهر الأردن ونهر الشراة... وإن احتقن بمائها أشفى من علل كثيرة، ولها موسم في شهر آب يذهب إليها الأحداث وأصحاب العلل[1].

ويذكر ابن الفقيه أن عيوب الشام كثرة طواعينها، والناس يقولون، حمى خيبر وطواعين الشام ودماميل الجزيرة وجَرَب الزنج وطحال البحرين، قالوا: ومن أقام بالموصل حولاً، وجد في قوته فضلاً، ومن أطال الصوم بالمصيصة خيف عليه الجنون[2].

وتناول ابن خرداذبة في عجائب طبائع البلدان ما يمكن أن يندرج تحت «الجغرافيا الطبية» يقول ابن خرداذبة: «من أقام بقصبة الأهواز حولاً فتفقّد عقله وجده ناقصاً، ولا يوجد بها أحد له وجنة حمراء، والحمى بها دائمة. وقد ذكر الجاحظ أن عدّة من قبائل الأهواز خبرنه أنهنّ ربما قبلن المولود فيجدنه محموماً... ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ من أن يجرَب، ومن سكن البحرين عظم طحاله. وقال الشاعر:

ومن يَسْكُن البحرين يَعْظُم طحالهُ ويُحْسد بما في بطنه وهو جائع[3]

وقد تعرّض النويري (٦٧٧- ٧٣٢هـ) للبلدان التي اشتهرت بحيوانات وحشرات سامة، ويُضرب بها المثل في ذلك فقال: «أفاعي سجستان، وحيّات أصفهان، وثعابين مصر، وعقارب شَهْرَ بُزُور، وبراغيث أرمينية، وفأر أرْزَن، ونمل مَيَّا فارقين، وذُباب تل فَافَان، وأفداح (سوس) بَلَد (في العراق). وتناول

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٨٥.

(٢) ابن الفقيه، مصدر سبق ذكره، ص ١١٨.

(٣) أبو القاسم عبيد الله المعروف بابن خرداذبه، المسالك والممالك، عن طبعة بريل، سنة ١٨٨٩، ص ص ١٧٠- ١٧١.

الأقطار الشهيرة بأنواع معينة من الأمراض فقال: وحُمى خيبر، وجنون حمص، وعَرَق اليمن، ووباء مصر، وبرسام «التهاب رئوي» العراق وقُروح بَلْخْ[1].

وذكر القزويني أن من خصائص هَمذَان ألا يكون الإنسان بها حزيناً ولو كان ذا مصائب، والغالب على أهلها اللهو والطرب لأن طالعها الثور، وهو بيت الزهرة، والغالب على أكثرهم البلاهة. قال الشاعر[2]:

لا تلمني على ركاكة عقلي   إن تيقّنت أنني هَمذَاني

ويشير ابن خلدون: إلى أن الطب من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف... وللبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحيّ وعجائزه، وربما يصحّ منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج[3].

وكان للعرب فضل كبير في مجال الصيدلة التي كانت تُعرف كذلك بالمفردات، والعقاقير، والأدوية. وعرف العرب خصائص النباتات في العلاج، ووضعوا تعريفاً للصيدلة بأنها العلم الباحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة في الشكل، ومعرفة منابتها: صينية أو هندية، أو فارسية، أو مصرية، ومعرفة زمانها بأنها صيفية أو شتوية، أو ربيعية ومعرفة جيّدها من رديئها، ومعرفة خواصها إلى غير ذلك.

---

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، سنة ١٩٢٣م، السِّفر الأول، ص ص ٣٧٠- ٣٧١.

(٢) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص ٤٨٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص ٤٩٣.

الفصل السابع

٦ ـ الجغرافيا الاقتصادية

(أ) الجغرافيا الزراعية.

(ب) الجغرافيا الصناعية.

(ج) جغرافية التجارة.

(د) جغرافية الطرق والنقل.

(هـ) الجغرافيا السياحية.

٦ ـ الجغرافيا الاقتصادية

حوَت كتب التراث الإسلامي كثيراً من المعلومات التي يمكن أن تصنّف إلى فروع الجغرافيا الاقتصادية المختلفة. فقد ذكرت هذه الكتب الثمار والحاصلات المختلفة لأقطار العالم الإسلامي، كما تناولت التجارة وأنواع البيوع والصناعات التي اشتهر بها كل قطر من أقطار العالم الإسلامي، وأشارت إلى العملات وأنواع الموازين والمكاييل، وطرُق النقل المختلفة التي تربط بلدان العالم الإسلامي ومدنه. واهتمّت بعض الكتب بصفة خاصة بما يمكن أن نسميه الجغرافيا السياحية، أو الزيارات، وإن كانت هذه الزيارات تدخل في نطاق الترغيب في الرحلات إلى بعض أقطار العالم الإسلامي ومدنه مما يجعلها ذات صلة بجغرافية الرحلات، إلا أن الباحث يرى أنها أقرب للجغرافية الاقتصادية لأنها تحثّ على السياحة، والسياحة مصدر من مصادر دخل الدول. وستعالج الجغرافيا الاقتصادية الموضوعات التالية:

أ) الجغرافيا الزراعية.
ب) الجغرافيا الصناعية.
جـ) جغرافية التجارة.
د) جغرافية الطرق والنقل.
هـ) الجغرافيا السياحية.

وفيما يلي مناقشة لكل فرع من هذه الفروع، وتهدف هذه المناقشة إلى الإشارة إلى بعض النماذج من فروع الجغرافيا الاقتصادية دون الإحاطة بكل ما ورد في كتب التراث المختلفة.

أ . الجغرافيا الزراعية

عُنِيَ الجغرافيون المسلمون بالزراعة والحاصلات الزراعية وذلك في أقطار مملكة الإسلام وعرّفت المعاجم اللغوية العربية الزرع بأنه نبات كل شيء، وزرَعَ أي طرح البذر، وغلب اسم الزرع على البُر والشعير، والله يزرع الزرع أي ينميه، قال تعالى: «أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون». نسب

الله الحرث إليهم، ونفى عنهم الزرع ونسّبه إلى نفسه، فإذا نُسِبت الزراعة إلى العبد فلكونه فاعلاً للأسباب التي هي سبب الزرع[1]. وقد عرف ابن خلدون الزراعة فقال: (إنها اتخاذ الأقوات والحبوب بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها وتعهُّده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبّه من غلاّته... وهي أقدم الصنائع كما أنها محصلة للقوت المكمّل لحياة الإنسان غالباً»)[2].

وكانت الزراعة في الجزيرة العربية من عمل أهل المدر الذين تتوافر لهم المياه، أما أهل البادية فكانوا يكرهونها، ويعتقد بعض الباحثين أن هذه الكراهية قد نشأت لعدم توافر الماء والأرض[3]، وقد ورد في حديث للنبي ﷺ أنه كان يحدّث جمعاً من الصحابة عن الجنة وعن رجل زرع في الجنة فاستوى نباته، وعنده رجل من أهل البادية، فلما انتهى الرسول من كلامه، قال الأعرابي: «والله لا تجده إلا قرشياً أو أنصارياً، فإنهم أصحاب زرع وأما نحن، فلسنا بأصحاب زرع»[4]. وقد وصف ابن خلدون منتحل الزراعة بالمذلة.

وميّز العرب بين ما يُزرع داخل القرية من النخيل والأشجار أو داخل أسوار المدينة، وبين ما يزرع بعيداً عن القرية وخارج أسوار المدينة، وعرفوا الزراعة الأولى باسم **الضامنة** لأنها في القرية محروسة وذات ضمان وتحت رعايتهم. أما تلك التي تُزرع خارج القرى فهي **الضاحية** وهي أوسع وأكبر لأنها لا تُحدُّ بمبانٍ أو أسوار. وقد ذكر ياقوت الحموي في معجمه أن الزراعة في المملكة الإسلامية متنوعة الصور، وأنه كان لكل وادٍ أو قرية شيء انفرد به وابتدعه في الزراعة. ففي إقليم أردبيل (بين تبريز وبحر الخزر) مثلاً كانوا يحرثون الأرض على ثمانٍ من البقر، لكل اثنين منها سائق... أما بمدينة ابرقوه بفارس فكان أهلها لا يزرعون على البقر مع كثرتها في بلادهم[5].

---

(١) تاج العروس ٣٦٨/٥، لسان العرب ١٤٠/٨ (طبعة صادر، بيروت، سنة ١٩٥٦).

(٢) مقدمة ابن خلدون، طبعة دار الشعب، القاهرة، بدون سنة طبع، ص ٣٦٥.

(٣) جواد، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج ٧، ص ٢٦.

(٤) القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٠/٤.

(٥) آدم متز، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٤.

وتتبّع ياقوت الحموي طريقة تسميد الأرض في البصرة فذكر أن للفضلات الإنسانية قيمة، ولها فيما زعموا تجار يجمعونها، فإذا كثرت جمع عليها أصحاب البساتين ووقفوا تحت الريح لتحمل إليهم نتنها، فإنه كلما كانت أنتن كان ثمنها أكثر[1].

واهتم الجغرافيون المسلمون بمصادر المياه المختلفة لما لها من أهمية عظيمة في حياتهم، وقد ذكر المسعودي بعض علامات يمكن أن يستدل بها على وجود المياه فقال: (وقد ذهب قوم في علامات المياه ومستقرّها من الأرض مذهباً، وهو أن يرى في المواضع التي يكون منها منابت القصب والحلفاء واللين من الحشيش، فذلك دلالة على قرب الماء لمن أراد الحفر، وأن ما عدا ذلك فعلى البعد... ووجدت في بعض النسخ من كتاب الفلاحة أن من أراد علم ذلك فلينظر قرى النمل، فإن وجد النمل غلاظاً سوداً ثقيلة المشي فلينظر فعلى قدر ثقل مشيهن الماء قريب منهن، وإن وجد النمل سريع المشي لا يكاد يلحق، فالماء على أربعين ذراعاً، والماء الأول يكون عذباً طيّباً، والثاني يكون ثقيلاً مالحاً»[2].

وقد ذكر «النابلسي» في القرن الثاني عشر الهجري عدّة وسائل يمكن التوصل عن طريقها إلى معرفة الأراضي التي تحتها ماء، ومن هذه الوسائل: أن الأراضي التي تحتها مياه كثيرة محتبسة قريبة من وجه الأرض، يظهر على سطوحها نداوة ظاهرة تحسّ باللمس وترى بالعين، لا سيما في أول ساعة من النهار وفي آخر ساعة منه، يظهر ذلك على وجه الأرض ويظهر فيها شبيه عرق ونداوة. ومتى أردت التيقّن من ذلك فخُذ شيئاً من التراب السحيق فغيّر به وجه حجارة تلك الجبال وسطح الأرض، وانتظر إلى المساء فإن رأيت ذلك التراب قد تندّى ففيه ماء قريب من وجه الأرض، وبقدر كثرة النداوة وقلّتها، تكون كثرة الماء وقلّته وقربه أيضاً وبُعده[3].

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ١/٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة دار الأندلس، بيروت، سنة ١٩٥٦، جـ ١، ص ١٤٧.

(٣) عبد الغني النابلسي، كتاب عَلَم الملاحة في علم الفلاحة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، سنة ١٩٧٩م، ص ص ٢٢ ـ ٢٣.

ومن الوسائل الكثيرة التي ذكرها النابلسي لمعرفة احتمال وجود مياه جوفية ما يُعتمد فيها على حاستي التذوُّق واللمس على النحو التالي: أن تحفر حفرة عمق ذراع، ويؤخذ من تراب أسفلها فينقع في ماء عذب في إناء نظيف وتُذاق التربة، فإن كان في طعمها المرارة فتلك الأرض عديمة الماء البتة، وأن كان يضرب إلى الملوحة الحادة فعديمة الماء أيضاً، وإن كان طعمها إلى الملوحة الخفيفة فهي أقرب إلى الماء قليلاً، وإن كان لا طعم له فالماء أقرب إلى وجه الأرض، وإن كان إلى التفاهة فالماء قريب من سطحها. ويشم ذلك التراب، فإن كانت رائحته كرائحة التراب المستخرج من السواقي والأنهار الدائمة الماء، فبين الماء وبين وجه الأرض أذرع يسيرة، وكذا الرائحة الشبيهة بالعفونة تدل على قرب الماء، وكذا الشبيهة برائحة الطحلب، واعتمد النابلسي أيضاً على تتبُّع أنواع النباتات البرية لمعرفة احتمال وجود المياه الجوفية فذكر: (ومما يدل على قرب الماء أيضاً في الأرض السهلة أن ينبت فيها البطم والصعتر والسرو والسمّاق. وأما لسان الجمل والطرفا والخروع فإنها تنبت في المواضع الرطبة بالماء. وأما لسان الثور والبابونج والخبازي والحندقوق، فتنبت في مواضع رطبة قليلة الماء وقوّتها وكثرتها وأغصانها وورقها وعروقها إذا خصبت تدلّ على كثرة الماء في باطن تلك الأرض وعلى قُربه. ومما يدل على قُرب الماء وعذوبته أيضاً نبات القصب، لا سيما في الصيف والخريف، فهو دالّ على كثرة الماء في باطن الأرض[1]. وقد أطلق العرب منذ قديم الزمن على فراستهم الحاذقة التي يتعرفون بها على مكامن المياه في بطن الأرض اسم علم (الريافة)[2]، ويطلق اسم (القنقن) وجمعها قناقن على الرجل البصير بحفر الماء واستخراجها[3]. وتتبّعت كتب التراث ذكر السدود والقنوات، ومما يذكر أنه كان من واجبات الدولة في العراق أن تسهر على صيانة السدود، والقنوات، وكانت هناك طائفة قائمة بذاتها لهذا الغرض يسمُّون المهندسين، وكانت المحافظة على السدود أمراً شاقًّا لأنها كانت تبنى عادة من الطين والقصب، فلا تقوى طويلاً على القيام في وجه المياه الجارية.

---

(١) النابلسي، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣ ـ ٢٤.

(٢) طاسن كبرى زاده، مفتاح السعادة، ج ١، ص ٣٥٥.

(٣) محمود شكري الألوسي، بلوغ الأرب، ج ٣، ص ٣٤٣، ط ٣، مصر.

ويذكر أن السلطان معز الدولة بن بويه اهتمّ اهتماماً بالغاً بالسدود حتى أنه لما انبثق أحد السدود خرج للعمل فيه بنفسه، فضُرب بذلك مثلاً لعسكره، وذلك بأن حمل التراب في طرف ثوبه فحذا الجميع حذوه وانسدّ البثق[1].

ولقد عرفت إيران أنواعاً من القنوات الجوفية التي تُعرف باسم الكارزات Karezes وقد اشتهرت نيسابور بمثل هذه القنوات. (أما نيسابور فلهم قني تجري تحت الأرض باردة في الصيف يتجوز إليها من أربع مراقٍ إلى سبعين، ثم تظهر في الضياع فتسقيها»[2]).

وقد ذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم أن الآلات المائية التي كانت تستخدم هي الدولاب، والدالية، والغرافة، والزرنوق، والناعورة، والمنجنون[3].

وقد ذكر المقدسي أن عضد الدولة بنى في القرن الرابع الهجري سكراً عظيماً «سدًّا» يُعدُّ من عجائب بلاد الفرس، وذلك على نهر الكر بين شيراز واصطخر، وكان هذا السدّ عبارة عن حائط عظيم أساسه من الرصاص يعترض مجرى النهر فتجمع الماء خلفه وارتفع فجُعل عليه من الجانبين عشرة دواليب، وتحت كل دولاب رحى، وأجرى عضد الدولة الماء في قنوات فأسقى ثلاثمائة قرية[4]. ويسمع للماء المنحدر صوت يمنع من النوم أكثر السنة، وزيادته في الشتاء لأنه من الأمطار لا من الثلوج.

وقد استخدمت أنواع معينة من الطين في تبطين قنوات الريّ في بلاد ما وراء النهر، وهذه الأنواع هي التي تُصنع منها الأواني الفخارية. وفي اليمن عُرفت المصانع، وهي عبارة عن غدران تُبطّن جوانبها بالأحجار. أما في المناطق المرتفعة والجبلية مثل صنعاء، فكانوا يبنون السدود ذات الفتحات السفلية التي يخرج منها الماء إلى قنوات صغيرة توزع الماء على المزارع[5].

---

(١) آدم ميتز، المرجع السابق، ص ٣٣٦.

(٢) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٢٩.

(٣) «الدولاب، والمجنون»، الطنبور، «الزرنوق» رافعة على البئر الشادوف تقريباً؛ و«الدالية» آلة تديرها البقرة لرفع الماء؛ «الناعورة» الساقية تقريباً.

(٤) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٤.

(٥) آدم ميتز، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٩.

وجدير بالذكر أن المسلمين ابتكروا طريقة في الري تعد أساس الري بالتنقيط، حيث أشار ابن العوام (ق ٦٠هـ) في كتابه (الفلاحة) إلى وضع جرتين كبيرتين من فخار جديد عند أصل الشجرة وتملأ الجرتان بالماء العذب وأسفل كل جرة منهما ثقب وينفذ منه الماء إلى أصل الشجرة، وكما نقص ماء الجرتين زيدتا وهذه بلا شك هي فكرة الري بالتنقيط[1]. وقد تناول المسعودي في مروجه ذكر مقاييس النيل التي أُقيمت من أجل معرفة زيادته ونقصانه، وتتبُّع المقاييس التي أنشئت في عهد المسلمين مثل مقياس حلوان، ومقياس الجزيرة الذي اتخذه أسامة بن زيد التنوخي، وكان هذا المقياس أكثر المقاييس استعمالاً، ومن المقاييس الأخرى التي ذكرها، مقياس الفسطاط. وذكر المسعودي أن أرض مصر قد كانت كلها تُروى من ست عشرة ذراعاً عامرها وغامرها لما أحكموا من جسورها، وبناء قناطرها، وتنقية خلجانها، وكان بمصر سبعة خلجانات: فمنها خليج الإسكندرية، وخليج سخا، وخليج دمياط، وخليج منف، وخليج الفيوم، وخليج سردوس وخليج المنهى[2].

وتتبّع القزويني إصلاح منخفض الفيوم فذكر أن الفيوم منخفض في غربي مصر، وأنه مصفاة لمياه الصعيد، إذ إنه بطيحة تجتمع فيها فضول ماء الصعيد، وأن يوسف الصدّيق ـ عليه السلام ـ لما ولي مصر ورأى ما لقي أهلها من القحط، أوحى الله تعالى إليه أن أُحفر ثلاثة خلُج: خليجاً من أعلى الصعيد، وخليجاً شرقياً، وخليجاً غربياً. كل واحد من موضع كذا إلى موضع كذا... ثم أمر يوسف الفعلة بقطع ما كان بها من القصب والطرفاء، فصارت الجوبة أرضاً طيبة... كل ذلك في سبعين يوماً، فخرج وأصحابه فرأوا ذلك وقالوا: هذا عمل ألف يوم، فسمّى الموضع الفيوم. ثم كانت تُزرع كما تُزرع أرض مصر. وبنى بالفيوم ثلاثمائة وستين قرية، وقدّر أن كل قرية تكفي أهل مصر يوماً واحداً[3].

وقد أدرك الجغرافيون المسلمون خطورة سفي الرمال، فقد ذكر ابن حوقل ما يشير إلى خطورة طغيان الرمال في أفغانستان حيث كان لأهل هذه البلاد علمٌ خاص بكيفيّة مقاومة فيضان الرمال، فقد كانت أرض تلك البلاد سبخة

(١) العمامي، صلاح الدين (١٤٠٨/١٩٨٨) الري بالتنقيط عند ابن العوام، ص ص ١٠٩ ـ ١١٠) بحث في ندوة إسهامات العرب في علم مياه الري، الكويت (بتصرف).

(٢) المسعودي، مروج الذهب، مصدر سبق ذكره، ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٣) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، مصدر سبق ذكره، ص ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩، وجدير بالذكر أن الفيوم من (بايوم) وتعني بالمصرية القديمة (الماء).

ورمالاً ورياحهم تشتدّ وتدوم، حتى إنهم نصبوا عليها أرحاء، يسيرون بها. ورمال بلادهم تنتقل من مكان إلى مكان، فلولا أنهم يحتالون عليها لطمست القرى والمدن بها... وفي سنة ٣٥٩هـ/٩٧٠م تواترت الرياح عليهم بما لم يعهدوا مثله، وأكبّت الرياح على الجامع فملأته بالرمال، وتزايد البلاء على البلد، وحينما أعجزهم الرمل طلب أحد الذين لهم علمٌ بمقاومة الرمل عشرين ألف درهم لدفعه فأعطوها له بعد تردُّد، وبعد أن خشوا من الهلاك، وأعمل هذا الرجل الحيل، حتى حول مجرى الريح بسدود أقامها، فنسف الرمل بأجمعه(١).

وذكر ابن بطوطه عند حديثه عن مدينة البحرين، أنها شديدة الحرّ كثيرة الرمال، وربما غلب الرمل على بعض منازلها. وكان فيما بينهم وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان إليها إلا في البحر.

وقد أدرك البغدادي أن الأرض الرملية الصرف لا تصلح للزراعة، فهي سريعة العطش، إذ يغيض فيها الماء فلا ينتفع به نبات، ولكنها كلما زادت نسبة الصلصال زادت صلاحيتها للزراعة، ومن ثم فقد ذكر: أن أرض مصر رملية لا تصلح للزراعة، ولكنه يأتيها طين أسود فيه دسومة كثيرة يسمى الأبليز، يأتيها من بلاد السودان مختلطاً بماء النيل عند مدّه، فيستقرّ الطين وينضب الماء فيُحرث ويُزرع(٢).

ومما هو جدير بالذكر أن المسلمين استخدموا الحيوانات في الحراثة مثل الثيران والحمير والخيل والجِمال. ويظهر من كتب الحديث أن أهل الحجاز كانوا يعتمدون على البقر في الحراثة، ويبدو كذلك أنهم استخدموا الكلاب في حماية المزارع أو الحراثة لأنه ورد في حديث «كلب حرث، وورد كلب حراسة، وكلب صيد»(٣).

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٩٩، آدم ميتز، ص ٣٤٤.

(٢) محمد محمود الصياد، من الوجهة الجغرافية، مطبوعات جامعة بيروت العربية، سنة ١٩٧٠م، ص ٤٥.

(٣) عمدة القاريء (١٥٩/١٢ وما بعدها) جواد علي، جـ ٧، ص ٤٨.

وقد عرف أهل الجبال في بلاد العرب طريقة عمل المدرّجات لزراعتها، وقد أشار بطليموس إلى المدرّجات الزراعية في الأجزاء الجنوبية من السراة، وأطلق عليها: Climax Mons أي الجبال المدرّجة، وما زالت هذه الطريقة شائعة في اليمن وجنوبي المملكة العربية السعودية.

وقسّم المقريزي أصناف أراضي مصر إلى[1]:

١ ـ الباقي، وهي أحسن الأراضي وأعلاها قيمة.

٢ ـ ري الشراقي، وهي الأراضي التي ظمئت وصارت مستريحة.

٣ ـ البرايب، وهي أثر القمح والشعير، وسعرها دون الباقي والبرايب، صالح لزراعة المقاثي.

٤ ـ الشتونية والسلايح، ما رُوي وبار، وهي دون الشراقي.

٥ ـ الوسخ، كل أرض استحكم وسخها ولم يقدر الزارعون على إزاحته كلّه، بل حرثوا وزرعوا فيها، فجاء زرعها مختلطاً بالحلفاء.

٦ ـ الخرس، كل أرض فسُدت بما استحكم فيها من موانع قبول الزروع.

٧ ـ الشراقي، كل أرض لم يصل إليها الماء لقصور ماء النيل، أو علوّ الأرض، أو سدّ طريق الماء أو غير ذلك.

٨ ـ المستبحر، كل أرض وطيئة تجمّع فيها الماء ولم ينصرف.

٩ ـ السباخ، كل أرض غلب عليها الملح حتى ملحت.

وتناول النابلسي خصائص الأراضي فذكر أن الأرض السوداء تحمل الأمطار أكثر من غيرها، ثم الأرض البنفسجية اللون، إذا كانت منتفشة، فإنه يجود بها الشجر كثيراً، ثم الأرض الحمراء، ثم الصفراء، وأبردها الأرض البيضاء.

وأشار النابلسي إلى أن الشمس والهواء يصلحان الأرض، ولذلك تُقلب

(١) تقي الدين أبو العباس المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ طبع، جـ ١، ص ص ١٠٠- ١٠١.

الأرض إذا أُريد إنشاء الغراس فيها، وهو أن يؤخذ ما كان على وجه الأرض من ترابها الذي أثّرت فيه الشمس والهواء، فيجعل أسفل الأرض المحفورة، ليظهر أثره الجميل مما اكتسب من الشمس والهواء في أصول الأشجار المفروشة، وعروقها، فيربي حملها وينمبه بحرارته ورطوبته[1].

وتحدّث النابلسي عن خصائص الأراضي المختلفة، فالأرض التي تتشقّق غير محمودة بالنسبة للأرض السوداء المتنفشة، والأرض الرملية تزيد حراً في الصيف وبرداً في الشتاء، وكذا الحجرية وذلك يؤذي الغروس. ومن الأرض ما لا يصلح للغراس ولا للزرع، وهي الترابية الصفراء الفاقعة والحمراء القانية، وهي المغرة والبرقاء البيضاء، التي يظهر منها رائحة الكبريت، والجصية وهي البيضاء التي تحتها حجارة يعمل منها الجير[2].

وأوضح النابلسي أن الأرض يمكن أن تختبر باللمس والشمّ والذوق والنظر.

فاللمس يكون بمرس الطين باليد، فإن كان ملتصقاً بها شديداً شبيهاً بالشمع، فهي رديئة غير موافقة، وإذا غسل التراب بالماء فكان الطين أكثر كانت جيدة، وإن كان الرمل أكثر فغير جيّدة، والشمّ عن طريق صبّ الماء العذب ومَرس التراب الذي يؤخذ من أسفل حفرة وذلك في إناء من زجاج، ثم يشمّ، فالمنتنة الرائحة والكريه والخبيث لا خير فيه. والذوق، بأن تؤخذ تراب الأرض من حفرة، ويوضع في إناء زجاج ويُطرح عليه ماء عذب ويُذاق، فالمالح رديء لا يصلح لشيء من الزروع. والنظر بمشاهدة خصب ما ينبت فيها من العشب وعظمه واتفاقه[3].

أما الحاصلات الزراعية فقد ربط القزويني بينها وبين المناخ ووضّح ذلك قائلاً: وأما النبات فإن النخل والموز لا ينبتان إلا بالبلاد الحارة، وكذلك الأترج

(١) النابلسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١٤.
(٣) المصدر السابق، ص ص ١٤، ١٥.

والنارنج والرمان والليمون. وأما الجوز واللوز والفستق، فلا ينبت إلا بالبلاد الباردة، والقصب على شطوط الأنهار... والقرنفل بأرض الهند، وكذلك الساج والأبنوس، والورس لا ينبت إلا باليمن، والزعفران بأرض الجبال بروذراود[1].

وتناول المقريزي في خططه ذكر التقويم الزراعي في مصر وفق الشهور القبطية فيذكر أن الكتّان يُزرع في شهر هتور[2]، ويُزرع البصل والثوم من شهر هتور إلى نصف كيهك، ويُزرع الترمس في طوبة، هذا بالنسبة لبعض الحاصلات الشتوية، أما الأصناف الصيفية فإن البطيخ واللوبيا يُزرعان من نصف برمهات إلى نصف برموده، ويُزرع السمسم في برمودة، ويُزرع القطن في برمودة ويُزرع قصب السكر من نصف برمهات.

ولقد اشتهرت اليمامة بأنها من أحسن بلاد الله أرضاً وأكثرها خيراً وشجراً ونخيلاً من سائر الحجاز، وقد وصفت بأنها «ريف مكة» لأنها كانت تموّن مكة بالحبوب، ولولاها ما تمكّنت مكة من العيش برخاء.

ويقال إن «ثمامة بن آثال بن النعمان» الحنفي، سيّد أهل اليمامة، حينما أسلم وعيّرته قريش، حبسَ عنها ما كانت اليمامة تُرسله إليها من ميرة ومنافع، فوسطت قريش النبي ﷺ فأرسل إليه أن خلِّ بين قومي وبين ميرتهم فأعاد إرسالها إليهم[3].

وكانت الحبوب معروفة بجزيرة العرب حيث اشتهرت الطائف بزراعة نوع من الحنطة الجيّدة، وعلى هذه الحنطة كانت تعتمد كل حواضر الحجاز، وخاصة مكة[4]. وعُرف الشعير، وكان أرخص من الحنطة، ولهذا استخدمه أكثر الناس في صناعة الخبز. وكان يهود المدينة يتاجرون به وبدقيقه، ولا سيما

---

(١) القزويني، آثار البلاد، المصدر السابق، ص ١٠.

(٢) المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص ١٠٣.

(٣) جواد علي، جـ ٧، ص ٣٨.

(٤) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الدولة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٧١م، ص ٢٦٨.

في سوق بني قينقاع. وقد استدان الرسول من أحد اليهود صاعين من دقيق الشعير[1].

وعُرفت زراعة الذرة باليمن بصورة خاصة، حيث صُنع منها الخبز، وكانوا يستخرجون منها شراباً يُقال له: (المزر) وقد نهى الرسول ـ عليه السلام ـ عن شربه[2].

وإذا نظرنا إلى بقية أجزاء المملكة الإسلامية نجد أن معظمها كان يعتمد على القمح في غذائه فيما عدا سكان بلاد آسيا الشرقية الذين اعتمدوا على الأُرز.

وعلى الرغم من أن الحنطة كانت من أهم حاصلات خوزستان، إلا أنهم كانوا يصنعون الخبز من الأرز، وأن الأرز هو قوت غالبية الشعب، ولم يكن خبز الأرز غالباً إلا في طعام أهل مازندران بإقليم طبرستان، ومازندران بلد تحيطه المستنقعات[3].

وذكر المقدسي أنه كان يزرع بفلسطين ومصر نبات يشبه البطاطس عندنا، ويسمّى القلقاس، وهو بقل عُرفت زراعته في جزر اليونان وآسيا الصغرى ومصر، ويصفه المقدسي بأنه «شيء على قدر الفجل المدوّر، يُقشّر ويُقلى بالزيت»[4].

أما عن الكروم والأعناب فيذكر ابن الفقيه، ولو أن رجلاً خرج من بيته مسافراً في عنفوان شبيبته وحداثة سنّه، واستقرى البلدان صقعاً صقعاً يتتبّع الكروم مصراً فمصراً حتى يهرم، وصغيراً حتى يبدن، لتعرف أجناسه وأحاطة العلم بأنواعه، بل إقليماً واحداً من الأقاليم، وناحية من أقطار الأرض، لأعوزه وغلبه وعزّه وبهره، إذ كانت كثرة فنونه واختلاف أنواعه لا تدرك[5]. وذكر

---

(١) جواد علي، جـ ٧، ص ٥٨.
(٢) الإصابة (١٣٧/١).
(٣) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٧٢.
(٤) المقدسي، أحسن التقاسيم ص ٢٠٤.
(٥) ابن الفقيه، ص ١٢٥.

ابن حوقل أن أهل مدينة زعر، وهي مدينة قريبة من البحر الميت، يلقّحون كرومهم وكروم فلسطين، كما يلقّح النخيل بالطلع الذكر، وكما يلقّح أهل المغرب تينهم[1].

وقد اشتهرت الطائف بأصناف عديدة من العنب، وأما زبيبها فيُضرب بحسنه المثل، وكان بالطائف كرم الوهط، وكان لعمرو بن العاص مفروشاً على ألف ألف خشبة (مليون) شرى كل خشبة درهم، فلما حجّ سليمان بن عبد الملك أحبّ أن ينظر إليه، فلما رآه قال: ما رأيت مثله، لولا أن هذه الحرة في وسطه، قالوا: ليس بحرة، بل مسطاح الزبيب، وكان زبيبه يُجمع في وسطه ليجفّ، فرآه من بعيد فظنّه حرة[2].

ويقول المسعودي إن شجر النارنج والأترج جُلب من أرض الهند بعد القرن الثالث الهجري إلى البلاد العربية إلى عمان والبصرة والعراق وساحل الشام وفلسطين ومصر، وعدمت منه الروائح الطيّبة واللون الحسن الذي يوجد فيه بأرض الهند لعدم ملاءمة ذلك الهواء والتربة والماء، وخاصية البلد[3].

وعندما تحدّث البغدادي عن غلاّت مصر الزراعية تحدّث عن البامية والملوخية، وربما بدأ بهما لأنهما من الخضراوات المفضّلة لدى المصريين، وما زالت للملوخية مكانتها. وتحدّث بعد ذلك عن البلح والجميز والقلقاس والموز والحمضيات، ثم النخيل فالخشخاش فشجر السنط، فالبطيخ واليقطين، فالفول. ولا يشير إلى القمح الذي اشتهرت مصر بإنتاجه منذ عهد بعيد[4].

ولقد عرفت أسواق الفاكهة في أكثر من قطر إسلامي بدار البطيخ، لأنه أكثر ما كان يُباع من الثمار في الأسواق. وكان شمال فارس مشهوراً بصحة الفاكهة وجودة البطيخ. وكان بطيخ مرو يُرسل إلى بغداد طازجاً، فكان يُحمل

---

(١) آدم ميتز، المصدر السابق، ص ٣٠٥، ابن حوقل، ص ١٢٤.

(٢) القزويني، مصدر سبق ذكره، ص ٩٨.

(٣) المسعودي، مروج الذهب، ص ٢٣٦- ٢٣٧.

(٤) محمد محمود الصياد، من الوجهة الجغرافية، مرجع سبق ذكره، ص ٥١.

إلى المأمون أولاً ثم إلى الواثق في قواليب من الرصاص معبّأة بالثلج، وكانت تقوم الواحدة منه إذا سلمت ووصلت بسبعمائة درهم[1].

واشتهر الشام بتفاحه حتى كان مضرب المثل في الحسن، وقد جُلب إلى مصر، وكان يُحمل إلى الخلفاء في كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة، وهو لا يعيش في المشرق «لأنه لا يقوى على احتمال هواء الصحراء الحارّ اليابس»[2].

وذكر المقدسي في حديثه عن فلسطين أن مدينة فلسطين نابلس كثيرة الزيتون، وكان زيت الزيتون يحرز في جباب كبيرة بمدينة حلب. والواقع أن شمالي افريقيا وبلاد الشام اشتهرتا بزيت الزيتون، وكانتا تمدّان أقطار المملكة الإسلامية بهذا الزيت.

وتحدّث النابلسي في أحد أبواب كتابه (عَلَم المَلاَحة في علم الفلاحة) عن الأشجار المتحابّة والمتشاكلة والمتنافرة والمتضادّة، فذكر أن الكروم والسدر كلٌّ يهوى الآخر فيقوي بقربه، وكذا بين الكرم والزيتون محبة، إلا أن الزيتونة تبعد عن الكرم قليلاً لمنفعة الكرم، وكذا بين الكرم والقرع، وكل منعش لصاحبه... والتفاح والكمثرى والأترج يألف بعضه بعضاً وتنفعه مجاورة بعضه لبعض. والكرم إذا جاور الكرنب اتّجه إلى الجانب الآخر، وقيل إن زرع في كرم تلف، ولو حملت الريح رائحته إلى الكرم ضرّه، والترمس إذا زرع في كرم أيبسه وهو عدوّ للأشجار كلها... وعداوة العرعر مع النخل معلومة مشهورة... وبين العنب الأبيض والأسود تنافر وتضادّ، فلا يُغرسان معاً ولا يتجاوران ولا يُعصران معاً فيفسد ذلك العصير بسرعة[3].

وتناول النابلسي في الباب السابع من كتابه طرُق تشكيل الفواكهة وغيرها فقال: «اعلم أن تشكيل الفواكه والأترج والعنب وغيرها، كالخيار والقثاء والقرع والبطيخ إلى أي شكل أردت، يكون بأن تدخل ما أردت

(١) الثعالبي، لطائف المعارف، ص ٩٥، آدم ميتز، ص ٣٠٩.

(٢) آدم ميتز، ص ٣٠٩، لطائف المعارف للثعالبي، ص ٩٥.

(٣) النابلسي، مصدر سبق ذكره، ص ص ٨١- ٨٢.

تشكيله في قالب أعددته لذلك، غير خشن، ينطبع فيها شكل ذلك القالب كيف كان، وإن كان على صورة حيوان انطبع على صورته. وقيل إن ذلك لا يكون إلا في الأترج خاصة، والعنب إذا أردت أن يطول حبّه فإنه يدخل كل حبّة في أنبوبة من قصب الأقلام[1]. ولم تهمل كتب التراث طرق مقاومة الآفات الزراعية، وكيفية خزن وادخار الحبوب والفواكه الطرية اليابسة، وذكروا أن الفواكه الطرية تدّخر في المواضع الباردة الريح النظيفة، وأما خزن الحبوب، فإن القمح يخزن في حُفَر أو مطامير بعيداً عن الريح والهواء، ومما يطيل في بقاء القمح خزنه في سنابله.

ولم يغفل الجغرافيون المسلمون عن ذكر الحيوانات وخصائصها المختلفة، وأطلقوا تعبير النعم على الإبل والبقر والشاء، وزاد بعض علماء اللغة الضأن والمعز، وجاء في تاج العروس أن العرب إذا أفردت النعم أرادت الإبل، وإذا قالوا الأنعام أرادوا الإبل والبقر والغنم[2].

وعُرفت تربية الخيل في بلاد إسلامية كثيرة، وكان لكل من العرب والفرس في أمر الخيل تقاليد خاصة، وكانت الخيل الأصيلة تُجلَب إلى بغداد من جزيرة العرب، أما الخيل العادية فكانت تأتي من الموصل[3].

ونتيجة لكثرة أشجار الفاكهة في الطائف اشتهرت بتربية النحل. وكان أصحاب النحل يؤدّون عن كل عشر قِرَب عسل قربة إلى رسول الله ﷺ، فلما توفى انقطعوا عن أدائه، فأمر عمر بن الخطاب أمير الطائف بأن يؤدي مربّيو النحل بالطائف ما كانوا يؤدُّونه إلى النبي[4].

ومن الأشياء الغريبة التي ذكرها البكري، أن الناس في شمال أفريقيا في سجلماسه وقفصه، كانوا لا يزالون يحتفظون بعادة قديمة جداً وهي أنهم يسمّنون الكلاب ويأكلونها[5].

---

(١) النابلسي، المصدر السابق، ص ٩٧.

(٢) تاج العروس، (٩/٧٩ وما بعدها).

(٣) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٤٥.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، جـ ١، ص ٦٧ وما بعدها.

(٥) آدم ميتز، ص ٣٤٨.

وقد تتبّع البغدادي الإنتاج الحيواني في مصر، فبدأ حديثه عن الدجاج، ووصف الطريقة المتّبعة في تفريخه. ثم تكلم عن الحمير والبقر والخيل والبغال والتماسيح وفرس النهر والسمك بأنواعه. وقد تناول البغدادي الأهمية الغذائية لنباتات مصر وحيواناتها[1].

وتعرّض الحسن بن محمد الوزان، لطريقة تفقيس الفراخ في مصر فذكر: (لهؤلاء الناس أسلوب مدهش لتفقيس الفراخ، وهم يأخذون ألف بيضة أو أكثر ويضعونها جميعاً في نوع من الأفران متعدّدة الطوابق، ويكون الطابق العلوي مثقوبا بفتحة. ويوقدون ناراً هادئة تحت هذه الأجهزة.

وبعد سبعة أيام تبدأ الفراخ بالتفقيس بأعداد كبيرة. وتُجمع هذه الفراخ في أوعية كبيرة وتُباع، مستخدمين كيلاً بدون قعر يوضع في سلة المشتري ويملأ هذا الكيل بالكتاكيت وعندما تمتلىء تُرفع)[2].

(ب) الجغرافيا الصناعية

اهتمت كتب التراث بالصناعات المختلفة التي كانت تسود أقطار العالم الإسلامي، وأشار الجغرافيون المسلمون إلى ما اشتهر به كل قطر إسلامي من صناعة معيّنة وحاولوا تحليل ذلك. ولعلّ أبدع ما كُتب عن الصناعة في كتب التراث من حيث أنماطها ومقوّماتها هو ما جاء بالرسالة الثامنة من القسم الرياضي في رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء. بدأ إخوان الصفاء حديثهم عن الصناعة بتعريف الصنّاع فقالوا: (هم الذين يعملون بأبدانهم وأدواتهم في مصنوعاتهم وغرضهم طلب العوض عن مصنوعاتهم لصلاح معيشة الحياة الدنيا»)[3].

---

(١) رحلة عبد اللطيف البغدادي، ترجمة دي ساسي، ص ١٣٥، وما بعدها.

(٢) جان ليون الافريقي (الحسن بن محمد الوزّان) وصف افريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميده، الرياض، سنة ١٣٩٩هـ، ص ص ٥٩٢- ٥٩٣.

(٣) رسائل إخوان الصفاء، مصدر سبق ذكره، المجلد الأول، ص ٢٨٥.

وتحدّث إخوان الصفاء عن مقوّمات الصناعة فذكروا أنها تتمثّل في[٢]:

١ ـ الهيولي (المادة الخام القابلة للتشكيل). ٢ ـ المكان.

٣ ـ الزمان. ٤ ـ الأداة.

٥ ـ الآلة. ٦ ـ الحركة.

٧ ـ الصانع.

وذكر إخوان الصفاء أن الجسم الواحد يسمى تارة هيولي، وتارة موضوعاً، وتارة صورة، وتارة مصنوعاً، وتارة آلة، وتارة أداة.

وقد فسّر إخوان الصفاء ذلك، فالجسم هيولي للصورة التي يقبلها، أي الأشكال التي يتشكّل إليها. ويسمى موضوعاً للصانع الذي يعمل منه وفيه صنعته.

وإذا كان من قبيل التشكيل سمي مصنوعاً. وإذا استعمله الصانع في صنعته أو في صنعة أخرى سمي أداة. مثال ذلك.

١ ـ قطعة حديد يُقال لها هيولي لكل صورة تقبلها.

٢ ـ يقال لها إنها موضوع للحدّاد الذي يعمل فيها صنعته.

٣ ـ إذا صنع الحدّاد منه سكيناً أو فأساً سمي مصنوعاً.

٤ ـ إذا استعمل السكين القصّاب أو غيره تسمى أداة.

وقد قسّم أخوان الصفاء موضوعات الصنّاع البشريين في صناعتهم إلى نوعين فقط:

(أ) بسيط مثل: (١) النار. (٢) الهواء. (٣) الماء. (٤) الأرض.

(ب) مركّب مثل: (١) الأجسام المعدنية. (٢) الأجسام النباتية. (٣) الأجسام الحيوانية.

---

(١) المصدر السابق، ص ص ٢٧٨ ـ ٢٩٣ .

وبيّن إخوان الصفاء الفرق بين الأداة والآلة، فالأداة هي ما كانت خارجة عن ذات الصانع، كفأس النجار ومطرقة الحدّاد وقلم الكاتب. أما الآلة فهي أعضاء الجسم مثل: اليد والأصابع والرجل والرأس والعين.
ولا بدّ لكل صانع من البشر من أداة أو أدوات أو آلة أو آلات.

وهناك صناعات لا يحتاج فيها الصانع إلى أدوات من خارج بل يكفيه عضو من جسده، كالخطيب والشاعر والقاضي ومن شاكلهم.

وبيّن إخوان الصفاء ضرورة الحركات للصنّاع البشريين وأنها سبع حركات مثال ذلك: النجار فإنه بالفأس ينحت وحركته من فوق إلى أسفل، وبالمنشار ينشر وحركته من قدام إلى الخلف، وبالمثقب يثقب وحركته يمنة ويسرة. أما حركة مثقابه فدوريّة. وعلى هذا القياس يوجد في كل صنعة لصانعها سبع حركات، واحدة دورية وست مستقيمة. وعلّل إخوان الصفاء ذلك بالحكمة الإلهية التي أوجبتها لأنه لما كانت حركات الأجرام العلوية الفلكية سبعة أنواع.. صارت حركات الأشخاص التي تحت فلك القمر أيضاً مماثلة لها (من ذلك يظهر لنا إيمان إخوان الصفاء بتأثير النجوم على الموجودات).

موضوع الصنّاع:

يقول إخوان الصفاء إن لكل صنعة موضوعاً يعمل الصانع فيه، وقسّموا هذا الموضوع إلى روحاني وجسماني.

ومن الصنائع ما هي الموضوع فيها الماء فقط مثل: الملاّحين والسقّائين والروائين والسبّاحين. ومنها ما هي الموضوع فيها التراب فقط كصناعة حفّار الآبار والأنهار والقبور، وكل من ينقل التراب ويقلع الحجارة.

ومنها ما هي الموضوع فيها النار مثل: الوقّادين والمشعلين والنفّاطين.
ومنها ما هي الموضوع فيها الهواء حسب: الوقّادين والبوّاقين والنفّاخين.

ومنها ما هي الموضوع فيه أحد الأجسام الحيوانية من اللحم والعظم والجلد والشعر، كصناعة القصّابين، والشوّائين والطبّاخين.

ومن الصنائع ما هي الموضوع فيها مقادير الأجسام مثل: صناعة الوزّانين والكيّالين ومن شاكلهم.

ومن الصنائع ما هي الموضوع فيه قيمة الأشياء كصناعة الصيارفة والدلالين.

ومن الصنائع ما هي الموضوع فيه أجساد الناس: كصناعة الطب والمزيّنين.

ومن الصنائع ما هي الموضوع فيها نفوس الناس كصناعة المعلمين.

استخدام النار في الصناعة:

ذكر إخوان الصفاء أن النار تُستخدم في الصناعة لأحد أسبابٍ ثلاثة:

١ ـ تليين الهيولي (الخامة) لقبول الصورة والأشكال، ومن أمثلة ذلك الحدّادين والزجاجيّين. وذلك لأن موضوعاتهم أحجار صلبة لا تقبل الصورة والأشكال إلا بعد تليين بالنار.

٢ ـ تقيّد صورة الهيولي وثباتها كالجرّارين والقدوريّين.

٣ ـ استعمال النار في الموضوع والمصنوع لتتمّ المنفعة والانتفاع والنضج كالطبّاخين والشوّائين والخبّازين، أي يُقصد بذلك استعمال النار في تهيئة غذاء الإِنسان.

مراتب الصناعات عند إخوان الصفاء[1]:

قسّم إخوان الصفاء الصناعات إلى المراتب الآتية:

١ ـ صناعات ضرورية مثل:

أ ـ الحراثة　　　ب ـ الحياكة　　　ج ـ البناء

(١) إخوان الصفاء، المصدر السابق، ص ٢٨٥ وما بعدها.

وسائر الصناعات تابعة وخادمة لها، وذلك لأن حاجات الإنسان الضرورية هي المأكل والملبس والمسكن.

فالإنسان خلق محتاجاً إلى القوت والغذاء، ولا يكون ذلك إلا من حبّ النبات وثمر الشجر، لذلك دعت الضرورة إلى صناعة الحراثة والغرس، وهذه تعتمد على صناعات أخرى مثل حفر الأنهار والحدادة والنجارة وغيرها، فكل هذه الصناعات تابعة وخادمة لصناعات الحراثة والغرس، إلى جانب الطحن والعصر.

أما بالنسبة للحياكة فلقد خلق الإنسان رقيق الجلد عرياناً من الشعر والوبر والصدف والريش وما هو موجود لسائر الحيوان، لذلك دعته الضرورة إلى اتخاذ اللباس بصناعة الحياكة. وصناعة الحياكة لا تتمّ إلا بالغزل، وصناعة الغزل لا تتمّ إلا بالحليج لذلك صارت هذه الثلاث تابعة لها وخادمة.

ولما كان الإنسان محتاجاً إلى ما يقيه من الحر والبرد، والتحرّز من السباع وتحصين القوت، دعته الضرورة إلى صناعة البناء، وصناعة البناء محتاجة إلى صناعة النجارة والحدادة وكل واحدة منهما محتاجة إلى صناعة أخرى معينة أو متمّمة بعضها لبعض.

٢ ـ صنائع الجَمال والزينة، ومن أمثلة ذلك صناعة العطور وما شاكلها كالتزيين.

وناقش إخوان الصفاء المفاضلة بين الصنائع، فذكروا بأن الصنائع يتفاضل بعضها على بعض من عدّة وجوه:

١ ـ من جهة الهيولي مثل الصاغة والعطّارين، أي أن القيمة في المادة الخام كالذهب والفضة ومواد العطارة.

٢ ـ من جهة المصنوعات، مثل آلات الرصد كالأسطرلاب وذوات الحلق، لأن قطعة من النحاس قيمتها خمسة دراهم إذا صنع منها أسطرلاب فإن قيمته تصل إلى مائة درهم.

٣ ـ من جهة الحاجة الضرورية الداعية إلى اتخاذها مثل الحياكة والحراثة والبناء.

٤ ـ من جهة منفعة العموم مثل صناعة الحمّامين وغيرهم لأن الحمّام ضرورة للصغير والكبير والشريف والوضيع.

٥ ـ من جهة الصناعة نفسها مثل المصورين والموسيقيين والمشعبذين (المشعوذين).

وقد تناول ابن خلدون الصناعة، فذكر أن الصنائع لا بدّ لها من المعلم، والصناعة ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس، والأحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أوعب لها وأكمل. لأن المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتمّ فائدة[1].

ثم إن الصنائع منها البسيط ومنها المركّب. والبسيط هو الذي يختص بالضروريات، والمركّب هو الذي يكون للكماليات.

وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش إلى: ضرورية أو غير ضرورية، وإلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم والصنائع والسياسة، ومن الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثالها، ومن الثاني الوراقة والغناء والشعر وتعليم العلم، ومن الثالث الجندية وأمثالها.

وقد تناول ابن خلدون فصلاً طيباً في أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته.. لأنه إذا تمدّنت المدينة وتزايدت فيها الأعمال ووفت بالضروري وزاد عليه صرف الزائد حينئذٍ إلى الكمالات من المعاش.. وعلى مقدار عمر البلد تكون جودة الصنائع للتأنّق فيها حينئذٍ، واستجادة ما يُطلب منها بحيث تتوافر دواعي الترف والثروة.

وقد تناول الجغرافيون المسلمون ذكر أهم الصناعات التي اشتهرت بها أقطار العالم الإسلامي، وربما كانت صناعة الملابس هي أهم الصناعات التي يرد ذكرها كثيراً حيث اشتهر كثير من أقطار العالم الإسلامي بالتفوّق في بعض الملابس.

ويذكر المقدسي ما اشتهرت به مصر من أقمشة كتانية، وأن كتان مصر

---

(١) مقدمة ابن خلدون، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٩- ٣٦٠.

ربما كان يُصدّر إلى فارس[1]. وكانت الفيوم أكبر مكان لزراعته في مصر. وبإحدى قرى مصر كانت تُصنع الأقمشة الصوفية وذلك في مدينة طحا[2].

ومن أهم المراكز الصناعية التي اشتهرت بصناعة نسيج الكتان في مصر الفيوم وتنيس ودمياط وشطا وديبق التي نُسبت إليها الأقمشة الديبقية، وهي أجود أنواع النسيج. وفي القرن الرابع الهجري أصبحت تنيس ودمياط أكبر مركزين لصناعة النسيج. ولقد اشتهرت تنيس بصناعة «البدنة» وهو ثوب فخم نسج أغلبه من خيوط الذهب، وكان يُصنع للخليفة ولا يدخل في صناعته من غير الذهب إلا ما يقدّر بأوقيتين وبقيته من الذهب الخالص وقُدّرت قيمته بألف دينار[3].

وتناول ناصر خسرو شهرة تنيس في صناعة القصب الملوّن من عمامات ووقايات وما يلبس النساء... ويذكر أن عاملاً نسج عمامة السلطان فأمر له بخمسمائة دينار ذهب... وينسجون في مدينة تنيس هذه البوقلمون الذي لا ينسج في مكان آخر من جميع العالم وهو قماش ذهبي يتغيّر لونه بتغيّر ساعات النهار. . وقد سبقت الإشارة إلى أن سلطان الروم كان قد أوفد رسولاً ليعرض على سلطان مصر أن يعطيه مائة مدينة على أن يأخذ تنيس فلم يقبل السلطان[4].

وحتى سنة ٣٦٠هـ/٩٧١م كانت قيمة الأقمشة التي تصدّرها تنيس للعراق وحدها تصل ما بين عشرين ألف إلى ثلاثين ألف دينار[5]. ومنذ سنة ٣٦٥هـ إلى سنة ٣٨٥هـ شاع بمصر استخدام العمائم الديبقية التي يبلغ طول الواحدة منها مائة ذراع[6].

وكانت صناعة النسيج بمصر صناعة منزلية حيث تخصصت النساء في الغزل والرجال في النسيج.

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٠٢.

(٣) المقريزي، الخطط، جـ ١، ص ١٧٧.

(٤) ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص ٧٦- ٧٧.

(٥) الخطط للمقريزي، جـ ١، من ١٣٧.

(٦) آدم ميتز، ص ٣٥٣، نقلاً عن ابن دقماق، جـ ٢، ص ٧٩.

ومن أكبر مدن الفرس التي اشتهرت بصناعة نسيج الكتان مدينة كازرون التي أطلق عليها «دمياط الأعاجم» حيث يذكر المقدسي: كازرون عامرة كبيرة هي دمياط الأعاجم وذلك أن ثياب الكتان تعمل وتُباع فيها[1].

واشتهرت مرو ونيسابور وبم بصناعة ثياب القطن التي كانت تصدّر إلى خراسان والعراق ومصر[2].

أما صناعة الحرير فقد نقلت من بلاد الروم إلى خوزستان، وصار الديباج يصنع في تُستَر وتركزت صناعة الإبريسم بمدينة مرو في طبرستان[3].

واشتهرت بعض أقطار العالم الإسلامي بصناعة الفرش الصوفية مثل البُسط الفارسية، والأرمينية والبخارية. وقد اشتهرت البُسط الأرمنية على ما عداها من البُسط. وقد وصف الوليد بن يزيد بأنه كان جالساً في بيت منجد بالأرميني أرضه وحيطانه[4]. وقد اشتهرت مدينة أسيوط بصناعة الفرش القرمزية التي تشبه الأرميني[5].

وعرفت صناعة الحصير في جميع أنحاء المملكة الإسلامية، واشتهرت عبادان على شط العرب بصناعة الحصير وكانت حصرها تُقلَّد في مصر وفارس[6].

وحينما ننظر إلى الصناعة في شبه الجزيرة العربية نجد أنها لم تكن ذات مكانة محترمة عند الأعراب ذلك أنهم كانوا يأنفون من الاشتغال بها ويحتقرون كل من يعمل بها ويعتبرون أنها خُلِقت للعبد والرقيق والموالي ولا تليق بالحُرّ. ورغم هذه النظرة التي حاول الإسلام تعديلها وتغييرها، فقد اشتهرت بعض المدن بحِرَف معيّنة، مثل اليمن التي اشتهرت بالبرود والسيوف،

---

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣٣- ٤٣٤.

(٢) ابن حوقل، ص ٢٢٣.

(٣) الاصطخري، ص ٢١٢، آدم ميتز، ص ٣٥٨.

(٤) آدم ميتز، ص ٣٥٩.

(٥) جغرافية اليعقوبي، ص ٣٣١.

(٦) المقدسي، ص ١١٨، ٢٠٣.

واشتهرت بعقيقها. واشتهرت مكة ببعض أنواع العطور، واشتهرت ثقيف بالدباغة وبالأدم(١).

وظلت مصر تشتهر بصناعة الورق البردي حتى القرن الرابع الهجري. فقد ذكر الثعالبي أن كواغيد (صحف الكتابة) سمرقند عطّلت قراطيس مصر. وكان أجود الورق في القرن الرابع بمملكة الإسلام هو الكاغد الذي نُقلت صناعته من الصين، وطوّره المسلمون وحسّنوه، وانتشرت صناعته في دمشق وطبرية بفلسطين وبطرابلس الشام، ولكن ظلّت سمرقند التي اشتهرت بصناعته منذ القرن الثالث الهجري أكبر مركز لصناعته، وقد أرسل الخوارزمي لأحد أصحابه مداعباً معاتباً له لأنه لم يكتب إليه قائلاً: هل سمرقند بعُدَت عليه والكاغد عزّ عليه(٢).

ويذكر المقدسي أن أهل البصرة يستغلُّون ظاهرة المدّ والجزر في إدارة الأرحية، فهو يقول إن الجزر والمدّ أعجوبة على أهل البصرة ونعمة، يزورهم الماء في كل يوم وليلة مرتين، ويدخل الأنهار ويسقي البساتين ويحمل السفن إلى القرى، فإذا جزر أفاد أيضاً عمل الأرحية لأنها على أفواه الأنهار فإذا خرج الماء أدارها، ويبلغ المدّ إلى حدود البطائح(٣).

وقد وصفت مطاحن الموصل بأنها كانت مصنوعة من الخشب والحديد وأن الواحدة منها تسمى عربة، وهي تقوم في وسط الماء بسلاسل حديد، كل عربة فيها حجران يطحن كل حجر منها خمسين وقراً في كل يوم. ومن أشهر أرحية بغداد رحى يقال لها رحى البطريقي، فقد كانت مائة حجر تغلّ في كل سنة مائة ألف ألف درهم(٤).

وقد تناول الحسن بن الوزّان في كتابه «وصف أفريقيا» الصناعة في المدن المختلفة في شمال افريقيا، وقد ذكر أنه يوجد في فاس مائة وعشرون

---

(١) جواد علي، جـ ٢، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤٦.
(٢) آدم ميتز، ص ٣٦٦- ٣٦٧، الإرشادات، لياقوت الحموي، جـ ٥، ص ٤٤٧.
(٣) المقدسي، ص ١٢٤- ١٢٥.
(٤) آدم ميتز، ص ٣٦٣- ٣٦٤، ابن حوقل، ص ١٤٨- ١٤٩، اليعقوبي، ص ٢٤٣.

مؤسسة للنسّاجين، وهذه المصانع عبارة عن أبنية كبيرة مؤلفة من عدّة أدوار مع قاعات فسيحة، كقاعات القصور وتحوي كل قاعة عدداً كبيراً من عمّال نسج الكتان والقنّب... تلك هي الصناعة الرئيسية في فاس، ويقال إنها تكفي العمل لعشرين ألف عامل[1].

وتحدّث الحسن بن الوزّان عن الصناعة في مصر فذكر صناعة السكر في مدينة ديروط حيث يوجد بها مصانع كبيرة تشبه قصراً، تقوم فيها المعاصر والمراجل لاستخراج السكر وطبخه، ووفقاً لرواية «الوزان» فإنه لم يرَ في أي مكان آخر مثل هذا العدد من العمال المستخدمين في صناعة السكر في هذه المدينة[2].

جـ ـ جغرافية التجارة

أسهب الجغرافيون المسلمون في وصفهم لطرق التجارة وبضائعها. ولقد كان لموقع جزيرة العرب أثره في اتجاهها إلى التجارة حتى لقد قال (سترابو) العرب تجّار وسماسرة وقوم تجارة وبيع وشراء. وكان اليمنيون في القديم يقومون بنقل التجارة بين بلاد العرب والبلاد المجاورة، وذلك حتى القرن السادس الميلادي حين انتقلت التجارة من أيدي اليمنيين بالتدريج إلى قريش القبيلة المكيّة التي ارتفع أمرها وحلّت محلّ الأولين في الاستئثار بتجارة شبه الجزيرة العربية. ولقد ذهب بعض اللغويين إلى أن اسم قريش جاء من يتقرّش البياعات فيشتريها أي يجمع البياعات، من يتقرّش المال أي يجمعه[3].

وقد عرّف ابن خلدون التجارة بأنها محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء أيّاً كانت السلعة من دقيق أو زرع أو حيوان أو قماش، وذلك القدر النامي يسمى ربحاً[4].

---

(١) الحسن بن الوزان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥٠.

(٢) نفس المصدر السابق،ص ٥٧٨.

(٣) هناك نحو عشرين تفسيراً لتسمية قريش، منها أنه كان يُقال لقصي القرشي، ومنها أن أب القرشيين النضر بن كنانة اجتمع في ثوبه يوماً فقالوا تقرّش، وأنه جاء إلى قومه فقيل كأنه جمل قريش، أي شديد، وقيل نسبة إلى القرش، وهو دابّة بحرية تخافها دوابّ البحر كله.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص ٢٥٥.

وقد اهتمّت كتب التراث بذكر بيوع العرب في الجاهلية، تلك البيوع الغريبة التي تثير الدهشة وتدعو للعجب لأنها مبنيّة على ظلم أحد الطرفين، وهي تشبه ما يعرف حالياً باليانصيب، أو لعب الحظ التي تسود دور اللهو. لكن الحقيقة التي لا تنكر أن هذه البيوع لم تكن سائدة في جميع أسواق العرب.

ومن أنماط هذه البيوع[1]:

١ ـ **الرمي بالحصاة:** حيث يرمي المشتري الحصاة على ثوب أو على قطيع من الغنم فأي سلعة تصيبها الحصاة تكون له نظير ما حدّد مسبقاً من دراهم. وعلى سبيل المثال، يقول صاحب قطيع الغنم للمشتري: أي شاة تصيبها الحصاة فهي لك بكذا.

٢ ـ **المنابذة:** وهي نوع من المبادلة دون النظر، ومن صوره أن يرمي الرجل إلى الرجل بثوبه وينبذ الآخر ثوبه فتتمّ المقايضة بين الرجلين.

٣ ـ **الملامسة:** ومن صورها أن يكتفي المشتري بلمس الثوب المطوي أو في الظلمة ويقول له صاحب الثوب: بعت لك الثوب بكذا أو كذا من الدراهم.

وهناك أنواع أخرى من البيوع الزراعية: مثل بيع ثمار الأشجار لعدد من الأعوام ويسمى هذا البيع «المعاومة» و «المخابرة» وهي بيع جزء معلوم من الزرع كالربع أو الثلث، و «المزابنة» وهي بيع الرطب في رؤوس النخل بالتمر كيلاً. وإذا تتبّعنا هذا البيوع نجد أنها لا تستند إلى عدالة، وإنما هي نوع من المقامرة تؤدي إلى الندم وإلى البغضاء لأن أحد الطرفين معرَّض للغبن لا محالة، وقد أبطل الإسلام هذه البيوع ونهى العرب عنها، وسمّاها بيع الغرر.

ولا شك أن اهتمام عرب شبه الجزيرة العربية بالتجارة تجسّد في تلك الأسواق التي كانت تُعقد في نواحيها المختلفة. ويُقال إن السوق هو المكان الذي تُساق إليه الحيوانات أو البضائع. وكانت الأسواق إما ثابتة طوال أيام

---

(١) سعيد الأفغاني، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دمشق، ١٩٦٠، ص ص ٤٦- ٥٠.

السنة أو موسمية يبيع فيها الباعة ويقصدها المشترون في مواسم معينة. وتُعرف السوق كذلك (بالقسيمة)[1]. وقد عرفت بعض الأسواق بمصطلحات خاصة وفقاً للسلع التي تُباع فيها، ومن ذلك (اللطيمة) وهي السوق التي يجلب إليها ما لا يؤكل من سلع مثل الطيب والمتاع. وعُرف الموضع الذي تُباع فيها النعم (المربد)[2]. وأطلق على الذين يجلبون الإبل والغنم للبيع (الأجلاب)، ويُطلق على الذين يذهبون إلى اليمامة لجلب الثمر وشرائه (بالسواقط). وتُعرف الإبل التي تخرج لتحمل متاع التجار وطعامهم (بالركاب)[3]. وقد ذكر اليعقوبي المتوفى سنة ٢٧٨هـ عشرة أسواق هي: دومة الجندل والمشقر، وصحار، ودبي، والشحر، وعدن، وصنعاء، وحضرموت، وعكاظ وذو المجاز، وذكر الهمدانى المتوفي سنة ٣٣٤هـ في كتابه «صفة جزيرة العرب» إحدى عشرة سوقاً تختلف عن تلك التي ذكرها اليعقوبي وهذه الأسواق هي:

عدن، مكة، الجند، نجران، ذو المجاز، عكاظ، بدر، مجنة، منى، حجر اليمامة، هجر البحرين[4].

وعدّ المرزوقي المتوفي سنة ٤٢١هـ في كتابه (الأزمنة والأمكنة) سبع عشرة سوقاً[5].

ولما كانت غارات البدو وحروبهم تهدّد التجارة وقوافلها، فإن العرب جعلوا أكبر أسواقهم تُعقد في الأشهرالحرم. وهي: (رجب، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم) وكانت أسواق عكاظ ومجنة وذو المجاز تُعقد في ذي القعدة وذي الحجة. ولقد تعارف العرب على أنه من أعظم العار أن يتعدّى المرء حدود الشهر الحرام، ولهذا سُمّيت حروب قريش وهوازن في عكاظ بحروب الفجّار لفجورهم باقتتالهم في الشهر الحرام.

---

(١) جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب، جـ ٧، ص ٣٦٥.

(٢) تاج العروس، (٣٤٩/٢)، ربد.

(٣) جواد علي، المصدر السابق، جـ ٧، ص ٢٦٧.

(٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، الرياض، سنة ١٣٩٤هـ، ص ٣٣٢.

(٥) أبو العلي المرزوقي الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، طبع بحيدر أباد سنة ١٣٣٢، ص ص ١٦١- ١٧٠.

وقد عظّم العرب مكة وجعلوها مكاناً حرماً، ومن هنا كانت مكانة قريش التجارية لأنها تسكن الحرم حيث الأمن والسلم.

وقد تحدّث اليعقوبي عن موقف العرب من حرمة الأسواق وحمايتها فقال:

(وكان في العرب قوم يستحلّون المظالم إذا حضروا هذه الأسواق، فسُمُّوا المحلُّون، وكان فيهم من ينكر ذلك وينصّب نفسه لنصرة المظلوم.. فيُسمُّون الذادة المحرّمون، وأما المحلُّون، فكانوا قبائل من أسد وطيء وبني بكر ابن عبد مناة ابن كنانة وقوم من بني عامر بن صعصعة. وأما الذادة المحرّمون فكانوا من بني عمرو بن تميم وبني حنظلة بن زيد مناة. قوم من هذيل وقوم من بني شيبان. فكانوا هؤلاء يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس، وكان العرب جميعاً بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم)[1].

ويمكن تقسيم أسواق العرب إلى أنماط متباينة على النحو التالي:

(أ) أسواق تمثّل العرب أصدق تمثيل مثل عكاظ وذي المجاز ومجنة.

(ب) أسواق ذات صبغة عالمية مثل أسواق المواني البحرية كعدن وصحار ودبي.

(ج) أسواق تخضع لنفوذ وتأثير أجنبي مثل سوق عمان (سيطرة فارسية) وبصري وأذرعات وغزّة وايله (سيطرة بيزنطية).

وعموماً فإن أهم أسواق العرب هي:

أ . الأسواق العربية:

(١) **سوق عكاظ**: كانت سوقاً عامة لأهل شبه الجزيرة العربية، وتقع جنوبي مكة إلى الشرق في وادٍ بين مكة والطائف وتقوم السوق في ذي القعدة وسُمّيت عكاظ لأن القبائل تجتمع فيعكظ بعضهم بعضاً في المفاخرة[2] وقد ضؤل أمر عكاظ حينما جاء الإسلام وانتهى أمرها سنة ١٢٩هـ.

---

(١) جواد علي، جـ ٧، ص ٣٧٠.

(٢) سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص ٢٧٨.

(٢) **سوق مجنة:** قرب مكة وتعقد في العشر الأخيرة من ذي القعدة، ويقصدها العرب بعد أن تنفض سوق عكاظ وكانت هذه السوق لكنانة.

(٣) **سوق ذي المجاز:** ذو المجاز من ديار هذيل ويقال إنها موضع بمنى. وكانت قريش تقول لا تحضروا أسواق عكاظ ومجنة وذي المجاز إلا محرمين بالحج.

ب . أهم أسواق الموانى البحرية:

(١) **سوق صحار:** كانت صحار أعمر مدينة بعمان وأغناها ـ وصفها ياقوت بأنها طيّبة الهواء والخيرات والفواكه، ولها آبار عذبة وقناة حلوة، وتعقد سوق صحار في رجب وتقصدها المراكب المحمّلة بالتجارة. وقد ذكر المرزوقي أن البيع فيها يكون أحياناً بإلقاء الحجارة كما هي الحال في سوق دومة الجندل.

(٢) **سوق عدن:** تتميّز هذه السوق بالاتجار في الطيب بأنواعه وعندها مغاوص اللؤلؤ. وكانت تعقد في رمضان وتشكو قلّة الماء والمراعي، ويُنقل إليها الماء من عين على بُعد مسيرة يوم منها.

(٣) **سوق دبي:** سوق قديمة قضت على نفوذها سوق صحار. ومعظم روّاد هذه السوق من الهند والسند والصين، والبيع فيها بالمساومة.

جـ . أهم الأسواق التي تخضع لنفوذ اجنبي:

(١) **سوق عُمْان:** جنوبي الخليج العربي وتُعقد هذه السوق في آخر جمادى الأولى وتتوافّر فيها الفواكه الجرومية مثل: الموز والتين والرمان. وتتمّ في هذه السوق عمليات التبادل التجاري بين بضائع فارس والهند والحبشة والحجاز والشام.

(٢) **سوق أذرعات «درعا»:** وتخضع هذه السوق للنفوذ البيزنطي.

وقد اشتهرت بعض الأسواق بسلع معيّنة مثل سوق حضرموت التي اشتهرت بالنعال، حتى قيل نعل حضرمية، وسوق عدن التي اشتهرت بالطِّيب،

وسوق الشحر التي اشتهرت بعنبرها، وسوق هجر التي اشتهرت بتمرها، وسوق دارين التي اشتهرت بالمسك وتجارة العطر. ويذكر ابن حبيب أنه كان لقبيلة كلب في دومة الجندل بيوت شعر يكرهون فتياتهم على البغاء فيها ويأخذون كسب هؤلاء البغايا[1].

ومن حيث أنواع البيع فكانت البيوع تتمّ أحياناً في سوق صنعاء بالجس (جسّ اليد) وسوق الشحر بإلقاء الحجارة ورمي الحصاة، وكذلك تتمّ المبايعة في سوقي صحار ودومة الجندل بإلقاء الحجارة، وتتمّ المبايعة في سوق المشقر بالبحرين بالملامسة.

ولم تتعدَّ البضائع التي تحمل إلى معظم أسواق العرب التمر والزبيب والخمور والسمن والأدم والزيت وبعض أنواع الحيوانات كالإبل والخيل حتى القرود أحياناً[2].

وقد تناول كثير من الجغرافيين المسلمين وصف الأسواق التجارية فيتحدّث المقدسي عن مدينة تدعى «بيار» بشمال إيران فيقول: السوق في الدور والباعة نساء[3].

وتحدّث المقدسي عن البصرة فقال: البصرة قصبة سرية أحدثها المسلمون أيام عمر... وذكر المقدسي علوّ شأن البصرة واتّساع أرجائها فقال: وكنت بمجلس جمعَ فقهاء بغداد ومشايخها، فتذاكروا بغداد والبصرة، فتفرّقوا على أنه إذا جمعت عمارات بغداد وأندر خرابها لم تكن أكبر من البصرة.

وقد وضع الجاحظ كتاب (التبصُّر بالتجارة) وصوّر فيه النشاط التجاري للبصرة مسقط رأسه، فتحدّث عن شتى السلع التي تأتي إليها، وما يصد عنها. ويُعدُّ كتاب «التبصُّر بالتجارة» دليلاً صادقاً لتجارة البصرة[4].

---

(١) جواد علي، جـ ٧، ص ٣٧٢.

(٢) سعيد الأفغاني، المرجع السابق، ص ١٩٥.

(٣) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ٣٥٦ .

(٤) سليمان إبراهيم العسكري، التجارة والملاحة في الخليج العربي في العصر العباسي، مطبعة المدني، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص ١٠٠.

ويتحدّث المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم عن التجارات في الأقاليم المختلفة وذلك في الخاتمة التي يختتم بها دراسة كل إقليم تحت عنوان «جمل شؤون هذا الإقليم» وعلى سبيل المثال، يذكر في إقليم «جزيرة العرب» أن التجارات في هذا الإقليم مفيدة لأن به فرضتي الدنيا وسوق منى والبحر المتّصل بالصين وجدّة والجار خزانتي مصر، ووادي القرى مطرح الشام والعراق.. فإلى عمان تخرج آلات الصيادلة والعطر كله حتى المسك والزعفران.. والعاج واللؤلؤ والديباج واليواقيت.. والصبر والحديد والرصاص[1].

وذكر ابن الفقيه الهمداني في كتابه (البلدان في نهاية القرن الثالث الهجري) أن أبعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري، ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بدّ أن يرى فيها بصرياً أو حميرياً.

وكان أهل البصرة يُضرَب بهم المثل في قلّة الحنين إلى وطنهم حتى إنه يُحكى أنه وُجد بيت مكتوب على حجر جاء فيه[2]:

ما من غريب، وان أبدى تجلّده   الا سيذكر عند العلة الوطنا

وقد كتب تعليقٌ تحته «إلا أهل البصرة» واشتهر الفرس باستيطانهم للمواني التجارية. وذكر الاصطخري أن الفرس منذ زمن طويل قد استوطنوا جدّة وهي فرضة مكة. وكذلك كانت المواني النشيطة بالشام مثل طرابلس وصيدا وبيروت، يسكنها قوم من الفرس نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان، وكان اليهود أكبر منافس للفرس وأهل العراق في التجارة وكانت مدينة اليهودية على مقربة من أصفهان، وهي القسم التجاري لهذه المدينة الفارسية الكبيرة. ومعظم تجار مدينة تستر كانوا يهوداً، وكانت تستر أكبر مركز لصناعة البُسط الفارسية، وكان الذي يقبض على ما يستخرج من اللؤلؤ في شواطيء جزيرة العرب رجلاً من اليهود[3].

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، مصدر سبق ذكره، ص ٩٧- ٩٨.
(٢) آدم ميتز، الحضارة الإسلامية، المجلد الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت، ص ٣٨٣.
(٣) آدم ميتز، المرجع السابق، ص ٣٨٣.

وقد ذكر ابن الفقيه أن التجار اليهود الذين يأتون من مقاطعة بروفانسي بفرنسا يسمّون عند المسلمين في القرن الثالث الهجري باسم مجرد، وهو «تجار البحر». وقد أشار بعض الجغرافيين المسلمين بأن هؤلاء اليهود يسافرون بين الشرق والغرب ويحملون من «فرنجة» فرنسا، الخدم والغلمان والديباج والجواري والفراء.

وكان الروم والهنود إلى جانب أهل العراق والفرس واليهود هم أنشط تجار المملكة الإسلامية. وكانت التجارة تمارس في الأسواق حيث كانت الدكاكين في مصر وآسيا الصغرى تمتد على طول الشوارع من الجانبين، على كل جانب صف منها، وكانت كل طائفة من التجار تجلس معاً في جانب أو قسم واحد من السوق. وكانت الأسواق تُقام في أيام معينة من الأسبوع، فمثلاً كان سوق شرقي بغداد يعقد يوم الثلاثاء، وسوق القيروان يعقد في يومي الأحد والخميس.

وتناول الجغرافيون المسلمون ذكر النقود والمكاييل والموازين، ومنهم الاصطخري الذي يقول إن نقود أهل بخارى الدرهم، ولا يتعاملون بالدينار، وكان الدينار في القرن الرابع الهجري يساوي نحو الأربعة عشر درهماً[١].

ويذكر المقدسي أن مكاييل الجزيرة العربية، الصاع والمد والمكوك، فالمد، ربع الصاع، والصاع، ثلث المكوك هذا بالحجاز[٢].

ويتحدث المقدسي عن مكاييل كل إقليم. وذلك فيما سمّاه «جمل شؤون هذا الإقليم» وذكر بأن مكاييل أهل الرملة القفيز والويبة والمكّوك والكيلجة، فالكيلجة نحو صاع ونصف، والمكوك ثلاث كيالج، والوَيْبة مكوكان، والقفيز أربع ويبات. وينفرد إيليا بالمدى وهو ثلثا القفيز وبالقب وهو ربع المدي[٣].

---

(١) آدم ميتز، المرجع السابق، ص ٣٧٣.

(٢) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٩٨.

(٣) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٨١.

ويذكر المقريزي أن ذكر الدرهم لم يرد على ألسنة المصريين إلا في أيام الفقر في عهد صلاح الدين، وكان ذلك لأول مرة، لأنهم كانوا قبل ذلك يتعاملون بالدنانير.

وكانت النقود تتبّع الأساس السداسي، فالدرهم يساوي ستة دوانق، وكان الدانق اثنى عشر قيراطاً، والقيراط أربعة وعشرون طسوجاً، والطسوج ثمانية وأربعين حبة.

وقد تحدّث ناصر خسرو أنه كان بسوق الصرّافين بمدينة أصفهان مائتا صرّاف، وكانوا يجلسون جميعاً في سوق واحد يسمى سوق الصرّافين[1].

وتحدّث الحسن بن الوزّان عن تجارة الحلي الذهبية في مدينة فاس فذكر: (أن أمين هؤلاء الصاغة هو الشخص الذي يحتفظ بمنقش المعادن وبالقوالب النقدية (الدمغة). فلا يمكن صنع أي خاتم ولا أي شيء من فضة أو من ذهب في فاس إذا لم يكن المعدن منقوشاً بيده (مدموغاً) والذي يحاول بيع شيء لا يحمل تقشاً يتعرّض لخسارة كبيرة. ولكن كل شيء منقوش يُباع بالسعر العادي، ويمكن استعماله للتسديد مثل النقد. ومعظم الصاغة من اليهود... ولا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة الصائغ، إذ يُنظَر إلى الذي يبيع الأشياء الذهبية أو الفضية بسعر أعلى من الذي يساويه وزنها على أنه رُباً. ولكن الملك يعطي اليهود الترخيص بممارسة صناعتها[2].

وتناول الحسن بن الوزّان وصف المحلات التجارية في حي بين القصرين حيث ذكر أن اللحم المطبوخ يُباع في حوالي ستين دكاناً، وكلها مجهّزة بالأواني القصديرية، ويُباع في دكاكين أخرى ماء مصنوع من كل أنواع الزهور... وبعد ذلك تأتي دكاكين تُباع فيها الحلوى المعروضة بشكل أنيق جداً وهي من نوعين بالعسل وبالسكر... وتحدّث عن الأقمشة الأجنبية التي تُباع في هذا السوق مثل قماش بعلبك، وأقمشة الموصل، وأقمشة إيطاليا، كالساتان

---

(١) ناصر خسرو، سفر نامة، مصدر سبق ذكره، ص ١٢٨.

(٢) الحسن بن الوزّان، مصدر سبق ذكره، ص ٢٨٤.

الموشّى والمخامل والتفتا والبروكار. وتحدّث كذلك عن تجارة العطور، ومحلات الصاغة، وذكر أنهم يهود تمرُّ بين أيديهم ثروات كبرى[1].

د ـ جغرافية الطرق والنقل

أبدى كثير من الذين تصدُّوا لدراسة كتب التراث الجغرافي الإِسلامي دهشتهم لاهتمام هذه الكتب بالمسالك والطرق والدروب المختلفة بحيث لا يخلو كتاب من ذكرها بشيء من التفصيل. وعلى سبيل المثال، لو تتبّعنا ذكر المسافات في كتاب أحسن التقاسيم للمقدسي، نجد أنها تشغل ما بين ١٠ إلى١٥٪ من مادة الكتاب. ويرجع اهتمام كتب التراث بذكر المسافات والمراحل إلى خطورة السفر قديماً بسبب الاعتماد على الحيوانات وبسبب كثرة الصحاري في مملكة الإِسلام، فلا بدّ من معرفة المسافات والمراحل ومواقع عيون الماء والآبار، حتى يكون المسافر على علم بطبيعة الطرق، فيأخذ من الزاد والماء ما يتناسب وطول الطريق أو المرحلة حتى لا يُعرِّض نفسه للهلاك.

ومما يجدر ذكره أن العرب قدّروا المسافات بمقاييس تتناسب مع أبعاد هذه المسافات. فالمسافات القصيرة قِيسَت بالذراع والشبر والإِصبع. والمسافات الطويلة اعتمدت على وحدات قياسية أخرى مثل مراحل السفر، والأميال والفراسخ. وقسّم العرب وحدات القياس الكبيرة مثل الفرسخ والميل إلى الوحدات الصغرى مثل الذراع والشبر. وقد حدّد العرب «الشبر» بأنه ما بين أعلى الإِبهام والخنصر والذراع من طرف المرفق إلى طرف الإِصبع الوسطي[2].

ومن الوحدات الأخرى التي استخدمت القصبة (Kas-pu في البابلية) ومعناها ساعتان، أي المسيرة التي يقطعها المرء في ساعتين، وكان أهل مصر في الإِسلام يقيسون أرضهم بقصبة طولها خمسة أذرع، فمتى بلغت المساحة أربعمائة قصبة فاسمها: الفدّان[3].

---

(١) الحسن بن الوزان، المصدر السابق نفسه، ص ص ٥٨٠- ٥٨١.

(٢) جواد علي، جـ ٧، ص ٦٢٢ (انظر ملحق المصطلحات الجغرافية في التراث).

(٣) تاج العروس، ماد (قرط)، جواد علي، جـ ٧، ص ٦٢٤، طبعة بيروت، سنة ١٣٨٦، ٥/ ٢٠٣.

ومن وحدات القياس الأخرى «الغلوة» وقُدّرت برمية سهم، وهي مقياس يوناني يعادل نحو ١٤٥ خطوة أو ثُمن ميل. أما الفرسخ فقدَّرَهُ علماء اللغة بأنه ساعة من النهار أو ثلاثة أميال هاشمية، واللفظة مأخوذة عن فرسنك Farsong الفارسية. والميل مقياس روماني قيل إنه ما بين ثلاثة وأربعة آلاف ذراع وإنه من Miloin الرومانية، وهي منار يُبنى للمسافر للاسترشاد به[١]. وهناك وحدات أخرى مثل مسيرة ليلة أو ساعة أي ما يقطع في ليلة أو ساعة.

وكان الخلفاء يقيسون المسافات بالأميال غربي الفرات، أما شرقيّه فبالفراسخ[٢].

وقد تعدّدت كتب العرب التي تحمل عنوان «المسالك والممالك» كما سبقت الإشارة لأن المسالك هي التي تؤدي وتقود إلى الممالك.

ومن نماذج اهتمام الجغرافيين المسلمين بالمسافات، ذلك النص في كتاب أحسن التقاسيم، للمقدسي.

يقول المقدسي: (وأما المسافات فاعلم أن الواو للجمع وثم للترتيب وأو للتخيير، فإذا قلنا إلى فلانة وفلانة فإنهما في موضع واحد.. فإن قلنا ثم أردنا العطف على الذي قبله، كقولنا إلى بطن مرّ، ثم إلى عسفان إلى غزة، ثم إلى رفح. فإن قلنا أو، فقد رجعنا إلى الذي قبل هذا الآخر، كقولنا من الرملة إلى إيليا أو إلى عسقلان)[٣].

من النص السابق يتّضح لنا كيف حاول المقدسي تحديد مفهوم حروف العطف حتى لا يقع لبس في فهم المقصود.

ويتحدّث المقدسي عن المسافات بالمراحل، فيقول في مسالك إقليم جزيرة العرب: (من مكة إلى قرين مرحلة ثم إلى جدة مرحلة، ومن بطن مر إلى جدة مرحلة، وتأخذ من الجحفة إلى بدر مرحلة)[٤]. ويتحدث كذلك عن

---

(١) جواد علي، جـ ٧، ص ٦٢٥.
(٢) أحسن التقاسيم، ص ٦٦.
(٣) المصدر السابق، ص ١٠٦.
(٤) المصدر السابق، ص ص ١٠٦- ١٠٧.

المسافات بالأميال فيقول: ثم وَجْرةَ ٤٠ ميلاً ثم إلى ذات عرق ٢٧ ميلاً[١].

وكانت معظم الطرق في العصور الوسطى عبارة عن شبكة من المسالك المطروقة التي لم يهتم العرب بصيانتها كثيراً. ويذكر آدم ميتز أن العرب لم يعملوا خلال أيام سيادتهم على تقدّم نظام الطرق البرية لأنهم أمة ركوب، لا تميل إلى تمهيد طرق الجيوش ولا إلى اتخاذ المركبات، ويضيف آدم ميتز قائلاً: لقد بلغ من قلّة الفهم للمركبات أنهم لما أخذوا الشطرنج عن الهنود لم تعجبهم صورة العربة فاستبدلوا بها صورة الرخ، إلا أن هذا القول قد وجد معارضة شديدة، وخصوصاً من مرجليوث الذي أشار إلى أن العرب كانت تستخدم كلمة رخ بمعنى عربة[٢].

ومما ذكره ناصر خسرو عن مصر، والبيروني عن الهند، يتّضح لنا أن المسلمين اهتمّوا بتمهيد الطرق. يقول ناصر خسرو إنه كان بمصر جسر من التراب بحذاء النيل من أول الولاية إلى آخرها، وان السلطان كان يرسل في كل سنة عشرة آلاف دينار إلى عامل معتمد ليجدّد عمارته[٣]. وكذلك مهّد خمارويه بن أحمد بن طولون طريق التيه بالقرب من أيلة. ويُعدُّ خمارويه من أبرز الذين اهتمّوا بإعداد الطرق والعناية بها.

ولم تقتصر العناية بالطرق على حراستها بل كانت تزوّد أحياناً بخزانات ماء، كما كانت الحال بالنسبة لبعض طرق شرقي فارس حيث وضعت خزانات يتجمّع فيه الماء أو قباب بين كل فرسخين أو ثلاثة[٤].

ويذكر الاصطخري وجود رباطات للزهّاد على الطرق الصحراوية، وخصوصاً في بلاد ما وراء النهر، وأن عددها يزيد على عشرة آلاف رباط «في كثير منها، إذا نزل النازل، أعطى علف دابته وطعام نفسه إذا احتاج إلى ذلك»[٥].

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠٩.

(٢) آدم ميتز، مصدر سبق ذكره، ص ٤٠٤.

(٣) رحلة ناصر خسرو، مصدر سبق ذكره، ص ٥٤، من النص الفارسي.

(٤) ناصر خسرو، ص ٩، من الأصل الفارسي.

(٥) الاصطخري، المسالك والممالك، ص ١٦٣.

ويشير ابن حوقل إلى رجل مشهور بالكَرَم ببلاد فارس من آل المرزبان، أقام رباطات ووقف على مصالحها بقراً سائمة! وجعل عليها قوّامين يجلبونها ويأخذون ألبانها...

وما من رباط إلا وفيه المائة بقرة معاً أو فوق ذلك لهذا الوجه[1].

وكان أهل القرى بفارس يختارون من بينهم رجلاً ليوزّع الضيوف من المسافرين على أهل القرية ويسمُّونه الجزير. وكانت المياه توضع في أوانٍ خاصة في الشوارع والطرق بخوزستان، وربما حُمل إليها الماء من بعيد[2].

وقد ميّز العرب بين أنواع من الطرق مثل: محجّة، وهي الطريق المعروفة التي يكثر سلوكها؛ لأن موضع المباني والمرور من الأشياء محجوج، وطريق جادة أي مجدودة بالوطء، والايتار، الطريق المدروس، والطرق المسبولة أي المسلوكة ومنها ابن السبيل أي الطريق، ويسمى الطريق الضيّق الحبل، وقارعة الطريق في معنى مقروعة، من قرعها بالحافر والخفّ، والريع الطريق[3].

وفيما يلي نماذج من بعض الطرق التي ورد ذكرها في كتب التراث:

١ . طرق نجد مكة:

كان لأهل نجد طرُق يسلكونها في اتجاههم نحو مكة أو المدينة، وعُرف طريق نجد إلى مكة بالجلال وبمثقب وبالقعقاع. وقد اختلف في المثقب. فبعض الباحثين يرون أن المثقب كان الطريق الذي يربط العراق بمكة[4]. وقيل إن القعقاع لا يُسلَك إلا بمشقة، وهو طريق من اليمامة إلى الكوفة، وقيل إلى مكة.

ومن الطرق المهمة ذلك الطريق من بغداد إلى الشام على الضفة الغربية للفرات مارًّا بالأنبار، وكان يعبر الضفة الغربية للفرات عند هيت، وكان عامل هيت يبعث مع المسافرين حراساً من البدو.

---

(١) ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٥٦.

(٢) آدم ميتز، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠٧.

(٣) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٣٥.

(٤) جواد علي، جـ ٧، ص ٣٤٦.

وهناك طريق من الحيرة إلى بلاد الشام يسلك القطقطانة (موضع غير بعيد عن الكوفة) ثم يسلك الطريق إلى (البقعة) ثم إلى الأبيض، ثم إلى (الحوشي) ثم إلى (الجمع) ثم إلى (الخطي) ثم إلى (الجبة) ثم إلى (القلوفي) ثم إلى (الأعناك) ثم إلى (أذرعات) ثم إلى (دمشق).

وقد ذكر ابن خرداذبه طريق البصرة إلى عمان على النحو التالي: البصرة - عبادان - الحدوثة - عرفجا - الزابوقة - المعز - عصى - المعرس - ثم إلى خليجة - حسّان - القري - مسيلحة - حمض - هجر - العقير - قطر - السبخة ثم إلى عمان.

ويتناول المقدسي ذكر الطرق وأبعادها تحت عنوان المسافات. وعلى سبيل المثال يذكر هذه الطرق في إقليم مصر فيقول:

(وأما المسافات فتأخذ من الفرما إلى البقارة مرحلة ثم إلى الواردة مرحلة ثم إلى العريش مرحلة ثم إلى رفح مرحلة، ويؤخذ في الصيف من الفرما إلى جرجير مرحلة إلى فاقوس مرحلة وتأخذ من الفرما في الماء إلى تنيس مرحلة ثم إلى دمياط مرحلة ثم إلى المحلة الكبرى مرحلة ثم إلى الإسكندرية مرحلتين، ونأخذ من دمياط إلى سردوس مرحلة ثم إلى الفسطاط مرحلة. وتأخذ من بلبيس إلى المنصف مرحلة ثم إلى القلزم مثلها...)[١].

ويتناول المقدسي المسافات أحياناً بالأميال فيقول: (وإن أردت مكة في جادة الكوفة، فخُذ من زبالة وهي عامرة واسعة الماء إلى الشقوق ٢١ برميلاً ثم إلى البطان ٢٩ ميلاً ثم إلى الثعلبية ٢٩ ميلاً هي ثلث الطريق. عامرة كثيرة البُرَك بها آبار عذيبية)[٢].

ولعل طريقة الهمذاني في تحديد الطرق من أفضل ما ورد في كتب التراث ذلك أنه يحدّد عروض الأماكن، أي درجات العرض ويحدّد المسافة بالأميال، وعلى سبيل المثال، ما ذكره بالنسبة لمحجّة العراق إلى مكة. فهو

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ٢١٤.

(٢) المقدسي، المصدر السابق، ص ١٠٧.

يذكر[1]: (عرض بغداد ثلاث وثلاثون درجة وعشر ونصف عشر، وبينها وبين قصر ابن هبيرة ستة وثلاثون ميلاً، وعرض القصر اثنتان وثلاثون درجة ونصف، وبينه وبين القناطر أربعة وعشرون ميلاً، وعرض القناطر اثنتان وثلاثون درجة وسدس، وبينها وبين الكوفة اثنان وعشرون ميلاً، وعرض الكوفة اثنتان وثلاثون درجة، وبينها وبين القادسية أربعة عشر ميلاً، وعرض القادسية اثنتان وثلاثون درجة أيضاً، وبينها وبين المغيثة ستة وثلاثون ميلاً، وعرض المغيثة إحدى وثلاثون درجة وثلث وخمس، وبينها وبين القرعاء خمسة وعشرون ميلاً، وعرض القرعاء إحدى وثلاثون درجة، ومنها إلى واقصة اثنان وعشرون ميلاً، وعرض واقصة ثلاثون درجة ونصف، ومنها إلى العقبة خمسة وعشرون ميلاً، وعرض العقبة ثلاثون درجة، ومنها إلى القاع عشرون ميلاً، وعرض القاع تسع وعشرون درجة وثلثا درجة، ومنه إلى زبالة ثمانية عشر ميلاً، وعرض زبالة تسع وعشرون درجة وربع، ومنها إلى الشقوق تسعة عشر ميلاً، وعرض الشقوق تسعة وعشرون جزءاً.. ومن الشقوق إلى البطان اثنان وعشرون ميلاً، وعرض البطان ثمانية وعشرون جزءاً منها إلى الخزيمية[2]... ومنها إلى الأجفر، ومن الأجفر إلى نيد ثم إلى توز ثم إلى سميراء ثم إلى الحاجز ومنها إلى معدن النقرة ومنها إلى العسيلة ثم إلى بطن نخل ومنه إلى الطرف ومنها إلى السيالة ثم إلى الروحاء ثم إلى الرويثة ومنها إلى العرج ومنه إلى السقيا ومنها إلى الأبواء ومنها إلى الجحفة ومنها إلى قديد ومن قديد إلى عسفان ومنها إلى مر الظهران ومن مر إلى مكة.

ومن الملاحظات التي يجدر ذكرها اختلاف الأطوال والمسافات بين مواقع الطرق المختلفة. وذلك بين ما ذكره المقدسي في الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، وبين ما ذكره الهمداني في بداية القرن الرابع الهجري. ويبدو هذا الاختلاف على النحو التالي:

---

(١) الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٣٣٦- ٣٣٧.

(٢) اكتفينا بذكر نقاط الطريق دون التعرّض للعروض، والمسافات بالأميال كما هو وارد في النص، ص ٣٣٧ (صفة جزيرة العرب) المصدر السابق.

المسافة بالأميال		
من - إلى	الهمداني	المقدسي
من زبالة إلى الشقوق	١٩	٢١
من الشقوق إلى البطان	٢٢	٢٩
من الخزيمة إلى أجفر	٢٠	٢٤
من أجفر إلى فيد	٢٨	٣٦

يتّضح لنا من المقارنة السابقة أن جميع الأطوال عند الهمداني أقلّ من التي ذكرها المقدسي مما يدلّ على أن طول الميل عند المقدسي أقلّ من طول الميل عند الهمداني، إلا أن النسبة غير ثابتة إذ تتراوح ما بين ٨٣ إلى ٩٠٪ من طول الميل عند الهمداني.

وقد تناول الجغرافيون المسلمون ذكر الملاحة النهرية والنقل النهري، وتتميّز الطرق المائية في مملكة الإسلام بأنها أقلّ شأناً من الطرق المائية التي عرفتها أوربا. ويرجع ذلك إلى أن المملكة الإسلامية تمتد في مناطق غالبيتها صحراوي وشبه صحراوي. وقد أشار المقدسي إلى الأنهار الملاحية في المملكة الإسلامية فقال: (وأما الأنهار الفائضة في المملكة فالمشهور منها فيما رأيت وميّزت اثنا عشر: دجلة والفرات والنيل وجيحون ونهر الشاش وسيحان وجيحان وبردان ومهران ونهر الرس ونهر الملك ونهر الأهواز، تجري فيها السفن ودونها خمسة عشر أخرى، نهر المروين ونهر هراة ونهر سجستان ونهر بلخ ونهر الصغد وطيفوري وزندرود ونهر العباس وبردى ونهر الأردن والمقلوب ونهر إنطاكية ونهر أرجان ونهر شيرين ونهر سمندر»[١].

ولو تتبّعنا ما ذكره المقدسي نجد أنه لا يمكن اعتبار كل هذه الأنهار صالحة للملاحة اللّهم إلا نهر النيل ونهري دجلة والفرات، أما بقية الأنهار فالملاحة غير دائمة، وتواجه صعوبات كثيرة.

(١) المقدسي، مصدر سبق ذكره، ص ١٩- ٢٠.

وكان نهر الفرات صالحاً للملاحة، وتُنقل عليه التجارة بين الشام وبغداد، وخصوصاً زيت الزيتون وخشب البناء، وكان الرمان يُحمل إلى الفرات أيضاً في مراكب تسمى القراقير يبلغ عرض الواحدة منها ستة عشر ذراعاً إلى عشرين ذراعاً[1].

وكانت تمتد شرقي البصرة شبكة من المجاري المائية والنهيرات، ذكر عددها في بعض العصور على أنه يزيد على مائة وعشرين ألف نهر، تجري فيها الزوارق، وحينما سمع ابن حوقل ذلك أنكره، حتى حانت له الفرصة فرأى تلك البقاع، فشاهد في مقدار رمية سهم عدّة من الأنهار الصغار تجري في جميعها القوارب، فيجوز أن يكون ذلك العدد الكبير موجوداً حقيقة في طول تلك البقعة وعرضها.

واستُخدم نهر دجلة في نقل البضائع والحجاج، إذ إن بضائع أرمينية كانت تنحدر إلى بغداد. ويُذكر أنه في سنة ٣٤٨هـ (٩٥٩م) غرق من الحجّاج في نهر دجلة ألف نسمة كانوا قادمين من الموصل في بضعة عشر زورقاً كبيراً[2].

ويذكر المقدسي أنه ينحدر من الفرات بكورة بغداد أربعة أنهار: الصراة نهر عيسى نهر صرصر نهر الملك، ويلقاها من الشرق مياه النهروانات تحت بغداد، فإذا جاوزت واسط تبطّحت، وصعُبَ سلوكها إلى تخوم البصرة والسفن فيها أبداً... والناس ببغداد يذهبون ويجيئون ويعبرون في السفن، وترى لهم جلبة وضوضاء، وثلثا طيب بغداد في ذلك الشط[3].

وقد أُحصي عدد السفن والزوارق في بغداد في أوائل القرن الرابع الهجري فكانت ثلاثين ألفاً تنقل الناس والتجارة، وقدّر كسب أصحابها في كل يوم ألف درهم[4] وكانت السفن والقوارب تُعرف بأسماء مختلفة مثل:

---

(١) آدم ميتز، ص ٢٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٣٩٦.
(٣) المقدسي، ص ١٢٤.
(٤) آدم ميتز، ص ٣٩٧.

الطيار ـ السميرة ـ الحراقة. وقد ذكر المسعودي أن للخليفة المستكفي (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م) طياراً يسمى الغزال[١].

وعندما خرج عضد الدولة للقاء الخليفة على نهر دجلة سنة ٣٦٤هـ/ ٩٧٤م امتلأ النهر بالسميريات والزبازب، ولم يبقَ ببغداد أحد، ولو أراد إنسان أن يعبر دجلة على السميريات من واحدة إلى أخرى لأمكنه ذلك لكثرتها[٢].

ولم تعق الجسور التي بُنيت على الأنهار حركة الملاحة حيث كانت هناك مواضع في طرفي الجسور تدخل فيها السفن كما ذكر المقدسي بالنسبة لنهر دجلة[٣].

وتميّزت بعض أجزاء نهر الفرات بأنها صعبة الملاحة مثل «الأبواب»، وهو موضع ما بين بغداد وسامرا قرب قرية تسمى علث، ويجري النهر في هذا الموضع في مجرى ضيق كثير الحجارة سريع الجريان. وكانت السفن لا تعبُر ذلك الموضع إلا بمرشد من أهل المنطقة يتولى قيادة السفينة حتى يعبر بها ذلك الموضع الخطر[٤]. ولعلّ أهم عقبة كانت تواجه الملاحة على نهر دجلة هي منطقة البطائح في جنوبي العراق، حيث يتشعّب دجلة إلى ثلاث شعب تنصبُّ كلها في مستنقعات وسط نباتات مستنقعية، وكانت السفن إذا وصلت إلى تلك المستنقعات نقلت بضائعها إلى زوارق تستطيع اجتياز هذه المستنقعات. وكانت اللصوص تكثر في منطقة المستنقعات على الرغم من وجود أكواخ للحراسة.

وقد ذكر ابن رسته أن نهر دجلة كان يُغلق بالليل وذلك بأن تُربط سفينتان من أحد جانبي النهر وسفينتان من الجانب الآخر، ثم تؤخذ قلوس على عرض دجلة وتشدّ رأسها إلى السفن، لئلا تجوز المراكب بالليل[٥].

---

(١) المسعودي، مروج الذهب، جـ ٨، ص ٢٧٧.

(٢) آدم ميتز، ص ٣٩٨.

(٣) المقدسي، ص ١١٨.

(٤) آدم ميتز، ص ٣٩٩.

(٥) ابن رستة، الأعلاق النفيسة، ص ١٨٤ـ ١٨٥.

وأشار معظم الجغرافيين المسلمين إلى نهر النيل وأهميته الملاحية. وكان الجزء الذي يصلح للملاحة يمتد حتى أسوان حيث تجتمع تجارة السودان. وسكان أهل النوبة يحملون تجارتهم في نهر النيل حتى الجنادل، فينقلون بضائعهم على ظهور الإبل حتى أسوان.

هـ - الجغرافيا السياحية

«الزيارات»

لما اتّسعت رقعة الدولة الإسلامية، وكان كثير من المسلمين يلتقون في موسم الحجّ يتبادلون الأخبار وذكر الديار والآثار، ويدعون بعضهم البعض لزيارة الأقطار، نمت عند كثير من المسلمين الرغبة في نوع من السياحة لمشاهدة الآثار وقبور الصالحين والمشاهد التي كانت كثيراً ما تبنى لرؤيا يراها أحد المسلمين. ولقد حفلت كتب التراث بذكر مناطق الزيارات وعجائب الأبنية وتفاوتت الكتب في الاهتمام بهذا الموضوع، فبعضها يذكر عجائب كل بلد كما فعل ابن خرداذبة وابن حوقل والمقدسي الذي لم يغفل عن ذكر العجائب في كل إقليم. وعلى سبيل المثال، يذكر من عجائب إيليا مغارة بظاهر البلد سمع وقرأ عن أنها تنفذ إلى قوم موسى... وفيها طرق يُدخل فيها بالمشاعل بين فلسطين والحجاز[1].

وبالنسبة لإقليم مصر قال: وفيه عجائب منها الهرمان اللذان هما أحد عجائب الدنيا من حجارة شبه عمارتين ارتفاع كل واحد أربعمائة ذراع بذراع الملك.. وبعين شمس شبه منارتين طويلتين، قطعة واحدة على رأسهما شبه حربة، تسمّيان المسلّتين.

ومن الكتب ما اهتم اهتماماً كبيراً بمناطق الزيارات التي يفضّل رؤيتها في الأقاليم المختلفة مثل كتاب «الإشارات إلى أماكن الزيارات» لمحمود بن محمد العدوي، توفي سنة ١٠٣٢هـ. وكتاب «الاشارات إلى أماكن الزيارات»

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٨٥.

لمحمد يحيى الحلبي الفرضي المتوفي سنة ١٠٩٠هـ، وكتاب «بستان السياحة» لزين العابدين الشرواني في القرن الثالث الهجري، على أن أشهر كتب الإشارات إلى معرفة الزيارات، وأقدمها هو كتاب «الإشارات إلى معرفة الزيارات» لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهروي المتوفي بحلب سنة ٦١١هـ/ ١٢١٥م، وقد استفاد ياقوت كثيراً من كتاب الهروي[١]. وكما يدلّ اسمه فهو ينسب إلى هرات في أفغانستان، لكنه وُلد بالموصل، وقد أمضى معظم حياته متجوّلاً حتى لُقِّبَ بالسائح[٢].

ويبدو أن الهدف الرئيسي لرحلاته وتجواله، هو زيارة أضرحة الأولياء والمقامات العديدة التي تناول الناس ذكرها. وكان الهروي يكتب اسمه أو يسجّله في كل مكان زاره، وقد أبصر ابن خلكان بعيني رأسه، ذلك بعد نصف قرن. وقد اعتمد الهروي على ذاكرته في تدوين كتابه لأن أوراقه التي دوّن فيها مشاهداته قد فُقِدت أثناء كارثة حلّت بسفينته قرب عكا سنة ١١٩٢م. وكان الهروي يعرف السحر، حيث اعتمد في الحصول على متطلباته في البلاد التي زارها على معرفته بالسحر وجميع ضروب المخاريق، وكان يتخذ مظهر صوفي فقير أثناء تجواله وزياراته.

بدأ الهروي بذكر الزيارات من مدينة حلب، وكان الواجب كما يقول، أن يبدأ بذكر مدينة السلام، إذ بها إمام المسلمين وخليفة الموحّدين، وقد أقام الهروي ببيت المقدس سنة ١١٧٣- ١١٧٤م.

ويذكر الهروي أن السبب في وضعه لكتاب الإشارات، أن بعض الإخوان الصالحين والخلاّن الناجحين، سألوه أن يذكر ما زار من الزيارات وما شاهد من العجائب والأبنية والعمارات وما رأى من الأصنام والآثار والطلمسات في الربع المسكون والقطر المعمور[٣].

---

(١) يُذكر أن الحموي رجع إلى الهروي فيما يقرب من ثمانين مرة على الرغم من أن الحموي يشير إلى الهروي مرتين فقط.

(٢) كراتشكوفسكس، جـ ١، ص ٣٢٠.

(٣) أبو الحسن علي بن بكر الهروي، كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، عُنيت بنشره وتحقيقه جانين سورديل، دمشق، سنة ١٩٥٣، ص ١.

وقد ابتدأ الهروي بذكر الزيارات من مدينة حلب وأعمالها والبلاد التي تليها، ثم ذكر الشام والساحل بأسره، وبلاد الفرنج وفلسطين والأرض المقدسة وجميع زيارات بيت المقدس، ومدينة الخليل، وديار مصر بأسرها، والصعيدين، والبلاد البحرية والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق بأسرها، وأطراف الهند والحرمين الشريفين مكّة والمدينة ـ حرسهما الله ـ واليمن وبلاد العجم، ومع أنه لم يدخل بلاد المغرب والعجم نبي إلا أن بهما من الصالحين والأولياء والعلماء ما لو جُمع لكان كثيراً.

نماذج من الزيارات التي ذكرها الهروي

الزيارات بمدينة حلب[1]:

بقلعتها، مقام إبراهيم الخليل، وبه صندوق فيه قطعة من رأس يحيى ابن زكريا ـ عليه السلام ـ ظهرت سنة خمس وثلاثين وأربعمائة.

يراق: قرية من أعمال حلب بها معبد يقصده الزمني والمرضي من الأماكن ويبيتون به، فإما أن يبصر المريض من يقول له: دواؤك في الشيء الفلاني، أو يبصر من يمسح يده عليه فيقوم وقد برىء بإذن الله تعالى.

مدينة إنطاكية[2]: بها قبر حبيب النجار الذي أنزل الله فيه (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى) «سورة يس، ٢٠» وهي من المدن التي يتسلى بها الغريب عن وطنه.

مدينة قنسرين: بجبلها مشهد يُقال إنه مقام صالح النبي ـ عليه السلام ـ ويقال إن الناقة منه خرجت لصالح، وبه آثار أقدام البعير، والصحيح أن صالحاً كان بأرض اليمن وقبره في شبوه باليمن[3]. وقيل إنه كان بالحجر ما بين وادي القرى والشام وقبره بمكة والله أعلم.

---

(١) الهروي، مصدر سبق ذكره، ص ٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٧.

الرستن: مدينة قديمة بها آثار، وهي مدينة أهل الرس، وقد ذكرهم الله عزّ وجلّ في الكتاب العزيز[1].

دمشق: قيل دمشق هي ارم ذات العماد.. وقيل هي كانت دار نوح، وقيل التنور فار من جبل لبنان والله أعلم.

جبل برده: عليه قبر هابيل وقابيل أولاد آدم ـ عليه السلام ـ وقيل قائين، وهو الأصحّ والله أعلم.

جبل قاسيون: به مغارة الدم، قيل بها قتل قابيل هابيل، وبه مغارة آدم ـ عليه السلام ـ سكن بها وتُعرف الآن بالكهف، وبها مغارة الجوع، قيل بها مات أربعون نبياً، ولها حكاية والله أعلم[2].

البلقا: بلد به الكهف والرقيم وعنده مدينة يقال لها عمان، بها آثار قديمة ذكروا أنها مدينة دقيانوس.. وقد زرنا الكهف والرقيم في بلاد الروم عند مدينة يقال لها أبسس خرابة بها آثار عجيبة. وبالمغرب موضع يُقال له خبان الورد في برّ الأندلس به الكهف والرقيم[3].

مدينة الخليل عليه السلام: بها مغارة فيها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسارة ـ عليهم السلام ـ وقيل إن قبر آدم ونوح وسام في هذه المغارة، والمغارة تحت هذه المغارة التي تُزار الآن[4].

جوف بلبيس (بمصر): به قرية يُقال لها صفت، فيها قبّة البقرة التي أمر الله عزّ وجلّ بني إسرائيل بذبحها، وتُعرف بقبّة البقرة إلى الآن والله أعلم[5].

ذكر مصر القديمة، التي كان بها يوسف الصدّيق ـ عليه السلام ـ بها قبّة زليخة، وبها السجن الذي سُجن يوسف ـ عليه السلام ـ به، وبها مشهد يعقوب، وبها الأهرام التي خزّن يوسف الصدّيق القمح بها.

---

(١) الهروي، ص ٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١١.

(٣) المصدر السابق، ص ١٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٣٠.

(٥) المصدر السابق، ص ٣٤.

قوص: مدينة بها مشهد النبي ﷺ وبها مشهد علي بن أبي طالب رأوها في المنام والله أعلم[1].

المحلة: مدينة بها مشهد فاطمة الزهراء ومشهد علي بن أبي طالب، ومشهد الحسين - رضي الله عنهم - رأوهم في المنام[2].

سخا: مدينة بجامعها حجر أسود عليه طلسم بقلم الطير (الهيروغليفي) إذا أُخرج الحجر من الجامع دخلت إليه العصافير وإذا أُعيد خرجت منه.

وبجزيرة اسقليه جبل النار (بركان اتنا) مطلٌّ على البحر، شاهق في الهواء، يُرى في النهار والدخان طالع منه وفي الليل النار. وحدّثني رجل من علماء البلاد أنه رأى حيواناً على شكل السمان، رصاصي اللون، يطير في وسط النار ويعود إليها، وقيل هو السمندل. وأنا فما رأيت إلا حجارة سوداء مثقبة مثال حجر الرمل للحمّام من هذا الجبل ناحية البحر[3].

وتحدّث الهروي عن زيارات الحجاز، وذكر أن شروع ذبح إبراهيم لإسماعيل كان في شعب ثبير، وهو الجبل الذي بمنى والله أعلم. والمشعر الحرام، قيل به اجتمع آدم وحواء وتقرّبت إليه بالمزدلفة وتعارفا بعرفة، وقيل هبط آدم بالهند وحواء بجدّة والله أعلم[4].

مكّة: حرسها الله تعالى، بها الكعبة المعظّمة، كانت عمارتها سافاً من خشب وسافاً من الحجارة.. وكان فيها صوَر الملائكة والأنبياء - عليهم السلام - والشجرة، وصورة إبراهيم - عليه السلام - والأزلام.. فلما كان عام الفتح أمر الرسول عليه الصلاة والسلام فطمست جميع الصوَر ما عدا صورة المسيح وأمّه، وكان بها قرنا الكبش الذي ذبحه إبراهيم - عليه السلام - داخل الكعبة. وبقيت كذلك إلى عهد ابن الزبير فاحترقت[5].. بالحرم بئر زمزم (ماؤها لما شرب له)

---

(١) الهروي، ص ٤٤.

(٢) الهروي، ص ٤٦.

(٣) الهروي، ص ٥٥.

(٤) الهروي، ص ٨٤.

(٥) الهروي، ص ٨٥.

وقيل بين بئر زمزم والركن قبور سبعين نبياً منهم هود وصالح وإسماعيل عليهم السلام.

وتحدّث الهروي عن زيارات اليمن فذكر مدينة لاعة عدن، عندها جبل عليه قبر لقمان الحكيم، ومدينة صنعاء وبها مسجد سام بن نوح، وشبوه، وبأرضها قبر صالح - عليه السلام -، ومدينة حضرموت وبها قبر هود. وتحدّث بعد ذلك عن بلاد العجم وما تضمّنه من قبور مثل مدينة أصفهان وبها قبر النابغة الذبياني ومدينة ساوة وبها قبر سيبوية النحوي وقيل إنه مات بشيراز والله أعلم.

الفصل الثامن

ثالثاً: جغرافية العجائب والغرائب

١ ـ ماذا يُقصد بالعجائب والغرائب.

٢ ـ نماذج من العجائب والغرائب عند:

«ابن خرداذبه ـ ابن الفقيه ـ ابن رسته ـ الدمشقي ـ أبي حامد الغرناطي ـ ناصر خسرو».

٣ ـ خريدة العجائب وفريدة الغرائب.

«الجزر العجيبة ـ عجائب البحر ـ فصل في النباتات والفواكه وخواصها ـ فصل في خواص الحيوانات».

ثالثاً: جغرافية العجائب والغرائب

١ . ماذا يُقصَد بالعجائب والغرائب:

اهتمّ معظم الجغرافيين المسلمين بذكر العجائب والغرائب التي سمعوا عنها أو شاهدوها في بعض الأقطار. وغير خافٍ عنّا أن ذكر الغرائب والعجائب من الأمور التي روّجت كثيراً من الكتب.

عُني الجغرافيون الذين جابوا البلاد بذكر بعض العادات الغريبة التي صادفوها، وذلك حين دوّنوا أسفارهم، ولا تخلو كتاباتهم من المبالغة والمغالاة.

وربّ عادات من التي ذكرها الجغرافيون على أنها عجيبة وغريبة، لا تستحدث عجباً ولا تثير غرابة في أرضها لأنها تمارس بغير وعي وبعفوية تامة، ولأن عين أصحابها قد ألفتها وتواضعت عليها فلم يعد فيها ما يثير أو يدهش أو حتى يلفت النظر، فإذا ما رآها غريب لقيت منه اهتماماً واسترعت مواضع انتباهه ونبّهته إلى ما بين عادات أهله وعادات غيرهم من خلاف[1].

وقد اتخذ بعض الجغرافيين المسلمين من لفظتي العجائب والغرائب عنواناً لكتاب مثل القزويني في كتابه «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» وذلك في القرن السابع الهجري، و «خريدة العجائب وفريدة الغرائب»، لسراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي في القرن الثامن الهجري، و «عجائب المخلوقات» لابن الأثير الجزري.

وقد ذكر القزويني في مقدمة كتابه أنه كان مستغرقاً بالنظر في عجائب صنع الله تعالى في مصنوعاته، وغرائب إبداعه في مبتدعاته كما أرشد الله سبحانه إليه حيث قال تعالى: «أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها

---

(١) محمد عبد الغني حسن، غرائب من الرحلات، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٥٦م، ص ٨، بتصرف.

وزيّنّاها وما لها من فروج»، وليس المراد من النظر تقليب الحدقة نحوها، فإن البهائم تشارك الإنسان فيه، ومَن لم يرَ من السماء إلا زرقتها، ومن الأرض إلا غبرتها فهو مشارك للبهائم في ذلك، وأدنى حالاً منها وأشدّ غفلة كما قال تعالى: «لهم قلوب لا يفقهون بها».. إلى أن قال: «أولئك كالأنعام بل هم أضلّ» والمراد من هذا النظر التفكير في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها ليظهر لها حقائقها.

وقد شرح القزويني العجب بأنه حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه، كما عرف الغريب بأنه كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة(١)، وعلى قدر ما تكون العادة بعيدة عن المألوف بقدر ما تعدّ غريبة، ويختلف مقدار الغرابة باختلاف الناس واختلاف طرُق تفكيرهم ومقدار ثقافاتهم. إن من يتتبّع ما ورد في كتب الجغرافيين المسلمين، يستطيع أن يصنّف هذه الغرائب والعجائب إلى أنواع، منها ما هو وليد الخيال واختراع الوهم، ومنها ما هو مزيج من الواقع والخيال وخليط من الحقائق والأوهام، وقد يروي الجغرافي خبراً صحيحاً ويمزجه بأخبار مخترعة، ويرويها كلها على أنها وقائع ثابتة وأحداث صادقة، وقد أطلق على هؤلاء اسم «الأخباريون»(٢). إن أكثر ما يعجب الناس الغريب، وإذا لم يجدوه اخترعوه، وقد يكون فيما يقولون شيء صحيح، لكنهم يضيفون إليه ليستكملوا العجب.

٢ . نماذج من العجائب والغرائب التي وردت في كتب التراث:

اتجه المسلمون إلى ذكر عجائب الكون منذ أن بدأوا كتابة الجغرافيا. ولقد وصلت إليهم أنباء هذه العجائب عن طريق طاليس الملطي، وبطليموس السكندري، كما وصلتهم عن طريق الآراء الفارسية والهندية، إذ إن الشعوب التي اعتنقت الإسلام كانت تحمل معها تراثها من غرائب وأعاجيب.

---

(١) القزويني، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، مصدر سبق ذكره، ص ٥ـ ٧.

(٢) ذكر السمعاني في كتابه الأنساب «الأخباري» بفتح الألف وسكون الخاء وفتح الباء..... تُنسب هذه التسمية إلى الأخبار، ويقال لمن يروي الحكايات والقصص والنوادر (الأخباري).

وقد ذكر ابن خرداذبه المتوفى في حدود سنة ٣٠٠هـ عجائب طبائع البلدان على النحو التالي[١]:

إن من دخل التبت لم يزل ضاحكاً مسروراً من غير سبب يعرفه حتى يخرج منها، وأنّ من دخل من المسلمين بلاداً في آخر الصين تدعى السيلا بها الذهب الكثير استوطنها لطيبها ولم يخرج منها البتة، ومن أقام بالموصل حولاً وجد في قوته فضلاً بيناً، ومن أقام بقصبة الأهواز حولاً فتفقّد عقله وجده ناقصاً ولا يوجد بها أحد له وجنة حمراء، والحمى بها دائمة، وقد ذكر الجاحظ أن عدّة من قوابل الأهواز خبرنه أنهن ربما قبّلنَ المولود فيجدنه محموماً، وقد جمعت قصبة الأهواز الأفاعي في جبلها الطاعن في منازلها المطلّ عليها، وفي بيوتها العقارب والجرارات القتّالة، وان الطيب يتغيّر بها بعد شهرين وكذلك بانطاكية[٢]. ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ من أن يجرّب، ومن أطال الصوم بالمصيصة في الصيف هاج به المرار الأسود وربما جنّ، ومن سكن البحرين عَظُمَ طحاله. وقد قال الشاعر:

ومن يسكن البحرين يعظم طحاله   ويُحسَد بما في بطنه وهو جائع[٣]

ولهم بسر يسمى النابجي إذا انتُبذ وشُرب، غيّر عرقه البياض حتى يصفرّه، ومن مشى في مدينة رسول الله ﷺ وجد رائحة طيبة عجيبة. وبشيراز من أرض فارس فغمة طيبة. وقالت الحكماء: أحسن الأرض مخلوقة الري ولها السر والسريان، وأحسنها مصنوعة جرجان، وأحسنها مفروقة طبرستان، وأحسنها مستخرجة نيسابور، وأحسن الأرض قديمة وحديثة جنديسابور، ولها حُسن أنهار، ومرو ولها الرزيق الرفيق والماجان، والغوطة ولها الواديان، ومن دام فيها يأكل البصل أربعين يوماً كلف وجهه، ونصيبين ولها الهرماس، والصَّيمرة ولها ما يحوي الحصنان، والبصرة ولها النهران، وفارس ولها شعب بوان، ومستشرف شهرزور وباكرخي ولها من ها هنا بستان...

---

(١) بعض هذه العجائب قد أشار إليها الكتاب في فصول سابقة، لكننا آثرنا جمعها معاً في هذا الفصل.

(٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، مصدر سبق ذكره، ص ص ١٧- ١٧٣.

(٣) يمكن أن تصنّف هذه المعلومات إلى (جغرافيا طبية).

وأنزهها وأجمعها طيباً وحسناً مستشرف سمرقند من جبل السغد، وقد شبّهها حضين بن المنذر الرقاشي فقال: (كأنها السماء للخضرة وقصورها الكواكب للإشراق، ونهرها المجرّة للاعتراض وسورها الشمس للأطباق) وقال قباذ الملك: أجود مملكتي فاكهة المدائن وسابور وارجان والري ونهاوند وحلوان وماسبذان.

ومن عجائب استحالة المياه جبل باليمن ينبع من قلّته ماء فيسيل على جانبه، وقبل أن يصل إلى الأرض يجمد فيصير هذا الشب اليماني الأبيض، وواد بأذربيجان يجري ماؤه ثم يستحجر فيصير صفائح صخر.

وذكر ابن الفقيه بعض العجائب على النحو التالي[1]:

(وقد اختلفوا في الإسكندر، فزعم بعضهم أنه ذو القرنين، وقال آخرون ليس هو ذا القرنين ابن فيلفوس، ولكنه لكثرة جولاته في الأرض وطيّه الأقاليم، شبّهه من لا علم له بذي القرنين، وبينه وبين ذي القرنين المعمر صاحب سد يأجوج ومأجوج، وباني مدينة مرو ومنارة الإسكندرية المركّزة على سرطان من زجاج وباني مدينة البهت بالمغرب، وتُعرف بالبها، وهي مبنية من حجر يسمى حجر البهت، من تطلّع فيها تاهَ واستغرب ضحكاً حتى يتلف نفسه... وذو القرنين المعمّر هو الذي وقف على صاحب الصوَر حين دخل الظلمات وبلغ مكاناً لم ينفذ وراءه فصوّر فرساً من نحاس عليه فارس من نحاس ممسك على عنان فرسه بيسرى يديه ومادّاً يده اليمنى مكتوب فيها بالحميرية: ليس ورائي مسلك فهذا عمّر عمراً طويلاً حتى عاش سبع مائة سنة وأُوتي من كل شيء سبباً ورُفع إلى السماء، وكان يسمى عياشاً، والرومي عمّر عمراً قليلاً وكانت سيرته أخبث سيرة.

وقال عطاء بن أبي خالد المخزومي كانت الإسكندرية بيضاء تضيء بالليل والنهار، فكانوا إذا غربت الشمس لم يخرج منهم واحد من بيته، ومن خرج اختُطف، وكان لهم راعٍ يرعى الغنم على شاطيء البحر وكان يخرج من البحر شيء فيأخذ من غنمه، فكمن له الراعي في بعض المواضع حتى

(١) ابن الفقيه الهمذاني، مختصر كتاب البلدان، مصدر سبق ذكره، ص ١٣٤.

خرج، فإذا جارية، فتشبّث بشعرها ومانعته، فذهب بها إلى منزله فآنست بهم فرأتهم لا يخرجون بعد غروب الشمس فسألتهم عن ذلك فأخبروها أن من خرج في ذلك الوقت اختطف فعملت لهم الطلمسات وكانت أول من وضع الطلمسات بمصر.

ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: (عجائب الدنيا أربعة مرآة معلّقة بمنارة الإسكندرية كان يجلس الجالس تحتها فيرى مَن بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر، وفرس نحاس عليه راكب من نحاس بأرض الأندلس باسط يده رافعها عليه مكتوب ليس خلفي مسلك ولا يطأ تلك البلاد أحد إلا ابتلعه النمل، ومنارة من نحاس بأرض عاد عليها راكب من نحاس فإذا كان الأشهر الحرم هطل منه الماء فشربوا منه وسقوا وصبوا في الحياض والآبار فإذا انقضت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء، وشجرة من نحاس عليها سودانية من نحاس بأرض رومية فإذا كان أوان الزيتون صفرت السودانية التي من نحاس فتجيء كل سودانية من الطيارات بثلاث زيتونات، زيتونة في منقارها وزيتونتان في رجليها حتى تلقيها على الشجرة فيعصر أهل رومية ما يكفيهم لادامهم وسرجهم إلى قابل. وبعين شمس من أرض مصر، بقايا أساطين كانت هناك في رأس كل أسطوانة طوق من نحاس يقطر من أحدهما ماء من تحت الطوق إلى نصف الأسطوانة لا يجاوزه ولا ينقطع قطره ليلاً ولا نهاراً فموضعه من الأسطوانة أخضر ولا يصل الماء إلى الأرض وهو من بناء هوشنك، وبالاسكندرية موضع فيها سوار وأساطين من حجارة من بقية بناء قديم وفيها سارية تُعرف بسارية سليمان، فيها أعجوبة، وذلك أن الرجل فيها يجيء إليها ومعه زجاج أو خزف أو غير ذلك فيلقيه على السارية، ويقول بحق سليمان ابن داود إلا انكسرت فيتفتت الزجاج والخزف، وليس هذا إلا في هذه السارية وإن لم يقل بحق سليمان لم ينكسر. وبمصر منف مدينة فرعون لها سبعون باباً وحيطان المدينة من حديد وصفر وفيها كانت الأنهار التي تجري من تحته أربعة.

وقد تناول ابن رسته ذكر عجائب الأرض فقال:

قال عبد الله بن عمرو بن العاص عجائب الدنيا أربع[1]:

الأعجوبة الأولى: مرآة كانت معلّقة بمنارة الإسكندرية فكان الجالس يجلس تحتها ويرى مَن بالقسطنطينية وبينهما عرض البحر.

الأعجوبة الثانية: فرس من نحاس بأرض الأندلس عليه رجل من نحاس قائل بكفّيه كذا باسط يده أي ليس خلفي مسلك فلا يطأ خلفه أحد إلا ابتلعته النمل.

الأعجوبة الثالثة: منارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد، فإذا كانت الأشهر الحرم، هطل منها الماء فشرب منه الناس وسقوا دوابهم وصبّوا في الحياض، فإذا انقضت الأشهر الحرم انقطع ذلك الماء (خرافات).

الأعجوبة الرابعة: شجرة من نحاس عليها زرزورة من نحاس بأرض الرومية، إذا كان أوان الزيتون صفرت الزرزورة التي من نحاس فتجيء كل زرزورة من الطيارات بثلاث زيتونات، زيتونتين برجليها وزيتونة بمنقارها حتى تلقيها على فم تلك الزرزورة فيعصرها أهل الرومية فيكفيهم لآدامهم وسرجهم إلى قابل (أي للموسم القادم) (خرافات)[2].

وذكر ابن رسته أنه روى عن الإسكندرية أنها بُنيت في ثلثمائة سنة، وأن أهلها مكثوا سبعين سنة لا يمشون فيها بالنهار إلا بخِرَق سود، مخافة على أبصارهم من شدّة بياض حيطانها ومنارتها العجيبة على سرطان من رخام في البحر.

وقد ذكر ابن رسته بعض الأمور المألوفة على أنها من العجائب، وهي سمكة الرعادة، مَن مسّها وجد خدراً في كفّه، ويده وذراعه ما دامت حيّة، فإن صبر ازداد ذلك حتى ترتعد يده وعضده، ويضطرب ويخفق قلبه ولا يقدر أن يمسكها بتة.

---

(١) هي نفس العجائب التي ذكرها ابن خرداذبه على لسان عبد الله بن عمرو بن العاص مع اختلاف بسيط.

(٢) ابن رسته، مصدر سبق ذكره، ص ص ٧٨ - ٨١ .

ومن الخرافات التي ذكرها ابن رسته أن في مكان من النيل موضعاً يجتمع إليه في يوم ما بعينه من السنة السمك الكثير ويخرج إليه أهل ذلك البلد يصيدونها بأيديهم لا تنفر عنهم بتة ولا تنتحي عن الأخذ، حتى إن الرجل ليأخذ حاجته من ألف إلى ما شاء، فإذا غابت الشمس في ذلك اليوم، لم يقدر على واحدة من تلك السمك بتة إلى ذلك اليوم من السنة المقبلة، ثم تكون الحالة كما كانت[1].

واحتوى كتاب الدمشقي بعض العجائب على النحو التالي[2]:

يذكر الدمشقي أن من المباني العجيبة العظيمة، سدّ ذي القرنين الذي بناه على يأجوج ومأجوج وصفته، ما حكاه أحمد بن سهل البلخي أن مكانه جبل أملس مقطوع بوادٍ عرضه ماية وخمسون ذراعاً، وفي جنبتي الوادي عضادتان مبنيتان عرض كل عضادة خمسة وعشرون ذراعاً، وكل ذلك بلبن من حديد ونحاس، وعلى العضادتين دروند من حديد، طرفاه في العضادتين، طوله ماية وعشرون ذراعاً، فوق الدروند بناء بذلك اللبن الحديد المغموس في النحاس إلى رأس الجبل وارتفاعه مد البصر، وفوق ذلك شرفات من حديد، في طرف كل شرافة قرنان ينثني كل واحد منهما إلى صاحبه، وبين العضادتين باب من الحديد بمصراعين كل مصراع خمسون ذراعاً في خمسة أذرع، وعلى الباب قفل طوله خمسة أذرع في غلظ باع في الاستدارة، وارتفاع القفل من الأرض خمسة وعشرون ذراعاً في تركيبه وعتبة الباب عشرة أذرع بطول ماية ذراع سوى ما تحت العضادتين وطول كل لبنة ذراع ونصف، في مثله وسمكها نصف ذراع، وقد ألصق الصدى بعضها ببعض وجعل ذو القرنين على السدّ حرّاساً وتماثيل من حديد ونحاس كأمثالهم، ولهنّ خوار يسمع من بعيد وله ترتيب محكّم مثل ترتيب الحرس، وهو محيط بيأجوج ومأجوج، وهو عشرة أجبل شواهق ليس فيه مسلك للمعز فضلاً عن

---

(١) ابن رسته، المصدر السابق، ص ٨٢.

(٢) شمس الدين أبو عبد الله الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، ص ٢٦.

الإنسان، ولا يوجد منها بناء ولا ما يتحمل به الإنسان تقوّتاً، وذلك هو السبب المانع من الدخول إليهم ومن خروجهم إلينا حتى يأتي أمر الله ووعده فيتحوّل السدُّ دكاء وكان وعد الله حقاً كما أخبر الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز.

ومن المباني العظيمة أيضاً، السور الذي بناه قباد بن فيروز، بناه باللّبن المحكّم بالتفخير، وجعله مستنداً من أرض شروان إلى اللان، بينهما ماية فرسخ، ووصل به شعاب جبل القبق، وهو جبل عظيم قد اشتمل على طوائف وأمم يكون مسافته طولاً وعرضاً نحو شهرين، ومبدأ السور من جوف بحر الخزر على مسافة ميل مارًّا إلى البرّ وإلى صحن طبرستان، وجعل بين كل ثلاثة أميال باباً، والباب من حديد، وجعل على كل باب حصناً، وأسكن فيه من يحط ذلك الباب والذي دعاه إلى بناء هذا، غارات كانت تغارها الخزر على بلاد فارس إلى أن تبلغ همدان والموصل وتعمّ البلاد بالعبث والفساد والله أعلم.

ومن مشهور بناء العرب قصر غمدان بصنعاء، يقال إن الذي بناه يعرب ابن قحطان، وأن المكمّل لبنائه بعده وابل بن حمير بن سبأ، وكانت صفته قصر مربّع مبنيّة أركانه بالرخام الملوّن وله سقوف طباق ما بين السقف إلى السقف خمسون ذراعاً وطوله في الهواء نحو ثلثمائة ذراع، وفي كل ركن من أركانه تمثال أسد مجوّف مفتوح الفم والمؤخر، والهواء يدخل مؤخره ويخرج من فمه فيُسمع له إذا هبَّ الهواء زئير مثل زئير الأسد. ويُقال أيضاً إن الباني له في أول الأمر كان بيوراسف، بناه هيكلاً للزهرة أخربه عثمان بن عفان، رضي الله عنه في أول خلافته عملاً بقول عمر بن الخطاب في أيام خلافته «لا أفلحت العرب ما دام فيها غمدانها» ويقال إن الضحاك، المعروف بازدهاك، بناه على اسم الزهرة، ثم كان مسكناً لسيف بن ذي يزن أحد ملوك حمير، وهو المعني بقول أمية بن أبي الصلت:

فأشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعا   في قصر غمدان داراً منك محلالا

ومن المباني العظيمة القديمة، الأهرام بمصر، حماها الله وحرسها بعينه

التي لا تنام وجعلها دار الإسلام إلى يوم القيامة. أمين يا رب العالمين. وهي أهرام عظيمة كبيرة أعظمها الهرمان اللذان بالجيزة من مصر. ذكر أهل التاريخ أنها بُنيت قبل الطوفان، بناها سهلوق بن شرياق، ويقال، هرمس المثلث بالحكمة، وهو إدريس، أخنوع بالعبرانية، وأن السبب الموجب لبنائها استدلال هرمس بالأحوال الكوكبية على حدوث الطوفان، فأمر ببنائها وإبداعها، وهذان الهرمان كل واحد منهما مربّع القاعدة، مخروط الشكل، ارتفاع عموده ثلثمائة ذراع وسبعة عشر ذراعاً يحيط بها أربعة سطوح متساويات الأضلاع، وأضلاع الجوانب كل ضلع منها أربعمائة ذراع وستون ذراعاً، وهو من هذا العظم من إتقان الصنعة وأحكامها، ومن حسن الهندام بحيث أنها لم تتغيّر ولا تؤثر فيها الأمطار والزلازل، وهذا البناء ليس بين محارته ملاط إلا ما يتخيّل أنه ثوب أبيض فُرِشَ بين حجرتين، ولا يتخلل بينهما الشعر وطول الحجر منها خمسة أذرع في عرض ذراعين، ويقال إن بانيها جعل لها آزاجاً على آزاج وعليها أبواب مبنيّة بالحجارة في صورة باقي البناء، وإن طول كل أزج عشرون ذراعاً وكل باب من حجر واحد يدور بلولب، إذا أطبق لم يعلم أنه باب، ومنها أزج في ناحية الجنوب، وأزج في ناحية الشرق، وأزج في الغرب، يدخل من كل باب منها إلى سبعة بيوت، كل بيت منها على اسم كوكب من الكواكب السبعة وكلها مقفلة، وحذاء كل بيت منها صنم من ذهب مجوّف إحدى يديه على فيه، وفي جبهته كتابة بالمسند إذا قربت انفتح فوه فيوجد فيه مفتاح ذلك القفل فيفتح به، والقبط تزعم أنهما والهرم الصغير قبور.

وذكر الدمشقي أن أعجب جزائر بحر اليمن جزائر ديبجات أهلها سود شديد سوادهم، وكل ما عندهم أسود، من تراب وحجارة ودواب حتى إن قصب السكر عندهم أسود، وغالب النبات عندهم خضرته إلى السواد، وكذلك الذرة سوداء والكافور[1].

ومن الذين بالغوا في ذكر العجائب الغريبة والخرافية في كثير من الأحيان

---

(١) الدمشقي، المصدر السابق، ص ص ١٦٢- ١٦٤.

«أبو حامد الغرناطي»[1]: وقد ذكر الغرناطي وصفاً لطريق في الرمل سار فيه ثعبان بقوله:

(كان مثل النهر عريضاً عميقاً وأن عرضه كان ٢٩ ذراعاً)[2].

ويقول إنه رأى بطيخاً هنديا في كل واحدة منها مائة مَنْ (والمن المصري كان وزنه إلى سنة ١٤١٤م ٨١٢،٥ جراماً)، ومعنى ذلك أن البطيخة التي رآها بمصر وزنها يزيد على ٨١ كيلو جراماً، وكان الجمل القوي يحمل اثنتين منها فقط!

وفي كلامه عن أردبيل، يتحدّث عن حجر كبير أسود موضوع في ميدان البلد (أسود له طنين كالفولاذ، له محك القلعي الرصاص، وهو على صورة كلية البقرة، فيه أكثر من مائتي مَنْ). ويقول إن هذا الحجر يستدرّ المطر، وقد ذكر الحجر ووصفه بنفس الوصف جغرافيون عرب آخرون مثل الإدريسي وأبي الفدا وياقوت، ورسم أبو حامد هذا الحجر بيده.

ويذكر أبو حامد عن الأندلس وطنه، أن موسى بن نصير وجد فيها جباباً من النحاس لها أغطية من الرصاص مختومة. فأمر الأمير موسى ففتح منها جباً واحداً، فخرج من ذلك الجبّ فارس كأنه من الذهب، وفرسه ورمحه أيضاً من الذهب في رؤية العين، وطار في الهواء وهو يقول: يا نبي الله لا أعود! وفتح جباً آخر فخرج منه فارس على فرس بيده رمح كأنه لهب النار، وطار في الهواء وهو يقول: يا نبي الله لا أعود.

ويذكر أبو حامد أن الجن بنت طليطلة لسليمان، وكذلك سرقسطة التي يذكرها باسم المدينة البيضاء ويقول: وفي رستاقها نوع من العنب وزن الحبّة الواحدة منها عشرة مثاقيل (أي ٤٥ جراما)، ثم يذكر تفاح شنترة ويقول: إن محيط التفاحة ثلاثة أشبار (نحو ٦٠ سنتيمتراً).

---

(١) أبو حامد أبو عبد الله بن عبد الرحيم المازني القيسي الغرناطي، وُلد بغرناطة سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م.

(٢) حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مصدر سبق ذكره، ص ٣١٠.

وعموماً، فإن أبا حامد من أول الجغرافيين الذين أسرفوا في الوجهة العجائبية حتى أصبحت كتبهم وكأنها أساطير ألف ليلة وليلة. وكأنما أراد أبو حامد تسلية الناس، وقد كتب ما تيسّر له استجابةً لما كان الناس يميلون إليه من أحاديث المستحيلات.

ويبرّر حسين مؤنس إتجاه أبي حامد إلى العجائب، بأنه كان ابن عصره، والناس في كل زمان ومكان أبناء عصورهم[١]. ويقول إن نفس التيار الذي جعل الجغرافيا في يد أبي حامد علم عجائب، هو نفس التيار الذي جعل الكثير من كتب التاريخ مدائح ملوك، ودواوين الشعر مجموعات محسنات وتزاويق لفظية.

وقد تطرّق ناصر خسرو إلى ذكر بعض العجائب لكنه لا يصرّح بأنه شاهد هذه العجائب، بل يميل إلى قول عبارات عامة مثل، حكى لي رجل اعتُمد على قوله حيث يقول:

(وقد حكى رجل اعتُمد على قوله من مدينة عيذاب قال: (كنت في سفينة محمّلة بالجِمال لأمير مكة، فمات جمل منها فرموه في البحر فابتلعته سمكة في الحال، ولم يبقَ خارج فمها غير رجله، فجاءت سمكة أخرى وابتلعت هذه السمكة بالجمَل، ولم يظهر عليها أي أثر من ذلك. ويسمى هذا السمك القرش)[٢].

٣ ـ خريدة العجائب وفريدة الغرائب

لعل أبرز من كَتَب عن العجائب والغرائب هو سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي (٦٨٩ـ ٧٤٩هـ) وذلك في كتابه «خريدة العجائب». ومن العجائب التي ذكرها:

---

(١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٣٤٠.

(٢) ناصر خسرو، سفر نامة، مصدر سبق ذكره، ص ١١٩.

يحكي: أن عاملاً من عمال العرب جار على قوم من الأعراب فهربوا من عنفه وجوره ودخلوا صحراء الغرب ومعهم من الزاد ما يكفيهم مدة، فسافروا يوماً أو بعض يوم فدخلوا جبلاً فوجدوا فيه عنزاً كثيراً، وقد خرجت من بعض شعاب الجبل فتبعوها فنفرت منهم، فأخرجتهم إلى مساكن وأنهار وأشجار ومزارع، وقوم مقيمون في تلك الناحية قد تناسلوا وهم في أرغد عيش وأنزه مكان، وهم يزرعون لأنفسهم ويرفعون ما يزرعون بلا خراج ولا مقاسمة ولا طلب، فسألوهم عن حالهم فأخبروهم أنهم لم يدخلوا إلى بلاد العرب ولا عرفوها، فرجع هؤلاء القوم الذين هربوا من العامل إلى أولادهم وأهاليهم ودوابهم فساقوهم ليلاً وخرجوا بهم يطلبون ذلك المكان فأقاموا مدة طويلة يطوفون في ذلك الجبل فلم يقفوا لهم على أثر ولا وجدوا لهؤلاء من خبر[1].

جزيرة رامي[2]:

تُحكي أن بهذه الجزيرة الكركدن، وهو حيوان على شكل الحمار، إلا أن على رأسه قرناً واحداً، وهو معقف وفيه منافع كثيرة، منها أنه يُصنع منه أنصبة لسكاكين الملوك وتُحطُّ على المائدة، فإن كان الطعام مسموماً عرق ذلك النصاب واختلج. ويُصنع منه حلية للمناطق تبلغ قيمة المنطقة المحلاة بقرن الكركدن أربعة آلاف مثقال من الذهب، وأكثر هذه المناطق تعمل ببلاد الصين، وفي رقبة هذا الحيوان اعوجاج كاعوجاج رقبة الجمَل أو دونه، وبهذه الجزيرة جواميس بغير أذناب وبها شجرالكافور والبقر والخيزران، وعرقه دواء من سم الحيات والأفاعي، وبها طيبٌ عطر ومعادن كثيرة.

---

(١) سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي، خريدة العجائب وفريدة الغرائب، مطبعة الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ص ٢٨.

(٢) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٠٢.

جزيرة الرخ[1]:

وهذا الرخ الذي تُعرف به هذه الجزيرة، طير عظيم غريب، مهول الهيئة، حتى قيل إن طول جناحه الواحد نحو عشرة آلاف باع، ذكر ذلك الحافظ ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في كتابه المسمى بـ «كتاب الحيوان». وكان قد وصل إليه رجل من أهل الغرب مما سافر إلى الصين وأقام به وبجزائره مدة طويلة وحضر بأموال عظيمة، وأحضر معه قصبة ريشة من جناح فرخ الرخ، وهو في البيضة لم يخرج منها إلى الوجود، فكانت تلك القصبة من ريش ذلك الفرخ تسع قربة ماء، وكان الناس يتعجبون لذلك، وكان هذا الرجل يُعرَف بالصيني لكثرة إقامته هناك، واسمه عبد الرحمن المغربي، وكان يحدّث بالغرائب: منها ما ذكر: أنه سافر في بحر الصين فألقتهم الريح في جزيرة عظيمة كبيرة واسعة، فخرج إليها أهل السفينة ليأخذوا الماء والحطب ومعهم الفؤوس والحبال والقِرَب وهو معهم، فرأوا في الجزيرة قبّة عظيمة بيضاء لمّاعة برّاقة أعلى من مائة ذراع فقصدوها ودنوا منها، فإذا هي بيضة الرخ، فجعلوا يضربونها بالقوس والصخور والخشب حتى انشقّت عن فرخ الرخ كأنه جبل راسخ، فتعلّقوا بريشة من جناحه واجتذبوها فنُتفت تلك الريشة من أصل جناحه، ولم تكمل خلقة الريش فقتلوه، قال وحملوا ما أمكنهم من لحمه وقطعوا أصل الريش من حدّ القصبة ورحلوا، وكان بعض من دخل الجزيرة قد طبخ من اللحم وأكل، وكان فيهم مشايخ بيض اللحى، فلما أصبح المشايخ وجدوا لحاهم قد اسودّت ولم يشب بعد ذلك أحد من القوم الذين أكلوا، فكانوا يقولون، إن العود الذي حرّكوا به ما في القدر من لحم الرخ كان من شجرة الشباب والله أعلم، قال: فلما طلعت الشمس والقوم في السفينة وهي سائرة بهم إذ أقبل الرخ يهوي كالسحابة العظيمة وفي رجليه قطعة جبل كالبيت العظيم وأكبر من السفينة، فلما حاذى السفينة من الجوّ ألقى ذلك الحجر عليها وعلى مَن بها، وكانت السفينة مسرعة في الجري فسبقت الحجر

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٠٢.

فوقع الحجر، وكان لوقوعه هول عظيم في البحر، وكتب لنا الله بالسلامة ونجّانا من الهلاك.

جزيرة القرود[1]:

وهي جزيرة كبيرة وبها غياض وقرود كثيرة، وللقرود ملك تنقاد إليه ويحملونه على أكتافهم وأعناقهم وهو يحكم عليهم حكماً لا يظلم به أحدٌ أحداً، ومن وصل إليهم في المراكب عذّبوه بالعضّ والخمش والرَّجم، ويتحيّل عليهم أهل جزيرة خرتان ومرتان فيصيدونها ويبيعونها بالثمن الغالي، وأهل اليمن يرغبون فيها ويتّخذونها في حوانيتهم حرّاساً كالعبيد، وهم في غاية الذكاء.

جزيرة واق واق:

وهي جزيرة كبيرة وعندهم ذهب كثير بلا وصف، حتى إنهم يتخذون سلاسل الكلاب والدواب من الذهب. وأما أكابرهم فيصنعون لِبْناً من الذهب ويبنون به قصوراً أو بيوتاً بإتقان وإحكام. ومن جزائرها جزيرة (البنان) بها قوم عراة الأبدان بيض الألوان حسان الصوَر، يأوون إلى رؤوس الأشجار ويتصيّدون الناس فيأكلونهم. وراء هذه الجزيرة جزيرتان عظيمتان فيهما قوم عظام الأجسام حسان الوجوه سود الألوان، شعورهم مسلسلة مختلفة وأقدامهم أطول من ذراع، لهم أخلاق صعبة عادية، وهذه الجزيرة متصلة بالزنج، والسير إليها بالنجوم، وهي ألف وسبعمائة جزيرة عامرة، والذهب بها كثير، وملكة هذه الجزائر إمرأة تسمى دمهرة، وتلبس حلّة منسوجة بالذهب ولها نعلان من ذهب، وليس يمشي في هذه الجزائر أحد بنعل غيرها، ومتى لبس غيرها نعلاً قَطَعت رجليه، وتركب مع عبيدها وجيوشها بالفيلة والرايات والطبول والأبواق والجواري الحسان، ومسكنها جزيرة تسمى أنبوبة، وأهل هذه الجزيرة حذّاق

(١) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٠٣.

بالصنائع، حتى إنهم ينسجون القمصان قطعة واحدة بأكمامها وأبدانها، ويعملون السفن الكبار من العيدان الصغار، ويعملون بيوتاً من الخشب تسير على وجه الماء، هذا ما نقله الجواليقي. وبهذه الجزيرة شجر يحمل ثمراً كالنساء بصوَر وأجسام وعيون وأيدٍ وأرجل وشعور..... وهنّ معلّقات بشعورهن يخرجن من غلف كالأجربة الكبار، فإذا أحسسن بالهواء والشمس يصحنَ واق واق حتى تنقطع شعورهن، فإذا انقطعت ماتت. وأهل الجزيرة يفهمون هذا الصوت ويتطيّرون منه... وأرضهن أطيب الأراضي وأكثرها عطراً وطيباً، وبها أنهار أحلى ماء من العسل والسكّر المذاب، وليس بها أنيس ولا عامر إلا الفيلة، وربما بلغ ارتفاع الفيل في هذه الجزيرة أحد عشر ذراعاً، وبها من الطير شيء كثير، وليس يعلم ما وراء هذه الجزيرة إلا الله تعالى، ويخرج من بعض هذه الجزائر سيل عظيم كالقطران يصبّ في البحر فيحرق السمك في البحر فيطفو على الماء.

جزيرة السحاب:

وهي جزيرة كبيرة، وسمّيت بهذا الاسم لأنه يطلع عليها سحاب أبيض ويعلو على المراكب في البحر، ويخرج منه لسان طويل دقيق مع ريح عاصف حتى يلتصق ذلك اللسان بالبحر فيغلي البحر كالقدر الفائر ويضطرب كالزوبعة الهائلة، فإذا أدرك المراكب ابتلعها[1]، وبهذه الجزيرة تلول إذا أُضرمت فيها النار سالت منها الفضة الخالصة.

جزيرة النساء:

وهي جزيرة عظيمة وليس بها رجل أصلاً، ذكروا أنهن يلقحن من الريح ويلدن نساء مثلهن (خرافات)، وقيل إن بأرض تلك الجزيرة نوعاً من الشجر فيأكلن منه فيحملن، وأن الذهب في أرضها عروق كعروق الخيزران، وترابها كله ذهب ولا التفات للنساء إلى ذلك.

---

(١) ربما يقصد بذلك زوابع التورنادو.

وذكر بعضهم: أن رجلاً ساقه الله إلى تلك الجزيرة فأردن قتله، فرحمته امرأة منهنّ حملته على خشبة وسيّبته في البحر، فلعبت به الأمواج فرسته في بعض بلاد الصين، فأخبر ملك تلك الجزيرة بما رأى من النساء وكثرة الذهب، فوجّه مراكب ورجالاً معه فأقاموا زمناً طويلاً في البحر يطوفون على تلك الجزيرة فلم يقعوا لها على أثر.

واما عجائب البحر فمنها[1]:

سرطانات قدر كل واحد كالترس الصغير، يخرج من الماء بسرعة حركة، فإذا سار في البرّ انعقد حجراً في الحال.

ومنها حيّات عظام تخرج من البحر فتبتلع الفيل العالي الهائل وتنطوي على شجرة عظيمة تجذبها، أو على صخرة عظيمة فتنكسر عظام الفيل في بطنها ويُسمع تعقعة ذلك على بُعد.

جزيرة العباد:

وهي جزيرة عظيمة دخلها ذو القرنين فوجد بها قوماً قد أنحلتهم العبادة حتى صاروا كالحمم السود، فسلّم عليهم، فردُّوا عليه السلام، فسألهم ما عيشكم يا قوم في هذا المكان؟ فقالوا: ما رزقنا الله تعالى من الأسماك وأنواع النباتات، ونشرب من هذه المياه العذبة، فقال لهم: ألا أنقلكم إلى عيشة أطيب مما أنتم فيه وأخصب، فقالوا له: وما نصنع به، إن عندنا في جزيرتنا هذه ما يغني جميع العالم ويكفيهم لو صاروا إليه وأقبلوا عليه، قال وما هو؟ فانطلقوا به إلى وادٍ لا نهاية لطوله وعرضه يتقد من ألوان الدرّ والياقوت والبهرمان الأصفر والأزرق والزبرجد والبلخش والأحجار التي لم ترَ في الدنيا والجواهر التي لا تقوم، ورأى شيئاً لا تحمله العقول ولا يُوصف بعضُ بَعضِه، ولو اجتمع العالم على نقل بعضه لعجزوا. فقال: لا إله إلا الله،

---

(١) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٠٩.

سبحان مَن له الملك العظيم، ويخلق الله ما لا تعلمه الخلائق، ثم انطلقوا به من شفير ذلك الوادي حتى أتوا به إلى مستوى واسع من الأرض لا تنهيه الأبصار، به أصناف الأشجار وأنواع الثمار وألوان الأزهار وأجناس وخرير الأنهار وأفياء وظلال ونسيم ذو اعتلال ونزُه ورياض وجنّات غياض. فلما رأى ذو القرنين ذلك سبّح الله العظيم واستصغر أمر الوادي وما به من الجوهر عند ذلك المنظر البهيج الزاهر، فلما تعجّب من ذلك قالوا له: أفي مُلْكِ مَلِكٍ في الدنيا بعض بعض ما نرى؟ قال: لا، وحقّ عالم السرّ والنجوى، فقالوا: كل هذا بين أيدينا ولا تميل أنفسنا إلى شيء من ذلك، وقنعنا بما نقوى به على عبادة الرب الخالق، ومن ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه، فسِرْ عَنّا ودعنا بحالنا أرشدنا الله وإياك، ثم ودّعوه وفارقوه، وقالوا له: دونك والوادي فاحمل منه ما تريد، فأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً.

جزيرة العور[1]:

وهي جزيرة كبيرة، حكى يعقوب بن إسحق السراج، قال: قال لي رجل من أهل روسية، ركبت في هذا البحر فألقتني الريح في هذه الجزيرة، فوصلت إلى مدينة أهلها قاماتهم طولها ذراع، وأكثرهم عور، فاجتمع علي منهم جمع وساقوني إلى ملكهم فأمر بحبسي في قفص فكسرته، فأمنوني وتركوا الإحتجاز علي، فلما كان في بعض الأيام رأيتهم قد استعادوا للقتال فسألتهم عن ذلك، فقالوا: لنا عدوّ يأتينا في كل سنة ويحاربنا، وهذا أوانه، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلعت علينا عصابة من الطيور والغرانيق، وكأن ما بهم من العور من نقر الغرانيق، فحملت الطيور عليهم وصاحت بهم، فلما رأيت ذلك شددت وسطي وأخذت عصاً وشددت عليها وحملت عليهم وصحت فيهم صيحة منكرة ورميت منهم جماعة فصاحوا وطاروا هاربين مني، فلما رأى أهل الجزيرة ذلك أكرموني وعظّموني وأفادوني مالاً وسألوني الإقامة عندهم، فلم أفعل، فحملوني في مركب وجهّزوني.

---

(١) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٢٦.

وذكر أرسطاطاليس أن الغرانيق تنتقل من بلاد خراسان إلى بلاد مصر حيث مسيل النيل فتقاتل أولئك العور في طريقهم، وهو قوم في طول ذراع.

جزيرة صقلية[1]:

وهي جزيرة عظيمة بها أنهار وثمار ومزارع، وبها جبل يُقال له جبل البركان، يظهر منه في النهار دخان وبالليل نار، يطير منه شرر إلى البحر فتصير حجارة سوداء مثقبة تحرق كل شيء صادفته وتطفو على وجه الماء، ويأخذها الناس فيستعملونها في الحمّامات لحدة الأرجل.

الجزيرة السيارة:

أخبر البحريون أنهم رأوها مراراً كثيرة، فيها أشجار وعمارات وجبال، كلما هبّت الريح عليها من المغرب سارت لنحو المشرق، وكلما هبّت من المشرق سارت لنحو المغرب، وحجارتها خفاف، فترى الحجر فتظنّ أنه قنطار فيكون رطلاً واحداً.

الدرّ واللؤلؤ[2]:

يتكوّن في بحر الهند وفارس، وزعم البحريون أن الصدف الدري لا يكون إلا في بحر تصبّ فيه الأنهار العذبة، فإذا أتى الربيع كثُر هبوب الريح في البحر، وارتفعت الأمواج، واضطرب البحر، فإذا كان الثامن عشر من نيسان خرجت الأصداف من قعور هذه البحار ولها أصوات وقعقعة، وبوسط كل صدفة دويبة صغيرة، وصفحتا الصدفة لها كالجناحين وكالسور تتحصّن به من عدوّ مسلّط عليها، وهو سرطان البحر، فربما تفتح أجنحتها لشمّ الهواء فيُدخِلُ السرطان مقصّه بينهما ويأكلها، وربما يتحيّل السرطان في أكلها بحيلة

---

(١) ابن الوردي، ص ١٢٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧.

دقيقة، وهو أنه يحمل في مقصّه حجراً مدوّراً كبندقية الطين، ويراقب دابة الصدف حتى تشقّ عن جناحيها فيلقي السرطان الحجر بين صحفتي الصدفة فلا تنطبق فيأكلها.

ففي الثامن عشر من نيسان لا تبقى صدفة في قعور البحر المعروفة بالدرّ واللؤلؤ إلا صارت على وجه الماء وتفتّحت حتى يصير وجه البحر أبيض كاللؤلؤ، وتأتي سحابة بمطر عظيم، ثم تنقشع السحابة وقد وقع في جوف كل صدفة ما قدّر الله من القطر، إما قطرة واحدة وإما اثنتان وإما ثلاثة، وهلمّ جرا، إلى المائة والمائتين. وفوق ذلك تنطبق الأصداف وتلتحم، وتموت الدابة التي كانت في جوف الصدفة في الحال، وترسب الأصداف إلى قرار البحر وتلتصق به، وينبت لها عروق كالشجرة في قرار البحر حتى لا يحركها الماء فيفسد ما في بطنها، وتلتحم صفحتا الصدفة التحاماً بالغاً حتى لا يدخل إلى الدر ماء البحر فيصفره، وأفضل الدرّ المتكوّن في هذه الأصداف، القطرة الواحدة ثم الاثنتان ثم الثلاثة، وكلما كثُر العدد كان أصغر جسماً وأخسّ قيمة، وكلما قلّ العدد كان أكبر جسماً وأعظم قيمة، والمتكوّن من قطرة واحدة هي الدرة اليتيمة التي لا قيمة لها، والأخريان بعدها. فالصدفة تنقلب إلى ثلاثة أطوار في طور الحجرية، ولذلك غاصت إلى القرار، وهذا طبع الحجر، وهو الطور الثاني. وفي الطور الثالث، وهو الطور النباتي تشرّس في قرار البحر وتمتدّ عروقاً كالشجرة، ذلك تقدير العزيز العليم، ولمدة حمله وانعقاده وقت معلوم، وموسم يجتمع فيه الغوّاصون لاستخراج ذلك، هذا هو البحر. وأما في البرّ، ففي الثامن عشر من نيسان في كل عام، تخرج فراخ الحيّات التي وُلدت في تلك السنة وتسير من بطن الأرض إلى وجهها، وتفتح أفواهها كالأصداف في البحر نحو السماء، كما فتحت الأصداف جوفها، فما نزل من قطر السماء في فمها أطبقت فمها عليها ودخلت في جوف الأرض، فإذا تمّ حمل الصدف في البحر لؤلؤاً ودار، صار ما دخل في فم فراخ الحيات داءً وسماً. فالماء واحد والأوعية مختلفة والقدرة صالحة لكل شيء، وقد قيل في هذا المعنى:

أرى الإحسان عند الحرّ ديناً وعند النذل منقصة وذماً
كقطر الماء في الأصداف درٌّ وفي جوف الأفاعي صار سماً

ثم تحدّث ابن الوردي عن بعض الأحجار الكريمة الأخرى مثل[1].

(البلغس) هو حجر صلب شفّاف كالياقوت في جميع أحواله ومنافعه.

(الدهنج) هو أخضر كالزبرجد ليّن المجس، يتكوّن في معدن النحاس وهو أنواع كثيرة. ومن عجيب أمره أنه يصفو بصفاء الجوّ ويتكدّر بكدورته من عجيب أمره أيضاً أنه إذا سُقيَ الإنسان من محكه فعلَ فعلُ السمّ، وإذا سُقيَ منه شارب السمّ نفعه، وإذا مُسح به موضع اللدغة برأ، ويُطلى بحكاكته البرَص فيزيله، وينفع من خفقان القلب ويهيّج على حامله شهوة الجماع.

(الزبرجد) هو حجر أخضر شفاف يشبه الياقوت الأخضر وليس كقوّته ولا فعله ولا قيمته.

(الزمرد) هو حجر أخضر شفاف يدخل في معالجة أدوية من سُقي السمّ، وفي أكحال بياض العين، وحمله يقطع نزف الدم، ووضعه في الفم يقطع عطش الماء ويبرّد حرارة القلب (ومنه) جنسٌ يُقال له الذبابي.

فصل في النباتات والفواكه وخواصها[2]

حكى المسعودي أن آدم ـ عليه السلام ـ لما أهبط من الجنة، خرج ومعه ثلاثون قضيباً مودعة أصناف الثمار. (منها) عشرة لها قشرة وهي: الجوز واللوز والفستق والبندق والشاهبلوط والصنوبر والرمان والنارنج واللوز والخشخاش. (ومنها) عشرة لا قشر لها، ولثمارها نوى وهي: الرطب والزيتون والمشمش والخوخ والأجاص والعنّاب والغبيراء والدراقن والزعرور والنبق. (ومنها) عشرة ليس لها قشر ولا نوى وهي: التفاح والكمثرى والسفرجل والتين والعنب والأترج والخرنوب والبطيخ والقثاء والخيار.

---

(١) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٧١.

(٢) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٧٤ .

(النخيل) هو أول شجرة استقرّت على وجه الأرض، وهي شجرة مباركة لا توجد في كل مكان. قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عماتكم النخل». وإنما سُمّيت عمّتنا لأنها خُلقَت من فضلة طينة آدم ـ عليه السلام ـ ولأنها تشبه الإنسان من حيث استقامة قدمها وطولها، وامتياز ذكرها من بين الإناث، واختصاصها باللقاح، ورائحة طلعها كرائحة المنى، ولطلعها غلاف كالمشيمة التي يكون الولد فيها، ولو قُطع رأسها ماتت، ولو أصاب جمارها آفة هلكت، والجمار من النخلة، كالمخ من الإنسان، وعليها الليف كشعر الإنسان، وإذا تقاربت ذكورها وإناثها حملت حملاً كثيراً لأنها تستأنس بالمجاورة، وإذا كانت ذكورها بين إناثها ألقحتها بالريح، وربما قطع ألفها من الذكور، فلا تحمل لفراقه، وإذا دام شربها للماء العذب تغيّرت، وإذا سُقيت الماء المالح أو طُرح الملح في أصولها حسن ثمارها، ويُعرض لها أمراض مثل أمراض الإنسان.

فصل في خواص الحيوانات[1]

خواص البغل وأعضاؤه وأجزاؤه: (شحم أُذنه) إذا سُقيَت منه المرأة لا تحبل أبداً. (مخّه) إذا طعم منه الإنسان تناقض عقله وفهمه، وحصل له التوهّم والنسيان والسهو. (قلبه) تأكله المرأة فلا تحبل. (حافره) إذا أُحرق أو ذِيبَ بدهن الآس وطلي به رأس الأقرع أنبت الشعر. (بوله) إذا شربته المرأة طرحت جنينها الميت، وإن شمّه المزكوم وبصق عليه وكبّه في طريقٍ، فمن داس عليه انتقل الزكام إليه ويبرأ المزكوم الذي كبّه. (جلد جبهته) إذا أُحرق في مكان لا يحصل فيه إتفاق ولا صلح، ولا يتمّ فيه شيء من الأمور.

خواص الحمار وأجزاؤه: (مخّه) يُسقى لمن غلب عليه النسيان. (سنُّه)

(١) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٩٧. ويمكن أن تلحق هذه الأفكار والمعتقدات بالجغرافيا الطبية، لكن المؤلف آثر أن يلحقها بالعجائب والغرائب، ونحن لا نتفق مع ما ذكره ابن الوردي ولكننا نورده لبيان هذا النمط من المعلومات الذي كان سائداً في القرن الثامن الهجري.

إذا وُضع تحت رأس مَن قَلَّ نومه نام. (كبده) يجفَّف ويعلَّق على مَن به حمى الربيع تزول عنه. (طحاله) يجفّف ويدّخر، فإن قلَّ لبن ثدي المرأة سحق بماء وطُلي به الثدي يكثر اللبن فيه. (حافره) يُسحق بعد حرقه ويُطلى به جبهة مَن به صرَعٌ، أيامٌ ويزول عنه.

قال بلنياس: يُشقُّ حافر الحمار ويُحشى قطراناً وكلساً ويُحرق بشيرج زنج ويُطلى به البرص، يقلعه ولو كان عتيقاً، فإذا تدخّنت المرأة المطلقة بحافر الحمار أسرع خروج ولدها حياً سالماً بسهولة، وكذلك إذا كان الجنين ميتاً أخرجه.

(لحمه) من أكل منه أمِنَ من آفات السموم، فلا يؤثر فيه سمّ أبداً، وينفع صاحب الجذام نفعاً جيداً. (دمه) يُطلى به البواسير مراراً تسقط. (لبن الحمارة) يُسقى للصبي الذي يكثر بكاؤه، يزول عنه ذلك، ومن ضُرِبَ بالسياط ضَربَ الموت، يُسلخ له جلد حمار في الحال ويُلبس به جسمه وينام فيه ليلة، فإنه يزول عنه ألم الضرب ويأمن عاقبته. (جلد جبهته) يعلق على المصروع يزول عنه، ويُلقى شيء من شعر ذنبه في نبيذ قوم يسكرون فيقع بينهم الشرّ والخصومة والعربدة. (عصارة روثه) تُسقى لمن في مثانته حصاة تفتتها.

خواص أجزاء حمار الوحش: (مخه) يُسحق بدهن الزئبق ويُطلى به البهق يزول. (مرارته) قال ابن سينا إنه تقلع القوباء من الجسم. (لحمه) مدقوقاً ينفع النقرس طلاءً مع دهن الورد. (شحمه) جيّد للكلف طلاءً. (حافره) يُتّخذ خاتماً ويُعلّق على أصحاب الجنون والصَّرَع في رأس الشهر يزول عنهم ذلك، ويكتحل به محرقاً ينفع من ظلمة العين والغشاوة. (روثه) يُرمى في تنّور الخباز يسقط جميع أقراصه، وإذا سُحق وخُلط ببياض البيض وانتشقه المرعوف انقطع عنه الرعاف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل في حيوانات النعم[1]

(خواص أجزاء الإبل): ليس للبعير مرارة، وإنما على كبده شيء يشبهها، وهي جلدة فيها لعاب يكتحل به، فينفع من الغشاء العتيق، ويُطلى به الرقبة فينفع الخوانيق. (كبده) إذا داوم أكله نفع من نزول الماء في العين. (شحمه) متى وُضع في موضع هربت منه الحيات. (سنامه) يُذاب ويُطلى به البواسير يسكن الوجع. (كرشه) فيه غدّة، إذا أخرجت منه استحجرت، وإذا سُحقت بالخلّ إبيضّت، وهي من أنفع الأشياء للسموم القاتلة. (عظمه) يُسحق ويُذاب بالزيت ويُطلى به رأس المصروع يزول صرعه. (شعره) يُشدُّ على الفخذ الأيسر يمنع سلس البول، ويُشدُّ على فخذ الصبي الذي يبوّل في الفراش يزول عنه. (وبره) يُذرّ على الأنف محرقاً يحبس الرعاف والدم السائل من الجراحات، كذلك إذا زُرَّ عليها. (لبنها) نافع من السموم كلها، والمضمضة به تنفع الأسنان المتآكلة، ويزيل صفرة الوجه أكلاً وطلاءً. (بعره) قال ابن سينا يقطع الرعاف ويزيل أثر الجدري ويقطع الثآليل.

(١) ابن الوردي، المصدر السابق، ص ١٩٩.

الملاحق والمراجع

ملحق رقم (1)

ملحق بأسماء وتواريخ وفيّات أشهر الجغرافيين المسلمين[1]

١ ـ (أبو إسحق إبراهيم بن حبيب الفزاري) عاش في عصر المنصور وبعده بقليل، من مؤلفاته: الزيج على سني العرب، توفي سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م.

٢ ـ (مؤرج السدوسي) توفي سنة ١٩٥هـ/٨١١م. كتب رسالة في الأنواء.

٣ ـ (النَّضر بن شُميل) توفي سنة ٢٠٣هـ/٨١٨م. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب الصفات).

٤ ـ (هشام الكلبي): هو هشام ين محمد الكلبي، توفي سنة ٢٠٦هـ/٨٢٠م وأهم مؤلفاته: (كتاب الأصنام)، (جمهرة الأنساب)، (كتاب تسمية من بالحجاز من أحياء العرب)، (كتاب قسمة الأرضين)، (كتاب الحيرة وتسمية البيع والديارات ونسب العباديين)، (البلدان الصغير) وقد أخذ العلم عن أبيه بالكوفة.

٥ ـ (الأصمعي): أبو سعيد عبد الملك بن قريب، وُلد بالبصرة عام ١٢٣هـ/٧٤٠م. توفي سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م. من أهم مؤلفاته: (الأنواء)، (رسالة في صفة الأرض والسماء والنباتات)، (كتاب مياه العرب)، وله (كتاب جزيرة العرب)، وقد ورد اسم الأصمعي عند ياقوت الحموي حوالي ٣٥٠ مرة.

---

(١) روعي الترتيب وفق سنة الوفاة.

٦ - (سعدان بن المبارك) أديب ضرير من بغداد، توفي سنة ٢٢٠هـ/٨٣٥م. من أهم مؤلفاته: (الأرض والمياه والبحار والجبال).

٧ - (أبو زيد الأنصاري)، توفي سنة ٢١٥هـ/٨٣٠م. من أهم مؤلفاته: (كتاب المياه).

٨ - (أبو عبد الله - وقيل أبو جعفر) محمد بن موسى الخوارزمي، أصله من خوارزم، توفي عام ٢٣٢هـ/٨٤٧م. ومن أهم مؤلفاته: (صورة الأرض)، (حساب الجبر والمقابلة).

٩ - (الفرغاني) أحمد بن محمد بن كثير، توفي سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م. من أهم مؤلفاته: (جوامع علم النجوم وأصول الحركات السماوية)، (كتاب علل الأفلاك)، (المدخل إلى علم هيئة الأفلاك).

١٠ - (يعقوب الكندي) وهو يعقوب بن إسحق الكندي، أبو يوسف، توفي سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤. ومن أهم مؤلفاته: (رسم المعمور من الأرض) وتزيد مؤلفاته على ٢٣٠ كتاباً.

١١ - (أبو العباس جعفر بن أحمد المروزي) توفي سنة ٢٧٥هـ/٨٨٨م. ومن مؤلفاته (المناهل والقرى) وهو أول من ألّف في المسالك والممالك.

١٢ - (ابن لغزي الأصفهاني) توفي سنة ٢٨٢هـ/٨٩٥م. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب مياه وجبال وبلاد جزيرة العرب).

١٣ - (أبو العباس) أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي والمكنّى بالعباسي، توفي سنة ٢٨٤هـ/٨٩٧م. وأهم مؤلفاته: (كتاب البلدان).

١٤ - (السرخسي): (أبو العباس أحمد بن محمد بن مروان بن الطيب)، توفي سنة ٢٨٦هـ/٨٩٩م. ومن أهم مؤلفاته: (المسالك والممالك)، وله رسالة في البحار والمياه والجبال.

١٥ - (أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحق بن الفقيه الملقّب بالهمداني)، وُلد في مدينة همدان، أتمَّ تأليف كتابه (كتاب البلدان) حوالي عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م.

١٦ - (أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه) ينتمي إلى أُسرة فارسية، وُلد سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م. وتوفي سنة ٣٠٠هـ/٩١٢[1]. أهم مؤلفاته: (المسالك والممالك).

١٧ - (أبو علي بن محمد بن إسحق المعروف بابن رسته) وهو فارسي، ومن أهم مؤلفاته: (الأعلاق النفيسة)، ويرجع تاريخ تأليفه إلى سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م.

١٨ - (الفضل بن حاتم أبو العباس التبريزي) توفي سنة ٣١٠هـ، ومن أهم مؤلفاته: (أحداث الجوّ)، (رسالة في سمت القبلة)، (زيج كبير على مذهب السند هند).

١٩ - (أبو زيد أحمد بن سهل البلخي) وُلد عام ٢٣٥هـ/٨٥٠م. بإحدى قرى بلخ، وتوفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م. ومن أهم مؤلفاته: (صورة الأقاليم)، وقيل (أشكال البلاد)، وقيل (تقويم البلدان).

٢٠ - (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهَمْداني اليماني، الملقّب بابن الحائك) وُلد بصنعاء وتوفي بها سنة ٣٣٤هـ/٩٣٥م. ومن أهم مؤلفاته: (صفة جزيرة العرب).

٢١ - (الفقيه أبي العباس أحمد بن القاضي الطبري الآملي) توفي بطرسوس عام ٣٣٥هـ/٩٤٦م. ومن أهم مؤلفاته: (دلائل القبائل).

٢٢ - (أحمد بن محمد الرازي التاريخي) توفي سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب في وصف قرطبة)، (كتاب في طرق الأندلس).

٢٣ - (أبو الحسن علي بن أحمد الموصلي) توفي سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م. ومن أهم مؤلفاته: (جزيرة العرب).

٢٤ - (أبو الحسن علي بن الحسين بن عبد الله الشهير بالمسعودي) وُلد في

---

(١) هناك اختلاف حول سنة وفاة ابن خرداذبة حيث أورد بعض الباحثين أنه توفي سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٢م.

بغداد، ويُعتقد أنه توفي سنة ٣٤٥هـ/٩٥٦م[1]. ومن أهم مؤلفاته: (مروج الذهب ومعادن الجوهر)، (التنبيه والأشراف)، (أخبار الزمان).

٢٥ ـ (أبو القاسم ـ وقيل أبو إسحاق) إبراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري، توفي عام ٢٤٦هـ/٩٥٧[2]. ومن أهم مؤلفاته: (المسالك والممالك)، (صورة الأقاليم).

٢٦ ـ (النرشخي) توفي عام ٣٤٨هـ/٩٥٩م. ومن أهم مؤلفاته: (تاريخ بخارى) ويتناول تاريخ تخطيط مدينة بخارى.

٢٧ ـ (محمد بن يوسف، يُكنّى بالتاريخي، ويُعرف بمحمد الورّاق) توفي سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م. ومن أهم مؤلفاته: (المسالك والممالك).

٢٨ ـ (ابن حوقل ـ أبو القاسم محمد بن علي الموصلي، المشهور بابن حوقل) توفي سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م. ومن أهم مؤلفاته: (صورة الأرض).

٢٩ ـ (الحسن بن أحمد ـ أو محمد ـ المهلبي) توفي سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م. من أهم مؤلفاته: (المسالك والممالك).

٣٠ ـ (البوزجاني: محمد بن محمد يحيى بن إسماعيل بن العباس أبو الوفاء البوزجاني) وُلد في بوزجان سنة ٣٢٨هـ/٩٤٠م وتوفي سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م. ومن أهم مؤلفاته: (رسالة في أعمال الهيئة)، (معرفة الدائر من الفلك)، (الزيج الشامل)، (الزيج الواضح).

٣١ ـ (المقدسي: محمد بن أحمد بن أبي بكر البنّاء الشامي المقدسي) وُلد ببيت المقدسي سنة ٣٣٥هـ/٩٤٧م وتوفي حوالي سنة ٣٩٠هـ/١٠٠٠م. ومن أشهر مؤلفاته: (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم).

٣٢ ـ (البيروني: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) وُلد في إحدى ضواحي خوارزم عام ٣٦٢هـ/٩٧٣م، وتوفي في غزنه عام ٤٤٠هـ/

---

(١) قال نفيس أحمد إنه توفي سنة ٣٤٥هـ في كتابه جهود المسلمين في الجغرافيا.

(٢) حدّد أحمد سوسة في كتابه الشريف الإدريسي، الباب الأول، ص ١٦٤، تاريخ وفاته، أما كراتشكوفسكي فيقول: إن البحّاثة لم يستطيعوا تحديد وفاة الاصطخري.

١٠٤٨م. ومن أهم مؤلفاته: (القانون المسعودي في الهيئة والنجوم)، (الآثار الباقية عن القرون الخالية)، (أجوبة عن مسائل أبي الريحان)، (كتاب الهند).

٣٣ ـ (الزرقالي: أبو الحسن إبراهيم بن يحيى الزرقالي) وُلد بالتقريب سنة ٤٢٠هـ/١٠٢٩م، وتوفي سنة ٤٨٠هـ/١٠٨٧م. ومن أهم مؤلفاته: (جداول طليطلة)، (صفيحة الزرقالي).

٣٤ ـ (البكري: أبو عبيد عبد الله بن أبي مصعب عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي) وُلد في مدينة قرطبة عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠م، وتوفي عام ٤٨٧هـ/١٠٩٤م. ومن أهم مؤلفاته: (المسالك والممالك)، (معجم ما استعجم).

٣٥ ـ (الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري)، وُلد سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م. بخوارزم. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب الجبال والأماكن والحياة).

٣٦ ـ (الزهري: محمد بن أبي بكر الزهري)، كان يعيش بغرناطة حوالي عام ٥٣٢هـ/١١٣٧م. ويعتقد أنه توفي سنة ٥٥٠هـ. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب الجغرافيا)، ركّز جهده فيه على وصف ما سمّيت بالخارطة المأمونية للعالم.

٣٧ ـ (الإدريسي: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى، المشهور بالإدريسي) وينتسب إلى الشرفاء الأدارسة، ولد في مدينة سبتة عام ٤٩٣هـ/١١٠٠م، وتوفي في سبته سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م. ومن أشهر مؤلفاته: (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)، (روض الأنس ونزهة النفس) المعروف باسم (المسالك والممالك).

٣٨ ـ (الإسكندري: أبو الفتح نصر عبد الرحمن الإسكندري)، توفي سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م. ومن أشهر مؤلفاته: (فيما اختلف وائتلف في أسماء البقاع).

٣٩ ـ (أبو حامد الغرناطي: أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازني القيسي

الغرناطي الأندلسي)، وُلد في غرناطة سنة ٤٧٣هـ/١٠٨٠م. وتوفي في دمشق عام ٥٦٥هـ/١١٦٩م. ومن أهم مؤلفاته: (تحفة الألباب ونخبة الأعجاب)، (المعرب عن بعض عجائب المغرب).

٤٠ ـ (أبو محمد الحِجَاري: أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الكندي الحجاري)، توفي سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م. ومن أهم مؤلفاته: (المسهب في غرائب المغرب).

٤١ ـ (الحازمي: أبو بكر محمد بن موسى الحازمي)، توفي عام ٥٨٤هـ/١١٨٨م. ومن أهم مؤلفاته: (ما اتفق لفظه واختلف مسمّاه).

٤٢ ـ (الهروي: أبو الحسن علي بن علي بن أبي بكر، وقيل أبي طالب بن علي الهروي الموصلي)، وُلد في الموصل وتوفي في حلب عام ٦١١هـ/١٢١٥م. ومن أهم مؤلفاته: (الإشارات إلى معرفة الزيارات).

٤٣ ـ (ابن جُبير: أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي)، وُلد في مدينة بلنسية عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م. وتوفي في الإسكندرية عام ٦١٤هـ/١٢١٧م. ومن أهم مؤلفاته: (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار).

٤٤ ـ (ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الملك الحموي)، وُلد في بلاد الروم عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م، وتوفي في عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. ومن أهم مؤلفاته: (معجم البلدان).

٤٥ ـ (عبد اللطيف البغدادي: موفّق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي) وهو من الموصل، وُلد في بغداد عام ٥٥٧هـ/١١٦٢م، وتوفي في بغداد عام ٦٢٩هـ/١٢٣١م. ومن أهم مؤلفاته: (الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر).

٤٦ ـ (النباتي: أبو العباس أحمد بن محمد النباتي)، وُلد بأشبيلية وتوفي عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب الرحلة).

٤٧ ـ (زكريا القزويني: جمال الدين أبو يحيى زكريا بن محمد بن محمود الملقّب بالقزويني)، وُلد في قزوين عام ٦٠٥هـ/١٢٠٨م. وتوفي عام

٦٨٢هـ/١٢٨٣م. ومن أهم مؤلفاته: (عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات)، (أخبار البلاد وآثار العباد).

٤٨ ـ (ابن سعيد: أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الغرناطي، وُلد في غرناطة عام ٦١٠هـ/١٢١٤م، وتوفي عام ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وقيل توفي عام ٦٨٥هـ/١٢٧٤م. ومن أهم مؤلفاته: (المشرق في حلى المشرق)، (المغرب في حلي المغرب)، (النفحة المكية في الرحلة الملكية)، (كتاب جغرافية الأقاليم السبعة).

٤٩ ـ (الدمشقي: شمس الدين أبو عبد الله بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي، المعروف بشيخ الربوة، وُلد في دمشق سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، وتوفي في صفر سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٧م. ومن أهم مؤلفاته: (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر).

٥٠ ـ (أبو الفدا: أبو الفدا الملك المؤيد ـ أو الصالح ـ عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن أيوب، وُلد في دمشق عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، وتوفي عام ٧٣٢هـ/١٣٣١م. وأهم مؤلفاته: (المختصر في أخبار البشر)، (تقويم البلدان).

٥١ ـ (ابن فضل الله العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي)، وُلد بدمشق سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م، وتوفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م. ومن أهم مؤلفاته: (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار).

٥٢ ـ (ابن بطوطة: شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي)، وُلد في مدينة طنجة عام ٧٠٣هـ/١٣٠٤م. وتوفي عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م. وقيل عام ٧٧٩هـ/١٣٧٧م. ومن أهم مؤلفاته: (رحلة ابن بطوطة).

٥٣ ـ (ابن خلدون: أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد بن الحسن المعروف بابن خلدون الأشبيلي الحضرمي)، وُلد في تونس عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م. وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م. ومن أهم مؤلفاته:

(مقدمة ابن خلدون)، (في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار والأقاليم)، وهناك مقدّمتان أخريان له.

٥٤ ـ (شهاب الدين القلقشندي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، وُلد في عام ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، وتوفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م. ومن أهم مؤلفاته: (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء).

٥٥ ـ (تقي الدين المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي)، وُلد في القاهرة سنة ٧٦٦هـ/١٣٦٤م، وتوفي عام ٨٤٥هـ/١٤٤٢م. ومن أهم مؤلفاته: (مخرج النيل وانبعاثه)، (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار).

٥٦ ـ (سراج الدين الوردي: سراج الدين أبو حفص عمر بن الوردي)، توفي سنة ٨٦١هـ/١٤٥٧م. ومن أهم مؤلفاته: (خريدة العجائب وفريدة الغرائب).

٥٧ ـ (الحميري: محمد عبد المنعم الصنهاجي الحميري)، توفي سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م. ومن أهم مؤلفاته: (الروض المعطار في خبر الأقطار).

٥٨ ـ (أبو البقاء بن الجيعان، الملقّب بسمتوفي ديوان الجيش)، توفي مقتولاً في القاهرة عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. ومن أهم مؤلفاته: (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية).

٥٩ ـ (ابن أياس: أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس زين الدين الناصري الجركسي الحنبلي)، وُلد سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م. وتوفي سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م. ومن أهم مؤلفاته: (نشق الأزهار في عجائب الأقطار).

٦٠ ـ (ابن ماجد: شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي)، وُلد بجلفار (رأس الخيمة) سنة ٨٣٦هـ، وتوفي سنة ٩٣٦هـ تقريباً.

٦١ ـ (أحمد زنبل الرمال: أحمد بن علي بن زنبُل الرمال، ظلَّ حياً حتى سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م. من أهم مؤلفاته: (تحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من العجائب والغرائب).

٦٢ ـ ليون الافريقي: عُرف في الأقطار العربية باسم الحسن بن محمد الوزّان الزياتي الفاسي)، وُلد في غرناطة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م. وقيل سنة ٨٩٨هـ/

١٤٨٧م، وتوفي سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٢م. ومن أهم مؤلفاته: (وصف أفريقيا).

٦٣ - (بيري ريس: يدعى محي الدين بن محمد)، توفي سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٤م. بعد أن حُكم عليه بالإعدام، ومن أهم مؤلفاته: (بحرية)، وهو عبارة عن دليل للملاحة الشراعية.

٦٤ - (سيدي ريس: هو سيدي علي ريس)، توفي عام ٩٧٠هـ/١٥٦٢م. من أهم مؤلفاته: (المحيط في علم الأفلاك والأبحر).

٦٥ - (حاجي خليفة)، وُلد بالقسطنطينية عام ١٠١٧هـ/١٦٠٩م، وتوفي عام ١٠٦٧هـ/١٦٥٧م. ومن أهم مؤلفاته: (كشف الظنون).

٦٦ - (شهاب الدين القليوبي)، توفي عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م. ومن أهم مؤلفاته: (رسالة في معرفة أسماء البلاد وأطوالها وانحرافها).

٦٧ - (الحسن الكوكباني: الحسن بن أحمد الحيمي الكوكباني)، توفي عام ١٠٧١هـ/١٦٦٠م. ومن أهم مؤلفاته: (حديقة النظر وبهجة الفكر في عجائب السفر).

٦٨ - (فضل الله بن محب الدين)، توفي عام ١٠٨٢هـ/١٦٧١م. ومن أهم مؤلفاته: (الرحلة الحلبية)، (الرحلة المصرية)، (الرحلة إلى القسطنطينية).

٦٩ - (محمد الفرضي: محمد بن يحيى الحلبي الفرضي)، توفي عام ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م. ومن أهم مؤلفاته: (الإشارات إلى أماكن الزيارات).

٧٠ - (عبد الله العياشي: أبو سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي)، وُلد عام ١٠٣٧هـ/١٦٦٢م، وتوفي عام ١٠٩٠هـ/١٦٧٩م. ومن أهم مؤلفاته: (الرحلة العياشية).

٧١ - (الصادق الأصفهاني: ميرزا أحمد صادق الأصفهاني الآزاداني)، توفي عام ١٠٩١هـ/١٦٨٠م. ومن أهم مؤلفاته: (تقويم البلدان)، (تحقيق الأعراب في أسماء البلاد).

٧٢ - (الدرعي: أبو العباس بن محمد ناصر الدرعي)، وُلد عام ١٠٥٧هـ/

١٦٤٧م، وتوفي عام ١١٢٩هـ/١٧١٧م. ومن أهم مؤلفاته: (الرحلة الناصرية).

٧٣ ـ (مرتضى الكردي: مرتضى بك بن مصطفى بن حسن الكردي)، توفي عام ١١٣٣هـ/١٧٢١م. ومن أهم مؤلفاته: (تهذيب الأطوار في عجائب الأمصار).

٧٤ ـ (عبد الغني النابلسي: عبد الغني بن إسماعيل النابلسي)، وُلد عام ١٠٥٠هـ/١٦٤٠م، وتوفي عام ١١٤٣هـ/١٧٣١م. ومن أهم مؤلفاته: (رحلة الذهب الأبريز في بعلبك والبقاع العزيز)، (عَلَم المَلاَحَة في عِلم الفلاحة)، (الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية) ويصل عدد مصنّفاته إلى ٢٢٣ مصنّفاً.

٧٥ ـ (خضر الكلداني)، وُلد عام ١٠٩٠هـ/١٦٧٠م، وتوفي عام ١١٦٩هـ/١٧٥٥م. ومن أهم مؤلفاته: (كتاب عن رحلته لأمريكا).

٧٦ ـ (مصطفى الدمياطي اللقيمي: مصطفى أسعد بن أحمد بن محمد الدمياطي اللقيمي)، وُلد بدمياط عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م، وتوفي عام ١١٧٣هـ/١٧٥٩م. ومن أهم مؤلفاته: (لطايف أنس الخليل في تحايف القدس والخليل)، (موانح الأنس برحلتي لوادي القدس).

ملحق رقم (٦)

بعض مصطلحات التراث الجغرافية

قبل أن نتعرّض لأمثلة من المصطلحات الجغرافية التي وردت بكتب التراث، يجدر بنا أن نتعرّض للأسماء العديدة التي أطلقها العرب على جوانب الفكر الجغرافي وأهمها على الإطلاق الأسماء الآتية:

١ - صورة الأرض.	٢ - المسالك والممالك.
٣ - علم تقويم البلدان.	٤ . جغرافيا.
٥ - صور الأقاليم.	٦ - الأقاليم.
٧ - علم البرود (جمع بريد).	٨ - علم عجائب البلاد.
٩ - علم الأطوال والأعراض[1].	١٠ - رسم المعمور من الأرض.

بعد عرض نماذج لأهم العناوين التي تناولت جوانب من الفكر الجغرافي نورد أهم المصطلحات الجغرافية التي تداولتها كتب التراث.

أولاً: مصطلحات جغرافية عامة

(أ) وحدات القياس:

١ ـ الدرجة: الدرجة قدر ما تقطعه الشمس في يوم وليلة من الفلك، وفي مساحة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً، وتنقسم الدرجة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية، والثانية إلى ستين ثالثة.

---

(١) أي درجات الطول والعرض.

وقد قاس علماء المأمون الدرجة فوجدوها ستة وخمسين ميلاً وثلثي ميل.

٢ ـ **البريد:** قدّر بعض الجغرافيين البريد باثنى عشر ميلاً بالبادية، وبالشام وخراسان ستة أميال، وذكر ابن الإِعرابي أن البريد هو (كل ما بين المنزلين) أي المسافة بين المنزلين، وهناك من يرى أن البريد هو الرسول.

٣ ـ **الفرسخ:** اثنا عشر ألف ذراع[١]، أي ثلاثة أميال، وقد قدّر كرلو نلينو الفرسخ العربي بـ ٥٩١٩ متراً[٢].

٤ ـ **الميل:** أربعة آلاف ذراع[٣]، والذراع ثماني قبضات، والقبضة أربعة أصابع، والأصبع ست شعيرات بطونها إلى بطون بعضها، والشعيرة ست شعرات من ذنب البغل.

٥ ـ **الذراع:** أربعة وعشرون أصبعاً[٤]، أو ثماني قبضات. وكان الذراع عند القدماء اثنين وثلاثين أصبعاً[٥].

وقد جمع محمد مأمون وحدات القياس في هذه الأبيات[٦]:

إن البريد من الفراسخ أربع	ولفرسخ فثلاث أميال ضعوا
والميل ألف، أي من الباعات قل	والباع أربع أذرع فتتبّعوا
ثم الذراع من الأصابع أربع	من بعدها العشرون ثم الأصبع
ست شعيرات فظهر شعيرة	منها إلى بطن الأخرى توضع
ثم الشعيرة ست شعرات فقط	من ذيل بغل ليس عن ذي مرجع

وقد حقّق أحد الباحثين (محمود حسان سعداوي) هذه الوحدات والأبعاد بالمتر والبوصة على النحو التالي:

---

(١) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، مكتبة المثني، بغداد، ص ٤.

(٢) كرلو نلينو، علم الفلك، روما، سنة ١٩٠٦، ص ٢٦٥.

(٣) الدمشقي، شمس الدين، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة مكتبة المثنى، بغداد، ص ١١.

(٤) ابن خرداذبه، المصدر السابق، ص ٤.

(٥) أبو الفداء، تقويم البلدان، طبعة باريس، سنة ١٩٥٠م، ص ١٥.

(٦) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، مرجع سبق ذكره، ص ص ٦٠ ـ ٦١ .

البريد = أربعة فراسخ = ٧٣٧٥ متراً، والفرسخ = ثلاثة أميال = ١٨٤٠ متراً، والميل ألف باع = ٦١٥ متراً، والباع أربعة أذرع = ٢٤،١٩٢ بوصة، والذراع ٢٤ أصبعاً = ٦،٠٤٨ بوصة، والأصبع = ست شعيرات ٠،٢٥٢ بوصة، والشعيرة = ست شعرات = ٠،٠٤٢ بوصة.

٦ ـ **المرحلة:** وهي المسافة التي يقطعها المسافر في يوم واحد، وتقدّر بنحو ثلاثين أو خمسة وثلاثين كيلو متراً.

٧ ـ **المجرى:** ما يقطعه المركب في يوم وليلة بالريح الطيب، وقد وصف الإدريسي المسافة بين منبسه وقرية البانس بأنها في البرّ ستة أيام ومجرى ونصف في البحر[1].

٨ ـ **غلوة سهم، ورمية سهم:** هي المسافة التي يقطعها السهم في رميته، وقد وُصِف اتّساع مضيق البوسفور بأنه رمية سهم[2]، ووصف عرض مضيق الدردنيل بأنه غلوة سهم، يكلّم الرجل الرجل على شطّيه[3].

(ب) الموازين:

جـو: الحبة.

دانق ـ دانك: ٨ حبات.

مثقال: ٦ دوانق.

سير: ١٥ مثقالاً.

مَنّ: ٤٠ سيراً.

خرور: حِمل حمار، أي ١٠٠ مَنّ.

---

(١) الإدريسي، نزهة المشتاق، طبعة معهد الاستشراق، نابلس، ص ٦٠.

(٢) الإدريسي، المصدر السابق، ص ١٢.

(٣) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، مكتبة المثنى، بغداد، ص ١٠٤.

(ج) اسماء بعض البلاد والمدن:

إفريقية، وكان يُقصد بها (تونس)، اقريطش (كريت)، المغرب الأوسط (الجزائر)، المغرب الأقصى (المملكة المغربية)، برقة (غربي ليبيا)، سرنديب (سري لانكا)، جزر المهراج (أندونيسيا)، جزر الديبجات (جزر مالديف)، ميناء عيذاب (شمالي قرية حلايب بنحو ١٨كم، وتقع على البحر الأحمر)، ميناء الجار (ميناء المدينة المنوّرة، وتقع على مسيرة ليلة منها، وهي قريبة من ينبع، ويرجّح بأنها «البريكة»[١].

يأجوج ومأجوج: حدَّد الجغرافيون العرب بلاد يأجوج ومأجوج في شمالي آسيا إلى الشمال من بحر الخزر (بحر قزوين)[٢]، وتقع في بداية الإقليم الخامس، وقد وصف القزويني[٣] يأجوج ومأجوج بأنهما قبيلتان عظيمتان من الترك، من ولد يافث بن نوح عليه السلام، ومسكنهم شرقي الإقليم السابع.

الواق ـ الواق (الواقواق): في مشارق الصين، وقد حدّد بعض الجغرافيين العرب موقعها جنوبي جزر اليابان، وقد حدّدها بعضٌ آخر إلى الشرق من جزر الهند الشرقية، شرقي جزيرة بورنيو، وقد ذكر ابن خرداذبه أن (الواقواق) كثيرة الذهب، حتى إن أهلها يتّخذون سلاسل كلابهم وأطواق قرودهم من ذهب[٤].

---

(١) أنور عبد العليم، مصدر سبق ذكره، ص ٨١.

(٢) انظر خريطة ابن الوردي، العراق في الخوارط القديمة، لأحمد سوسة، بغداد، سنة ١٩٥٩، خارطة رقم ٣٦.

(٣) زكريا بن محمد بن محمود القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م، ص ٦١٨.

(٤) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ص ٦٩.

ثانياً: المصطلحات الخاصة بالجغرافيا الفلكية

أطلق العرب أسماء عديدة على العلوم التي تهتمُّ بالفلك منها: علم الهيئة، وعلم التنجيم، وعلم النجوم، وصناعة التنجيم، وصناعة النجوم، وعلم أحكام النجوم، وعلم هيئة الأفلاك، وعلم هيئة العالم، وعلم الأفلاك، وعلم الزيجات، وعلم التقاويم.

وقد عرَّفَ الفارابي علم النجوم بقوله: إن علم النجوم يشتمل على قسمين: أحدهما علم دلالات الكواكب على المستقبل، والثاني العلم التعليمي. وهذا القسم الثاني هو الذي يُعدُّ من العلوم. وأما الأول فهو إنما يُعدُّ من خواص النفس التي يتمكن بها الإنسان من معرفة ما سيحدث في العالم قبل حصوله، وذلك من نوع الفراسة والزجر والطرق بالحصى وغير ذلك[1].

ومن أهم المصطلحات الفلكية التي يتكرّر ذكرها في كتب التراث ما يلي:

١ . الأزياج أو الزيجات:

من لفظ زيج من اللغة البهلوية التي استخدمها الفرس في عهد الساسانيين، وفي هذه اللغة كانت كلمة «زيك» تعني خيوط النسيج الطولية «السدي»، ثم أطلقت الفرس اسم «الزيك» على الجداول الرياضية التي يبني عليها كل حساب فلكي من إضافة قوانين عملها واستعمالها مجرّدة غالباً من البراهين الهندسية، ومن أمثلة ذلك الزيج الصابىء لمحمد بن جابر بن سنان البتاني.

٢ . الأرين:

أطلق العرب على النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء وخط نصف

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٣٤.

نهار منتصف العمارة (قبّة الأرض) أو «العرين» أو «الأرين»، وكان الهنود يعتمدون على حساب الأطوال الجغرافية (خط الطول) ابتداءً من خط نصف نهار «لنكا»، وزعم الهنود أن هذا الخط يمرُّ بإحدى مدنهم المشهورة المسمّاة «أجيني» وهي «أجين»، فسمّتها العرب «أُزين»، وقالوا إن الأطوال على مذهب السند هند تعد من خط نصف نهار «أزين». ثم ذهبوا إلى الظن الباطل أن أزين هي نفس قبة الأرض، وحرّفوا ذلك فقالوا قبّة «أزين»، ودخلت هذه الكلمة في العربية وأصبحت بمرور الوقت تعني الاعتدال في الأشياء.

وقد أشار الجرجاني[1] أن الأرين نقطة في الأرض يستوي معها ارتفاع القطبين، فلا يأخذ هناك الليل من النهار ولا النهار من الليل، وقد نقل عرفاً إلى محل الاعتدال مطلقاً.

٣ ـ سند هند:

فسّر العرب هذا اللفظ بمعنى الدهر الداهر أو دهر الدهور، والواقع أن هذا اللفظ محرّف عن التعبير السنسكريتي (سدهانت) وتعني معرفةً وعلماً ومذهباً علمياً، وأطلق ذلك اللفظ اصطلاحاً على كل كتاب في علم الهيئة وحساب حركات الكواكب[2].

وقد عرف البيروني «السندهند» بأنه «سدهاند» أي المستقيم الذي لا يعوج ولا يتغيّر، ويقع هذا الاسم على كل ما علت رتبته عندهم (يقصد الهنود) من علم حساب النجوم.

٤ ـ منازل القمر:

يدور القمر حول الأرض مرة كل ٢٧ يوماً وسبع ساعات و ٤٣ دقيقة، وتسمّى هذه الدورة بالدورة النجومية، ولا يقترن القمر بالشمس إلا بعد ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة و ٤ دقائق، وتسمّى هذه الدورة بالشهري القمري الاقتراني.

---

(١) الجرجاني، التعريفات، طبعة سنة ١٨٤٥م، ص ١٦.

(٢) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ١٥٠.

وإذا تتبّعنا القمر ذات ليلة ووجدناه قريباً من نجمٍ ما، فإنه في الليلة التالية يبتعد عن النجم جهة الشرق، ويزيد الابتعاد صوب الشرق يوماً بعد يوم، إلى أن يدرك القمر النجم من جهة الغرب في الليلة الثامنة والعشرين، فلو قسمت الدورة الكاملة ٣٦٠° على الليالي الثماني والعشرين وجدنا أن القمر يقطع كل يوم بليلة ١٣درجة من فلكه، واختارالعرب ثمانية وعشرين مجموعة نجمية من نجوم بدت لهم قريبة من فلك القمر لتكون علامات لمسير القمر، وسمّوا هذه النجوم نجوم المنازل أو الأخذ.

٥ ـ النسيء:

قال أبو معشر البلخي (توفي سنة ٢٧٢هـ/٨٨٦م)[١]: وأما العرب في الجاهلية فكانوا يستعملون سني القمر برؤية الأهلة، كما تفعله أهل الإسلام، وكانو يحجُّون في العاشر من ذي الحجة، وكان لا يقع هذا الوقت في فصل واحد من فصول السنة بل يختلف، فمرّة يقع في زمان الصيف، ومرة في زمان الشتاء، ومرة في الفصلين الباقيين... فأرادوا أن يكون وقت حجّهم موافقاً تجاراتهم، وأن يكون الهواء معتدلاً في الحرّ والبرد، مع توريق الأشجار ونبات الكلأ لتسهّل عليهم المسافرة إلى مكة ويتجروا بها مع قضاء مناسكهم. فتعلّموا عمل الكبيسة من اليهود وسمُّوه النسيء أي التأخير... والعرب تكبس أربعاً وعشرين سنة قمرية باثني عشر شهراً قمرياً، واختاروا لهذا الأمر رجلاً من بني كنانه كان يدعى بالقلمس[٢]، وأولاده القائمون بهذا الشأن يدعون القلامسة، ويُسمُّون أيضاً النسأة، وآخر النسأة هو أبو ثمامة جناده بن عوف، وكان القَلَمَّس يقوم خطيباً في الموسم عند انقضاء الحجّ بعرفات، ويبتديء عند وقوع الحجّ في ذي الحجة، فينسيء المحرم ولا يعدّه من الشهور الاثنى عشر، ويجعل أول شهور السنة صفر وهكذا...

وقد ذكر البيروني أن العرب كانوا يكبسون كل أربع وعشرين سنة

---

(١) نلينو، مصدر سبق ذكره، ص ٨٧- ٨٠.

(٢) القلمس: هو البحر الغزير.

قمرية بتسعة أشهر... وذكر كذلك أنهم يكبسون كل ثلاث سنين شهراً، وذكر في موضع ثالث أنهم كانوا يعدّلون هذا الكبس برصد طلوع منازل القمر وغروبها، وذلك حين قال: إن العرب في جاهليتهم كانوا ينظرون إلى الفرق بين سنتهم وسنة الشمس، وهو عشرة أيام وإحدى وعشرون ساعة وخُمس ساعة، فيلحقونها بها شهراً كلما تمّ منها ما يستوفي أيام الشهر، ولكنهم كانوا يعملون على أنه عشرة أيام وعشرون ساعة... وبعد أن حجّ النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ حجّة الوداع وأُنزل عليه «إنما النسيء زيادة في الكفر» أهمل الكبس وزالت شهورهم عما كانت عليه وصارت أسماؤها غير مؤدية معانيها[1].

٦ . البروج:

هي عبارة عن اثنتي عشرة مجموعة نجمية تبدو كأن الشمس تنتقل بينها خلال شهور السنة الاثني عشر. ويرى نلينو[2] أن البروج الاثني عشر كانت مجهولة عند العرب، ويستشهد على ذلك بأن أسماء كل البروج ما عدا الجوزاء، هي مترجمة عن أسمائها اليونانية والسريانية، وأن ما ورد في القرآن من ذكر للبروج كان يُقصد به الصورة النجومية بدليل ما ذكره عبد الله بن عباس ابن عم النبي ـ عليه السلام ـ فإنه قال في تفسير سورة الحجر «بروجاً» نجوماً، وهي النجوم التي يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر[3].

---

(١) أبو الريحان البيروني، الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة ليبزج، سنة ١٩٢٣، ص ١٠- ١٢.

(٢) نلينو، المصدر السابق، ص ص ١٠٩- ١١٠.

(٣) محمد بن يعقوب الفيروزابادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، طبعة مصر سنة ١٣٦٦هـ، ص ١٦٤.

ثالثاً: الجغرافيا الإقليمية

الإقليم[١]:

حينما نتلمّس معنى لفظ «الإقليم» في كتب التراث نجد تبايناً كبيراً بين مفهوم هذا اللفظ وأصل اشتقاقه عند الجغرافيين المسلمين. يقول ياقوت الحموي[٢]: «وأما اشتقاق الإقليم فذهبوا إلى أنها كلمة عربية واحدها إقليم، وجمعها أقاليم، مثل إخريط وأخاريط. والإقليم إنما سمّي إقليماً لأنه مقلوم من الأرض التي تتاخمه، أي مقطوع، والقلم في أصل اللغة القطع، ومنه قلّمت ظفري... وبه سمّي القلم لأنه مقلوم أي مقطوع مرة بعد مرة. وقال حمزة الأصفهاني استعارت العرب من السريانيين للكشخر اسماً هو الإقليم، والإقليم اسم للرستاق. وذكر أبو الفضل الهروي أن الإقليم هو المَيْل.

ومن دراسة الأقوال السابقة يتّضح لنا أن أبا الفضل الهروي قد أصاب الحقيقة إذ أن كلمة «إقليم» محرّفة عن الكلمة اليونانية كليما Klima التي استخدمها العالِم اليوناني هيباركوس Hipparchus في القرن الثاني قبل الميلاد (في سنة ١٤٠ ق.م. تقريباً) حين ابتكر نظاماً من الخطوط الموازية لخط الاستواء والتي تقسم سطح الأرض إلى مناطق وفقاً لطول النهار في كل منطقة وقت الانقلاب الصيفي[٣].

وقد استخدم المسلمون لفظ «الإقليم» بمعنى نطاق عريض أو حزام يمتد بموازاة خط الاستواء، وهذه النطاقات العريضة مرتّبة من الجنوب إلى الشمال، ثم تطوّر مفهوم الإقليم عند الجغرافيين المسلمين ليشمل مناطق لا تمتد على هيئة نطاقات أو أحزمة، وعلى سبيل المثال، اعتمد المقدسي على الدين واللغة في تصنيفه للأقاليم.

---

(١) محمد محمود محمدين، مفهوم الإقليم عند المقدسي، بحث قدّم للمؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، الرياض، سنة ١٣٩٩م.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة بيروت، سنة ١٩٥٥م، جـ ١، ص ٢٥.

(٣) Rumney, George R. Climatology and the World Climates, New York, 1970, P. 3.

وقد استخدم الجغرافيون المسلمون الحروف في تحديد مواقع الأقاليم وفقاً لدرجات العرض والطول ولم يستخدموا الأرقام، ومن المعروف أن القيمة الرقميّة للحروف التي استخدموها على النحو التالي[١]:

آحاد	عشرات	مئات	ألوف
أ = ١	ي = ١٠	ق = ١٠٠	غ = ١٠٠٠
ب = ٢	ك = ٢٠	ر = ٢٠٠	بغ = ٢٠٠٠
ج = ٣	ل = ٣٠	ش = ٣٠٠	جغ = ٣٠٠٠
د = ٤	م = ٤٠	ت = ٤٠٠	دغ = ٤٠٠٠
هـ = ٥	ن = ٥٠	ث = ٥٠٠	هغ = ٥٠٠٠
و = ٦	س = ٦٠	خ = ٦٠٠	وغ = ٦٠٠٠
ز = ٧	ع = ٧٠	ذ = ٧٠٠	زغ = ٧٠٠٠
ح = ٨	ف = ٨٠	ض = ٨٠٠	حخ = ٨٠٠٠
ط = ٩	ص = ٩٠	ظ = ٩٠٠	طغ = ٩٠٠٠

وعند تمثيل عدد بحروف الجمل يراعى البداية بالعدد الأكبر ثم يليه الأصغر، مثال: غقلب = ١١٣٢

وقد طور المسلمون نظامين لكتابة الأعداد أطلق على أحدهما الأرقام الغيارية وانتشر في المغرب العربي، واعتمدت قيمة العدد على مجموع زواياه فمثلاً:

وهذه الأرقام انتقلت إلى أوروبا عن طريق الأندلس، ويبدو تأثير المسلمين في ذلك أن الأعداد تكتب من اليمين مثل 37 سبعة وثلاثون، بدأت بالسبعة من اليمين، أما النظام الثاني لكتابة الأعداد فهو الأرقام الهندية وهي: ١، ٢، ٣ . . .

الكورة:

هي كل صقع يشتمل على عدّة قرى، والكورة اسم فارسي استعاره العرب، ولا بدّ للقرى التي تضمّها الكورة من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة[٢].

---

(١) استخدم الساميون الحروف الهجائية ودوّنوا بها الأرقام، ولمّا أخذ اليونانيون الأبجدية عن الفينيقيين دوّنوا بها أعدادهم وزادوا عليها علامات أخرى.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٧.

الاستان:

الاستان رقعة واسعة، وقد قسّمت رقعة فارس إلى خمسة أساتين، وينقسم الاستان إلى الرساتيق، وينقسم الرستاق إلى الطساسيج، وينقسم كل طُسُّوج إلى عدّة قرى.

الرستاق:

كلمة فارسية تُطلق على القرى وكل موضع فيه مزارع، ولا يُقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد[1].

الطُسُّوج:

جزء من أجزاء الكورة، أقل من الاستان والرستاق، وأكثر ما استعملت هذه الكلمة في سواد العراق حيث قسّم إلى ستين طسوجاً.

المِخلاف:

تعبير يُستخدم في اليمن للدلالة على الناحية أو الجهة، وقد ذكر ياقوت الحموي نقلاً عن كتاب «العين» أن ولد قحطان لما اتخذوا أرض اليمن مسكناً وكثروا فيها لم يسعهم المقام في موضع واحد، فجمعوا رأيهم على أن يسيروا في نواحي اليمن ليختار كل بني أب موضعاً يعمّرونه ويسكنونه. وكانوا إذا ساروا إلى ناحية واختارها بعضهم تخلّف بها عن سائر القبائل وسمّاها باسم أبي تلك القبيلة المتخلّفة فيها فسمُّوها مخلافاً لتخلُّف بعضهم عن بعض فيها. ومما يؤكد ذلك أن المخلاف لا بدّ من إضافته إلى قبيلة.

رابعاً: مصطلحات التراث الخاصة بالأرض والتضاريس

استخدم العرب مصطلحات كثيرة عبّروا بها عن وجه الأرض مثل

---

(١) ياقوت الحموي، المرجع السابق، جـ ١، ص ٣٨.

الصعيد والأديم والجَبُوب، وأطلقوا على الأرض الكثيرة الغبار الكَثَاثاء والرَفْغ والدَقْعاء المتربة التي لا نبات فيها.

وتتميّز مصطلحات العرب الخاصة بالتكوينات الرملية بأنها عديدة وتعبّر بدقّة عن أنماط التكوينات الرملية من حيث الحجم والشكل على النحو التالي:

١ ـ أنماط التكوينات الرملية من حيث كميّة الرمل:

العَقَنْقَل: الرمل الكثير.

فإذا نقص فهو الكَثِيبُ، فإذا نقص فهو عَوْكَل، فإذا نقص فهو السِقْط، فإذا نقص فهو عَدَاب، فإذا نقص فهو لَبَبُ.

٢ ـ أشكال التكوينات الرملية:

الحَبْل: ما استدقّ من الرمل.

الحِقْف: ما اعوجّ منه.

الدِّعْص: ما استدار من الرمل.

العِقْد: ما تعقّد منه.

العَقَنْقَل: ما تراكم وتراكب منه.

السِّقْطُ: ما جعل ينقطع ويتصل منه.

الشَّقيقُة: ما انقطع وغلظ منه.

الكثيب والنقًا: ما احدودب وانهال منه.

٣ ـ صلابة الرمال وليونتها:

الأوْعَس: ما لان من الرمل.

الرَّغَام: ما لان وليس بالذي يسيل من اليد.

الهُيَام: يسيل من اليد للينه.

الدَّكْدَاك: ما التبد بالأرض من الرمل.

وأطلق العرب أسماء كثيرة وصفات على أحجام الصخور المختلفة مثل:

الرّضام، وهي الصخور العظام التي تستخدم في البناء، والرُّجمة دون الرّضام، والمِلْطَاس والقُرْمُوس والرَبيعة، وهي الصخور العظيمة، والقُنْزُعة، حجر أعظم من الجوزة، والفِهْر، حجر يملأ الكف، وأطلق العرب اسم الحَصَى على صغار الحجارة، وعلى الحصى الصغار الحَصْباء والزُنّاره والقَضِيض، وعلى الحصى الكبير القضّ[1].

واستخدم العرب ألفاظاً مثل البوغَاء والدَّقْعَاء للدلالة على التراب الرّخو الرقيق، والمُوُر، على التراب الذي تمور به الريح، والسَّافِيَاء على التراب الذي يذهب في الأرض مع الريح.

بعض مصطلحات التراث الخاصة بالتضاريس

١ . درجات ارتفاع الأرض:

رتّب العرب ما ارتفع من الأرض بتعبيرات كثيرة، وإن اختلف الترتيب من مصدر إلى آخر لكن الاختلاف ليس كبيراً، ومن أهم هذه الترتيبات ما أورده الثعالبي وهي على النحو التالي[2].

النَّبَكة: وهي أصغر ما ارتفع من الأرض، ثم الرَابِية ثم الأَكَمَة ثم الزُّبْيَة ثم النَّجْوة ثم الرَّيْع ثم الهَضْبة (وهي الجبل المنبسط على الأرض) ثم القَرْن (وهي الجبل الصغير) ثم الدُّكُ ثم الضِّلع (وهو الجُبيل ليس بالطويل) ثم النِّيق (وهو الطويل) ثم الطَّوْد ثم البَاذِخ والشَّامِخ ثم المُشَمِخْر ثم الأَخْشَب (وهو الجبل العظيم الخشن) ثم الأَيْهم ثم القَهْب (وهو العظيم مع الطول) ثم الخُشَام (وهو الجبل الطويل الذي له أنف).

---

(١) يستخدم أحياناً تعبير القضيض للدلالة على الحصى الكبير والقض للدلالة على الحصى الصغير.

(٢) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٤٢٥ .

٢ . ألوان الجبال:

الجبل الأَعبَل: الأبيض.

القَهبْ: الجبل الأسود الذي تخالطه حمرة.

العُنَّاب: الجُبيل الدقيق المنتصب الأسود.

جبل خَيْف: مختلف ألوانه.

العَنْز: الأكمة السوداء.

٣ . أجزاء الجبل (شكل ١):

الحَضِيض: قرار الأرض عند أصل الجبل.

السَفْح: ذيل الجبل.

السَنَد: المرتفع من الجبل.

الكِيح: عرض الجبل.

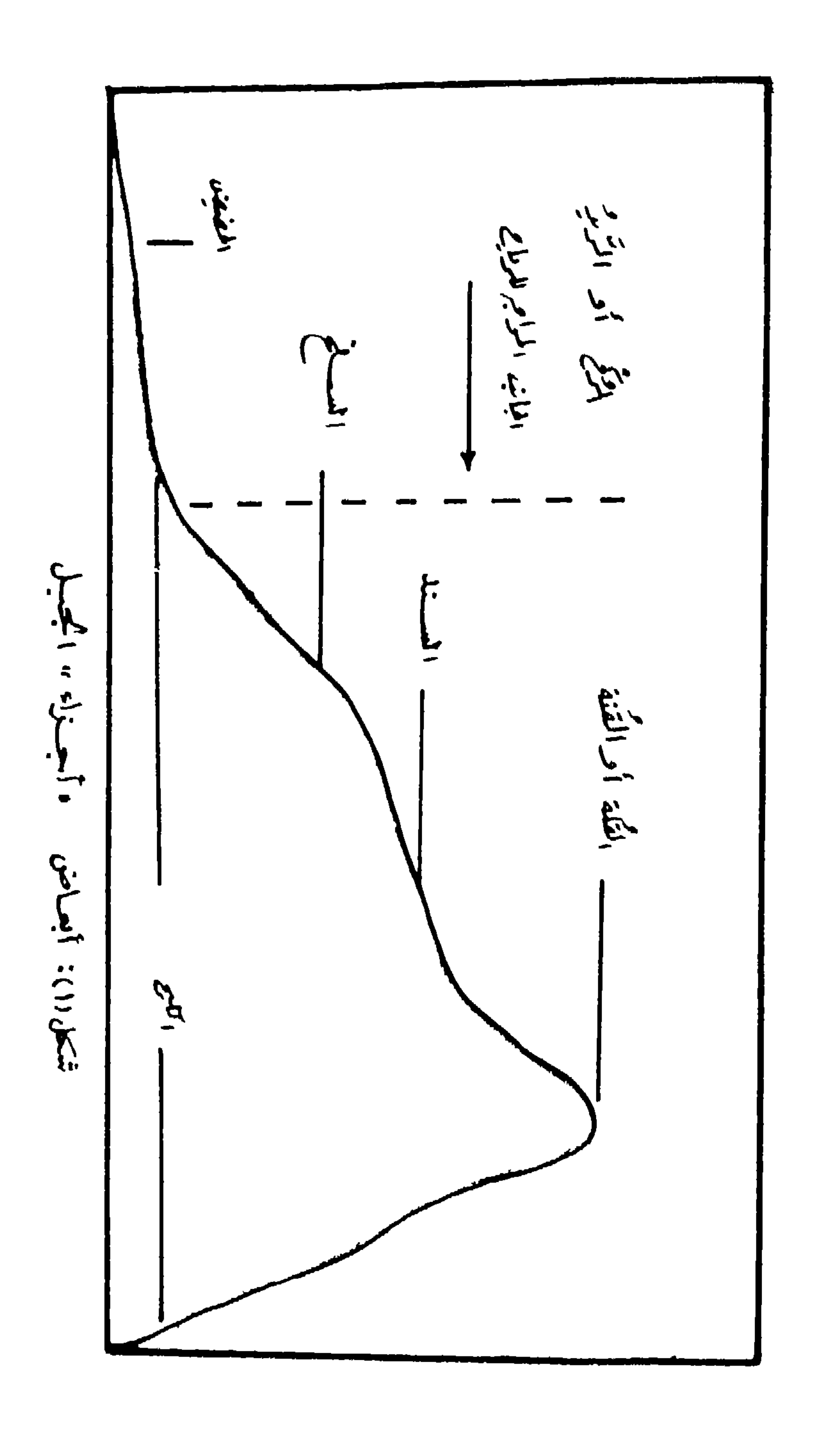
الحَيْدُ: جناح الجبل ويُعرف بالطُنُف.

الرُكْح والرَّيْد: جانب الجبل المعرَّض للرياح.

القُلة والقُنة: قمة مستديرة في أعلى الجبل.

الشَّعفَة: رأس الجبل.

بعض المصطلحات الأخرى التي استخدمها الجغرافيون العرب لوصف مظاهر تضاريسية وإرسابات سطحية مختلفة:



شكل (١): أبعاض «أجزاء» الجبل

١ ـ الدارات: هي كل ما اتّسع من الأرض وأحاط به الجبال[1]، وقد أحصى ياقوت الحموي نيفاً وستين دارة استخرجها من كتب العلماء المتقنة وأشعار العرب المحكمة[2].

٢ ـ الرَوْضة: هي الأرض التي تنخفض عما حولها فتستريض فيها المياه.

٣ ـ الأَمْعَزُ والـمَعْزَاء: الأرض الكثيرة الحصباء، وإذا كانت حجارتها كالسكاكين فهي الحَزِيزُ.

٤ ـ الـخَبْت: الأرض المستوية المتّسعة.

٥ ـ الـحِرَار: جمع حرة، وهي أرض ذات حجارة سوداء نخرة كأنها أحرقت بالنار، وقد ذكر النابغة الذبياني في أشعاره «حرة النار» وهي الحرة التي كانت لا تزال ثائرة حتى عهد الخليفة عثمان بن عفان وهي قريبة من المدينة، وكان آخر حدث بركاني شهدته شبه الجزيرة العربية في سنة ١٢٥٦م حين ثارت إحدى حرار شرقي المدينة لبضعة أسابيع[3].

٦ ـ البُرق: أطلق العرب على التكوينات الرملية الحصوية المختلطة التي تبرق بلون حجارتها تعبير البرق، وتنيف برق ديار العرب على مائة كما ذكرها الزبيدي[4].

٧ ـ النَفَانف: ما تطاوح من الأرض بارتفاع وانخفاض[5].

٨ ـ الـجَراثيم: ما لفّت الرياح إلى أصول الشجر من التراب.

المصطلحات الخاصة بالمستنقعات والمجاري المائية:

استخدمت في التراث العربي عدّة مصطلحات أطلقت على مستنقعات

---

(١) ألف الأصمعي فيها كتاباً وهو الدارات.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ٢، ص ص ٤٢٤ ـ ٤٣١ .

(٣) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت سنة ١٩٦٨، جـ ١، ص ١٤٧ .

(٤) الزبيدي، تاج العروس، طبعة دار ليبيا، بنغازي، جـ ٣، ص ص ٢١٣ ـ ٢١٥ .

(٥) الهمداني، صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، ص ٣٠٣ .

المياه، فإذا كان المستنقع في التراب فهو الحَسْي، فإذا كان في الطين فهو الوَقِيعة، وإذا كان في الرمل فهو الحَشْرَج، فإذا كان في الحجر فهو القَلْت، وإذا كان في الحصى فهو الثَّغب، فإذا كان في الجبل فهو الرَّدْهة.

وقسّم العرب المجاري المائية على النحو التالي:

أصغر الأنهار الفَلَجُ ثم الجَدْول أكبر منه قليلاً، ثم السَّرِي ثم الجَعْفر ثم الرَّبيع ثم الطَّبْعُ ثم الخَليج[1].

خامساً: المصطلحات الخاصة بعناصر المُنَاخ

تعد المصطلحات الجغرافية الخاصة بعناصر المُنَاخ أوفر مصطلحات التراث وأكثرها تنوُّعاً، ولم يستخدم العرب كلمة المناخ للدلالة على حالة الجوّ، وإنما المُنَاخ «بضم الميم» هو مبرك الإبل بإجماع المعاجم اللغوية العربية[2]. وهو اسم للمكان الذي تُناخ فيه الإبل، ويرى مؤلف الكتاب أن لفظ «المُنَاخ» (بضم الميم) قد تطوّر معناه وأصبح يدلّ على المكان أول الأمر، أو المنزل الذي ينزل فيه البدوي، وفي الحديث الشريف (منى مناخ منى منزل) ولما كان المطر والرطوبة والحرارة والبرودة عناصر ذات أهمية كبيرة في حياة البدوي وكانت أساس المفاضلة بين الأماكن التي تُناخ فيها الإبل، فإن العربي كان يقول (مناخنا مطير) أو (مناخنا رطب) أو (مناخنا حارّ أو بارد) أي مكان الإقامة مطير أو رطب أو حارّ حسب ما ورد في الأمثلة. ومن هنا عممت الكلمة وأصبحت تشير إلى حالة الجوّ بصفة خاصة، وهي أهم ما يهتمّ البدوي به[3]. ولست مع من ذهب

---

(١) الثعالبي، فقه اللغة، ص ص ٤١٦ - ٤١٧ .

(٢) الزبيدي (تاج العروس) ص ٢٨٤، الشيخ أحمد رضا (معجم متن اللغة)، ص ٥٧٠، ابن منظور (لسان العرب) المجلد الثالث، ص ٦٠ .

(٣) محمد محمود محمدين، بصمات البيئة الجغرافية في لغتنا العربية، مجلة الدارة، ربيع الأول سنة ١٣٩٦هـ (مارس ١٩٧٦م)، ص ١٢٤ .

إلى أن المناخ مشتق من (النّخة) وتعني المطر الخفيف [1] ويمكن أن تعالج مصطلحات التراث الخاصة بالمناخ وفق عناصره المختلفة على النحو التالي:

(أ) الحرارة[2]:

١ . الكلمات الدالّة على ارتفاع درجة الحرارة:

حر، حرور، صَيْهَد والصَيْهدان، القَيْظ، الأوار، الوَقدة، الهاجرة والهجير، الفَيْح (سطوع الحر)، الصَخْد (سكون الريح)، الدَمَه (شدّة حر الرمل)، التَهَم (شدّة الحر وركود الريح، وبه سُمِّيت تهامة).

٢ . الكلمات الدالّة على انخفاض درجة الحرارة:

البرد، الصِر، القُرّ، الزَمهرير (غاية البرد)، القَرْس، الصَقْعة (من الصقيع)، الصَرْد، الأرِيز (شدّة البرد).

٣ . الكلمات الدالّة على الاعتدال في الحرارة:

السَجْسَج (الهواء المعتدل بين الحر والبرد)، الطَلْق.

ب ـ الرياح:

عرف العرب الريح بأنها الهواء إذا تحرّك، أو نسيم الهواء، أو تموُّج الهواء، كما أن أمواج البحر ليست شيئاً سوى حركة الماء. وقد صنّف العرب الرياح وفق أُسس مختلفة كما يلي[3]:

---

(١) عبد الحي عبد الحق، نماذج حول إطلاق المصطلحات الجغرافية وتعريفها من خلال كتب الجغرافيين المسلمين، بحث قدم للمؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، الرياض، سنة ١٩٧٩م.

(١) ابن سيده (المخصص) المجلد الثاني، السفر التاسع، ص ٧٩، حسين يوسف موسى الإفصاح في فقه اللغة، جـ ٢ ص ٩٣٤ .

(٣) ابن سيده (المخصص) المجلد الثاني، السفر التاسع، ص ص ٨٣ ـ ٨٤، الثعالبي فقه اللغة، ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤، رسائل إخوان الصفاء، الرسالة الخامسة، طبعة بيروت ص ص ٦٥ ـ ٧١، الإفصاح في فقه اللغة، ص ص ٩٣٦ ـ ٩٤٠ .

١ ـ **إتجاه الريح:** صنّف الجغرافيون المسلمون واللغويون الرياح وفق الإتجاهات الآتية:

رياح الشمال أو الشمأل أو الشأمل أو الشمول أو الشامية، وهي الرياح التي تأتي من الشمال، رياح الجنوب وهي التي تأتي من الجنوب وتسمى كذلك التيمن، ورياح الدبور (الغربية) وتأتي من دبر الكعبة، ورياح الصبا (الشرقية) وتسمى كذلك القبول لأنها تقابل باب الكعبة، ويطلق على كل رياح تهبّ ما بين هذه الجهات الأربع السابقة (الشمال ـ الجنوب ـ الدبور ـ الصبا) النكباء(١). وعُرفت الرياح الشمالية الشرقية باسم النكيباء، والحَرْجف والصبابية، والرياح الجنوبية الشرقية باسم الأزْيب، والرياح الجنوبية الغربية باسم الداجن والهَيْف، والرياح الشمالية الغربية باسم النُعامي والجَرِبياء (شكل ٢).

وأما الرياح التي تهبّ من أسفل إلى فوق، فمنها تكون الزوبعة، وأما التي تهبّ من فوق إلى أسفل، فمنها الريح الصَرْصَر.

وأطلق العرب على الرياح التي لا تدوم على جهتها «الخَزْقاء» والمُتَذئِّبة، والمُتَنَاوحة.

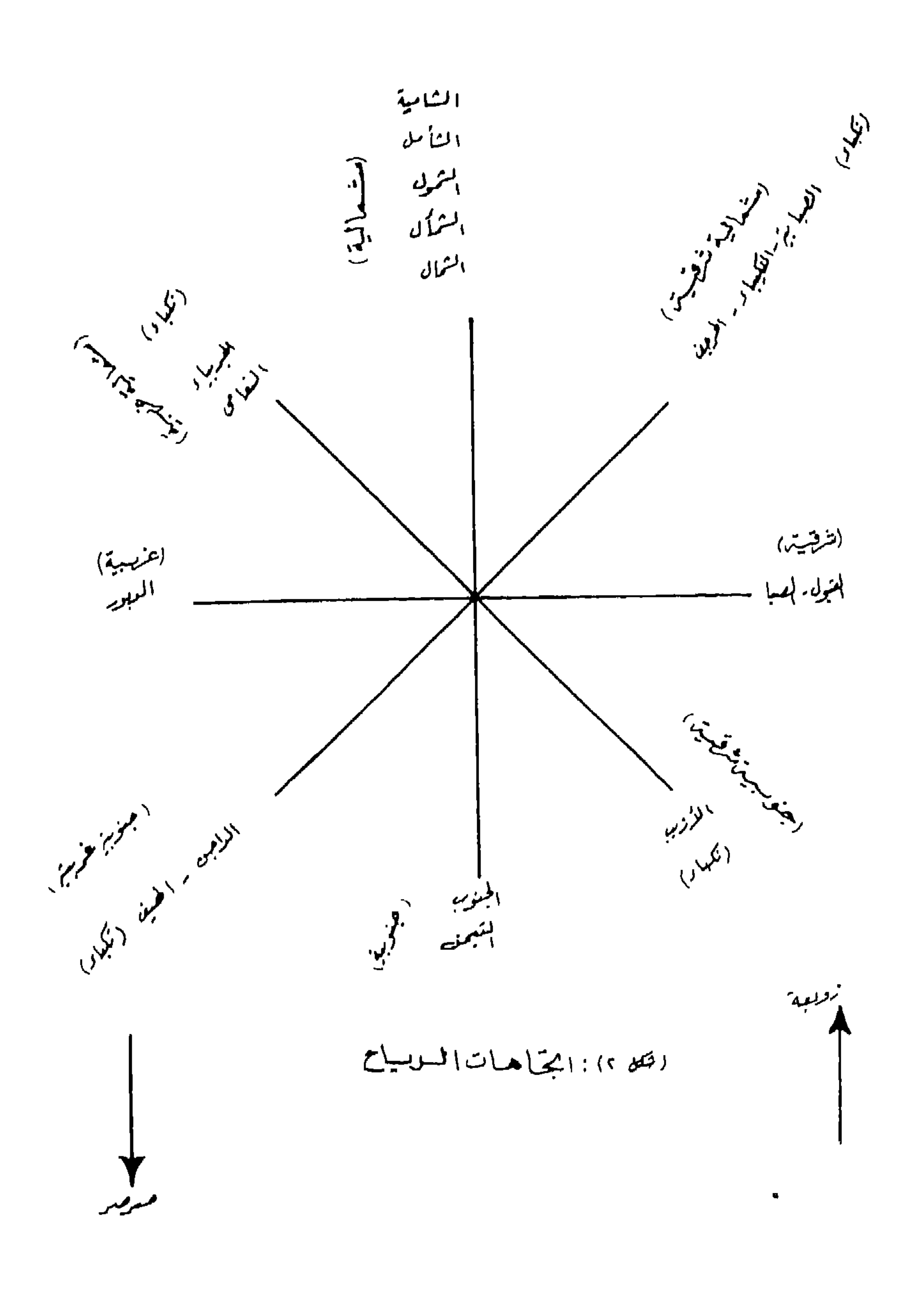
٢ ـ **حرارة الرياح:** حرارة الرياح أساس آخر اعتمد عليه الجغرافيون في تصنيف الرياح إلى رياح حارة، عُرفت باسم السموم، والحرور والشَّهَام، واللافحة، والسُعَار، والهَيْف تأتي من قبل اليمن.

وعرفت الرياح الباردة بأسماء عديدة منها: الحَرجَف، والصَرْصَر، والعَرَيَّة فإذا كان مع بردها ندى فهي البَليل، والحُرجوج وهي شديدة البرودة، والخَريق.

وعرفت الريح التي لا تحمل مطراً بالعَقِيم والتي تأتي بالمطر بالمُعْصرات والمُبشرات.

---

(١) هناك اختلاف في استخدام المصطلحات السابقة بين المصادر المختلفة واعتمدنا في ذلك على ما شاع استخدامه.



(شكل ٢) : اتجاهات الرياح

٣ ـ شدّة الرياح: أطلق العرب أسماء مختلفة على الرياح وفقاً لشدّتها، من هذه الأسماء: النّسيم، إذا جاءت بنَفَس ضعيف، وإذا كانت شديدة فهي العَاصف والسَّيْهوج، وإذا قلعت الخيام فهي الهَجُوم، وإذا قلعت الأشجار فهي الزَّعْزَعان.

٤ ـ الرياح كعامل نقل: الدَّاجِجة التي تجرُّ الشيء من موضع إلى موضع، الحاصب التي تحمل التراب، وعرفت الرياح التي تثير التراب وتجيء به المُؤتَفِكة، والعَجَّاجة، والسَوَافي والسَفْسَافة، والهجَاجة التي تدفن كل شيء بالتراب، أما الرياح التي تنحت وتقشر في الصخور فهي الساحِلة.

(ج) السحاب:

السحاب هو الغيم، سُمّي السحاب لانسحابه في الهواء، وقد أطلق العرب أكثر من مائة اسم وصفة على السحاب، وتناولت الأسماء والصفات مراحل تكوين السحاب، وأجزاءه، ووصفه، وقُربه أو بعده عن الأرض، والممطر منه وغير الممطر.

١ ـ مراحل تكوين السحاب: النشء هو أول ما ينشأ من السحاب[١]، فإذا انسحب في الهواء فهو السحاب، فإذا تغيّرت له السماء فهو الغمام، فإذا أقبل عليك وأخذ يعلو فهو الحَبِي وهو الذي يشرف على الأرض من الأفق، فإذا أظل السماء فهو العارض.

٢ ـ أجزاء السحاب: جاء في الحديث الشريف[٢] عن موسى بن إبراهيم التيمي عن أبيه عن جدّه قال: «بينا[٣] رسول الله صلى ﷺ ذات يوم جالساً مع أصحابه فقال: كيف ترون قواعدها؟ قالوا: ما أحسنها وأشدّ تمكّنها!

---

(١) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٤٠٥ .

(٢) أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، كتاب وصف المطر والسحاب، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق سنة ١٩٦٣م، ص ٤ .

(٣) أصل «بينا» بين أشبعوا فتحة النون فحدثت بعدها ألف، وهي ظرف زمان مثل بينما.

قال: وكيف ترون رحاها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استدارتها! قال: فكيف ترون بواسقها؟ قالوا: ما أحسنها وأشد استقامتها! قال كيف ترون برقها: أوَميضاً أم خَفْواً أم يشق شقاً[1]؟ قالوا: بل يشق شقاً، قال فكيف ترون جَوْنَها[2]؟ قالوا: ما أحسنه وأشدّ سواده! فقال ﷺ: الحيا[3]، فقالوا: يا رسول الله ما رأينا الذي هو أفصح منه، فقال: وما يمنعني، وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين.

تناول الحديث السابق أجزاء السحاب، وقد تعارف العرب على استخدام المصطلحات الآتية: (شكل ٣).

كِفَاف السحاب أسافله، وشَمَاريخ السحاب وبَوَاسقه أعاليه، وقواعده أركانه، ورحاه مستداره، الخِنذِيذ طرف السحاب، وطُرّة الغَنْيم أبعد ما يرى منه، السِقْط سقط السحاب ما يرى منه كأنه ساقط على الأرض، والهَيْدَب من السحاب ما يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة[4].

٣ ـ قرب السحاب أو بعده عن الأرض: استخدم العرب ألفاظاً عديدة كأسماء وصفات تطلق على السحب وفق ارتفاعها أو قربها من الأرض، مثل: المُسِف، وهو السحاب الذي تدانى من الأرض، وإذا دنى من الأرض ليلاً فقد عَشعَس ولا يكون إلا في الليل مع برق. والغِفَارة النَشاص والطَخاء، السحاب المرتفع، الرَّبَاب، السحاب المتوسط الارتفاع، وقيل إذا تعلق سحاب دون سحاب فهو الرباب.

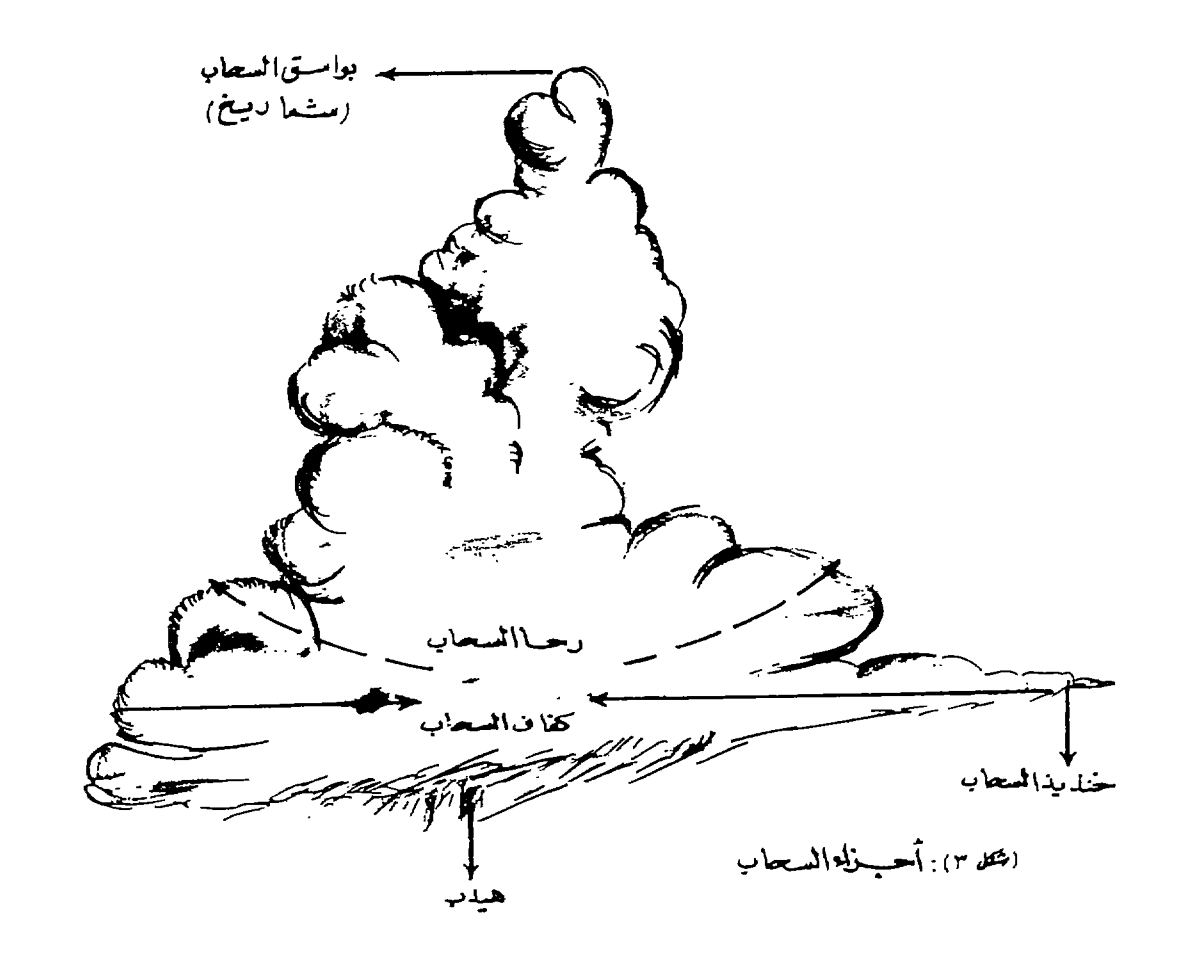
---

(١) خفا خفوا أي برقاً خفيفاً، يشق شقاً أي ظهر شديداً.

(٢) الجون: الأسود.

(٣) الحيا: ما تحيا به الأرض من الغيث.

(٤) الإفصاح في فقه اللغة، ص ٩٤١، فقه اللغة للثعالبي ص ٤٠٧ .



(شكل ٣): أجزاء السحاب

٤ ـ أوصاف السحاب من حيث مساحته وتراكيبه: الرَمِيّ: قطع من السحاب صغار دقاق قدر الكف أو أكبر شيئاً وإذا كانت السحاب متفرّقة فهي القَزَع، والصرمة القطعة من السحاب. والنَمِرة، القطعة من السحاب تراها كجلد النمر من غيم صغار تكاد تتصل، القَرَدُ قطع صغيرة من السحاب لم تلتئم بعد، الكِسفَة، وجمعها كسف، وهي قطعة السحاب العريضة، المُطبّق، ما يغطي الجوّ ويغشاه، والسُد ما سدّ الآفاق، الطَخْطَاخ، إذا التأم السحاب وعمَّ السماء. وإذا كان السحاب قطعاً متراكمة فهي الكِرْفيء، وإذا كان كالجبال فهي القَلَعُ والكَنَهَوَر[1]. وإذا كانت السحابة قطعاً مستدقة رقاقاً فهي الطخارير، وإذا كانت حولها قطع من السحاب فهي المُكلَّلة. فإذا غلظ السحاب وتركّب بعضه بعضاً فهو المُكفَهِرَ، وإذا تراكم السحاب بعضه فوق بعض فهو الرُكام.

٥ ـ ألوان السحب: الطخياء والمُتَطخْطِخَة، هي السحابة السوداء، إذا كان السحاب أبيض فهو المُزْن، والسحاب الأسود المتراكم يسمى المحمومي، وإذا كان الغيم رقيقاً لا يواري السماء فهو الكدرة، وإذا كان السحاب أغلظ من الكدرة فهو الطِرِمساء، ويعرف السحاب الرقيق بالرهل، والطحاء، والرَهَج، والرَباب. وقيل إن السحاب الذي به حمرة يعرف بالزِبرِج، والخَنتَم سحابات خضر تضرب إلى السواد[2].

٦ ـ أنواع السحب من حيث أمطارها وبروقها: إذا كان السحاب ذا ماء كثير فهو القَنيف، والمُزْنَة، واحدة المزن، السحاب ذو المطر الريّان، والمُعصِرات، السحائب ذوات المطر، والدلوح، السحابة المثقلة بالماء، والهَمُوم، صبوب للمطر، والوَطْفَاء، الدائمة المطر، والخَلُوج، كثيرة الماء والبرق.

أما إذا كانت السحابة قد تهيّأت للمطر فيه المُخيلة، والمُتَرهْيئة والسحاب المستمطر والخَلِق الذي يرجو أن يكون فيه مطر، والواعد كأنه يعد بالمطر. أما الجهَام والهف والجُلْب والهزمْ، فهو السحاب الذي لا ماء منه. أما

(١) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٤٠٦ .

(٢) الإفصاح في فقه اللغة، ص ٩٤٤ .

إذا هراق السحاب ماءه فهو النَجْر والجَفْل والعَماية. وتعرف السحابة ذات البرق بالبارق، والتي يستمر برقه ويتوالي بكثرة بالعَرَّاص.

٧ ـ **أنواع السحب من حيث سرعة تحرّكها:** الحَيِّر، السحاب الذي دام ولم يبرح مكانه، وكذلك الصِبَّير إذا ثبت ولم يبرح اليوم والليلة، وإذا رأيته يتثاقل كأنما يتراجع فقد تخزَّل، وإذا سار رويداً فقد تَرهْيأ، فإذا تحرّك واضطرب فقد تنَغَّض، وإذا تدانى وثقل فقد أرجحَنَّ[١].

(د) البروق والرعود:

البروق جمع برق، وهو الذي يلمع في الغيم، ويُقال له انكلال إذا أظهر سواد الغيم من بياضه، ويُقال أوشمت السماء إذا برقت برقاً يسيراً، وخَفَا البرق، يخفو إذا برق برقاً ضعيفاً، فإذا لمع لمعاً خفيفاً قيل لمح وأَوْمَض، فإذا تشقّق قيل انعقَّ انعِقّاقاً، وإذا اضطرب قبل ارتعَصَ البرق، فإذا ملأ السماء وتكشّف قيل: تَبَوَّج، وإذا كثر وتتابع قيل ارتعج. ويعرف أول ما يقع من غيث البرق بقريح البرق[٢].

أما الرعود، فهي جمع الرعد، وهو الصوت الذي يُسمع من السحاب، وتُقسم الرعود حسب شدّة الصوت على النحو التالي: رعدت السماء، فإذا زاد صوتها قيل أرزَمَت ودَوَت، فإذا اشتدّ قيل قَصفَت وقَعْقَعت، فإذا بلغ النهاية قيل هَدْهَدت وجلجلت. ويطلق على الرعد الذي يحدث قبل الأمطار اسم التخييل، ويُعرف صوت الرعد من بعيد باسم الأزيز، وأخفى، صوت للرعد يُعرف بالرَزيز. أما صوت الرعد الذي لا ينقطع فيُعرف بالأَرْنَان وقد أطلق العرب على قطعة النار التي تسقط من أثر الرعد اسم الصاعقة، وهي النازلة من الرعد التي لا تصيب شيئاً إلا أحرقته.

---

(١) المخصص، ابن سيده، المجلد الثاني السفر التاسع، ص ٩٤ .

(٢) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٤٠٩، والمخصص لابن سيده المجلد الثاني السفر التاسع، ص ١١٠ .

(هـ) التساقط[1]:

استخدم العرب مصطلحات متعدّدة مثل:

١ ـ الندى: وهو قطرات الماء الدقيقة التي تتكاثف على الأجسام العارية مثل الزروع والأحجار، والسَدَى، وهو الندى الذي يسقط أول الليل.

٢ـ الضباب: وهو سحاب يغشي الأرض بالغدوات وإذا كثف فهو السَدِيم، وقيل أيضاً إنه الضباب الرقيق.

٣ ـ الطَل: هو ما فوق الندى ودون المطر، وقيل إنه المطر الخفيف.

٤ ـ المطر: قسّم العرب المطر وفق ضعفه وقوّته على النحو التالي: الطل والرش والطَش والرذاذ والدّثَاث والرِك والضَرْب، وكل هذه الأسماء أُطلقت على المطر القليل الضعيف، أما المطر القوي الغزير فهو الجَوْد والوَبْل والهَاطِل والهَاتِل والهَتُون. ولا يتحتّم أن يكون ترتيب شدة المطر وغزارته على النحو الذي ذكرناه إذ أن بعض المصادر جعلت الجود أشدّ درجات المطر[2]، بينما جاء في مخصّص ابن سيده أن الوابل أشدّ من الجود[3].

وقد صنّف العرب الأمطار بحسب حجم قطراتها إلى: القِطْقِط من المطر الصغار كأنه شذر، والرِهمة من المطر الصغير القطر مع دوامه، والهَمِيمة، مطر ليّن دقاق القطر، والوَابل، المطر الشديد الضخم القطر، والقُطار، غيث عظيم القطر.

ويقسم المطر من حيث استمراره إلى المِدْرار والدَرُور الذي يتبع بعضه بعضاً، والديمة، مطر يدوم أياماً مع سكون بلا رعد، وقيل أقل وقت الديمة ثلث يوم، ويطلق على المطر الذي يدوم خمسة أو ستة أيام العَيْن، وإذا كان

---

(١) يقصد بالتساقط جميع صور تكاثف الماء من ندى وضباب وأمطار وغيرها.

(٢) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٤٠٨ .

(٣) ابن سيده، المخصص، مصدر سبق ذكره، ص ١١٤ .

المطر الدائم عظيم القطر أطلق عليه الأهضوبة أو الهَضْبة. وإذا كان المطر صباً متتابعاً عُرف باسم السُحوح، وإذا كان المطر دائماً وضعيفاً أطلق عليه الرِهْمة. وصنّف العرب المطر من حيث شدّة تأثيره في الأرض إلى: الحَريصة التي تؤثر في وجه الأرض، والساحية والسَحِيفة، هي المطرة التي تجرف ما مرّت به، والمطر المائش، هو الذي يزيل ما على متن الأرض من تراب وغبار. والسَاحية والقُشْرة، هي المطرة الشديدة التي تقشر وجه الأرض، والمطر الداحي، الذي يدحي الحصى عن وجه الأرض[1].

وصنّف العرب المطر وفق زمن سقوطه إلى: الوَسِمِي أول المطر، ثم الذي يليه الوَلِيّ ثم الربيع ثم الصَّيف ثم الحميم، وقد ذكر الثعالبي عن أبي عمرو والأصمعي أن أول ما يبدو المطر في إقبال الشتاء فاسمه الخريف، ثم يليه الوسمي، ثم الربيع، ثم الصميم، ثم الحميم[2]. وذكر بعض الباحثين أن الوسمي أول مطر، والعَهْد أول مطر الوسمي، والهَلَل أول المطر، والرَصَد هو المطر يقع أولاً لما سيأتي[3].

سادساً: المصطلحات التراثية الخاصة بالبحار

أطلق على البحر أسماء عديدة منها:

البحر: لاستبحاره أي اتّساعه[4].

اليم، والخضم، والطيش، والطَيسَل، والعَيْلَم، والقاموس، والقمّيس.

وأطلق علىساحل البحر أسماء عديدة، ويقال إنه سمّي ساحل البحر لأنه سحل الشاطيء، أي قشّره[5]، كما أطلق عليه السيف، والعِرَاق، وبه سمّي العراق، وهو ساحل البحر طولاً، والشَرِير.

---

(١) ابن سيده، المخصص، مصدر سبق ذكره، ص ١١٥ .

(٢) الثعالبي، فقه اللغة، ص ٤١١ .

(٣) حسين يوسف، الإفصاح في فقه اللغة، ص ٩٥٤ .

(٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ ١، ص ٣٤١ .

(٥) الإفصاح، جـ ٢، ص ٩٧٣ .

ومن المصطلحات الأخرى الخاصة بجغرافية البحار التي وردت في التراث:

الخليج، والشرم وهو الخليج من البحر، والخَوْر وهو عنق من البحر يدخل في الأرض، وقيل هو مصبّ الماء من البحر، والغُبّ هو لسان من البحر يمتد داخل اليابس.

ووصف الجغرافيون امتداد البحر قديماً بصفات متعددة[1] فيقولون يمتد كالقُوارة، وكالشّابروة وكالطيلسان، ويوضح هذه الصفات (شكل ٤).

أسماء البحار في كتب التراث:

١ ـ البحر المحيط: وهو البحر المحيط بالدنيا أجمعها، كإحاطة الهالة بالقمر (شكل ٥)، وعُرف «بالأوقيانوس» وعُرف كذلك بالبحر الأكليلي، ويخرج منه شعبتان إحداهما بالمغرب، والأخرى بالمشرق، فأما التي بالمشرق فهي: بحر الهند، والصين وفارس واليمن والزنج[2]، والشعبة الأخرى التي بالمغرب، تخرج من عند سلا فتمرُّ بالزقاق الذي بين البر الأعظم من بلاد بربر المغرب وجزيرة الأندلس، وتمرُّ بأفريقيا إلى أرض مصر والشام والقسطنطينية[3].

وذكر شيخ الربوة شمس الدين الدمشقي (المتوفي سنة ٧٢٧هـ)[4] أن الماء المحيط بالأرض هو جرم بسيط مشف طبعه أن يكون بارداً رطباً متحركاً إلى المكان الذي يكون تحت كرة الهواء وفوق الأرض، وهو البحر المحيط الذي منه مردُّ سائر البحار، ولا يُعرف له ساحل، وله أسماء من الجهات سمّاه بها اليونان ومَن قبلهم. فاسمه في الجهة المغربية أوقيانوس والبحر الأخضر[5] وفي

---

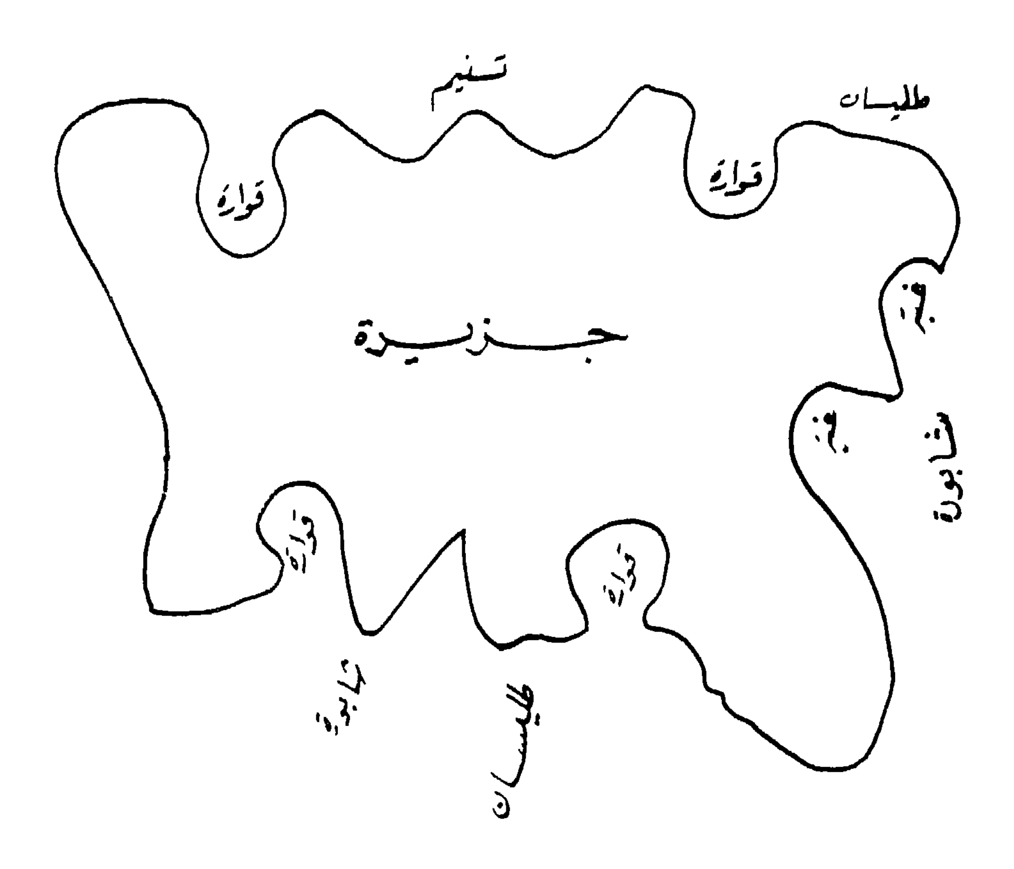
(١) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص ١٩ .

(٢) يقصد بهذه الشعبة التي بالمشرق المحيط الهندي وما تفرع عنه من بحار وخلجان.

(٣) قصد بهذه الشعبة المحيط الأطلسي واعتبر البحر المتوسط وبحر إيجة ألسنة منه.

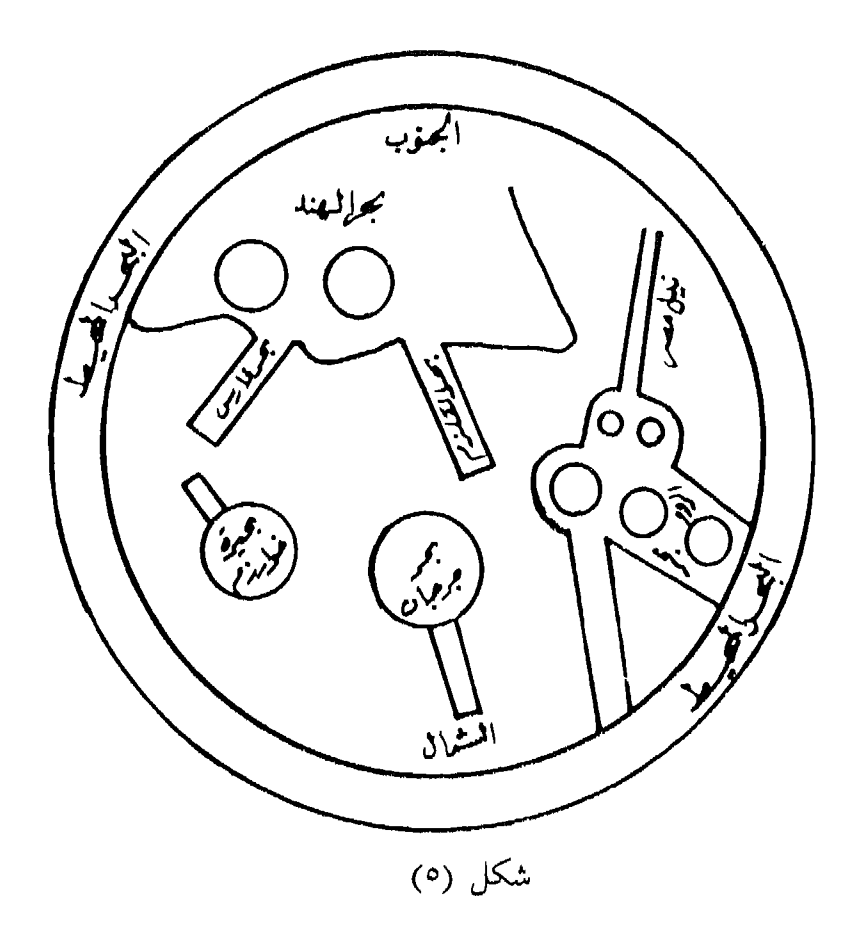
(٤) شمس الدين أبي عبد الله الدمشقي، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة مكتبة المثنى، بدون تاريخ طبع، ص ١٢٧ .

(٥) المحيط الأطلسي.



تسنيم
طيلسان
قوارة
قوارة
جزيرة
قرن
قرن
شابورة
قوارة
قوارة
شابورة
طيلسان

شكل (٤)



شكل (٥)

المصدر : ياقوت الحموي جـ١ ص٣٤٦

جهة جنوب الأرض والمشرق بحر الظلمات والبحر الزفتي والجامد... وفي الشمال والغرب بحر الظلمة وبحر ورنك. وقد عرف البحر المتوسط باسم بحر الروم كما عُرفت أجزاؤه المختلفة بأسماء السواحل التي تمرُّ عليها مثل بحر طنجة وبحر أفريقيا وبحر الإسكندرية وهكذا.

وفيما يلي بعض أسماء البحار التي وردت في التراث وفي مقابلتها الأسماء الحالية:

بحر القُلزم: البحر الأحمر.

بحر بنطس: البحر الأسود ويطلق عليه بحر البرغر.

بحر مايطس: بحر آزوف.

بحر ماوطس: بحر آزوف.

بحر جرجان أو الخزر: بحر قزوين.

بحر خوارزم: بحر آرال.

بحر هرقند: خليج البنغال (جزء من المحيط الهندي).

بحر لاروي: البحر العربي.

بحر الهند: المحيط الهندي.

بحر الزنج ـ بحر الحبش: المحيط الهندي المجاور لساحل أفريقيا الشرقي.

بحر ورنك: بحر البلطيق تقريباً.

بحر البنادقة: البحر الأدرياتي.

بحر الزقاق: مضيق جبل طارق.

وأطلق المسعودي[1] اسم البحر الحبشي على: بحر الصين والسند والهند والزنج والبصرة واليمن وأيلة والقلزم من بلاد مصر والحبشة. وهو بذلك يتمثّل

(١) أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي، التنبيه والإشراف عني بتصحيحه ومراجعته، عبد الله إسماعيل الصاوي، القاهرة سنة ١٩٣٨، ص ٤٦ .

في المحيط الهندي، والخليج العربي وخليج عدن والبحر الأحمر وبحر العرب، وأجزاء من المحيط الهادي.

أما البحر الخزري (بحر قزوين) فهو بحر الباب والأبواب وأرمينية وآذربيجان وآبسكون، ويسمى كذلك بالبحر الخرساني لاتصاله ببلاد خوارزم من أرض خراسان.

بعض المصطلحات التراثية الخاصة بالملاحة

١ ـ بيت الإبرة أو الحقة (البوصلة Boussola):

استخدم الملاحون العرب في القرن الخامس عشر لفظ (بيت الإبرة) و (الديرة) و (الحقة) للدلالة على البوصلة. والبوصلة كلمة إيطالية تعني (الصندوق أو الحق) وقد استخدمت للدلالة على البوصلة التي تُعرف بها الاتجاهات، ويُنسب ابتكار البوصلة إلى إيطالي يدعى فلافيو جيولا Flavio Giola في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

ويعتقد بعض الباحثين أن كلمة الحق انتقلت من العربية إلى إيطاليا وتُرجمت إلى بوصلة، وقد ذكر ابن ماجد في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي «ومن اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحق بنفسه ولنا فيه حكمة كبيرة لم تودع في كتاب»[1].

أما لفظ «قمباص» و «قنباص» فهو تعبير يوناني استخدم للدلالة على الخرائط الملاحية، كما ذكر ابن خلدون في مقدمته وذلك بالنسبة للخرائط التي بينت عليها اتجاهات الرياح وممرّاتها والمواني.

٢ ـ الاسطرلاب:

جهاز يستخدم لقياس زاوية ارتفاع الأجرام السماوية، وبالتالي تحديد

(١) أنور عبد العليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت سنة ١٩٧٩م، سلسلة عالم المعرفة، ص ص ١٦٩ ـ ١٨٩ .

درجة عرض المكان، وهو عبارة عن قرص مقسّم إلى ٣٦٠° ، وقد ابتكره اليونانيون في القرن الثاني الميلادي بمدرسة الإسكندرية، وقد طوّره العرب وأدخلوا عليه تحسينات كبيرة.

٣ ـ النوتي:

الملاّح الذي يدير السفينة ومنه نواتين.

٤ ـ الناخذاه:

كلمة فارسية تعني صاحب السفينة من ناو = سفينة، وخدا = سيد.

٥ ـ إشتيام . استيام:

رئيس الملاّحين.

٦ ـ فنجري:

مراقب أحوال الطقس، وله مكان على الصاري يجلس فيه.

٧ ـ قراني:

مراقب حسابات المركب.

٨ ـ راهنامج :

مرشد بحري.

بعض أسماء السفن التي استخدمها الجغرافيون المسلمون:

١ ـ الفلك:

السفينة العظيمة.

٢ ـ العدولية:

السفينة الكبيرة نسبة إلى ميناء قرية في البحرين، أو نسبة إلى ميناء أفريقي قديم اسمه أدوليس Adulis[1].

٣ ـ الخلية:

السفينة الكبيرة.

٤ ـ الحدج:

من مراكب النساء.

٥ ـ القرقور:

السفينة المستطيلة.

٦ ـ هناك أسماء أخرى لأنواع متباينة من السفن:

مثل الصندل، والزنبري، والغراب والبوصي. وأما الشواني، والشلنديات، والحرابي، والحراريق والطرائد فهي سفن حربية.

---

(١) أنور عبد العليم، المرجع السابق، ص ٢٤ .

أهم المصادر والمراجع

أولاً - المصادر:

١ - ابن بطوطه (أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي): رحلة ابن بطوطه، المسمّاة تحفة النظار في غرائب الأمصار، وعجائب الأسفار، طبعة كتاب التحرير، سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٦م).

٢ - ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد): رحلة ابن جبير، تحقيق الدكتور حسين نصار، دار مصر للطباعة، سنة ١٩٥٥م.

٣ - ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): كتاب صورة الأرض، ليدن، سنة ١٩٣٨، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٢م.

٤ - ابن خرداذبه (أبو القاسم عبد الله بن خرداذبه): المسالك والممالك، طبعة المثنى، بغداد.

٥ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، في أربعة أجزاء، القاهرة، سنة ١٩٥٧م.

٦ - ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس أحمد): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، طبعة القاهرة، سنة ١٢٧٥هـ.

٧ - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر): كتاب الأعلاق النفيسة، الجزء السابع من المكتبة الجغرافية العربية، تحقيق دي خويه، ليدن، سنة ١٨٨١-١٨٨٢م.

٨ - ابن سيده (الحافظ أبو الحسن): المخصص، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، بدون سنة طبع.

٩ - ابن الفقيه الهمداني (أبو بكر أحمد بن محمد): مختصر كتاب البلدان، الجزء الخامس، المكتبة الجغرافية العربية، ليدن، سنة ١٨٨٥م.

١٠ - ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم): كتاب الأنواء، طبعة حيدر أباد، سنة ١٣٧٥هـ.

١١ ـ ابن ماجد (شهاب الدين أحمد بن ماجد النجدي): كتاب الفوائد في علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري، وعزّة حسن، دمشق، سنة ١٣٩٠هـ.

١٢ ـ ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، طبعة الحلبي، بدون تاريخ.

١٣ ـ أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل بن نور الدين): كتاب تقويم البلدان، طبعة مدينة باريس، سنة ١٨٤٠م.

١٤ ـ أبو بكر الأزدي (أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد): وصف المطر والسحاب، تحقيق عز الدين التنوخي، دمشق، سنة ١٩٦٣م.

١٥ ـ إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء: رسائل إخوان الصفاء، خمسة مجلدات، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٥٧م.

١٦ ـ الاصطخري (أبو إسحق إبراهيم محمد): المسالك والممالك، تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني، القاهرة، سنة ١٩٦١م.

١٧ ـ البغدادي (موفق الدين عبد اللطيف): كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، القاهرة، سنة ١٨٧٠م.

١٨ ـ البكري (أبو عبد الله بن عبد العزيز): معجم ما استعجم، تحقيق مصطفى السقا.

١٩ ـ البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر: كتاب فتوح البلدان، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجّد، في ثلاثة أجزاء، القاهرة، سنة ١٩٥٧م.

٢٠ ـ البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد): الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة ليبزج، سنة ١٩٢٣م.

٢١ ـ الجاحظ (أبو عثمان عمرو): كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، سنة ١٩٦٥.

٢٢ ـ الجرجاني: التعريفات، طبعة سنة ١٨٤٥م.

٢٣ ـ الحميري (محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، سنة ١٩٧٥.

٢٤ ـ الدمشقي (شمس الدين أبو عبد الله بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، طبعة مكتبة المثنى، بغداد.
٢٥ ـ الزبيدي (السيد محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس، طبعة دار ليبيا، بنغازي.
٢٦ ـ الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان): إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٩٤٩م.
٢٧ ـ القزويني (زكريا بن محمد بن محمود): عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
٢٨ ـ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، سنة ١٩٦٠م.
٢٩ ـ القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، سنة ١٩١٣- ١٩١٥م.
٣٠ ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٨م.
٣١ ـ (المسعودي): التنبيه والاشراف، طبعة بيروت، سنة ١٩٦٧م.
٣٢ ـ المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة دي خويه، ليدن، سنة ١٩٠٦م.
٣٣ ـ المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، سنة ١٩٥٧م.
٣٤ ـ النويري (شهاب الدين): نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب المصرية، سنة ١٣٤٢هـ.
٣٥ ـ النهروالي (قطب الدين محمد بن أحمد): البرق اليماني في الفتح العثماني، منشورات دار اليمامة، سنة ١٩٦٧م.
٣٦ ـ الهروي (أبو الحسن علي بن أبي بكر): كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق جانين سورديل طومين، دمشق، سنة ١٩٥٣م.
٣٧ ـ الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب): صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، الرياض، سنة ١٣٩٤هـ.

٣٨ ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): كتاب البلدان، طبعة ليدن، سنة ١٨٩٠م.

٣٩ ـ سهراب: كتاب عجائب الأقاليم السبعة، تحقيق هانس فون مزيك، فينا، سنة ١٣٤٧هـ.

٤٠ ـ ناصر خسرو (ناصر خسرو علي): سفر نامه، نقلها إلى العربية، الدكتور يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، سنة ١٩٧٠م.

٤١ ـ ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي): معجم البلدان، خمسة مجلدات، طبعة بيروت، سنة ١٩٥٥م.

ثانياً ـ المراجـع:

١ ـ أحمد (نفيس): جهود المسلمين في الجغرافيا، ترجمة فتحي عثمان، الكويت، سنة ١٩٧٩.

٢ ـ الأفغاني (سعيد): أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، دمشق، سنة ١٩٦٠م.

٣ ـ الشحات (علي أحمد): أبو الريحان البيروني، دار المعارف، سنة ١٩٧٦م.

٤ ـ الغنيم (عبد الله يوسف): مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، الكويت، سنة ١٩٧٤م.

٥ ـ حسن (زكي محمد): الرحّالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٤٥م.

٦ ـ حميدة (عبد الرحمن): أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، سنة ١٩٨٠م.

٧ ـ خصباك (شاكر): في الجغرافيا العربية، بغداد، سنة ١٩٧٥م.

٨ ـ عبد العليم (أنور): الملاحة وعلوم البحار عند العرب، الكويت، سنة ١٩٧٩م.

٩ ـ علي (جواد): تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، سنة ١٩٦٨م.

١٠ ـ عيسى (أحمد): تاريخ النبات عند العرب، القاهر، سنة ١٩٤٤م.

١١ ـ سوسه (أحمد):العراق في الخوارط القديمة، بغداد، سنة ١٩٥٩م.

١٢ ـ الشريف الإدريسي في الجغرافيا العربية، بغداد، سنة ١٩٧٤م.

١٣ ـ كراتشكوفسكي (اغناطيوس يوليانوفتش): تاريخ الأدب العربي، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة، سنة ١٩٦١م. (جزءان).

١٤ ـ مؤنس (حسين): تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة ١٩٦٧م.

١٥ ـ منتصر (عبد الحليم): تاريخ العلم ودور العرب في تقدّمه، دار المعارف،

مصر، سنة ١٩٧٣م.

١٦ - ميتز (آدم): الحضارة الإِسلامية، المجلد الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون سنة طبع.

١٧ - نلينو (كرلو): علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، روما، سنة ١٩١١م.

١٨ - الورقي (السعيد): في مصادر التراث العربي الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإِسكندرية، سنة ١٩٧٩م.

ثالثاً ـ أهم المراجع الأوربية:

(1) Brice, William, C., An Historical Atlas of Islam, E.J. Brill. Leiden, 1981.

(2) Dunlop. D.M., Arab Civilization to A.D. 1500, Beirut, 1971.

(3) Fischer, Eric&Campbell, R.D. and Miller, E.S., a Question of Place, Arlington, Virginia, 1969.

(4) Hourani, A.H., The Islamic City, Bruno Cassirer, Oxford and University of Pennsylvania Press, 1970.

(5) James, Preston, All Possible Worlds New York, 1972.

(6) Rumney, Roger, Climatology and the Worlds' Climates, London, 1970.

(7) Tarbuk, Edward, and Frederick. K., Earth Science, Ohio, 1976, P. 162.

(8) Tibbets, G.R., Arab Navigation in the Indian Ocean Before the Comming of the Portuguese, London, 1971.

ـ الفهرس ـ

الفصل الأول
مباحث عامة في التراث الجغرافي الإسلامي

الفصل الثاني
بعض الأفاق الجغرافية الإسلامية

الموضوع | الصفحة

الفصل الثالث

ثالثاً: جغرافية الرحلات

رابعا: المعاجم الجغرافية

الفصل الرابـع

خامساً: الخرائط في التراث الجغرافي الإسلامي

الموضوع | الصفحة

الفصل الخامس

الفصل السادس
ثانياً: الجغرافيا البشرية في كتب التراث

الفصل السابع
سادساً: الجغرافيا الاقتصادية

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن
ثالثاً: جغرافية العجائب والغرائب